

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 46 - November 2002 مجلة شهرية . العدد السادس والأربعون . السنة الرابعة . نوفمبر ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

ثورة يوليو : خمسون عاما

محمد حسنين هيكل

الساعة تدق منتصف الليل !



مكتبة الإسكندرية لم تكن يونانية.. وعمرو بن العاص لم يحرقها!

أحمد عثمان / نسيم مجلى

شتيمة العرب أو المسلمين .. تضمن التهليل لك فى الغرب

جلال أمين

الكتب فى عالم بلا قراء!

يوستين جوردار

«نون» : الصعود إلى الغابة السوداء

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد السادس والأربعون
نوفمبر ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

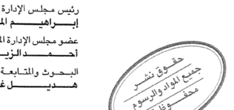
محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



كتاب العدد:

- إبراهيم عبدالجليل.. رئيس جهاز تخطيط الطاقة والرئيس السابق لجهاز شئون البيئة.
- أحمد عثمان .. باحث فى التاريخ المصرى القديم.
- أنطونى كوردسمان.. أستاذ كرسى «أرلى ديرك» فى الاستراتيجية.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- ريتشارد راسل .. محلل سياسى وعسكرى، وأستاذ فى جامعة الدفاع الوطنى.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- عفاف عبد المعطى.. باحثة فى الأدب المقارن بجامعة القاهرة.
- فتح الله الشيخ .. أستاذ علم الطبيعة بجامعة جنوب الوادى.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد عبد الرحمن يونس .. محاضر فى جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- ناصر الرباط.. أستاذ العمارة الإسلامية بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T).
- نبيل حنفى محمود .. أستاذ بكلية الهندسة ـ جامعة المنوفية.
- نسيم مجلى.. ناقد أدبى.
- يوستين جوردر.. روائى نرويجى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة ـ محمد حاكم ـ أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

يوستين جوردر
القصة والقاص

بينما هو ينظر من النافذة منتظرًا وصول أخيه المولود الجديد، متأملاً السماء والنجوم والكواكب، رأى جو شهابًا ساطعًا يسقط من السماء، فنظر فى الحديقة ليرى صبيًا صغيرًا يتدلى من شجرة التفاح.. كان ذلك هو ميكا.

سقط «ميكا» من مركبة فضاء، وتعلق على شجرة تفاح فى حديقة «جو».

من الصعب أن نعرف من منهما كان أكثر اندهاشًا بهذا اللقاء من الآخر.

ولكنهما، بعد أن تعارفا، اكتشفا مدى التشابه بينهما، وراح كل منهما يحكى للآخر عن الحياة على كوكبه: كيف بدأت؟ وكيف تطورت؟

وعندما اختفى «ميكا»، بالغموض نفسه الذى ظهر به، وجد «جو» بدلاً منه أخًا مولودًا جديدًا.. مندهشًا من كل شىء على الأرض، مثل اندهاش ميكا تمامًا.

إنها قصة مثيرة للتخيل والتأمل، تحث على مناقشة الآراء الجديدة والأفكار غير التقليدية.. وتثير الاهتمام بالقضايا والنظريات العلمية، وتفتح لهم آفاقًا على العالم من حولنا، وعلى مجالات أساسية للمعرفة العصرية، وتدعو إلى محاولة كشف الجديد منها، ومعرفة المزيد عنها.

ليس من الضرورى أن يوافق القارئ على كل ما جاء بها من معلومات وآراء، وإنما المهم أنها تثير العقل، وتبعث على التفكير، وتساعد على تصور وجهات النظر المختلفة، وتوجه إلى بحث الاحتمالات الكثيرة للقضايا والنظريات المطروحة..

والقصة تقدم بإلحاح دعوة للتفكير والتأمل وتحليل الأمور والمناقشة والحوار لنعرف أنه لا يوجد شىء غير عادى فى هذا الكون لأن كل ما فى هذا الكون هو جزء من سر الوجود، يلخص ميكا القادم من الفضاء نتيجة تأمله ومناقشاته فى عبارة واحدة واضحة: «أعتقد أن من لا يؤمن بخالق لهذا الكون.. يفتقد حاسة من الحواس.. حاسة فى غاية الأهمية».



القصة (ترجمتها إلى العربية «دار الشروق»)، والمفترض أنها موجهة للأطفال، تحمل عنوان: «مرحبا.. هل من أحد هناك».

والقاص هو «يوستين جوردر» الكاتب النرويجى الشهير صاحب الرواية الأشهر «عالم صوفى» (ترجمت إلى خمس وأربعين لغة، وتحولت إلى فيلم سينمائى.. ويهتم بها ٨٨٧٠ موقعا على الإنترنت).

وجوردر، معلم الفلسفة السابق وهو أحد أشهر المؤلفين الإسكندنافيين المعاصرين، ولعله أكثرهم ثراء أيضاً فروايته «عالم صوفى» والتى اعتبرت من أكثر الروايات العالمية رواجاً، وزعت عشرين مليون نسخة ودارت صناعة كاملة حولها، سينمائيا وغنائيا، وحتى فى عالم الألعاب، والأسطوانات المدمجة، أصبح هناك عالم كامل للآنسة صوفى.

ويغزل جوردر عادة خيوط رواياته الخيالية بمعان فلسفية عميقة. فتحت اسم «عالم صوفى» مثلا تقرأ «رواية عن تاريخ الفلسفة». و تبدو الرواية أحيانا أقرب لدراسة مبدئية عن الفكر الفلسفى الغربى أكثر من كونها مجرد رواية. إلى حد أنها أصبحت مرجعاً شائعاً لدراسات الفلسفة الجامعية. الأمر الذى لا ينطبق عادة على الروايات الخيالية كما نعرفها. وبالرغم من هذه المواصفات غير المعتادة فى كتابة روايات جوردر، أو ربما بفضلها لاقت كتبه شيوعاً مذهلاً فى وطنه النرويج، وفى العديد من البلاد حول العالم..

الشهرة الكبيرة التى لاقاها كتاب عالم صوفى توضح بجلاء أن الرغبة فى فهم كل التساؤلات الجوهرية للكون ليست حكراً على مثقفى الأبراج العاجية وحدهم. ففى الرواية تلج بنا صوفى، الفتاة الصغيرة، دون أن نحس. فى حوار عن الفلسفة مع محادث خفى. فى الوقت نفسه الذى يجب عليها فيه أن تحل لغزا خاصًا بفتاة أخرى «هيلد» بمساعدة كل ما تتعلمه. حيث يتضح لها فى النهاية أن «الحقيقة» أكثر تعقيداً بكثير مما كانت تتخيل.

وطريقة جوردر فى الكتابة أيضاً قليلة الشيوع فهو يكتب قصصه عادة من وجهة نظر مراهق: صوفى أماندزن فى الرابعة عشرة، هانز توماس (بطل رواية لغز الماس) فى الثانية عشرة. كما أن العديد من رواياته موجهة بشكل ما للأطفال (مثل قلعة الضفدع The Frog Castle، و مرحبا.. هل من أحد هناك؟ (Hello? Is Anybody There?).

ولد يوستين جوردر فى أوسلو، النرويج فى عام ١٩٥٢، وكان لعمل والديه دور فى اهتمامه بالكتابة والتدريس، فكان أبوه ناظر مدرسة، وأمه معلمة ومؤلفة كتب أطفال.

تخرج جوردر فى جامعة أوسلو حيث درس اللغات وعلم اللاهوت وبعد زواجه فى عام ١٩٧٤ بدأ فى الكتابة مساهماً فى العديد من مراجع الفلسفة وعلم اللاهوت. ثم انتقلت عائلته إلى برجن فى عام ١٩٨١ حيث بدأ العمل فى تدريس منهج الفلسفة الخاص بالتعليم الثانوى وهى الوظيفة التى بقى فيها لعدة سنوات.

نشرت أول مؤلفاته الروائية عام ١٩٨٦ وكانت تحمل اسما غير مألوف The Diagnosis and Other Stories وتبعها كتابين للأطفال (The Children from Sukhavati 1987 وقلعة الضفدع ١٩٨٨) قبل نشر «لغز الماس» The Solitaire Mystery عام ١٩٩٠، وهى الرواية التى فازت بجائزة نقاد الأدب النرويجيين وجائزة وزارة الثقافة والعلوم الأدبية.

ثم جاءت عالم صوفى Sophie's World فى عام ١٩٩١ لتحقق نجاحاً منقطع النظير. فلثلاث سنوات متتالية بقيت هى الرواية الأكثر مبيعاً فى النرويج، وتكرر النجاح تقريباً فى كل بلد ظهرت فيه. (حتى الآن نشرت الرواية فى ٤٥ لغة مختلفة، وكانت الكتاب الروائى الأكثر مبيعاً فى العالم فى ١٩٩٥، وهو نجاح مذهل بالنسبة لكتاب هو فى الفلسفة وإن كان فى شكل رواية.)

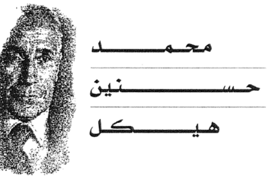
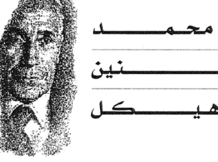
مكن نجاح عالم صوفى جوردر من أن يتفرغ للكتابة كما مكنته من التبرع لأوجه الخير. فى عام ١٩٩٧ أسس جوردر وزوجته سيرى دانفج مؤسسة صوفى «لخلق عالم أفضل». وتمنح المؤسسة جائزة سنوية هى «جائزة صوفى» وقيمتها مائة ألف دولار إلى شخص أو مؤسسة تقوم بدور ريادى، أو تقوم بشكل مبدع بالتفكير فى بدائل للتنمية الحالية، أو تقوم بوضع هذه البدائل موضع التنفيذ.

جوردر الذى ينشر كتاباً جديداً كل عام أو عامين ويعيش مع زوجته وابنيهما فى أوسلو، دعى منذ أسابيع لإلقاء محاضرة فى مدينة بازل السويسرية بمناسبة مرور خمسين سنة على تأسيس المجلس الدولى لكتب الناشئة. و«وجهات نظر» تنشر فى هذا العدد الأفكار المثيرة للاهتمام التى عرضها جوردر فى محاضرته، والتى اختار لها عنوانا: «الكتب فى عالم بلا قراء»!!

وجهات نظر

ثـــورة يوليـــــو: خمســـــــون عـــــامـــا

السؤال الأول: هـــل كـــانت الثـــورة لازمـــة؟

محمـــــد
حســـــنين
هيـــكل

الساعة تدق منتصف الليل؟



١ «رجـل الساعـة مستعـد!»

■ من الملاحظات اللافتة للنظر أن «على ماهر» (باشا) كُلف بتشكيل الوزارة مرتين في ظرف ستة شهور من سنة ١٩٥٢، وفي كل مرة منهما تم الاستغناء عنه بعد أسابيع - رغم اختلاف الظروف في الحالتين.

ومن المفارقات أن الأسباب التي استدعت مجيئه - والأسباب التي أوجبت ذهابه، كانت متشابهة في الحالتين، مع أن واحدة من المرتين (٢٧ يناير ١٩٥٢) - كانت أواخر زمن الملك «فاروق»، في حين كانت المرة الثانية يوم سقوط ملكه (٢٣ يوليو من نفس السنة).

■ في المرة الأولى كان الملك «فاروق» هو الذى كلف «على ماهر» (باشا) برئاسة الوزارة عقب حريق القاهرة وإقالة حكومة الوفد وإعلان حالة الطوارئ. وكان التكليف بناءً على تقدير الملك نفسه، ومعه معظم أقطاب ديوانه (حافظ عفيفى - حسن يوسف - عبد الفتاح عمرو) - وحسابهم أن «على ماهر» يملك مؤهلات التعامل مع الطوارئ والمفاجآت، وملء الثغرات والفجوات، واستيعاب الهزات والصدمات!

■ وفي المرة الثانية (٢٣ يوليو ١٩٥٢) فإن «على ماهر» لم يكن اختيارا مقصودا لذاته من ضباط يوليو، بل كان اسما طرحَ عليهم وقبلوا به، ورجح اختيارهم له شعورا (أكثر منه تفكيرا) - أنه كان في الوعي الباطن طلبا لنفس المؤهلات التي كانت في تقدير الملك وأقطاب ديوانه، ومؤداها أن «على ماهر» يملك كفاءة التعامل مع الطوارئ والمفاجآت، وملء الثغرات والفجوات، واستيعاب الهزات والصدمات.

وفي الحقيقة فإن تكرار المجيء بعلي ماهر (باشا) مرتين في ظرفين مختلفين متناقضين - دليل قاطع على أن حركة التاريخ عملية معقدة، فيها دور البشر وفيها حكم الحقائق، وفيها من الملاءمات - وحتى المصادفات - ما هو نافع للسياق وأحكامه!

كان الملك «فاروق» - وكذلك رجال ديوانه - يعرفون بالتجربة والخبرة أن «على ماهر» رجل «مهام مؤقتة» وليس رجل «أوضاع لها مقدرة البقاء».

وهو يجيء مرات - إذا استدعى - لمواجهة حالات فراغ تنشأ على غير انتظار، ونتيجة لظهور أحوال طوارئ (مثل أجواء الحرب العالمية الثانية ومثل حريق القاهرة). والعادة أنه في مثل تلك الأحوال يحجم آخرون ويتردد كثيرون ويتخوف العقلاء من مناطق المجهول في ساحات الفراغ - إلا رجلا واحدا بينهم يتصور دواما أنه مهيأ لدور المنقذ المخلص، الجاهز بتشكيلة وزارية في جيبه، محيطا نفسه برهط من الحواريين يتصورونه رجل الساعة - أى ساعة!

لكن المازق في حالة رجال مثل «على ماهر» بالذات - أنهم لا يقدرون على الاستمرار في الدور طويلا، لأن أحوال الطوارئ لها أجل.

وهنا تتبدى إشكاليات وملابسات:

- فمهمة الإنقاذ - بالطبيعة موقوتة - لكن «على ماهر» شأنه شأن كل منقذ، يتصور مهمته مستمرة (ليست مهمة غرفة إنعاش وإنما مهمة رعاية كاملة!).

- والمنقذ (أو رجل مثل «على ماهر» بالذات) ليس لديه حضور دائم يزكيه، وإنما لديه أزمة تستدعيه على عجل - وهو إذن مهيأ لأن يتخطى آخرين أو يعقد معهم اتفاقات قصيرة الأجل - مُعَرَّضة للنقض عند أول منحنى على الطريق!

- والمنقذ (رجل الطوارئ) بالضرورة على خلاف مع طبيب العائلة المُقيم (سواء كان حزب الوفد الممثل للأغلبية الصحيحة لجماهير الشعب - أو مع رئيس الديوان وهو حلقة الاتصال مع القصر) - لأن رجل الإسعاف يهتم بالحالة كما يراها وبسرعة - دون مراجعة للتقارير القديمة - لأنها ليست متوافرة أمامه في موقف الطوارئ - وليس لديه ترف انتظار وصولها إليه!

- ثم إن «المنقذ» في النهاية ومهما كانت كفاءاته - هو في العادة - نوع من «الفنى»، أو «البيروقراطى» - نشيط ومتحفز إذا لجأ إليه أحد - لكن هاجسه المستمر رغبته في تمديد مهمته، ولذلك فهو على استعداد للالتفاف حول الحقائق بظن قدرته على البقاء بذاته وصفاته سواء كانت أسباب استدعائه قائمة أو أنها انتهت لسبب أو آخر، وذلك مطلب عسير، والطريق إليه في العادة شائك!

- وفي حالة «على ماهر» بالذات - فإن «المنقذ» كان بعيدا عن التيارات الشعبية واجوائها ومطالبها، وبالتالى فهو يبدو للناس غريبا عنهم، وعن مشاعرهم.

كانت دواعى القصر في تكليف «على ماهر» (باشا) برئاسة الوزارة، غداة حريق القاهرة (٢٦ يناير ١٩٥٢) - إلى جانب ملاقاة الطوارئ والمفاجآت، وملء الثغرات والفجوات، واستيعاب الصدمات والهزات - مجموعة أهداف أخرى عملية ومحددة نشأت بعد الحريق:

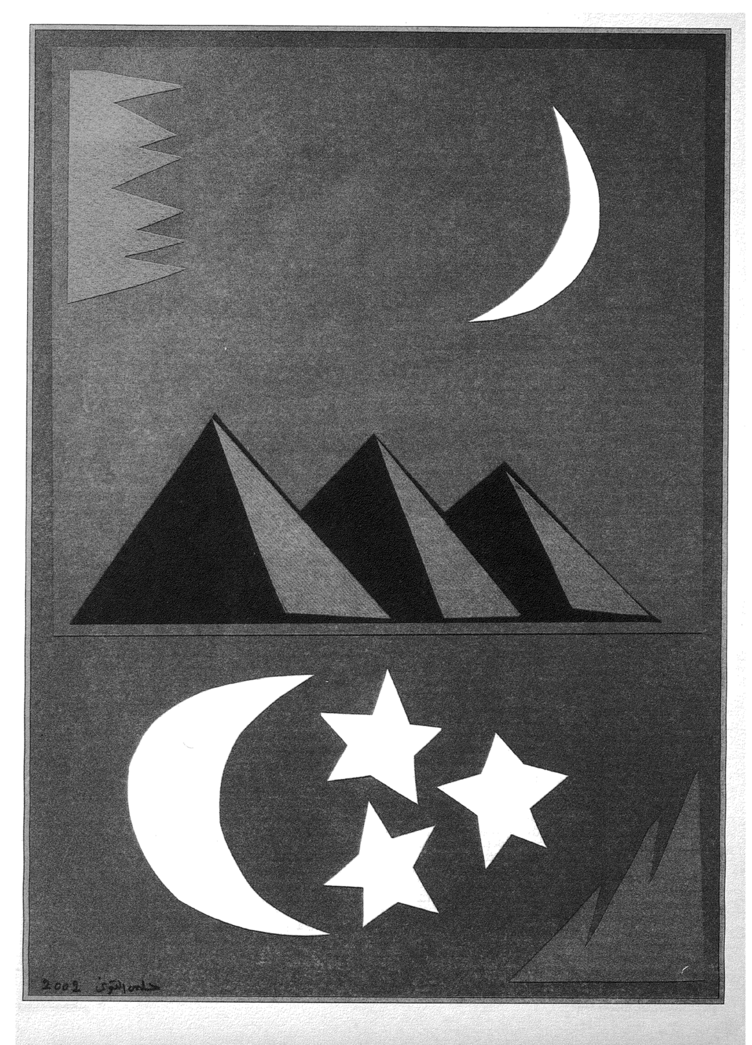
١ - تهدئة الوضع الداخلى وضبط الأمن.

٢ - والتحقيق في أسباب العنف المدمر الذى دهم الجميع - وعقاب المسئولين عنه.

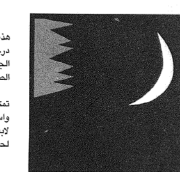
٣ - وتثبيت الداخل المصرى بتعزيز سيطرة الدولة، بما يظهر أن هناك أملا تحت الأنقاض والرماد.

٤ - وإقناع العالم الخارجى - بمجرد التماسك الداخلى - أن الاقتصاد المصرى مازال استثمارا معقولا، ويمكن أن يظل مجزيا.

٥ - وطمأنة القوى الكبرى وأولها - بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية - إلى أن الوضع في مصر أمكن ضبطه دون تدخل بريطانى عسكرى إمبراطورى - أو بقرار تتوافق عليه الدول المهتمة بالدفاع عن الشرق الأوسط (كما بدأ يُقال أيامها - إشارة إلى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية!).


حلمي التوني 2002

الساعة تدق منتصف الليل!



وحقيقة الأمر وراء كل الظواهر ـ أن بلوغ هذه الأهداف جزئيا أو كليا، كان معلقا إلى درجة كبيرة على إمكانية الاحتفاظ بتماسك الجيش المصرى واستمرار طاعته للأوامر الصادرة من قائده الأعلى في قصر عابدين.

وكانت تلك حقيقة تجلت بوضوح منذ تمكنت قوات الجيش من تامين العاصمة واستردادها من براثن الفوضى، على أنه كان لابد من فترة اختبار تؤكد أن ما «تجلى» في لحظة أزمة قادر على أن «يستمر» بعدها!

وخلال فترة الاختبار تكشف حجم من المتغيرات لم يقع فرزه بالتوصيف والتحليل.

■ أولى المتغيرات ـ أن كافة القوى السياسية المُعترف بها شرعيا أو رسميا فقدت ما كان لها من فاعلية، والدليل أن الملك أقال حكومة الوفد وسط إجماع شبه عام، على أن تلك الوزارة فشلت في أدائها، وانهمك وزراؤها في حروبهم الأهلية، وتسابقوا ـ فيما عدا قلة بينهم ـ إلى مستوى من فساد الذمم غير مسبوق، ثم إنها في المجال الوطنى خلطت بين اعتبارات البقاء في الحكم واعتبارات الإخلاص للمبدأ، وذلك أوصلها في النهاية إلى «مأساة الإسماعيلية» و«كارثة حريق العاصمة»، ثم إن بقايا تلك الحكومة أصيبت بهلع تجلى في سابقة ليس لها مثيل، وهى أن مجلس النواب الوفدى منح ثقته لوزارة «على ماهر» (باشا)، ووافق لها على استمرار العمل بقانون الطوارئ لمدة ثلاثة شهور قابلة للتجديد، وجرى ذلك بعد طرد وزارة تمثل الأغلبية، وزاد أن «النحاس» (باشا) اتصل بعد الإقالة برئيس الوزراء المُعَيَّن يهنئه ويؤيده، وكذلك فعل «فؤاد سراج الدين» (باشا).

وكان حال أحزاب الأقلية (وهى حزب السعديين ـ والأحرار الدستوريين ـ والحزب الوطنى ـ والكتلة) أشدترديا إلى درجة أن أحدا لم يخطر على باله أن تلك الأحزاب «صالحة» لأداء دور رئيسى أو مساعد!

■ ترافق ذلك مع حقيقة أن كل القوى السياسية غير المُعترف لها بالشرعية مثل الشيوعيين والإخوان المسلمين ومصر الفتاة أو الحزب الاشتراكى وغيرها ـ لم تمثل وقتها منفردة أو مجتمعة بديلا أو شبه بديل يمكن تجربته، فهذه القوى لم تكن لديها رؤى أو برامج تصلح أساسا لسياسات، وما كان لديها لا يزيد على شعارات عامة محرضة على الغضب، عاجزة بعده ـ أى أنها كافية لسيناريو الفوضى وليست مؤهلة لسيناريو الإنقاذ.

وفى تلك اللحظة وأثناء اختبار الحقائق، فإن هذه القوى كانت مهمومة بتبرئة نفسها من مسئولية حرائق النار الممتدة من الإسماعيلية إلى القاهرة، كلها تجاهد للهرب من المساءلة، سواء كانت سياسية أو جنائية، ومن الغريب أن كل طرف راح يزيح الشكوك ناحية الآخرين.

■ والحقيقة الثالثة ـ وذلك ما توصلت إليه الدول الأجنبية ـ أنه إذا كانت القوى السياسية المُعترف بشرعيتها في حالة إفلاس، (وصل إلى حد حريق أتى على كل شيء من المخازن إلى الدفاتر!!) ـ وأنه إذا كانت القوى السياسية غير المعترف بشرعيتها غير قادرة إلا على التحريض ثم الهرب من نتائجه ـ إذن فإن سيناريو الفوضى هو أرجح الاحتمالات ما لم ينجح الملك في ضمان جيشه ـ إخلاصًا وكفاءةً!



ومن المفارقات أنه في فترة الانتظار ـ أياما معدودة أو أسابيع ـ لاختبار درجة «الثبات»، والاستقرار في الشأن المصرى، راحت الحكومة البريطانية تفكر في كافة الاحتمالات:

■ بدأت تطلب من كافة السلطات المصرية (القصر ـ والوزارة الجديدة ـ والسلطات المحلية في محافظات قناة السويس) ـ سرعة العمل على تخفيض درجة الحرارة. وكتب القنصل البريطاني في بورسعيد تقريرا إلى السفير البريطاني في القاهرة، أحاله إلى وزارة الخارجية في لندن (١٢٥/ ٨٦٠٤٥) جاء فيه:

«قمت بزيارة محافظ بورسعيد، الذي أكد لى أن يده الآن طليقة في التعاون معنا ومع قيادة القوات البريطانية في شئون الأمن، لكنه أشار لى تلميحا إلى أنه في انتظار أوامر مكتوبة من القاهرة، لأن الحكومة لاتزال في موقف صعب، فهى تريد التهدئة، لكنها لا تريد أن تظهر بمظهر المتعاون معنا علنا دون تحفظات!».

■ وكتب الجنرال «روبرتسون» القائد العام البريطاني في الشرق الأوسط إلى نائب رئيس أركان حرب الإمبراطورية تقريرا في أعقاب زيارة استطلاع قام بها إلى قيادة القوات البريطانية في مصر (ومقرها فايد وسط منطقة قناة السويس) ـ يقول: «إننى أوصى بعدم التفكير في الخطة «روديو»، لأنها إذا وُضِعَتْ للتنفيذ سوف تُواجَه بمقاومة أشد عنفاً مما رتبنا عليه تقديراتنا لأن الجيش المصرى سوف يشترك مع «الغوغاء» في مقاومتنا. ثم إن أحوال الفوضى التى سنواجهها سوف تحتاج إلى قوات أكبر مما خصصنا لحفظ الأمن، وإذا نجحنا في تحقيق الهدف فسوف نكتشف أن أهم ما نجحنا فيه، أننا كسرنا القوة الوحيدة التى يمكن لها أن تحفظ الأمن الداخلى في مصر (أى الجيش المصرى) ـ ونحن لا نريد يقينا أن نتحمل عبء هذه المسئولية!».

■ وتجاوز رئيس الجالية البريطانية في بورسعيد الحدود ليكتب إلى القنصل العام البريطاني في المدينة خطابا، يجرى تحويله إلى السفير في القاهرة، الذى يقوم بدوره بتحويله إلى وزارة الخارجية في لندن (٦٨٦٨)، والاقتراح هو «وضع منطقة قناة السويس تحت إدارة دولية مستقلة لاعتبارات عَرَضَها (رئيس الجالية البريطانية في بورسعيد) بينها أن المنطقة ليست مهمة لمصر، وإنما أهميتها بريطانية (عسكرية) ودولية (قناة السويس)، وأن العناصر الأبرز والأنشط فى مدنها الرئيسية من الأجانب: فرنسيين ـ إيطاليين ـ يونانيين. ثم إن السكان الوطنيين يعتمدون في حياتهم ومعيشتهم على «القاعدة وعلى الثكنات وعلى المصالح التجارية الأجنبية». ويختم (رئيس الجالية البريطانية في بورسعيد) بعد أربع صفحات مستفيضة في شرح اقتراحه ـ بالإشارة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تتحمس لفكرة تدويل المنطقة، لأن ذلك ينهى مقدرة مصر على الاستمرار في الصراع العربى مع إسرائيل».



كانت لندن مشغولة بالشأن المصرى سابقه ولاحقه:

■ بالنسبة للسابق فإن رئيس الوزراء البريطاني المحافظ الذى عاد إلى الحكم (أواخر ١٩٥١) ـ وهو الزعيم الأسطورى «ونستون تشرشل» ـ كان لايزال مصمما حسب قوله في مذكراته على أن الأمة البريطانية لم تحارب «هتلر» لكى تُضَيِّع ممتلكاتها، وأنه لا يقبل على تاريخه أن يكون رئيس الوزراء الذى يقوم على عملية تصفية الإمبراطورية. وفى نظر «تشرشل» فإن سياسة سلفه «كليمنت آتلى» (من حزب العمال) أدت سنة ١٩٤٨ إلى استقلال الهند وإلى تقسيمها، ومع أنه أمكن استبقاء شبه القارة الهندية (الهند وباكستان) في إطار الكومنولث ـ إلا أن ضياع مصر وفيها قاعدة قناة السويس سوف يحكم بضياع الهند، حتى وإن بقيت فى الكومنولث.

■ وكان رئيس الوزراء «تشرشل»، ونائبه على رئاسة الوزارة هذه المرة السير «أنتونى إيدن» ـ يعتبر نفسه خبيرا بالشأن المصرى، فهو الذى فاوض ووقع معاهدة سنة ١٩٣٦ مع «النحاس» (باشا)، ولن يقبل إلغاءها من طرف واحد وهو متفق مع «تشرشل» تماما أن مصر هى حلقة الوصل في النظام الإمبراطورى من البحر الأبيض ـ إلى البحر الأحمر ـ إلى المحيط الهندى. وعلاوة على ذلك فإن «إيدن» يظن أنه يعرف كل رؤساء وزارات مصر وقد تعامل معهم ابتداءً من «مصطفى النحاس» (باشا) ـ زعيم الأغلبية الذى أُقيل ـ إلى «على ماهر» (باشا) الذى عاد لرئاسة الوزارة في مهمة مؤقتة.

■ وكان أشد ما يثير قلق «تشرشل» و«إيدن» معا، هو ما وقع ليلة حريق القاهرة، من ظروف أدخلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى قلب الشأن المصرى، وكان واضحا للاثنين أن الولايات المتحدة دخلت بسهولة، لكنها لن تخرج إلا بصعوبة، هذا إذا خرجت على الإطلاق. ومع أن «تشرشل» لا يريد للولايات المتحدة أن تخرج تماما من مصر لأن ذلك يعنى خروجها من الشرق الأوسط كله ـ إلا أنه على استعداد لقبولها داعمة «لاستقرار المنطقة»، خصوصا إزاء تعقيدات الصراع العربى الإسرائيلى ـ بشرط ألا يكون من شأن ذلك إعطاء الولايات المتحدة تفويضا مفتوحا في الشأن المصرى!

■ وهنا كان تقدير «ونستون تشرشل» أن مصر وبريطانيا ـ هذه اللحظة وهذه اللحظة فقط ـ في حاجة إلى صلة وجسر بينهما، وقد قبل اقتراحين تقدم بهما وزير خارجيته ونائبه «أنتونى إيدن»:

ـ طلب عودة السفير المصرى «عبد الفتاح عمرو» (باشا) إلى موقعه في لندن ليكون حلقة اتصال مباشرة مع قصر عابدين.

ـ ودعوة أطراف عربية صديقة لبريطانيا

كان أشد ما يثير قلق رئيس الوزراء البريطانى «تشرشل» ووزير خارجيته «إيدن»، هو ما وقع ليلة حريق القاهرة، من ظروف أدخلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى قلب الشأن المصرى، وكان واضحا للاثنين أن الولايات المتحدة دخلت بسهولة، لكنها لن تخرج إلا بصعوبة، هذا إذا خرجت على الإطلاق

الساعة تدق منتصف الليل!

إلى لعب دور الوسيط، وأول المؤهلين في ذلك الوقت - المملكة الهاشمية في العراق، ورجلها «نورى السعيد» (باشا)، وهو واصل للقصر الملكى في مصر عن طريق سفيره «نجيب الراوى»، ثم إنه (نورى السعيد) صديق قديم لعلى ماهر (باشا)، وهكذا فإنه في الوقت الذى وصل فيه «عبد الفتاح عمرو» إلى لندن، كان «نورى السعيد» (باشا) رئيس وزراء العراق يصل إلى القاهرة، وكان «إيدن» بتوجيه من «تشرشل» يأمل أن يغنى اقتراب الهاشميين عن دخول الأمريكيين.

وفى نفس الوقت تشكلت في وزارة الخارجية لجنة طوارئ خاصة «اللجنة المصرية المعاونة»، ضمت في عضويتها ممثلين عن: رئاسة الوزارة - ورئاسة أركان الإمبراطورية - والمخابرات العسكرية - والسياسية، ودُعِى للمشاركة فيها عضو أمريكى تَقَرَّر أن يكون مسئول شئون الشرق الأوسط في السفارة الأمريكية في لندن، وهو المستشار «لوى هندرسون» (الذى أصبح فيما بعد سفيرا أمريكيا في أكثر من عاصمة عربية). ■

٢ "... ثم اختفى تحت الرماد!"

■■ ومنذ الأيام الأولى من شهر فبراير ١٩٥٢ - كان «على ماهر» (باشا) الذى جلس بالكاد على مقعده - مهموما قبل أى شيء آخر بإمكانيات استمرار وزارته، وكان يفهم - من تجاربه الماضية، ومن الإشارات التى لمحها من حوله - أن هناك من يريدونه رجل مطافئ أو رجل إسعاف (أى لمدة مؤقتة)، ولم يكن ذلك ما يريده بالقطع.

كان «على ماهر» يعتبر نفسه طبيبا سياسيا (كما نقل عنه واحد من المقربين إليه هو الأستاذ «إبراهيم عبد الوهاب» سكرتير عام مجلس الشيوخ الذى اختاره وزيرا للدولة فيما بعد) - وأن مهمته ليست مجرد «إنقاذ الموقف» وإنما مهمة «بعث مقدس» تتعدى الأيام والرجال (كذلك قال لى «على ماهر» باشا بنفسه عندما دعانى للغداء معه في بيته يوم الجمعة الأول من فبراير ١٩٥٢، ليسمع منى ما رأيته يوم حريق القاهرة وربما في غيره من الأيام. فقد وجدت في يده عندما دخلت عليه في بيته - الذى انتقل إليه فى الجيزة - نسخة من كتاب ظهر لى قبل شهور بعنوان «إيران فوق بركان» - على أننى كنت أريد أن أسمع من رئيس الوزراء أكثر مما أتكلم، وفى حسابى أننا يوم جمعة وغدا السبت موعد صدور أخبار اليوم، وفيها باب إخبارى عنوانه «أخبار الغد» - هو أصعب أبواب الجريدة على الإطلاق، وكنت المسئول عنه وقتها).

● كان «على ماهر» يدرك أن المهمة الأخطر في إنقاذ الموقف لا تدخل في اختصاصه عمليا، لأن تلك المهمة في عهدة الجيش، والجيش أمره في القصر الملكى وليس في رئاسة الوزراء، ومع ذلك ظل الرجل حريصا على أن لا تكون وزارته مهمة مؤقتة، وإنما «مهمة أوسع وأكبر».

ولم يلبث حتى اكتشف أن ما حسبه في اختصاصه - هو أيضا - عزيز المنال.

● وعلى سبيل المثال فإنه بالنسبة للمهام المتعلقة بالأوضاع الاقتصادية وطمأنة رأس المال المصرى والأجنبى، فقد أدرك «على ماهر» (باشا) أن النجاح يحتاج إلى معجزة ليس في مقدوره أن يمسك بها لأن دخان الحريق ما زال يملأ الأجواء.

● وبالنسبة للتحقيق فيما جرى، فقد ظهر له ولغيره أن النيابة العامة تقوم بدورها في تطبيق القانون، لكن المهمة شبه مستحيلة. فالتهمة من اللحظة الأولى وعلى لسان الملك «فاروق» نفسه موجهة إلى الأستاذ «أحمد حسين»، وفى الغالب فإن الأستاذ «أحمد حسين» كان مسئولا - ربما - عما جرى في ميدان الأوبرا ظهر يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، لكنه من الصعب اعتباره قادرا ومسئولا عما جرى في العاصمة بكاملها. والغالب أن المسئولية الحقيقية كانت صنيعة مناخ سياسي بكامله، وليست مسئولية رجل واحد أو تنظيم بعينه، وذلك ما توصل إليه تقرير خاص أشرفت عليه السفارة البريطانية، وتم إعداده تحت إشراف هيئة مستشارين خاصة من ستة قناصل بريطانيين، تولى سكرتاريتها المستر «كين بويد» الذى عمل قُرابة خمسة عشر عاما مستشارا خاصا للأمن في وزارة الداخلية المصرية!

وقد انتهى تقرير هذه الهيئة (٨٦/ ١٠١٨ ج.أ) الذى وقعه السفير السير «رالف ستيفنسون» موجها إلى وزير الخارجية «أنتونى إيدن» - إلى تسعة أسباب محددة لحريق القاهرة - كلها سياسية وليس بينها سبب جنائى واحد!

● وهكذا فإن «على ماهر» (باشا) لم يلبث أن أدرك أن مهمة التحقيق التى يعتمد عليها لإطالة عمر وزارته ليست في طوعه، ثم توصل بعد أسبوع أو عشرة أيام إلى أنه إذا استطاع أن يبدأ مفاوضات مع الإنجليز لمعالجة أصل القضية وهو تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ بما يكفل تحقيق «الأمانى الوطنية» - فإن الزمن يصبح حليفا له وليس عدوا، لأن المفاوضات مع الإنجليز سوف تأخذ وقتها، ثم إنها سوف تشد الاهتمام إليها، وإذا بدت جدية الأطراف حول مائدتها - فإن فسحة الوقت المطلوبة سوف تتسع يقينا ولا تضيق، وكان «على ماهر» (باشا) يعول على أربعة عناصر حسبها لصالحه:

١ - أن الإنجليز في حالة قلق مما جرى، وإذا كانوا لا يريدون توسيع عملياتهم العسكرية في مصر، فإن مواقفهم بالضرورة قد تكون أكثر لينا.

٢ - أن الولايات المتحدة أصبحت طرفا في الشأن المصرى، وهو نفسه تحدث مع السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» (وكان ذلك أول لقاء له مع سفير أجنبى معتمد في القاهرة)، وقد تصور أنه أقنعه بأهمية أن تتقدم الحكومة البريطانية بـ «عربون حُسن نية» للوزارة الجديدة، حتى ولو كان العربون بالإشارة والتلميح.

٣ - ثم إن ساسة العالم العربى - خصوصا في العراق وسوريا - هالَهُم ما جرى في مصر، وقد أقبلوا يبذلون وساطتهم، خشية أن اهتزاز الأوضاع في أكبر بلد عربى يؤثر سلبا على كل البلدان العربية، والشاهد أن السيد «نورى السعيد» (باشا) بنفسه موجود الآن في القاهرة، يعرض وساطته ونفوذه لدى الإنجليز والأمريكيين.

٤ - أن الأحزاب المصرية - وأولها الوفد الذى يشك دائما في «على ماهر» - مصاب الآن بحالة فزع مما جرى، ولذلك فإن قيادته على استعداد لفترة سماح طويلة تتركها له - خصوصا إذا دخل في مفاوضات جدية تتوافر لها الآن فرص نجاح لم تكن هناك قبل شهور!



على أن الواقع كان أكبر من الأمانى، فقد كتب السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطاني تقريرا موجها إلى وزير الخارجية البريطانية «أنتونى إيدن» بتاريخ ٣ فبراير ١٩٥٢، تحدث فيه عن اجتماع عقده بحضور من وصفهم بأنهم «خبراء» - دون أن يحدد الأسماء - قائلا:

عقدت اجتماعا حضرته شخصيات أمنية سابقة لديها خبرة واسعة. وكان هناك قدر كبير من التشاؤم في كل ما سمعته، وملخصه النهائى أن وزارة «على ماهر» لن تظل في الحكم طويلا، وإنما هى مسألة أسابيع أو شهور تُعد على أصابع يد واحدة والأسباب كما يلى:

١ - هذه وزارة شُكلَت على عجل لمواجهة طارئ فاجأ الجميع، وبالتالى فإن الطاقم الوزارى غير متجانس، كما أن الوزارة ليست لها سياسة جرى الاتفاق عليها من قبل، بل إن بعض الوزراء لا يعرفون زملاءهم ولم يسبق لهم الالتقاء بهم، وعليه فهذه وزارة «حانوتية» وليست وزارة «أطباء مولدين»!

٢ - أن معظم الوزراء من اختيار القصر ولم يكن أمام «على ماهر» غير قبولهم، ومع أن بعضهم قد يكونوا أصحاب الخبرة، لكنهم ليسوا بالتأكيد رجال دولة.

٣ - أن «على ماهر» رجل كفء ولكنه غير متزن (Aly Maher is able but Unstable)، وسوف يحاول تركيز كل السلطات في يده.

٤ - أن «على ماهر» ليس شخصية كبيرة بالقدر الذى يعطيه يدا مطلقة في الإصلاح، لأنه لا يقف على قاعدة سياسية صلبة، ولا يملك شعبية تضمن له تأييدا واسعا في الرأى العام، وبالتالى فإن سنده الضرورى هو القصر، والقصر يموج الآن بالدسائس.

٥ - أن «على ماهر» سوف يحاول أن يفتح باب المفاوضات المصرية - البريطانية، متصورا أننا إذا أعطيناه بسرعة تصريح مرور (فيزا) - فقد يستطيع البقاء ويجهز للتفاوض معنا بواسطة جبهة وطنية يوافق هو على مشاركة الوفد فيها، ولكن الملك لن يوافق، وهنا سوف تنشأ الأزمة.

٦ - أنه فى حالة سقوط وزارة «على ماهر» - فإن رئيس الوزراء الأقرب من غيره إلى المنصب هو «نجيب الهلالى» - لكن المشكلة هى ما الذى يقدر عليه «الهلالى»؟!

وبأثر رجعى فإن هذا التقرير يبدو حامل نبوءة، وليس ناقل تقدير أو تحليل، لأن البنود التى وردت فيه جميعها تحققت، كأنها جدول أعمال مُقرر!

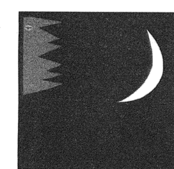


كانت اللجنة الخاصة التى شكلتها وزارة الخارجية في لندن لمتابعة تطورات الأزمة في مصر تواصل عملها في لندن، وكانت حريصة على أن تكون السفارة البريطانية في القاهرة معها في رؤية الصورة كما تظهر لها.



كان «على ماهر» يدرك أن المهمة الأخطر فى إنقاذ الموقف لا تدخل فى اختصاصه عمليا، لأن تلك المهمة فى عهدة الجيش، والجيش أمره فى القصر الملكى وليس فى رئاسة الوزراء، ومع ذلك ظل الرجل حريصا على أن لا تكون وزارته مهمة مؤقتة، وإنما «مهمة أوسع وأكبر»

الساعة تدق منتصف الليل!



الجيش المصرى لا يمكن الوثوق فيه، فالجنرالات الكبار من ضباطه فقدوا هيبتهم: بعضهم فقدها فى معارك الحرب فى فلسطين، وبعضهم فقدها فى صفقات السلاح. وأما الضباط الشبان فلم يعد يحركهم إلا شعور من الكراهية لبريطانيا التى يعتبرونها مسئولة عن كل ما لحق ببلادهم. ثم إنهم يبدون ضيقا شديدا من تصرفات الملك الذى هو قائدهم الأعلى

ويوم ١٥ فبراير ١٩٥٢ كتب السفير «روجر آلين» (مدير مكتب وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط) - رسالة وجهها إلى السفير البريطاني في القاهرة السير «رالف ستيفنسون» قائلا له:

١ - نحن نتلقى هنا معلومات تثير القلق، فقد كان عندى اليوم السير «سيسيل كامبل» (عميد الجالية البريطانية في مصر الذى دُعى إلى لندن على عجل لاستطلاع رأيه) - وقد قال لى: «إنه لم ير مصر في حياته كما يراها الآن»، وهو شخصيا مذعور Frightened مما يرى، وظنه أن الحكم في مصر يتصرف تحت تأثير الخوف والضعف.

٢ - وردا على سؤال منى قال السير «سيسيل»: «إن الجيش المصرى لا يمكن الوثوق فيه، فالجنرالات الكبار من ضباطه فقدوا هيبتهم: بعضهم فقدها في معارك الحرب في فلسطين، وبعضهم فقدها في صفقات السلاح - وأما الضباط الشبان فلم يعد يحركهم إلا شعور من الكراهية لبريطانيا التى يعتبرونها مسئولة عن كل ما لحق ببلادهم. ثم إنهم يبدون ضيقا شديدا من تصرفات الملك الذى هو قائدهم الأعلى، وقد أطاعوا أمره في حفظ النظام بعد حريق القاهرة، لكنهم فعلوا ذلك من باب الولاء لبلدهم وليس لملكهم. وهناك في مصر الآن أزمة ثقة والناس يلتفتون إلى كل ناحية يبحثون عن قيادة!».

٣ - وفى صدد الحديث عن الجيش قال السير «سيسيل»: «إن الأمل في ضبط أمور الجيش مرهون باللواء «فؤاد صادق» الذى قاد المراحل الأخيرة من حرب فلسطين بكفاءة، وعاد إلى القاهرة ساخطا يتحدث عن أسباب القصور والفساد. واللواء «فؤاد صادق» رجل موثوق وصديق قديم لبريطانيا وناقد لاذع لمسلك الملك، ولذلك فإن فرصته في منصب القائد العام محدودة، لأن الملك «فاروق» لا يحبه».

٤ - أفضى إلىَّ السير «سيسيل» بأنه التقى أمس بالسفير المصرى في لندن «عبد الفتاح عمرو»، وفوجئ به يقول: «إنه يُقدِّر عمر الوزارة الحالية بثلاثة أسابيع، ويُقدِّر عمر النظام الملكى في مصر بخمسة أسابيع!». والحقيقة إننى في دهشة من هذه الصورة المتشائمة، وقد سألت السير «سيسيل»: «ما الذى نستطيع من جانبنا أن نفعله لإنقاذ الموقف؟». وكان رده: «إنه بدون تنازلات نقدمها لعلى ماهر فإن وزارته لا تستطيع أن تعيش طويلا».



وكما هو ظاهر في الوثائق الأمريكية، فإنه بإلحاح مشترك من «نورى السعيد» (باشا) رئيس وزراء العراق، ومن «جيفرسون كافرى» سفير الولايات المتحدة في القاهرة - إلى جانب دواعٍ أخرى بالتأكيد - فإن الحكومة البريطانية بعثت إلى سفيرها في القاهرة تعليمات مقتضاها «أن في وسعه الإشارة إلى رئيس الوزراء «على ماهر» باستعداده لعقد جلسات استطلاعية تمهد لمفاوضات بين مصر وبريطانيا بغرض تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦».

وقام السير «رالف ستيفنسون» بما طُلِب منه وعاد إلى وزارة الخارجية يقول: «إننى لم أعط الضوء الأخضر لعلى ماهر، ولكنى أعطيته الضوء البرتقالى إشارة إلى أنه يستطيع أن يستعد»!

وبدأ «على ماهر» يستعد لجلسات استطلاعية، ونُقِل عنه أنه يريد أن يتفاوض بواسطة لجنة تمثل جبهة وطنية تشارك فيها كل الأحزاب والقوى، ضمانا لإجماع وطنى يساند أى اتفاق.

وكان تقدير «حافظ عفيفى» (باشا) (رئيس الديوان الملكى) أن هدف «على ماهر» الحقيقى هو «إطالة عمر وزارته»، وتحجيم معارضة الأحزاب والقوى السياسية لها (بينما هى تتفاوض)، وكان أكثر ما أقلق رئيس الديوان الملكى ما رآه من تحسن متزايد في العلاقات بين «على ماهر» وبين حزب الوفد، وقد فسره «حافظ عفيفى» (باشا) بدون عناء باعتباره «رغبة من «على ماهر» في تقليل اعتماده على القصر الملكى وحده، وحتى لا تظل وزارته مرهونة بتعليمات يُمليها المزاج المتأرجح في قصر عابدين!».

ويظهر أن السفير البريطاني بدأ يتلقى أخبارا متضاربة، وأراد أن يستوثق مما يصل إليه، وهكذا دعا «إلياس أندراوس» (باشا) مستشار الملك للشئون المالية إلى مقابلته، وكتب بعد المقابلة تقريرا إلى وزارة الخارجية (٢٩١ - ٤٧/ ١٠١٨) قال فيه:

«دعوت «أندراوس» (باشا) إلى مقابلتى مساء أمس، ومع أنى أعرف أنه رجل متآمر وكذاب إلى درجة هائلة A Monumental Liar، فقد أردت أن أبعث إلى الملك «فاروق» برسالة واضحة، لأنى أعرف أن «إلياس أندراوس» أقرب إليه الآن من أى رجل آخر في الحاشية.

وقلت لأندراوس: «إننى لا أرى فائدة في أى مفاوضات تجريها مجموعة تمثل جبهة وطنية إذا كان الوفد سوف يشترك فيها برجل مثل «صلاح الدين» (يقصد الدكتور «محمد صلاح الدين» (باشا) الذى كان وزيرا للخارجية في وزارة الوفد السابقة)، ذلك لأن «صلاح الدين» خطر، وسوف تكون مجموعة التفاوض كلها واقعة تحت تأثيره، ومعنى ذلك أن نعود إلى ما كنا فيه». قلت له أيضا: «إن التحقيقات التى تُجرى حول المسئولية عن حريق القاهرة، لا معنى لها إذا لم يتحمل «سراج الدين» (يقصد «فؤاد سراج الدين» (باشا) وزير الداخلية في وزارة الوفد السابقة) - مسئوليته الكاملة عن حوادث ٢٦ يناير». وقلت: «إن الوفد يمكن تمثيله في لجنة التفاوض برجل معتدل مثل «زكى العرابى» (باشا)».

ويوم الجمعة ٢٩ فبراير فوجئ السير «رالف ستيفنسون» بأن «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان يتصل به من مزرعته «لؤلؤة الصحراء» على طريق المنصورية، ليقول له: «إنه بناء على أمر من الملك «فاروق» سوف يقطع عطلة نهاية



على ماهر

الأسبوع التى يقضيها هناك ويعود إلى القاهرة ويريد أن يقابله اليوم، وفى دار السفارة البريطانية، لأن مكتبه في القصر غير جاهز للعمل يوم الجمعة!».

واتفق الاثنان (وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر) على أن يكون لقاؤهما في مكتب السفير البريطاني بعد الساعة السادسة مساءً، وتم اللقاء فعلا.

وفى الساعة الثامنة واثنتين وأربعين دقيقة، كان تقرير السفير البريطاني عن المقابلة قد دخل إلى آلة الشفرة (٤٥٢) - توقيتا وترقيما، ونصه كما يلى:

«أرسل إلىَّ الملك «فاروق» رئيس ديوانه هذا المساء يطلب منى إلغاء موعد مُتَّفق عليه بينى وبين رئيس الوزراء «على ماهر» تحدد له الساعة العاشرة من صباح الغد (أول مارس ١٩٥٢)». قال لى رئيس الديوان: «إن جلالة الملك قرر إقالة وزارة «على ماهر» لأنه يعرقل أعمال وزارات العدل والداخلية والمالية، وأنه عاجز عن التقدم في التحقيق وتحديد المسئولية عن أحداث ٢٦ يناير، وأهم من ذلك فإن «على ماهر» يقصد حماية نفسه بالإعلان الواسع عن استئناف المفاوضات، ولذلك فإن الملك يطلب منى أن أقوم بطلب تأجيل الموعد إلى يوم الاثنين بدلا من يوم السبت، وبذلك تفشل مناورة «على ماهر»، ويتمكن الملك من إقالته قبل أن يضع كل الأطراف أمام أمر واقع بلقاء معى يمهد لعملية التفاوض».

وقلت لرئيس الديوان الملكى: «إننى سوف أقوم بإخطار «على ماهر» صباح الغد بتأجيل الموعد ٤٨ ساعة بعذر وعكة برد طارئة». قلت أيضا: «إننى كنت في العادة أتردد في دخول مثل هذه الألعاب لولا ما أراه من تهاون «على ماهر» مع حزب الوفد، وعلى أى حال فقد كان لدى القليل مما أستطيع تقديمه له!».

وهكذا كان - وعرف «على ماهر» (باشا) بتأجيل موعد السفير البريطاني معه - بسبب نوبة برد طرأت عليه - من جريدة أخبار اليوم (عدد السبت ١ مارس) - ورغم أن وزير الداخلية «مرتضى المراغى» - أبرز رجال الملك في وزارة «على ماهر» (باشا) كان هو الذى أملى الخبر على الجريدة متأخرا مساء الجمعة - فإن رئيس الوزراء لم يعرف إلا عندما قرأ جرائد الصباح على مائدة الإفطار في بيته (الساعة السابعة والنصف).

وطلب إلى سكرتيره أن يسأل السفارة البريطانية عن صحة الخبر، وعاد إليه سكرتيره بعد ربع ساعة يقول: «إنه نجح في الاتصال بمكتب السفير، وقالوا له إنهم كانوا على وشك أن يتصلوا بمكتب رئيس الوزراء - لكنكم سبقتم!».

وأحس «على ماهر» أن هناك ما يريب في المسألة بالنظر إلى ظاهر ملابساتها، ورأى أن يتصل بحسن يوسف (باشا) الذى أبلغه على التليفون «إن مولانا ينتظر خطاب استقالة الوزارة».

ورد «على ماهر» (طبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا)) يقول: «طيب.. طيب»! وأغلق سماعة التليفون!

وكان خطاب قبول الاستقالة يجرى تجهيزه في الديوان بالتوازى مع خطاب آخر بتكليف «نجيب الهلالى» (باشا) بتشكيل وزارة جديدة.

وهكذا لم يزد عمر وزارة «على ماهر» (رغم كل ما حاول) عن خمسة أسابيع، استوعب فيها صدمة الحريق، ثم اختفى تحت رماده! ■

"٣" حقول الألغام: وفدية وملكية!

كان «أحمد نجيب الهلالى» (باشا) الذى عهد إليه الملك بتشكيل الوزارة التى تتولى الحكم بعد إقالة وزارة «على ماهر» (باشا) (التى تلت بدورها إقالة وزارة «مصطفى النحاس (باشا) - سياسيا من أذكى رجال ذلك الجيل الذى ظهر على مسرح السياسة المصرية في عصر ما بين الثورتين الكبيرتين في القرن العشرين (١٩١٩ و ١٩٥٢). وكان فكره مرتبا بمنطق القانون الذى درسه واشتغل به محاميا لا يقف كثيرا في ساحات المحاكم، وإنما يجلس طويلا وراء مكتبه يصوغ المذكرات القانونية بصبر دءوب لا يعرف الكلل.

وقد عرف «نجيب الهلالى» أن مهمة تشكيل الوزارة آلت يوم الجمعة ٢٩ فبراير، عندما اتصل به «حافظ عفيفى» رئيس الديوان الملكى يبلغه أن المسئولية التى أفلت منها مرتين من قبل، في طريقها الآن إلى بابه، وأنه لا يستطيع هذه المرة أن يتعلل بعذر كما فعل من قبل، لأن الظروف الآن معقولة، كما أن الضرورات ملحة، و«جلالة الملك يعتمد عليك ولا تستطيع في هذه اللحظة أن «تخذله»! ».

وكان «نجيب الهلالى» رجلا حاضر البديهة، سريعا في التقاط التناقضات الكامنة في المواقف، وكذلك فإنه حين اتصل به «حافظ عفيفى» (باشا) في بيته في المعادى - وكان قد جلس بالكاد إلى مائدة الغداء، لكنه قام عنها إلى مكتبه يتلقى مكالمة رئيس الديوان، وتغيب هناك أكثر من نصف ساعة، ثم عاد ليقول ضاحكا: «حاولت أن أقول لهم أن كتفى أضعف من أن يتحمل ما يطلبونه، لكنه يظهر أنه لم يعد هناك مفر من أن ظهرا واهيا عليه الآن أن يحمل جبلا ثقيلا!».

وكان «نجيب الهلالى» يشير إلى حجمه، فهو قصير القامة لا يزيد ارتفاعه على مائة وستين سنتيمترا، ونحيل في نفس الوقت لا يزيد وزنه على ستين كيلو جراما، كما أن نظره ضعيف يحتاج إلى نظارات سميكة، وعندما عاد من حديثه مع رئيس الديوان الملكى، واتخذ مكانه من جديد على رأس المائدة في غرفة الطعام في بيته، كان أول ما قاله «والآن وأنتم جميعا من الشباب قولوا لى من أين نبدأ».

....

....

[وكان الجالسون حول المائدة أربعة غير صاحب البيت نفسه هم: ابنه الأستاذ «نبيل الهلالى» الذى ورث عنه مهنة القانون، وإن لم يرث توجهاته السياسية، ففى حين كان «نجيب الهلالى» يقف على يمين الوسط، فإن ابنه «نبيل» كان (ولايزال وفيا لمواقفه) ملتزما بيسار اليسار - وكان الثانى هو الدكتور «محمود محفوظ» زوج ابنة «الهلالى» (باشا) - وهو طبيب مرموق أصبح فيما بعد وزيرا للصحة وعضوا نشيطا في مجلس الشورى ومهتما بالشأن العام حتى هذه اللحظة - وكان الثالث هو الأستاذ «فريد زعلوك» زعيم الشباب الوفدى في كلية الحقوق، وزعيم الطلبة الوفديين في معارك الأحزاب داخل الجامعة، لكنه الآن أصبح رجلا ناضجا يعمل بالمحاماة - وحاول أن يكون مقربا من «نجيب الهلالى» (باشا) مهنيا وسياسيا - وكان من حظى أن أكون الضيف الرابع على الغداء.

....

....

[وأجد ضروريا أن أشير إلى أن طبيعة اختياراتى المهنية كمراسل سياسى متجول لعدد من السنين في الشرق الأوسط، لفتت نظر بعض من ساسة تلك الأيام إلى ما أكتب.

وكان «نجيب الهلالى» (باشا) قد تفضل ودعانى مبكرا إلى الغداء معه عقب تغطية قُمت بها لأحداث البلقان، وضمنها الحرب الأهلية في اليونان سنة ١٩٤٧، وكانت الأسباب مهيأة بسبب صداقة سبقت بين الدكتور «محمود محفوظ» (زوج ابنته) وبينى، وكذلك أصبحت صديقا للأسرة.

وكان «نجيب الهلالى» يدعو عددا من المقربين إليه مساء كل جمعة على العشاء في مطعم «سان جيمس» (وهو من أفضل مطاعم القاهرة وقتها) - لكنه بعد حريق القاهرة - جرى على ذلك المطعم ما جرى على غيره في وسط العاصمة، وهكذا فإن دعوة العشاء تقدم موعدها لتصبح على الغداء، كما تغير مكانها لتصبح في بيته على الشارع الرئيسى لضاحية المعادى].

....

....

وحين وجه «نجيب الهلالى» (باشا) سؤاله: «والآن وأنتم جميعا من الشباب قولوا لى من أين نبدأ؟» - لم يتوقف بعد سؤاله، وإنما استطرد قائلا «إذا سمعت من أحدكم عبارة تهنئة فسوف أستنتج من ذلك أنه لا يفهم شيئا!».

وطالت الأحاديث وتشعبت، ثم توقفت مرتين: واحدة عندما جاء «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان الملكى ليختلى برئيس الوزراء المُكَلَّف وحدهما في غرفة المكتب. ومرة أخرى بعدها حوالى الساعة التاسعة والنصف مساءً عندما وصل «حسن يوسف» (باشا) ومعه مسودة خطاب التكليف الملكى حتى يتمكن «دولة الباشا» من إعداد مشروع رده عليه، ويتم الاتفاق على الخطابين ويجرى تجهيزهما في الديوان قبل الموعد المحدد للقاء «نجيب الهلالى» (باشا) مع الملك في قصر القبة في الساعة الثانية عشرة ظهر الغد (السبت أول مارس ١٩٥٢).

وقبل منتصف الليل كانت هناك قائمة شبه كاملة بالمرشحين للمناصب الوزارية، وبينهم رجال كان واضحا أنهم من اختيار الملك «فاروق» شخصيا (مثل «مرتضى المراغى» لوزارة الداخلية)، كما أن بعضهم من اختيار «الهلالى» (باشا) بنفسه (مثل «عبد الخالق حسونة لوزارة الخارجية) - ثم إن بعضهم الآخر كان بإملاء الظروف ذاتها (مثل الدكتور «زكى عبد المتعال» لوزارات المالية والاقتصاد - وكان ذلك منصبه في وزارة الوفد سنة ١٩٥٠، ثم خرج من الوزارة بسبب التحقيقات في مضاربات بورصة القطن).

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم «الموعود» (السبت أول مارس) - وصل «نجيب الهلالى» من بيته ومعه ابنه «نبيل» في سيارة يقودها زوج ابنته الدكتور «محمود محفوظ» - إلى مكتبه في شارع قصر النيل، عند اتصاله بميدان سوارس (مصطفى كامل الآن) - وكان في انتظاره «فريد زعلوك» (وقد رشحه «الهلالى» وزيرا للدولة معه يتولى العلاقات العامة لمكتبه) - وكنت هناك أنا الآخر لأن الدكتور «محمود محفوظ» اتصل بى مبكرا ناقلا طلبا من «الهلالى» (باشا) أن أنتظره في مكتبه قبل الساعة العاشرة.

وعندما وصل «نجيب الهلالى» (باشا) كان الرجال الأربعة الذين حضروا غداءه بالأمس حوله في مكتبه اليوم، وكانت الساعات العشرين التى انقضت ما بين غداء الأمس وقهوة اليوم قد غيرت كثيرا من الاهتمامات والأجواء والمشاعر.

....

....

[قبل أن يتخذ «نجيب الهلالى» مقعده في مكتبه، وحتى وابنه «نبيل الهلالى» يساعده على خلع معطفه الثقيل، بحيث يظهر الرجل في حجمه الطبيعى متناقضا بشدة مع المسئولية التى توشك أن تنزل عليه - وجه حديثه إلىَّ سائلا:

«محمد.. (كان ينادينا جميعا بأسمائنا الأولى) - أنت تعرف الجيش وما يجرى فيه من تجربتك في فلسطين وبعدها، والمقعد الوزارى الوحيد الذى أصابنى بالأرق ليلة أمس - هو مقعد وزير الحربية والبحرية، ولست أريد أن يفرض على أحد مرشحا قد لا يكون الأصلح، وفى نفس الوقت فأنا أريد «ضابطا» «نظيفا» من داخل الجيش، يطمئن إليه الجميع ويثقون فيه، لكنى لا أعرف أحدا، فهل لديك اقتراح؟!».

وكان السؤال قد خطر ببالى قبل أن أسمعه من رئيس الوزراء المُكَلَّف، وكذلك وبعد لحظة انتظرته فيها حتى جلس في مقعده، وأشعل من جديد سيجاره الذى انطفأ منه في السيارة - قلت:

«لو أن «دولتك» سألتنى في هذا الموضوع في السنة الماضية لاقترحت عليك اللواء «فؤاد صادق» - أما وقد سألتنى هذا السؤال الآن فاقتراحى هو اللواء «محمد نجيب»».

وسألنى «الهلالى» (باشا) بمنطق رجل القانون:

«قُلْ حيثياتك في الحالتين؟!».

وأجبته «بالنسبة للواء «صادق» فإن الرجل كان أكثر ضباط الجيش شعبية في السنة الماضية، بسبب جرأته في نقد الأحوال العامة من واقع تجربته كقائد للقوات المصرية في فلسطين (من أكتوبر سنة ١٩٤٨ إلى آخر يناير ١٩٤٩).

وقد أُعجبت به (شخصيا) في تلك الفترة، إلى درجة أننى أقنعت إدارة أخبار اليوم بأن توافق لى كمدير لتحرير أخبار اليوم، على شراء مذكراته للنشر، وقد وافق على العرض، وحملت إليه بالفعل مظروفا به ألف جنيه مقدم اتفاق.

ثم حدث بعد أسابيع قليلة أن اتصل بى اللواء «صادق» يدعونى للقائه في بيته معتذرا عن تنفيذ الاتفاق، راغبا في إعادة مقدم العقد لأن هناك تغييرا في الظروف.

ثم عرفت فيما بعد - دون دخول في التفاصيل - أن الرجل ظن في لحظات الأزمة (يناير ١٩٥٢) - أنه مرشح جدى لمنصب القائد العام للقوات المسلحة (بدلا من «حيدر» (باشا))، ومن ثم أراد إعفاء نفسه من أية قيود مسبقة، ومنها عقد كتابة مذكراته». وأضفت «وظني أن الرجل يشعر بنوع من المرارة لأن ما توقعه لم يتحقق، وفى الغالب فقد ظهر - في اللحظة الأخيرة - اعتراض عليه، لكنه ما بين استعداد الرجل للقبول وتحول الآخرين عن اختياره - تأثر وضع الرجل بغير ذنب يتحمله».

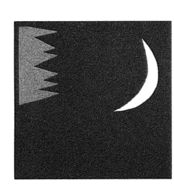
وراح «نجيب الهلالى» ينفث دخان سيجاره ثم يسأل:

وحيثيات نجيب؟!

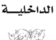
وقلت: كان سؤالك عن ضابط نظيف، يطمئن إليه الجميع، وأمامنا الآن - بعد انتخابات نادى الضباط - رجل اختاره الضباط بأنفسهم، ومعنى

عرف «نجيب الهلالى» أن مهمة تشكيل الوزارة آلت إليه يوم الجمعة ٢٩ فبراير، عندما اتصل به «حافظ عفيفى» رئيس الديوان الملكى يبلغه أن المسئولية التى أفلت منها مرتين من قبل، في طريقها الآن إلى بابه، وأنه لا يستطيع هذه المرة أن يتعلل بعذر كما فعل من قبل، لأن الظروف الآن معقولة، كما أن الضرورات ملحة، و«جلالة الملك يعتمد عليك ولا تستطيع في هذه اللحظة أن «تخذله»!».

الساعة تدق منتصف الليل!



وجد «نجيب الهلالى» (باشا) نفسه تحت ضغوط شعبية تطالبه بأن لا يغفل قضية «الأمانى الوطنية» (بشعار التطهير قبل التحرير)، وهكذا فإنه عاد يلح على أهمية الوصول إلى تسوية سريعة لمشكلة العلاقات المصرية ـ البريطانية، وظنه ـ مثل غيره من سابقيه ـ أنه يستطيع استغلال أى نجاح يحققه فى تدعيم سياسته الداخلية



ذلك حُسن رأيهم فيه واطمئنانهم إليه، وذلك يزكيه بأكثر من أى اعتبار آخر.

وفكر «نجيب الهلالى» لحظة ثم قال: «المشكلة أنهم لم يكونوا مستريحين لكل ما جرى في انتخابات نادى الضباط، واعتبروه تحديا للقصر».

وقلت أننى أعرف «محمد نجيب» من سنوات، ولا أظن أنه يفكر في تحدى القصر، وفى كل الأحوال فالسؤال الجوهرى هو: ما إذا كان القصر راغبا في تهدئة الحال في الجيش، أو راغبا في استمرار التحدى!».

وقال «الهلالى» (باشا) بسماحة: «أظن أن الحق معك!».

وبعد نصف ساعة غادر «نجيب الهلالى» (باشا) مكتبه قاصدا قصر القبة في سيارة يقودها صهره الدكتور «محمود محفوظ» (أيضا) ـ وبقيتنا تنتظره حتى يعود ـ وعاد في الساعة الثالثة إلا ربعا، وأول ما قاله ـ وهو يخلع معطفه مرة أخرى:

«محمد ـ مع الأسف لم ينجح مرشحك لمنصب وزير الحربية».

واستطرد:

«عرضت اسمه على «جلالة الملك» وسألنى: هل تعرف «نجيب»؟، وقلت: «إننى لا أعرفه». وسألنى «هل تضمنه؟». وقلت «كيف أضمنه إذا لم أكن أعرفه، لكن وسيلتنا إلى ضمان الناس أن نختبرهم عمليا وليس بكشف الهيئة فقط». ورد الملك «هل ترانا «يا باشا» في وقت إجراء اختبارات لمنصب شديد الحساسية الآن مثل منصب وزير الحربية؟». وهنا تدخل «حافظ» (باشا) واقترح أفضلية الانتظار قبل ملء المنصب، وعلى هذا الأساس فسوف يكون «مرتضى المراغى» وزيرا للداخلية ـ ووزيرا مؤقتا في نفس الوقت للحربية والبحرية، حتى تتجلى لنا الظروف وحينها نعود إلى الموضوع»].

....

....

وبدا واضحا من اللحظة الأولى أن «نجيب الهلالى» (باشا) كان على حق في اعتذاره عن رئاسة الوزارة قبل ذلك مرتين، وأن العرض الثالث عليه كان ظلما له ـ بمقدار ما أن قبوله به كان ظلما لنفسه فقد كان «الهلالى» بالطبع وبالتجربة رجل فكر ولم يكن رجل فعل. ورجال الفكر في العادة أنواع: فهناك رجل الفكر حامل الرؤية ـ وهناك رجل الفكر صاحب المشروع ـ وهناك رجل الفكر واضع الخطط ـ وهناك رجل الفكر المشغول بالتفاصيل ـ وكان «نجيب الهلالى» (باشا) رجل فكر من النوع الأخير، ولعل تجربته في المحاماة متخصصا في كتابة المذكرات القانونية رسخت استعداده للتفاصيل (كان وقت تكليفه برئاسة الوزارة مشتغلا بكتابة مذكرة في قضية لشركة «شل» للبترول، وكانت المذكرة في مائة وثمانين صفحة ـ حجم كتاب). وليلة تكليفه بتشكيل الوزارة فإنه أغلق على نفسه باب مكتبه ست ساعات، لكى يكتب بنفسه بيان الحكومة.

كان الرجل يدرك أنه يحتاج إلى مناخ عام يقبله ويؤيده ويسمح له بأن يتقدم إلى الممكن من مهام وزارته، وهكذا فإنه طرح شعار «التطهير قبل التحرير»، ومنطقه أن التحرير عن طريق التفاوض لا ينجح إلا مع سلطة تثق في نفسها وهى تستمدها من ثقة الناس في صدق قيامها على القانون، ثم إن التطهير بمعنى استئصال الفساد مبدأ يقدر على جذب أفضل العناصر داخل حزب الوفد، خصوصا من أعضاء مجلس النواب (وكان «الهلالى» (باشا) بناء على تشاور مع «عبد السلام فهمى جمعة» (باشا) يظن أن بمقدوره «شد» ما بين مائة إلى مائة وعشرين نائبا من حزب الوفد) ـ يضاف إلى ذلك أنه إذا كان من الضرورى إجراء حساب عن أسباب حريق القاهرة يبحث في مسئولية «فؤاد سراج الدين» ـ إذن فإن منطق التطهير هو وحده القادر على إجراء الحساب سواء بالتقصير أو بما هو أشد منه. (وفى الواقع فإن «نجيب الهلالى» (باشا) كان يكره «فؤاد سراج الدين» (باشا) ويُحَمِّلَهُ مباشرة مسئولية ما جرى للوفد ولرئيسه ولوزارته ـ وفى ذلك فإن «الهلالى» (باشا) كان قاسيا في حكمه بأكثر مما تحتمله طبائع الناس وظروفهم وحدودهم).

وتبين خطوط تفكير «الهلالى» (باشا) في رده على التكليف الملكى، حين يقول:

«إن وزارته سوف تبذل قصارى الجهد في تحقيق «الأمانى الوطنية»، لكنه لابد من إدراك أن النجاح في هذه الأمانى الوطنية يقتضى تطهير الحياة السياسية في مصر من الفساد، وإقرار الأمن والاطمئنان، وردع الإهمال أن يقوض الحياة العامة للبلاد، ومحاسبة المسئولين عن الانحراف بالفساد أو بالتستر عليه. وإذا لم يقع مثل هذا الحساب فإن الآثار سوف تكون فادحة على فكرة العمل العام، لأن بعض الساسة احترفوا السياسة وسيلة من وسائل الثراء تمارس بغير حياء، إلى درجة أصبحت فيها مقاعد مجلس النواب مواقع تُباع بالمزاد العلنى كما تُباع العقارات، وتفشى الفساد والمحسوبية والاستغلال إلى حد الاستهتار بالقوانين وابتذالها».

وهكذا انفتحت الملفات وظهرت الخبايا والدفائن، وعندها اكتشفت وزارة «نجيب الهلالى» أنها دخلت إلى حقل الألغام، ولم يكن قد مضى على تشكيلها أكثر من ستة أسابيع.

ويوم ٢٦ إبريل ١٩٥٢، كتب السفير البريطاني السير «رالف ستيفنسون» تقريرا مفصلا إلى لندن (رقم ١٠٩/ ١٠١١/٧٧/٥٢) موجها خطابه إلى «أنتونى إيدن» وزير الخارجية ـ وقائلا:

سيدى

لى الشرف أن أضع تحت تصرفكم تلخيصا للأوضاع الداخلية في مصر وتطوراتها منذ تأليف وزارة «نجيب الهلالى» (باشا)، وبدء عملها يوم ٢ مارس:

١ ـ أن «على ماهر» (باشا) أُقيل من الحكم، وجاء «الهلالى» بدلا منه، لأن الملك «فاروق» يريد رجلا لديه الجسارة على مواجهة الوفد. وكانت البيانات الأولى الصادرة عن رئيس الوزراء الجديد ـ وكذلك كان اختياره لوزرائه ـ يوحى للوهلة الأولى بأنه إعلان حرب على الوفد. وقد بدأ «الهلالى» (باشا) بتأجيل انعقاد مجلس النواب، وبنشر تقرير من النائب العام عن نتائج تحقيقاته في حوادث ٢٦ يناير (حريق القاهرة)، وفيها ما يضع جزءا من المسئولية على «فؤاد سراج الدين» (باشا)، كذلك قام وزير المالية والاقتصاد (الدكتور «زكى عبد المتعال») بإذاعة تفاصيل عدد من فضائح الفساد المالى تمس قرينة «النحاس» (باشا) ـ وفوق ذلك فإن الحكومة قامت بإلغاء مئات من التعيينات والترقيات الاستثنائية التى منحتها حكومة الوفد لأنصارها ورجالها الذين جاءت بهم إلى السلطة ودفعتهم إلى أكبر الوظائف باعتبارهم «موضع ثقة».

٢ ـ ويوم ١٥ مارس أعلن «الهلالى» (باشا) عن إجراءات للتحقيق في تصرفات وزراء الوفد وأنصاره، وحاول الوفد تخويف الوزارة بالدعوة إلى إضرابات في الجامعة، لكن «الهلالى» (باشا) قابل ذلك بحزم، وقام يوم ١٧ مارس بتحديد إقامة «فؤاد سراج الدين» (باشا) في عزبة يملكها في بلبيس، كما قام بتحديد إقامة «عبد الفتاح حسن» (باشا) في قريته وسط الدلتا، وهكذا نجح «الهلالى» في حصر تأثير أقوى رجلين في «عصابة» التحريض الوفدية. وظلت الأحوال العامة هادئة بعد تلك الإجراءات، بما أظهر أن الحكومة تملك العزم والصرامة الكافية، لوضع حزب الوفد في حدوده وكشفه، وبدا أن عددا كبيرا من الوفديين يرتبون للخروج من الحزب، راغبين في ترك سفينته الغارقة. (وبالفعل فإن أكثر من خمسين نائبا وفديا بينهم «عبد السلام فهمى جمعة» (باشا) رئيس المجلس، أعلنوا ثقتهم بالهلالى (باشا) وتوجه «جمعة» (باشا) بنفسه إلى مكتب رئيس الوزراء وقضى معه أكثر من ساعتين صرح بعدها بأنه يعرف صلابة «الهلالى» (باشا) ويثق في حُسن سياسته.

٣ ـ وفى هذه المرحلة فإن «نجيب الهلالى» وجد نفسه تحت ضغوط شعبية تطالبه بأن لا يغفل قضية «الأمانى الوطنية» (بشعار التطهير قبل التحرير)، وهكذا فإنه عاد يلح على أهمية الوصول إلى تسوية سريعة لمشكلة العلاقات المصرية ـ البريطانية، وظنه ـ مثل غيره من سابقيه ـ أنه يستطيع استغلال أى نجاح يحققه معنا في تدعيم سياسته الداخلية. وعندما بدأ اتصالاته مع سفير حكومة صاحب الجلالة (أى مع السير «رالف ستيفنسون») ـ فإنه تبين لأول مرة فيما يظهر أن المسائل أصعب بكثير مما قدر (رغم أنه دعا الدكتور «محمد صلاح الدين» قبل مقابلته مع السفير «رالف ستيفنسون» واستمع إليه صباح يوم كامل)، وهنا فإن «الهلالى» رأى أن يتمهل في تنفيذ برنامجه الداخلي، وإلا اتهم بأنه اختار الطريق السهل بضرب الخصوم الداخليين ـ والبعد عن الطريق الصعب



نجيب الهلالى

الساعة تدق منتصف الليل!

بمواجهة الأعداء الخارجيين. وعندما ظهر تردده - قرر المستعدون للخروج من الوفد أن الانتظار أسلم، كما أن عددا من قيادات الحزب بدءوا يستعيدون الثقة بأنفسهم وبزملائهم - على الأقل بمنطق التضامن حتى «لا يؤكلوا واحدا بعد الآخر».

٤ - وقد اضطر «الهلالي» بعد ذلك إلى مد العمل بالأحكام العُرفية بمقتضى مرسوم ملكي قبل انتهاء الأجل يوم ٢٦ مارس، لأنه لم يكن يستطيع أن يذهب إلى مجلس النواب ويطلب مد العمل بالقانون فترة أخرى، وهنا فإن «الهلالي» لم يغضب الوفديين فقط، وإنما أغضب غيرهم من الجماعات الممثلة في البرلمان وأهمهم المستقلين.

٥ - ولمواجهة النقد الموجه ضده فإن «الهلالي» (باشا) أعلن استعداده لإجراء انتخابات جديدة وعندها فإنه أدخل نفسه إلى فخ - لأنه لا يستطيع أن يمنع الوفديين من دخولها، ولا يستطيع أن يمنعهم من الفوز بجزء كبير من المقاعد البرلمانية فيها، وهم مسلحون بأموال وفيرة، وبتنظيمات لا تزال فاعلة، وبأنصار في الإدارة مازالوا في مواقعهم، وسوف ينشط هؤلاء جميعا إذا أحسوا أن هناك فرصة أمام الوفد. ومما قوى من أعصاب الوفديين أن الإخوان المسلمين أعلنوا أنهم لن يدخلوا الانتخابات، وهنا أعلن الوفد أنه سوف ينزل بمرشحين له في كل الدوائر الانتخابية.

وبان الفخ الذى دخل إليه «الهلالي» بقدميه حين بدأت بعض الصحف (الموالية للقصر) تتساءل عن ما إذا كان «الهلالي» (باشا) قد جاء إلى الحكم لكى ينتحر سياسيا ويفتح الطريق لعودة الوفد.

٦ - إن مركز «الهلالي» (باشا) راح يضعف، خصوصا وأنه (مثل «على ماهر» قبله) لا يملك قاعدة قوة مستقلة، ولا شعبية كاسحة، وحتى أحزاب الأقلية لم تعد معه، لأنها اعتبرت وزارته مقدمة لعودتها هي إلى السلطة - مادام القصر لا يقبل بعودة الوفد.

وعلينا أن نتذكر أن رؤساء الوزارات في مصر هم بالمعنى الحقيقي (وليس الرمزي) خدما للملك (كما ثبت بطرد «النحاس» (باشا) مرة أخرى يوم ٢٧ يناير الأخير) - والقاعدة الراسخة هنا هي القاعدة المعمول بها قبل الثورة الفرنسية والتي تقول «Le Roi peut trouver des Ministres» (أى أن الملك بمقدوره دائما أن يجد وزراءً حين يشاء).

٧ - وكذلك فإنه مرة أخرى يبدو أن «الهلالي» سوف يعود إلينا طالبا فرصة تدعم موقفه، فإذا لم يجد مثل هذه الفرصة فإن عليه أن يقبل هزيمته أمام حقائق أكبر!».



على أن «الهلالي» (باشا) لم يكن فيما بدا من تصرفاته مستعدا لقبول الهزيمة، وهكذا فإنه راح من بداية شهر أبريل يكثف الحملة على الفساد، واعتقاده أنه يستطيع بواسطتها أن يحقق اختراقا كبيرا، بعد أن أقنعه الدكتور «زكي عبد المتعال» بأن «الحوت الكبير في محيط السياسة» المصرية وهو «أحمد عبود» (باشا) دخل في الشبكة وأنه على وشك اصطياده فعلا، وبما يكفل محاكمته ووضعه وراء قضبان السجن.

وفي ظاهر الحوادث ما يوحى بأن «الهلالي» (باشا) - ركز جهدا كبيرا في اصطياد «أحمد عبود» (باشا) في تلك الفترة الحرجة من الحياة القصيرة لوزارته. وكان تقديره أنه إذا وقع «أحمد عبود» - فسوف يقع وراءه بالضرورة «فؤاد سراج الدين»، وأهم من ذلك فإن الدعم المالي الهائل للوفد سوف تجف ينابيعه عند المصدر، وإذا توقف تدفق المال فإن الوفد سوف يصل إلى الانتخابات العامة - المُقدَّر لها شهر أكتوبر القادم ١٩٥٢ - وهو مشلول بالإفلاس!

وفي اندفاع «نجيب الهلالي» (باشا) إلى الإمساك بعبود (باشا) متلبسا بتسخير الدولة في خدمة مصالحه، فإن بعض وزرائه (وأولهم الدكتور «زكي عبد المتعال») نسوا أنفسهم واجتازوا الخطوط الحمراء وهم لا يعرفون!

والسبب أن مطاردة «أحمد عبود» (باشا) - قادت تلقائيا إلى صديقه ورجله الدائم «حسين سرى» (باشا) - ثم إن «أحمد عبود» و«حسين سرى» معا قادا إلى ثنائي آخر أكثر أهمية، وهو ثنائي «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس»، ومعنى الوصول إلى الاثنين، أن وزارة «الهلالي» دخلت إلى حقل ألغام. ومع أن «الهلالي» (باشا) تلقى أكثر من تحذير، أحدها من رئيس الديوان الملكي «حافظ عفيفي» (باشا) - فإن الوقت كان متأخرا. وطبقا لنجيب الهلالي (باشا) نفسه فإنه «لم يكن في مقدورى ولا مقدور غيرى أن يقف وسط حقل ألغام ويفرز ويقول هذه ألغام وفدية يمكن تفجيرها، وهذه ألغام ملكية لا يمكن المساس بها». ■

٤ «ألعاب الوقت الضائع!»

■ ظن «نجيب الهلالي» (باشا) حتى وقت أوائل شهر مايو أن بإمكانه إنقاذ الملك «فاروق» من حاشية السوء التي تحيط به، وتدفع مستقبله ومستقبل العرش إلى المنحدر الخطر، وانتهز فرصة عيد جلوس الملك «فاروق» (مايو ١٩٥٢)، وأقام حفل استقبال في «قصر الزعفران» خلع فيه على الملك لقب «منقذ البلاد وراعي مستقبلها».

....

....

[وأحس «نجيب الهلالي» (باشا) أن ما سمعناه منه في قصر الزعفران لم يستثر حماستنا، وكذلك قال لنا صباح اليوم التالي ونحن نتناول طعام الإفطار معه (الدكتور «محمود محفوظ» والأستاذ «نبيل الهلالي») - وحتى قبل أن نسأله «إن بعض المسائل تقتضى حكمة الشيوخ قبل حماسة الشباب، وهو في تعامله مع الملك يشعر أن «فاروق» مجنى عليه وليس جانيا، وحتى إذا لاحت شواهد تقول بالعكس، فإن تغليب حُسن الظن كفيل بإحداث يقظة ضمير تدفع إليها على الأقل - رغبته في المحافظة على العرش!»].

....

....

والحاصل أن «نجيب الهلالي» (باشا) لم يكن داريا بما يجرى وراء ظهره، وما شارك فيه بعض وزرائه، فقد راح القصر في تلك الأيام يسمع كلاما كثيرا عن عجز رئيس الوزراء وتردده، وكرر الملك أكثر من مرة أمام «حسن يوسف» (باشا) - وربما آخرين غيره - «أن الوزارة موش نافعة»، على أنه كان حائرا فيما يمكن عمله، فهو يريد هذا الصيف إجازة طويلة في أوربا وقد بدأ يعد لها، خصوصا «وأن هذه السنة كلها كانت مقرفة» - على حد وصفه!

وتصور الملك على الأرجح أنه ليس في مقدوره تغيير الوزارة قبل سفره، لأن تغيير الوزارة يقتضى منه أن يتابعها شهرين أو ثلاثة قبل أن يطمئن ويترك في يدها «شئون البلد». وإذا انتظر هذه المدة، فمعنى ذلك أنه سوف يكون مضطرا لقضاء الصيف في مصر (فهو الآن شهر مايو وإذا جرى الانتظار شهرين أو ثلاثة - والنتيجة مجهولة - فمعنى ذلك أن الصيف كله ضاع) - وإذا قرر الملك أن يؤجل الحسم إلى ما بعد عودته في سبتمبر (كما فعل في السنة السابقة)، فمعنى ذلك أنه سيعود ليجد أن الانتخابات البرلمانية الموعودة في شهر أكتوبر بدأت فعلا وسوف تدهمه نتائجها.

ولم يكن الملك متأكدا من الطريقة التي سوف تتصرف بها وزارة «الهلالي» (باشا) في ملفات التحقيقات المتشعبة، والتي اقتربت أكثر من اللازم من رجاله الموثوقين وبالذات: «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس». ثم أضيف إلى تلك الهموم أن محاولة جرت لاغتيال «حسين سرى عامر» (قائد سلاح الحدود ورجل القصر في الجيش ومرشحه الذى تضافر شباب الضباط على إسقاطه في انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط) - ومع أن محاولة اغتيال «حسين سرى عامر» فشلت بسبب يقظة حرسه الذى رد على نيران المهاجمين بسرعة، فإن مجرد محاولة الاغتيال (على خلفية ما جرى في انتخابات نادى ضباط الجيش) أثار توجسه.

ولعدة أيام راح الملك «فاروق» يفكر في اقتراح بديل تقدم به إليه الدكتور «يوسف رشاد»، مؤداه الاستغناء عن وزارة «الهلالي» وتشكيل حكومة أمن يدخل فيها بعض العسكريين ويرأسها وزير الداخلية «أحمد مرتضى المراغي»، وهو رجل ورث الولاء للقصر عن والده (الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر القوى) - ثم إن «مرتضى المراغي» رجل حازم بدليل قبضته الحديدية التي استطاعت وقف نار الفتنة بين «العرب الهوارة» وبين «الفلاحين الصعايدة» في محافظات مصر الجنوبية بعد أن نشبت معارك قتل وثأر بين الفريقين طالت سنوات.

ورأى «يوسف رشاد» وآخرين (انضم إليهم «كريم ثابت» (باشا)) - أن وزارة أمن تحزم وتضبط - تحقق للملك عدة أهداف:

١ - تضع على الرف مؤقتا وبطبيعة الحال مسألة العلاقات بين مصر وبريطانيا.

٢ - تعفى الملك من كل الأحزاب ومن كل الساسة التقليديين لأن الجميع فقدوا أى كفاءة لديهم وأى اعتبار كان لهم.

٣ - تضبط الأمور ولو على الأقل لفترة انتقال تعطى الملك فرصة للتفكير فيما هو أبعد من موعد الانتخابات البرلمانية القادمة!

٤ - ومعنى ذلك أن الصيف القادم في ظل حكومة عسكرية مسيطرة - تتيح للملك إجازته في أوربا مطمئنا - واثقا - وسعيدا.

٥ - إن ذلك عندما يحدث سوف يقنع كل الناس في الداخل وفي الخارج على السواء أن الملك «فاروق» سيد الموقف في مصر والقادر على أى ظرف وكل حال!

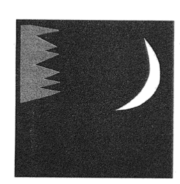
والمدهش أن وزير الداخلية «أحمد مرتضى المراغي» أخذ يمهد نفسه في ذلك الوقت بادئا بـ: «كيرميت روزفلت» مسئول مكتب المخابرات المركزية في الشرق الأوسط، وكان دائم التردد على القاهرة تلك الأيام، وقد استطاع أحد أصدقاء الطرفين (الصحفي الشهير الأستاذ مصطفى أمين) أن يرتب ثلاث مقابلات بينهما في الفترة ما بين ١٥ فبراير وحتى منتصف أبريل، وكان «المراغي» عضوا في وزارة «على ماهر» ثم في وزارة «نجيب الهلالي».

وأحست السفارة الأمريكية (وهي الممثل الرسمي للحكومة الأمريكية في مصر) أنها لا يصح أن تبقى بعيدة عن مراكز القوة (وتترك الساحة لوكالة المخابرات المركزية)، وكذلك اتصل السفير الأمريكي «جيفرسون كافرى» بوزير الداخلية بنفسه يسمع منه مباشرة بدلا من أن يقرأ عنه بالوساطة نقلا عن «كيرميت روزفلت»، وحدث اللقاء وكتب «كافرى» تفاصيله في تقرير إلى واشنطن جاء فيه:

لقد أبلغنى الوزير (مرتضى المراغي) أنه إذا لم يتوصل «نجيب الهلالي» (باشا) إلى حل يُرضيه مع الطرف البريطاني، فسوف يكون عليه أن يستقيل. وفي هذه الحالة فإن «المراغي» سوف يتسلم زمام الأمور بنفسه «Will take over himself» وسوف يشكل حكومة إدارية قوية، ويعلن إلغاء الانتخابات العامة المقررة في أكتوبر، ثم يعطى للطرف البريطاني فترة سماح مدتها ما بين شهرين أو ثلاثة شهور (مهلة صيف كافية) - للتقدم باقتراحات مقبولة تغطى الفجوة بين البلدين، وإذا لم تستجب الحكومة البريطانية فسوف يكون عليها أن تواجه ثورة شعبية يقوم بها الشعب المصرى».

وكان تعليق السفير الأمريكي في ختام رسالته إلى واشنطن: «إن ذلك الاقتراح الذى يجيء بالمراغي (باشا) ديكتاتورا على رئاسة الوزراء واحدا من

الساعة تدق منتصف الليل!



لم يكن الملك متأكدا من الطريقة التى سوف تتصرف بها وزارة «الهلالى» (باشا) فى ملفات التحقيقات المتشعبة، والتى اقتربت أكثر من اللازم من رجاله الموثوقين وبالذات: «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس». ثم أضيف إلى تلك الهموم أن محاولة جرت لاغتيال «حسين سرى عامر» (قائد سلاح الحدود ورجل القصر فى الجيش ومرشحه الذى تضافر شباب الضباط على إسقاطه فى انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط)

اقتراحات «الفرصة الأخيرة» الطائرة في الهواء لمواجهة الأزمة في مصر!».

وسمع السفير البريطاني في القاهرة بالمقابلات التى كانت تجرى بين أطراف أمريكية (مخابرات ودبلوماسيين) وبين «مرتضى المراغى»، وأحس أن واجبه يفرض عليه (بدوره) أن يسعى ويقابل وزير الداخلية، وأمكن ترتيب المقابلة فعلا، وكتب السير «رالف ستيفنسون» إلى وزير الخارجية البريطاني «أنتونى إيدن» تقريرا (٨٧١/ ١٥٥/ ١٠١٨) يقول فيه:

«قال لى «المراغى» إنه لا يتوقع أن «نجيب الهلالى» (باشا) سوف يظل في رئاسة الوزارة طويلا، وعلى وجه اليقين فإن عمر وزارته لن يتعدى شهر أكتوبر القادم، وعندما تذهب وزارته فسوف تحل محلها «وزارة كفاءات» تحظى بتأييد بعض الشخصيات السياسية. ومن المستحسن أن تقوم هذه الوزارة بعملية باهرة Spectacular مثل توزيع بعض أراضى الدولة على نحو ما حدث في إيران أخيرا، كذلك يجب أن تتوافق هذه العملية مع إصلاح إدارى محسوس».

قال لى «المراغى»:

«إنه كوزير للحربية والبحرية يعتبر نفسه مسئولا عن الروح المعنوية للقوات المسلحة، وهو يشعر أن هذه القوات في حالة إحباط لأنها تعانى نقصا شديدا في المعدات والأسلحة، وذلك يجعل الضباط يتكلمون، ويتجه كلامهم بالضرورة إلى أحوال السياسة.

وقلت للمراغى: «إننى سوف أفضى له بسر يعلمه الملك «فاروق» ويعلمه رئيس الديوان «حافظ عفيفى»، وهنا أطلعته ـ على وعد منه بالكتمان ـ بذلك العرض الذى أقره (رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية) اللورد «ألكسندر» (البرقية رقم ٨٠٦ ـ الفقرة ٦)، والذى أبدينا فيه الاستعداد لتقديم بعض الأسلحة إلى الجيش المصرى».

قلت للمراغى: «إن رئيس الوزراء «نجيب الهلالى» لا يعرف بالعرض».

تحمس «المراغى» وقال لى: «إن تقديم بعض السلاح ـ حتى ولو كان في حجم رمزى ـ إلى الجيش المصرى يمكن أن يكون له الآن مفعول السحر».

أضاف السفير البريطاني في برقيته ملاحظة اعتراضية قال فيها:

«من المهم أن نلاحظ أن هذه اللهفة في الحصول على أى سلاح معناها أن المحاولات المصرية التى قام بها المصريون لشراء أسلحة أوربا قد باءت بالفشل، رغم الآمال التى علقوها عليها، والجهود التى بذلوها في هذا السبيل».

[ثم عاد «السير رالف ستيفنسون» إلى سياق تقريره:

قال لى «المراغى»: «إنه واثق من إمكانية إعادة الاستقرار إلى مصر»، وأضاف أنه «فوجئ بحجم الأموال المصرية التى خرجت من السوق المصرية بعد أحداث ٢٦ يناير، ورأيه أن الحزم هو الأسلوب الوحيد الذى تعود به الثقة، وهنا انتهزت الفرصة وسألته عن التعويضات المستحقة للرعايا البريطانيين نتيجة خسائرهم في ٢٦ يناير». وقال لى الوزير: «إننى أستطيع الاطمئنان إلى دفع هذه التعويضات، وسألته عن التحقيق في حريق القاهرة ونتائجه». وكان رده «أن أحمد حسين سوف يُعدَم شنقا»، وأنه هدد كبار معاونيه في وزارة الداخلية بأنهم إذا لم يقدموا له الأدلة المطلوبة لإدانة «أحمد حسين» فسوف يضعهم في القفص معه، وساعتها ظهرت الأدلة ـ كذلك قال لى!».

وفى برقية لاحقة أضاف السفير «أنه يبدو الآن أن شهور الصيف سوف تكون مليئة بالمناورات السياسية، وأن شيئا لن يتم حسمه قبل شهر أكتوبر».

وتظهر البرقية (١٥٦/ ١٠١٨) في ملفات الخارجية البريطانية وعليها تاشيرة بخط يد «روجر آلن» (وكيل الوزارة المختص بشئون الشرق الأوسط) يقول فيها: «يظهر أن شهور الحر الشديد في مصر تغرى كل الناس على التزام الظل أو الهرب إلى جو البحر».

ومعنى ذلك أن لندن أصبحت على اعتقاد بأن الملك سوف يستبقى ولو على مضض وزارة «نجيب الهلالى»، وفى الغالب أنه بهذا الاعتقاد صرحت وزارة الخارجية البريطانية لسفيرها في القاهرة أن يقوم بإجازته السنوية في اسكتلندا ابتداءً من أول شهر يوليو.

وكان ذلك أيضا ما أغرى الملحق العسكرى البريطاني البريجادير «جولبرن» ـ بعد التشاور مع الجانب السياسى في سفارة القاهرة ـ أن يرد بالنفى على تساؤل طرحته القيادة العسكرية البريطانية في «فايد».

فقد حدث أن الجنرال «أرسكين» والذى كان على علم بما يجرى في القاهرة من مناورات سياسية بعث يسأل:

«هل يقتضى الضعف الظاهر في الوضع السياسى المصرى وضع خطة «روديو» (قيام الجيش البريطاني باحتلال دلتا النيل والقاهرة) ـ وهل هناك احتمالات لتجدد الاضطرابات في العاصمة المصرية على نحو يماثل ما جرى في ٢٦ يناير ١٩٥٢؟».

وكان رد البريجادير «جولبرن» ـ وبموافقة من السفير السير «رالف ستيفنسون» قوله:

«ليس هناك من وجهة نظرنا ما يقتضى أى درجة من درجات رفع الاستعداد هنا في القاهرة، ونحن نرى أن رفع درجة الاستعداد قد يؤدى إلى رد فعل عكسى لأنه يثير شك السلطات المصرية التى يبذل ممثلوها وموظفوها في المحافظات كل جهدهم لضبط الأمن في المنطقة بالتعاون معنا. وإذا بدا أننا نستعد لعمل عسكرى، فإن ذلك قد يؤدى إلى ترددهم في أداء أعمالهم. ومما نراه هنا فإن تكرار ما وقع في القاهرة يوم ٢٦ يناير الأخير ليس احتمالا مرجحا في الظروف الراهنة، ومن المستحسن أن نترك المسئولين عن الجيش المصرى في القصر وفى الوزارة يرسخون علاقاتهم مع الجيش ويستاصلون عناصر الشغب فيه دون تدخل منا في هذه العملية.

والأرجح أن الموعد المحتمل الذى يصح لنا فيه مراجعة إجراءاتنا هى ما بعد فصل الصيف الذى يسترخى فيه كل شيء في القاهرة!».



مرتضى المراغى



كان الأمير «محمد على» (أكبر أمراء أسرة «محمد على» سنا ـ وولى العهد إلى أسابيع قليلة، قبل أن ينقل الملك «فاروق» ولاية العهد منه إلى طفله الوليد «أحمد فؤاد») ـ على وشك أن يقوم بإجازة الصيف، وكانت لندن محطته الأولى، ورأى السير «رالف ستيفنسون» من باب الأدب أن يودعه بزيارة شخصية، ويسمع منه بالمناسبة آخر ما لديه عن الأوضاع المصرية.

وبالفعل قام السير «رالف ستيفنسون» بزيارة إلى قصر المنيل، وقضى مع الأمير أكثر من ساعة، ثم كتب مذكرة بعنوان «تسجيل حديث» (٥٢٤/ ٣٥/ ١٠١١):

«ذهبت لزيارة الأمير «محمد على» قبل سفره إلى لندن، وقد وجدته في حالة زئير Roaring، وكان لاذعا في تقييمه للأحوال فى مصر. وذكر لى صراحة «أنه قابل «نجيب الهلالى» ونصحه أن يتمهل في المفاوضات معنا ولا يكثف ضغوطه في طلب جلاء القوات البريطانية من مصر»، والأولى من ذلك أن يركز على قضية زيادة الفساد في البلاد مع تدنى الجهاز الإدارى للدولة.

وقال لى الأمير «إنه يعرف على وجه اليقين أن الجيش ممزق بانقسامات شديدة داخله، وأن هناك خطر ثورة من جراء أعمال التحريض التى قام بها الوفد في الشهور الستة الأخيرة».

أضاف الأمير «إنه نصح رئيس الوزراء باستعادة قدر معقول من التماسك في البلد قبل أن يلح على جلاء القوات البريطانية من مصر».

حاولت أن أستوضح الأمير عن رد فعل رئيس الوزراء على ما قاله له، ولكنه قفز على سؤالى، وواصل حديثه بـ: «إنه سوف يخبرنى شريطة أن أقسم له على الكتمان، فقد أفضى إليه وزير الداخلية «مرتضى المراغى» بانه أبلغ الملك «فاروق» بكل وضوح أن الثورة سوف تندلع في مصر في ظرف شهور إذا حصل جلاء القوات البريطانية عن الأراضى المصرية».

وحاولت مرة أخرى أن أسأل الأمير عن رأى وزير الداخلية في رد فعل الملك «فاروق» إزاء ما سمعه منه، وما إذا كان سوف يعدل من سياساته على هذا الأساس؟

ورد الأمير «بأن «مرتضى المراغى» كان مهتما بأن يصل تحذيره إلى الملك».

يختم سير «رالف ستيفنسون» مذكرته

«تسجيل حديث» بقوله: «بقية كلام الأمير تركزت كلها حول كراهيته التقليدية للملك «فاروق»، وأطرف تعليق سمعته منه - قوله:

«إن «فاروق» نزع منى لقب ولى العهد، وأنا سعيد أنه لن يحصل على لقب «ملك السودان» (بفكرة وضع السودان تحت التاج المصرى) - لقد حُرم من اللقب الذى كان يحلم به - كما حُرمت من اللقب الذى كان عندى!».

وهكذا فإن الملك «فاروق» كانت لديه مطالب متعارضة:

يرى أن وزارة «نجيب الهلالى» «غرقت فى الورق» (على حد قوله) - ويفكر جديا فى تغييرها، لكنه لا يعرف كيف يغير؟ - ولا بمن؟ - ولا متى؟ - وقبل الصيف أو بعده، وخصوصا أن أمامه مشروع إجازة فى أوربا يحلم بها. والمدهش أن حلم الملك بإجازة فى أوربا قاده دون أن يتنبه إلى منزلق وقع به فى حفرة لم يستطع أن يخرج منها، حتى غادر مصر إلى أوربا ملكا مخلوعا عن عرشه، وليس ملكا فى إجازة صيف!

٩ «أغرب من الخيال!»

كانت قصة طرد وزارة «نجيب الهلالى» (باشا) أغرب من الخيال، ولذلك فقد يكون من الأنسب نقل تفاصيلها الكاملة من الوثائق البريطانية. (ومع أن الوثائق الأمريكية والفرنسية تعرضت للقصة وروت الكثير عن وقائعها، فإن الوثائق البريطانية تبدو أكمل وأدق لسبب واضح، وهو أن مكتب وزير الخارجية البريطانية ألح فى طلب كل المعلومات التى يمكن جمعها حول الموضوع).

والملف البريطاني بشأن قصة إقالة «الهلالى» متضخم، تتكدس داخله مجموعة أوراق أولها برقية عاجلة (أولوية - سرى) من المكتب الخاص لوزير الخارجية «أنتونى إيدن» إلى السفير البريطانى فى القاهرة:

«بالإشارة لبرقيتكم رقم ٩٨٨، يطلب المكتب الخاص لوزير الخارجية ملفا كاملا بكل الوقائع السياسية والمالية التى أدت إلى استقالة وزارة «الهلالى».



ويواصل مكتب وزير الخارجية طلبه فيقول:

«نحن نتصور أنه فى مرحلة من المراحل لابد من نشر شىء عن الوقائع، لأن ما نسمعه عنها لا يصح أن يظل مكتوما. نرجوكم أن تحددوا فى تقريركم ما الذى ترونه غير قابل للنشر الآن، وأيضا مقترحاتكم بشأن حماية المصادر».

وكذلك أعدت السفارة البريطانية فى مصر بجهد جماعى شارك فيه عدد من الدبلوماسيين والعاملين فيها ملفا خاصا بدأ بتقرير يلخص الوقائع ويربطها ببعضها، ويمضى التقرير (١٤٥٣/ ١٤١):

«لابد من التحفظ بأنه سوف يمر وقت قبل أن نتمكن من جمع كل المواد الكافية لإعداد الملف الذى طلبتموه بشأن ملابسات سقوط وزارة «الهلالى»».

وفيما نعرفه الآن فإن نهاية وزارة «الهلالى» وقعت نتيجة لمؤامرة بين «مجموعة فى القصر» وبين المليونير «أحمد محمد عبود» (باشا).

وملخص الوقائع أمامنا الآن على النحو التالى:

١ - أن حكومة «الهلالى» راحت تطالب «عبود» (باشا) بضرائب متأخرة مقدارها خمسة ملايين جنيه، ناشئة عن أرباح ورسوم إنتاج مستحقة على شركة السكر التى يملكها. وكان واضحا أن وزير المالية والاقتصاد فى وزارة «الهلالى» - وهو الدكتور «زكى عبد المتعال» - مصمم على أن تتقاضى الحكومة مستحقاتها من «عبود» بالكامل، وإلا حجزت على الشركة حتى تستوفى حقوقها. وبالطبع فإن «عبود» أحس بالخطر، وراح يشكو أن الوزارة تريد أن تستولى على شركته وتُصادر مصانعه، وذلك يسبب له مشاكل مالية كبرى لا تتأثر بها مصالحه فى شركة السكر وحدها، وإنما فى غيرها كذلك. والدليل أن أسهم شركة السماد التى يملكها فقدت أخيرا جزءا كبيرا من قيمتها، وهذا معناه فى نظر «عبود» أنه واقع فى مرمى نيران متقاطعة، من حكومة تطارده، فى ظروف اقتصادية صعبة بالنسبة للجميع.

وفى الوقت نفسه فإن الضغط على «عبود» بهذه الشدة، جعل أصدقاءه من وزراء الوفد (وغيرهم) يشعرون بالقلق من أن التحقيق مع «عبود» يكشف دفاتره وأوراقه، مما يفضح وقائع تمسهم، ويؤدى إلى توجيه اتهامات محددة لهم.

٢ - أن «أحمد عبود» (باشا) وبتأثير قلقه من ضغوط الوزارة عليه، رأى أن يُفاتِح القصر باستعداده لدفع مليون فرنك سويسرى (ما يساوى وقتها مليون جنيه) - إذا خرج «نجيب الهلالى» من الوزارة، وأقضى «عبود» (باشا) بهذا العرض لصديقه «إلياس أندراوس» (باشا) بعد أن بلغه أن الملك «فاروق» طلب من «إلياس أندراوس» (مستشاره للشئون المالية) أن يوفر له مبلغ مليون فرنك سويسرى لتغطية مصاريف إجازته المُقبِلة فى أوربا (حتى لا يسحب من أرصدة الخاصة الملكية).

وقد تناقضت المعلومات التى بلغتنا فى هذا الشأن بين تأكيد بأن «عبود» هو الذى بدأ وعرض المبلغ - وتأكيد مقابل بأن «أندراوس» هو الذى طلبه من «عبود» «فى مقابل شطب ضرائبه»!

وقد بلغنا كذلك من مصدر موثوق أن عملية جس النبض بشأن الصفقة بدأت عندما التقى «عبود» (باشا) مع كل من «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» فى أوربا بداية هذا الشهر (يونية ١٩٥٢).

وذلك يفسر لنا ما نقله إلينا أحد المصادر على لسان «عبود» «عن ثقته أن وزارة «الهلالى» فى طريقها إلى «الخروج»، لتحل محلها وزارة لا تطالبه بمتأخرات ضرائب، وإنما على العكس تقدم دعما لشركاته التى تعانى من آثار حريق القاهرة».

٣ - أنكم تعلمون أن مبلغ المليون فرنك سويسرى الموجه إلى حساب خاص فى «جنيف» تم رصد تحويله بواسطة غرفة المقاصة فى نيويورك، وقامت الحكومة الأمريكية بالإخطار عنه بناء على تأكيد إضافى حصل عليه الوزير الأمريكى المفوض فى سويسرا، وكذلك تم رصد تحويلات مفتوحة بمبلغ ٢٥٠ ألف جنيه إلى حسابات باسم «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» و«أنطون بوللى».

ويظهر أن خبر تلك التحويلات المفتوحة من حساب «عبود» إلى حسابات «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» و«أنطون بوللى» - وصل إلى «نجيب الهلالى» عن طريق الدكتور «زكى عبد المتعال» الذى عرف به من «شخصية بنكية».

وكان الدكتور «زكى عبد المتعال» قد شكا أكثر من مرة ولرئيس الوزراء، أن «أنطون بوللى» (بك) يطلب تحويل مبالغ كبيرة بالدولار إلى سويسرا، وأن تحويلها يتم إلى حساب خاص فى «لوزان».

٤ - وطلب «الهلالى» مقابلة الملك «فاروق» وأخذ معه مذكرة بما لديه عن تحويلات «عبود» باسم «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» و«أنطون بوللى»، وعرض عليه الموضوع (ووقتها لم يكن «نجيب الهلالى» يعرف أن الملك شخصيا على علم بالصفقة ومشارك فيها - !! - وحتى عندما نبهه الدكتور «زكى عبد المتعال» إلى هذا الاحتمال فإن «الهلالى» استبعده غير مصدق).

وقد طلب «الهلالى» من الملك - ترتيبا على ما عرضه عليه - أن يتم الاستغناء عن خدمات الثلاثة: «كريم ثابت» - «إلياس أندراوس» - «أنطون بوللى»!

ورفض الملك طلب رئيس وزرائه، بحجة أن هذه الاتهامات مجرد شائعات، وأن المعلومات الخاصة بهم مُلفقة، وأن هؤلاء الثلاثة الذين يطالب بإخراجهم أخلص الناس فى خدمته، ولا يستطيع أن يستغنى عنهم!

وكان على «الهلالى» أن يقرر لنفسه ما يريد، وكان قراره أن يستقيل، وقد علمنا أنه أبلغ الملك بعزمه على «أنه فى شعوره بأن ثقة جلالة الملك اهتزت - لم يعد يجد أمامه تصرفا لائقا غير أن يضع استقالته تحت تصرف «جلالته»!



كان «نجيب الهلالى» (باشا) بعد مقابلته للملك رجلا فى محنة حقيقية.

■ من ناحية - كذلك قال بنفسه وسمعت منه مع الدكتور «محمود محفوظ» - «فإنه كان سعيدا أن يرفع عن كتفيه هذا الحمل الثقيل، وهو لم يكن يريده من البداية، لكنه اضطر على عكس «فكره» أن يقبل متصورا أنه يؤدى مهمة وطنية».

■ ومن ناحية أخرى «فإنه محزون ومغموم لا يتصور أن المسائل (دون تفاصيل) - وصلت إلى هذه الدرجة».

وطبقا لشهادة «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان فإن «نجيب الهلالى» (باشا) خرج من مكتب الملك يسأل عن «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان، ولم يجده هناك، وتوجه إلى مكتب وكيل الديوان يخطره «بأنه رفع استقالته إلى جلالة الملك، وأنه عائد إلى بيته بعد خطاب استقالته، ويبعث به إلى الديوان». وكان «حسن يوسف» يتابع الأزمة لكنه لم يتصور نهاية لها بهذه السرعة، وقد سأل «نجيب الهلالى» عن السبب الذى دعاه إلى تأزيم الأمور إلى هذه الدرجة وتقديم استقالته! وكان فى استطاعته وهو رجل «قدير وحكيم»، وفى موقف «أخلاقى قوى» أن ينبه الملك إلى أن بعض رجال حاشيته يسيئون إليه، ورد «نجيب الهلالى» قائلا: «من الأفضل أن أقدم استقالة قبل أن يصلنى خطاب إقالة!».

ومع أن «حسن يوسف» نفسه كان من ذات الرأى فيما يتعلق بضرر الحاشية المحيطة بالملك عليه وعلى العرش، فإن «نجيب الهلالى» كان فى حالة صدمة شديدة.

....

[وبعد ثلاثة أيام لقيته (والدكتور «محمود محفوظ» والأستاذ «فريد زعلوك») فى بيته فى الإسكندرية



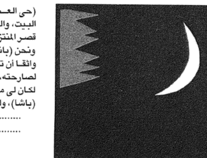
فاروق



عبود

الهلالى

الساعة تدق منتصف الليل!



رأى «أحمد عبود» (باشا) وبتأثير قلقه من ضغوط الوزارة عليه، أن يُفاتح القصر باستعداده لدفع مليون فرنك سويسرى (ما يساوى وقتها مليون جنيه). إذا خرج «نجيب الهلالى» من الوزارة، وأفضى بهذا العرض لصديقه «إلياس أندراوس» (باشا) بعد أن بلغه «أن الملك «فاروق» طلب من «إلياس أندراوس» (مستشاره للشئون المالية) أن يوفر له مبلغ مليون فرنك سويسرى لتغطية مصاريف إجازته المقبلة فى أوربا

(حى العصافرة) ـ وكنا نجلس في شرفة البيت، والشرفة بارزة على رأس منحنى يظهر قصر المنتزه قريبا منه، وقال «نجيب الهلالى» ونحن (باندفاع الشباب) نستثيره: «لو كنت واثقا أن تأثير السوء عليه من الحاشية لصارحته، ولو كنت متأكدا أن السوء من داخله لكان لى موقف آخر» (وسكت «الهلالى» (باشا)، ولم يحاول أحدنا أن يلح عليه أكثر].

....

....

وظل «حسن يوسف» في مكتبه، وراح يحاول أن يتصل بالملك تليفونيا، لكنه لم يستطع، وظل يكرر المحاولة على أمل أن يتمكن من «عرض وجهة نظر أخرى» قبل أن تصله الاستقالة المكتوبة من «نجيب الهلالى» (باشا) ـ وفى نفس الوقت فإن «حافظ عفيفى» (رئيس الديوان) الذى عرف بما جرى من «حسن يوسف»، جرب بدوره أن يتصل بالملك. وبعد أربع ساعات جاء «محمد حسن» (المكلف بالخدمة الشخصية لفاروق) يقول له: «إن مولانا سوف يطلب «معاليكم» بعد ربع ساعة». وفوجئ «حافظ عفيفى» (وفق ما رواه لنجيب الهلالى) فور أن رفع سماعة التليفون ـ بصوت «فاروق» يقول له «لا داعى لأن تتكلم في موضوع «الهلالى»، هو «وقع في الغلط» وأنا قبلت استقالته»، والموضوع الأهم الآن من يجيء بعده؟، واستطرد الملك يقول «خوجات المدارس والمحامين لا ينفعون في الظروف الحالية، ونحن في حاجة إلى «رجل جدع»، وأنا أفكر في «حسين سرى».» ولم يستطع «حافظ عفيفى» أن يلزم الصمت، فقال للملك ما مؤداه «أنه يرجو ويتوسل أن يفكر «جلالة الملك» في أى مرشح آخر إلا «سرى» بالذات، لأن «سرى» ـ وكل الناس يعرفون ـ هو رجل «عبود» (باشا)، وإذا جاء في هذه الظروف وفى هذه الأجواء المليئة بالإشاعات والافتراءات، وبعد التحقيقات التى قام بها «زكى عبدالمتعال» في موضوع الضرائب المستحقة عليه، فإن ألسنة السوء لن تسكت».

ورد الملك قائلا: «ونحن مالنا» ـ ورد «حافظ عفيفى» بما معناه «استسماح مولانا بأن الرأى العام ـ وحتى السفارات الأجنبية كلها في البلد سوف تذهب في تفسير اختيار «سرى» (باشا) في هذه الظروف، إلى ما نحن في غنى عنه».

وانتزع «حافظ عفيفى» وعداً من الملك بأنه سوف يفكر، وعليه هو الآخر (حافظ عفيفى) أن يفكر، وإذا كان يعترض على «سرى» ـ فعليه أن يتقدم بمرشح بديل. واتصل «حافظ عفيفى» بحسن يوسف (وكيل الديوان) ـ قائلا له: (وفق شهادته) «يظهر أنه لا فائدة في مسألة «نجيب الهلالى» ولم يبق غير أن تتصل به للحصول على نص خطاب استقالته، وأن «يعدوا» في الديوان ردا مناسبا لإرساله إلى المكتب الخاص بطلب الموافقة. وطرح «حافظ عفيفى» أن المسألة العاجلة الآن هى مرشح بديل لرئاسة الوزارة جاهز لعرض اسمه على جلالة الملك لأنه قد يتصل للسؤال في أى وقت. (وطبقا لشهادته) فإن «حسن يوسف» (باشا) لا يتذكر أيهما (هو أو «حافظ عفيفى») هو الذى خطر له أولا اسم «بهى الدين بركات» (باشا).

كانت سمعة «بهى الدين بركات» (باشا) طيبة، كما أنه ظل محافظا على حيدته وسط تيارات متضاربة، وكانت قرابته بسعد زغلول ـ باعتبار أن زعيم الوفد الأكبر خاله، وأن «فتح الله بركات» (باشا) والده ـ وذلك يحيطه بنوع من الاحترام زاد منه أن الرجل كان قليل الكلام إلى درجة ملفتة (ولم يعرف كثيرون أن قلة كلامه كانت راجعة إلى ضعف سمعه لدرجة الصمم، وكان ذلك يجعله طويل الصبر على السماع لأنه لا يريد أن يرد على ما لم يسمع، كما أن كبرياءه لا تسمح له بأن ينبه جُلساءه إلى مشكلته).

وكان حزب الوفد هو المكان الطبيعى لرجل مثل «بهى الدين بركات»، لكن الرجل راكم في نفسه عداءً شديدا لحزب الوفد، لعل مبعثه أن والده وهو أقوى المرشحين لخلافة «سعد زغلول» بعد وفاته ـ سقط أمام «مصطفى النحاس» (باشا) بعد أن آثر الكبار في الحزب اختيار مرشح ظنوه ضعيفا يستطيع من يسبق منهم أن يسيطر عليه، وكانت الذريعة العلنية لكبار الوفديين «أن اختيار «بركات» رغم أنه الأصلح ـ قد يحول خلافة «سعد» إلى إرث عائلى».

وكذلك فشل «فتح الله بركات» (باشا) في الحصول على زعامة الوفد، كما فقد ابنه اهتمامه بالحزب، وظل ناقدا طول الوقت لزعمائه، معترضا باستمرار (في توتر مكتوم) على سياساتهم.

وكان هناك سبب آخر في اعتزال «بهى الدين بركات»، فهو رجل ثرى، ومالك أراض شاسعة، وقد تنبه قبل غيره من كبار المُلاك، فترك زراعة القطن واتجه إلى زراعة الفاكهة ـ وذلك جعله مستغنيا قادرا على التباعد عن السلطة!

وكان «حافظ عفيفى» (باشا) هو الذى بادر واتصل بالمكتب الخاص (محمد حسن) يطلب أن يوصله «بجلالة الملك» ـ وفى هذه المرة تحقق الاتصال على الفور.

وطبقا لرواية «حافظ عفيفى» لـ «نجيب الهلالى» «فإنه لم يظهر أن الملك فوجئ باسم «بهى الدين بركات»، فهو اسم تكرر طرحه في أكثر من أزمة وزارية كمرشح لوزارة مستقلة أو وزارة انتقالية»، وقد استمع الملك في هدوء إلى مبررات «الديوان» في عرض اسم «بهى الدين بركات»، وفى نهاية حديث تليفونى استغرق حوالى عشر دقائق، قال الملك «إنه سوف يفكر»، وفى ظرف نصف ساعة كان الملك بنفسه هو الذى طلب «حسن يوسف» (باشا) وسأله: «هل تظن أن «بهى الدين بركات» ينفع؟ وهل تعتقد أنه مستعد؟». وبالنسبة للسؤال الأول كان رد «حسن يوسف» «إن بركات ينفع بالتأكيد، وأما



حافظ عفيفى

إذا كان مستعدا فذلك يصعب التحقق منه إلا إذا فوتح الرجل بناء على «توجيه من مولانا» ».

ورد الملك بما مؤداه «طيب اتصلوا به واسألوه». ثم أضاف «ولكن الظروف لا تحتمل إضاعة وقت، وإذا كان يستطيع أن يكون جاهزا ظهر غد بوزارة نوافق عليها، فأنا مستعد أن أقول له «تفضل لنرى شطارتك»!».

ومع أن ما سمعه «حسن يوسف» (باشا) كان أمرا ملكيا غريبا بمفاتحة رجل بتكليف وزارة في لحظة أزمة، فإن «حسن يوسف» لم يتوقف كثيرا ليتأمل، وإنما كان شعوره «ما صدقنا أن يوافق الملك على ترشيح «بهى الدين بركات» ».

وهكذا توجه وكيل الديوان في الساعة السابعة مساءً إلى بيت «بهى الدين بركات» (باشا) على طرف كوبرى عباس في الجيزة، يعرض عليه رئاسة الوزارة. وفيما يذكره «حسن يوسف» (باشا) أن «بهى الدين بركات» لم يمانع كثيرا وذلك أدهشه (لكن «حافظ عفيفى» (باشا) كان له تفسير مؤداه «أن «بهى الدين بركات» كان رغم تباعده يشعر أنه يستحق دورا في السياسة المصرية لم يتح له»، وقد انتظر هذا الدور طويلا ووصل إلى سن الرابعة والستين، دون أن يصله استدعاء، ومع تقدم السن فإن «بهى الدين» (باشا) زاد شعوره بضياع الفرصة، وتبدت تصرفاته، مثل «عانس سياسى متلهف»).

وكان المهم أن «بهى الدين بركات» (باشا) قَبِلَ التكليف، والأهم أنه تفهم دواعى العجلة في سرعة التشكيل، وكانت الأسماء المقبولة تكاد تطرح نفسها، وبالفعل فإنه قبل الساعة الحادية عشرة والنصف ـ وبعد أن تدخلت زوجته «هدية هانم» تطلب منه أن يستريح لأن أمامه في الغد يوما طويلا ـ كان رئيس الوزراء المكلف قد اتصل فعلا بعدد من المرشحين يستطلع استعدادهم «قبل أن يعرض قائمته على القصر».

وأوى «بهى الدين بركات» (باشا) إلى فراشه.

واستيقظ في الساعة السادسة والنصف، وإذا جرائد الصباح تطالعه بخبر وصلها بعد منتصف الليل بأن «حسين سرى» (باشا) كُلفَ بتشكيل وزارة جديدة، وأن أعضاء هذه الوزارة سوف يقسمون اليمين الدستورية أمام الملك بعد ظهر هذا اليوم!

(ومما يستحق الملاحظة أن «مايكل كرسويل» الوزير المفوض في السفارة البريطانية ذهب بعدها بأيام ليقابل «بهى الدين بركات» (باشا) ـ ثم نقل عنه في تقرير إلى لندن (٢٤/ ٧٠/ ١٠١١) قوله: «إن أحدا لم يعد يجادل في أن الملك «فاروق» هو أصل المتاعب في مصر، وأن مصر لن ينصلح حالها طالما الملك مستمر في سلوكه المعروف ـ مُحاطا بهذه الحاشية التى تحيط به طول الوقت وأولهم «كريم ثابت»، وهو لا يرى وسيلة للخلاص»، ثم يتواصل الحديث بين القائم بالأعمال البريطاني وبين «بهى الدين بركات» (باشا)، وينقل «كرسويل» في تقريره عن «بركات» (باشا) قوله: «إنه مع الأسف الشديد على استعداد لأن يوافق مع كثيرين يرون أن بقاء الجيش البريطاني في قاعدة قناة السويس يشكل الضمانة النهائية للاستقرار في مصر، وهو Ultimate Guarantee أكثرها مدعاة للأمان!»).

٦ «فاروق لم يكن عبيطا»!

كان «كريم ثابت» هو الذى أبلغ جريدة الأخبار بأن جلالة الملك وجه التكليف برئاسة الوزارة الجديدة إلى «حسين سرى» (باشا) - وقد حرص على أن يكون ذلك فى آخر فرصة تستطيع فيها صحف الصباح أن تلحق بالخبر. وكان «كريم ثابت» أيضا هو الذى اتصل برئيس الديوان وبوكيل الديوان بعد منتصف الليل يخطرهما بالقرار الملكى «الأخير» فى شأن «التغيير»!

وكانت الأجواء فى القصر ذلك الصباح ثقيلة وكئيبة (ولم يشأ «حسن يوسف» (باشا) فى شهادته أن يدخل فى تفاصيل ما جرى فى القصر ذلك الصباح، وسواء كان ذلك عن شعور منه بالحرج لموقفه وموقف رئيس الديوان يومها، أو لأنه لم تكن فى علمه تفاصيل كافية) - ومع ذلك فإن ما ظهر من شكل الحوادث كانت فيه الكفاية:

١ - فقد ظهر أن الملك - هكذا قال - اقتنع فى الليل بأن «بهى الدين بركات» ليس «رجل الموقف»، وأن «حسين سرى» هو الأقدر على ضبط الأمور، خصوصا إزاء الوفد ومحاولاته للتهييج.

٢ - أن «حسين سرى» تعهد لكريم ثابت بأنه لن يسمح للوفديين بأن يستغلوا الأزمة بأى شكل من الأشكال، ولن يسمح بأن تتحول وزارته (كما يظن بعضهم فى القصر وخارجه أيضا) - إلى كوبرى يعود عليه الوفد إلى الحكم «بصفقة من نوع ما».

٣ - أن «حسين سرى» سوف يمسك الأمن فى البلد بيد من حديد، وأنه فى الوقت المناسب سوف يعلن تأجيل موعد الانتخابات (المقررة فى أكتوبر القادم) إلى أجل بعيد - ليس قبل يناير ١٩٥٣.

وأن ذلك يوفر لكل الأطراف صيفا هادئا تستريح فيه الأعصاب وتتبلور المواقف ويصفو التفكير.

وفيما يتبين من ثنايا الوقائع أنه فى لحظة من اللحظات وصل الشعور بالإحراج لدى رئيس الديوان الملكى ووكيل الديوان - حدا دعاهما إلى وضع استقالتهما تحت تصرف الملك الذى بدا من تغيير قراره فى شأن رئاسة الوزارة «أنه فقد ثقته فيهما» - ولكن الملك رفض استقالة رئيس الديوان ووكيله، وأصر على رفضه، وعندما تصور أنه مدين لهما بإيضاح عن سبب تغيير رأيه كان ملخص ما قاله لهما:

«إن مرشحه الأصلى لرئاسة الوزارة كان «حسين سرى» لأنه يقدر على إسكات الجميع، لكنه قَبِلَ اقتراح وزارة يرأسها «بهى الدين بركات» لأنه خشى - بعد كل ما انتشر فى البلد من إشاعات - أن يتصور أحد أن مجىء «حسين سرى» يؤكد «الإشاعة» عن دور «أحمد عبود» فى إسقاط وزارة «الهلالى». وبعد أن عرف الناس أن التكليف وجه أولا إلى «بهى الدين بركات»، واتضح أن الموقف أكبر منه، فإن عودة التكليف إلى «حسين سرى» تبدو خيارا ثانيا «اضطر إليه القصر» بعد أن عجز مرشح «الاختيار الأول» - وكذلك يتحقق نفى الإشاعة من أولها لآخرها».



وطبقا لرواية «حسن يوسف» فإنه سمع بهذا التفسير من الملك، كما سمعه رئيس الديوان، ولم يقتنع أيهما فى أعماقه بأن ذلك المنطق يستقيم، «ولكنه كان الغطاء الذى أراد به الملك أن يستر قراره».

وقد تجاوز الرجلان خلل المنطق «الملكى» عندما فوجئا بما هو أسوأ، ذلك أن الملك طلب من «حسين سرى» (باشا) تعيين كلا من:

- «كريم ثابت» وزيرا للدولة!
- و«إلياس أندراوس» وزيرا للمالية والاقتصاد!
- و«حسين سرى عامر» وزيرا للحربية والبحرية!

(كان تعليق «حسن يوسف» (فى شهادته) «أن ذلك لو تم لاستوجب ما هو أكثر من الاستقالة». وحين سألته عن هذا الذى هو أكثر من الاستقالة، قال الرجل وصوته فى تسجيل اللقاء جلى: «الهاراكيرى» على الطريقة اليابانية، وأضاف «ولو أن الإسلام يحرم الانتحار»).

وأبدى رئيس الديوان ووكيل الديوان اعتراضهما، ولكنهما وجها الاعتراض إلى «حسين سرى»، رغم أن «حسين سرى» نفسه أكد «لحافظ عفيفى» و«حسن يوسف» أن الترشيحات من «جلالة الملك»، وأنه هو نفسه لا يوافق عليها، لأنه بالنسبة «لكريم ثابت» و«إلياس أندراوس» - فإن ترشيحهما سوف يفتح الباب للقيل والقال بغير داع.

وأما بالنسبة «لحسين سرى عامر» فهو شديد القلق مما يجرى فى أوساط الجيش ومما يبلغه خبره من ابن شقيق له هو القائمقام «إسماعيل سرى» من سلاح الفرسان.

وفى رأى «سرى» (باشا) أن كل المصائب يمكن تداركها، ولكن الجيش هو الكارثة التى لا حيلة له فيها، ثم إن وضع «حسين سرى عامر» بالذات هو بؤرة الاستفزاز فى القوات المسلحة، وهذا الضابط منذ سقوطه فى انتخابات رئاسة نادى الضباط (فى ديسمبر ١٩٥١) - وحتى محاولة اغتياله الفاشلة (فى مايو ١٩٥٢) - أصبح اسمه فى حد ذاته - بالحق أو بالباطل! - هو الشال الأحمر الذى يلوح به مصارع الثيران أمام الثور الهائج!



فـــاروق



فى رأى «سرى» (باشا) أن كل المصائب يمكن تداركها، ولكن الجيش هو الكارثة التى لا حيلة له فيها، ثم إن وضع «حسين سرى عامر» بالذات هو بؤرة الاستفزاز فمنذ سقوطه فى انتخابات رئاسة نادى الضباط (فى ديسمبر ١٩٥١) - وحتى محاولة اغتياله الفاشلة (فى مايو ١٩٥٢) - أصبح اسمه فى حد ذاته هو الشال الأحمر الذى يلوح به مصارع الثيران أمام الثور الهائج!



والذى حدث بعد ذلك أن الملك أصر على تعيين «كريم ثابت» وزيرا للدولة، وأجل فى الوقت الحالى طلبه بتعيين «إلياس أندراوس» وزيرا للمالية والاقتصاد (حتى لا يكثر القيل والقال).

وأما بالنسبة لمنصب وزير الحربية والبحرية، فإن «حسين سرى» (باشا) بدأ مع الملك فاقترح اسم اللواء «محمد نجيب»، وفوجئ برفض قاطع من الملك، وفى المقابل فإن «حسين سرى» توصل إلى إقناع الملك بأن يتمهل عليه ولا يصر هذه اللحظة على تعيين «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية والبحرية. ورغم أن «سرى» (باشا) حاول إقناع الملك بأن صهره «محمد هاشم» (باشا) التقى باللواء «نجيب»، ووجد أن الرجل إلى جانب سمعته الطيبة بين ضباط الجيش - يكن إخلاصا لاشك فيه للعرش وللملك، إلا أن «فاروق» ظل على رأيه كما حدث عندما عرض عليه «الهلالى» (باشا) اسم اللواء «نجيب» قبل ثلاثة شهور.

وفى وسط الزحام رأى «مرتضى المراغى» وقد كانت فى عهدته الداخلية والحربية - أنه لا يجد لنفسه مكانا مناسبا فى الوزارة الجديدة.

من ناحية لأن رئيس الوزراء لم يكن مستعدا لأن يعرض عليه وزارة الداخلية - يريد فيها صهره وموضع ثقته «محمد هاشم» (باشا).

ومن ناحية أخرى لأن الملك يريد «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية، وقد قَبِلَ بحل وسط مؤقت يقضى بأن تكون تلك الوزارة فى عهدة رئيس الوزراء حتى يتم التوصل إلى قرار.

....

....

[ومن المهم أن أضيف هنا أننى سمعت بعض التفاصيل من «حسين سرى» (باشا) نفسه، وكان ذلك أثناء لقائنا فى بيته فى شارع «شجرة الدر» (وهو الآن مقر لسفارة تونس)، وهو لقاء جرى بعد عودتى معه (ونحن جيران فى شارع شجرة الدر بالزمالك) من حفل استقبال أقيم بمناسبة أول زيارة قام بها الملك حسين (ملك الأردن السابق) إلى مصر لأول مرة بعد ثورة يوليو.

وقتها (ديسمبر ١٩٥٣) كانت الحوادث قريبة، وكانت المشاهد حية فى ذاكرة من عاشوها، وقال «حسين سرى» (وسجلت كلامه بعدها) «أنه فوجئ برد فعل الملك عندما اقترح عليه اسم اللواء «محمد نجيب» وزيرا للحربية والبحرية فى وزارته. وبرغم أنه لم يقابله بنفسه إلا أنه اعتمد على حكم صهره (زوج ابنته) «محمد هاشم» عليه، وأن «هاشم» قابله بنفسه أكثر من ساعتين»!

كان رد فعل الملك الذى استغربه «سرى» (باشا) هو قوله «آسف أن أقول لك «يا باشا» أنكم لا تعرفون شيئا عما يجرى فى البلد. رئيس الوزراء الذى سبقك (يقصد «نجيب الهلالى») جاءنى أيضا ومعه اسم «محمد نجيب» مرشحا لوزارة الحربية، ولم يكن يعرفه مثلك».

واستطرد الملك (رواية «سرى» (باشا))

«أنا أعرف ما يجرى فى البلد، بعضكم يظن أننى لا أتابع، وهذا



القائم بالأعمال البريطاني في القاهرة «كرسويل» يبلغ رئيس الديوان «حافظ عفيفى» (باشا) بأن حكومته تشعر بالصدمة إزاء المعلومات التى بلغتها عن أسباب تغيير وزارة «الهلالى» (باشا)، وأن السفير الأمريكى (ممثلا لحكومته) يشعر بنفس الشعور. وأنه يرى أن مصلحة مصر لا تتفق مع هذا المستوى من التصرفات التى تؤدى إلى استئصال كل العناصر النزيهة في الحياة السياسية المصرية

غير صحيح - أريدك أن تعرف أنني «عارف وفاهم».

خذ علما بأن كل ما نراه يحدث في نادي الضباط ليس إلا عملية خداع - هذا استعراض جانبي.

وقد استوقفت «سرى» (باشا) أسأله أن يدقق في أن الملك وصف ما يجرى في نادى الضباط بأنه «استعراض جانبي»، ورد «سرى» (باشا) على طريقته التي تظهر الغضب إذا لم يعجبه شيء فتخرج ألفاظه وكأنها نبرة تهديد - قائلا:

«إنني أذكر تماما، بل أقول لك أنه في تلك اللحظة عبر عن رأيه بالإنجليزية مستعملا وصف "Side Show".

استطرد «حسين سرى»:

«إن «فاروق» بدا لي واثقا من أنه يعرف أكثر مما صرح به، وهو لم يخف عليّ وإن كان لم يحدد، فقد قال: «هناك من يريد إقناعنا جميعا بأن نركز الاهتمام على نادى الضباط، وقلة أدب مجلس إدارته، وعلى «محمد نجيب»، وأين يذهب؟ ومن أين يجيء؟ وماذا يقول؟، وهذه عملية خداع. هناك جماعة (ضحك «سرى» (باشا) مقاطعا نفسه وهو يستعيد تلك التفاصيل من ذاكرته تلك الليلة من ديسمبر ١٩٥٣)، واستدرك قائلا «فاروق لم يستعمل وصف جماعة، إنما أخفف الوصف وأنا أحكى لك القصة - «فاروق» استخدم وصف «عصابة»! وكان قوله «هناك عصابة» تحاول إقناعنا أن نركز جهدنا على نادى الضباط و«نجيب» - لكى تستغفلنا في لحظة وتنفذ مؤامراتها».

وأكمل الملك كلامه:

«ولكن عليكم أن تطمئنوا جميعا لأنني الآن أعرف وسوف أتصرف».

قال الملك بعدها «إنه لن يقبل بترشيح «نجيب» »:

- أولا لأنه لا يثق فيه.
- وثانيا لأنه يريد أن يترك «العصابة» التي تحرك استعراض نادي الضباط (الجانبي) - تتصور أننا لا نزال نهتم ونجرى وراء ما يقولونه ويفعلونه في النادي.

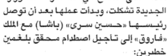
واستدرك الملك يقول لسرى (باشا) (طبقا لروايته): «على فكرة يا باشا لقد أجلت السفر إلى أوربا، حتى نعرف من الذى يحرك الفوضى في الخفاء، ثم نضرب ضربتنا».

علق «سرى» (باشا) أثناء حديثنا في ديسمبر ١٩٥٣، وهو مازال يحكى ما حدث قبلها بسنة ونصف السنة قائلا:

«الصحف كلها الآن (سنة ١٩٥٣) تحاول أن تصف «فاروق» بأنه كان رجلا «أبله» - هذا غير صحيح. «فاروق» لم يكن «عبيطا» - «فاروق» كان ذكيا جدا، لكن المشكلة أن ذكاءه انصرف إلى «الشر»!.]

....

....



ومع أوائل يوليو ١٩٥٢، كانت الأمور تبدو هادئة على السطح في القاهرة، فالوزارة الجديدة تشكلت، وبدأت عملها بعد أن توصل رئيسها «حسين سرى» (باشا) مع الملك «فاروق» إلى تأجيل اصطدام محقق بلغمين خطيرين:

- لغم تعيين «إلياس أندراوس» وزيرا للمالية.
- ولغم تعيين «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية.

إلى جانب أن رئيس الوزراء الجديد التقى بالوزير المفوض البريطاني «مايكل كرسويل»، لأن السفير السير «رالف ستيفنسون» الذى توقع صيفا حارا ورطبا - وليس أكثر - قرر البدء في إجازته التى استأذن فيها وسافر فعلا إلى اسكتلندا، وأكد له:

«إن الأحكام العُرفية باقية، وإن الانتخابات البرلمانية مؤجلة إلى أجل غير مسمى وليس إلى أكتوبر القادم كما كان مفهوما».

وبالإضافة إلى ذلك فإن «حسين سرى» (باشا) أطلق سراح «فؤاد سراج الدين» بعد أن عرف أن «النحاس» (باشا) وقرينته سوف يسافران إلى «اكس ليبان» (في فرنسا للاستشفاء) - وأن «فؤاد سراج الدين» إذا خرج من المعتقل سوف يذهب معهما (وكان ذلك تأكيد «أحمد عبود» (باشا) لرئيس الوزراء)!

وبالتالي فإنه يمكن انتظار صيف هادئ.

....

....

لكن عاصفة هبت فجأة في لندن، ذلك أن جريدة «التيمس» البريطانية وغيرها من صحف لندن (وبينها الديلى إكسبريس) نشرت تفاصيل عن صفقة إسقاط وزارة «الهلالى» بوساطة «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» - مقابل مليون جنيه من «أحمد عبود» (باشا).

ويظهر أن رئيس الوزراء البريطاني «ونستون تشرشل» لم يكن يعرف بتفاصيل ما جرى في مصر، حتى قرأ عنه في الصحف، وهكذا أملى رسالة من المقر الرسمى لرئيس الوزراء البريطاني إلى «أنتونى إيدن» وزير الخارجية يسأله «إذا كان ما قرأ صحيحا؟ - وإذا كان صحيحا فهل فقدت بريطانيا كل نفوذ «أخلاقى» لها في مصر؟!» (مذكرة «تشرشل» محفوظة ضمن مجموعة أوراقه الخاصة التى باعتها أسرته إلى الحكومة البريطانية بمبلغ ثمانية ملايين جنيه استرليني، وهى مودعة الآن في قصر «هامبتون كورث»).

فاروق

كريم ثابت

حسين سرى

وبهذه التوصية من رئيس الوزراء البريطاني، بعث «إيدن» إلى القائم بالأعمال البريطاني في القاهرة يطلب إليه «أن يعمل كل ما في وسعه لعرقلة قيام حكومة بهذا الأسلوب في القاهرة، حتى إذا اضطر إلى الاتصال بكافة المرشحين لخلافة «نجيب الهلالى» والإلحاح عليهم بأن لا يقبلوا أى تكليف من الملك، وأنه عليه أن ينسق تصرفه في هذا الشأن مع السفير الأمريكي «جيفرسون كافرى»!

ورد «كرسويل» بسرعة يقول: «لقد أطلعت زميلي سفير الولايات المتحدة هنا على رسالتكم، ورأيه أن تدخلنا في هذا الأمر في هذه الساعة المتأخرة، سوف يبدو اقتحاما للشأن المصرى في مسألة لا تتصل بمصالحنا الحيوية.

ومن ناحية أخرى فإنه حين تدبرنا هذا الأمر معا، كان الوقت قد فات لأن «حسين سرى» قَبِلَ بالفعل تشكيل وزارة جديدة».

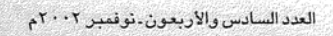
ثم يعود «كرسويل» ويكتب لوزير الخارجية البريطانية تقريرا وافيا (١٧٨/ ١٠١٨ / ٩٩٣) يقول فيه:

قابلت رئيس الديوان «حافظ عفيفى» (باشا) وكان عائدا إلى مكتبه لتوه من مراسم أداء الوزارة الجديدة لليمين الدستورية أمام الملك، وأبلغته أن حكومة جلالة الملك تشعر بالصدمة إزاء المعلومات التى بلغتها خلال الأيام القليلة الماضية عن أسباب تغيير وزارة «الهلالى» (باشا)، وأن السفير الأمريكي (ممثلا لحكومته) يشعر بنفس الشعور. ونحن نرى أن مصلحة مصر لا تتفق مع هذا المستوى من التصرفات التى تؤدى إلى استئصال كل العناصر النزيهة في الحياة السياسية المصرية.

وكنا نريد إبداء رأينا في هذا الأمر بطريقة أوضح، لكن الوقت كان متأخرا لعمل شيء، وإننا نخشى أن مثل تلك الأوضاع تؤثر على نفوذ - وحتى مصداقية - رئيس الديوان نفسه، خصوصا بعد تعيين «كريم ثابت» وزير دولة لشئون القصر، وهو إلغاء عملى لدور رئيس الديوان. وقال لى «حافظ عفيفى» (باشا):

«إنه مقدر لهذه الرسالة التى أبلغتها لى، وأنه لا يريد أن يتصرف بطريقة فجة وتحت تأثير مشاعر الصدمة، لكنه فيما بينه وبين نفسه قرر أن يقدم استقالة نهائية خلال عدة أيام. وفى كل الأحوال فهو غير راغب في البقاء لحظة في منصبه، مادام يجد أنه غير قادر على عمل شيء. وقال «حافظ عفيفى»: «إنه لم يُستشر فيما حدث وأنه لم يعلم به إلا بعد نشره».

وقال لى أن نصيحته بعد أن قرر الملك تغيير وزارة «الهلالى» كانت بتوجيه التكليف إلى رجل مثل «بهى الدين بركات»، وأنه قام بالفعل بإبلاغ «بركات» بعد أن حصل على



إشارة الموافقة من الملك، لكنه فوجئ بأن الملك غيَّر رأيه.

ورجاني «حافظ عفيفى» أن أحاول مع زميلى الأمريكى إبقاء رأينا في التغيير الوزارى مكتوما، وإلا فإن الملك سوف يستغله لصالحه، ويقوم بتسريب الخبر (عن طريق «كريم ثابت» إلى الصحف الموالية للقصر)، ويكون في ذلك إحراجا لكل الأطراف.

قال لى «حافظ عفيفى» أنه بعد تردد، قَبِلَ أن يظل في مكانه لأيام يغطى بها موقف الملك، وهو موقف لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه، فقبل عشرة أيام فقط سمع الملك يقول عن «عبود» (باشا) إنه أفَّاق، وأن مكانه الصحيح قفص الاتهام أمام محكمة، ولكن الصورة تغيرت فجاة، ويظهر أن «عبود» (باشا) ينتظر غنائم جديدة، بالإضافة إلى إسقاط ضرائبه القديمة، وفيما سمع فإن «عبود (باشا) يريد أن يحصل على عقد مشروع كهربة خزان أسوان بحوالى ٧٠ مليون جنيه، وهذه صفقة لا يستطيع «عبود» أن يتركها لغيره!».



كان الملك «فاروق» يريد أن يرتب بعض الأمور، وقد أراد أن يضبط حالة نادى ضباط الجيش، وذلك بإدخال «حسين سرى عامر» قائد سلاح الحدود إلى عضوية مجلس إدارته، والذريعة ظاهرة وهى أن مجلس إدارة النادى لا يحق له أن يعوق تمثيل سلاح الحدود في مجلس إدارة النادى «بـ: سخافة»، أن هذا السلاح أقرب إلى البوليس منه إلى القوات المسلحة، ويترتب على ذلك ضرورة أن يكون للسلاح ممثل في مجلس الإدارة، وحتى يحين موعد تحديد انتخابات المجلس في دورة قادمة، فإن قائد سلاح الحدود اللواء «حسين سرى عامر» يستطيع تمثيل سلاحه في مجلس إدارة النادى. وتمهيدا لبحث الطلب الملكى عقد مجلس إدارة نادى ضباط الجيش اجتماعا يوم ١٥ يولية، ولم تجىء النتيجة موافقة لطلب الملك.



ويوم ٢٠ يوليو ١٩٥٢ يكتب القائم بالأعمال البريطاني إلى لندن بأن الاجتماع الأخير لمجلس إدارة نادى ضباط الجيش شهد مظاهر احتجاج وصخب ضد الطلب الملكى الخاص بضم اللواء «حسين سرى عامر» إلى أعضاء المجلس. وأثناء الاجتماع والصخب ترددت عبارات اعتبرت ماسة بالملك ذاته، وغضب القصر الملكى، وصدر قرار بحل مجلس إدارة النادى وإجراء انتخابات في موعد يحدد لاحقا - ! - وحاول رئيس الوزراء «حسين سرى» (باشا) تهدئة الموقف وذلك اختصاصه كقائم بأعمال وزارة الحربية والبحرية، لكن «سرى» (باشا) فوجئ بطلب ملكى آخر يعتبره الملك «فاروق» ضروريا «ليس فقط لكرامة القصر ولكن لهيبته أولا»، وذلك الطلب هو تعيين اللواء «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية والبحرية فورا. وعاد «سرى» (باشا) (وفق روايته) يطلب من «كريم ثابت» (وهو الآن وزير الدولة في وزارته) - إبلاغ الملك أن طلبه الجديد - بعدما جرى في طلب ملكى سبقه - يمكن أن يؤدى إلى تعقيدات نحن في غِنى عنها قبل إجازات الصيف. وقد أسر إليه «كريم ثابت» بأن «الملك من رأيه أن دخول «حسين سرى عامر» في الوزارة هزيمة ساحقة لعناصر الشغب في نادى الضباط، وخصوصا أن اللواء «حسين سرى عامر» من موقعه الجديد سوف يستطيع أن يكشف عناصر التآمر الحقيقية التى تحرك من الخفاء، كذلك سوف يتمكن من كشف وضرب هذه العناصر وتصفيتها «حتى إذا كان الملك في الإجازة!». لكن رئيس الوزراء لم يقتنع وقد ظل مترددا، بينما الملك يزداد ضيقا، خصوصا أنه عاد مرة أخرى يقترح «أنه من الأفضل ولتلافى كل المشاكل أن يوافق الملك على اقتراحه السابق بتعيين اللواء «محمد نجيب» وزيرا للحربية، ويكون هو الذى يتكفل بتحقيق «الرغبة الملكية» في ضبط أمور الجيش - وينقل «كريم ثابت» هذا الاقتراح إلى الملك الذى يرفض بشدة، لأن تعيين «نجيب» وزيرا للحربية الآن معناه أن القصر يتراجع أمام حفنة من الضباط المشاغبين تحركهم «عصابة خفية» لابد من «كشفها بسرعة» و«ضربها بعنف». ورأى الملك «أن ظهور القصر وكأنه يتراجع ويقبل بحلول وسط»، سوف يجعل أى واحد «يطمع فينا»!».

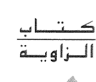
ويكتب القائم بالأعمال البريطاني يوم ٢٠ يولية برقية أخرى يقول فيها: «إننا نسمع نقلا عن القصر الملكى أنهم هناك يستعدون لتوجيه ضربة قاصمة إلى الضباط الذين يثيرون القلاقل.

وفى اليوم التالى ٢١ يولية يكتب «كرسويل» (رقم ١٠٤٦) برقية إنذار إلى وزارة الخارجية في لندن يقول فيها:

«لدينا معلومات مؤكدة بأن هناك مشاكل كبيرة داخل الجيش، وعلمنا أن الموقف قد يتدهور سريعا، ولذلك فإننا نوصى بإصدار تحذير وقائى إلى القوات البريطانية في منطقة قناة السويس برفع درجة استعدادها، مع إحاطة القائد العام للقوات البريطانية في مصر بخطورة الموقف. إننا سمعنا أنباء متضاربة عن تحركات عسكرية لقوات كبيرة نحو الإسكندرية، ونسمع أن عددا من ضباط الجيش رفضوا إطاعة أوامر صدرت إليهم، ويبدو لنا أن الأحوال مهيأة لعِصيان عسكرى، وذلك يغير قواعد اللعبة».

وفى نفس اليوم (٢١ يولية) يكتب السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» إلى واشنطن، وفى تقريره لهجة مختلفة تماما عن لهجة «كرسويل» - فهو يقول: «يبدو أن التوترات التى كانت مستحكمة داخل الجيش المصرى خفت حدَّتُها قليلا، وقد تلقينا أنباء عن صدور أمر ملكى إلى اللواء «محمد نجيب» رئيس مجلس إدارة نادى ضباط الجيش بأن يبتعد عن القاهرة فورا وأن يتوجه إلى جنوب الصعيد».

ولم يكن تقرير السفير الأمريكى دقيقا - وكان تقرير الوزير البريطاني المفوض أكثر دقة، وأقرب إلى حقائق موقف يتغير مع كل دقيقة!





عمر بن عبد العزيز

سنتان وخمسة أشهر كانت عمر خلافة عمر بن عبد العزيز فى ذروة الحكم الأموى، لكن هذه المدة القصيرة للغاية فى تاريخ الإسلام كانت كفيلة بأن تظل ذكراها ماثلة أمام المسلمين حكامًا ومحكومين. الكل يتطلع إليها باعتبارها واحدة من أنصع الصفحات فى التاريخ الإسلامى، وهناك من يضيفها إلى فترة الخلافة الراشدة ويعتبر عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين.

ولد عمر فى عام كربلاء لأم تدعى ليلى بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب وأب هو عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان بن الحكم. وقد اختلف فى مكان مولده فقيل أنه المدينة وقيل بل مصر (حلوان) وعاش عمر فى كنف والده حيث القصور والحياة الرغدة إلا أن بذرة ذرية عمر بن الخطاب كانت تعمل عملها. وعندما تولى والده إمارة مصر اختار عمر أن يذهب إلى المدينة ليتزود بعلم نافع ينير له بصيرته ويعينه على فهم كنه الحياة.

ثم تزوج عمر بن عبد العزيز من فاطمة ابنة عمه الخليفة عبد الملك بن مروان وأصبح بعد ذلك واليًا على المدينة فسار فيها سيرة الصالحين العادلين، ثم أصبح واليًا على الحجاز كله لكن الحجاج بن يوسف الثقفى كاد له عند الوليد بن عبد الملك فعزله، فعاد إلى دمشق مقر الخلافة إلى أن اختاره سليمان بن عبد الملك، فى لحظة تاريخية مضيئة، ليخلفه من بعده فى إمارة المسلمين.

وقد وضع الكاتب الراحل عبد الحميد جودة السحار بأسلوب سلس وعميق سيرة حياة عمر فى كتاب صدر عن مكتبة مصر. وهو واحد من مؤلفاته الإسلامية العديدة.



الحرب ومعضلة العراق

كما يراها العسكريون الأمريكيون

ريتشارد راسل

منذ تأكد عزم الإدارة الأمريكية على توجيه ضربة عسكرية ضد العراق، لم تتوقف وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية عن الكشف عن الخطط والسيناريوهات التى ينتظر أن تنتهجها القوات العسكرية الأمريكية لتحقيق أهدافها المعلنة لغزو العراق.. وهى التخلص من أسلحة الدمار الشامل التى تدعى أن النظام العراقى مازال يحتفظ بها ويخفيها عن الأعين بأكثر الأساليب دهاء. وفى الوقت نفسه القضاء على النظام العراقى الراهن.. ويعكس هذا المقال الذى نشرته مجلة Parameters (Us Army War College) وجهة نظر المؤسسة العسكرية الأمريكية فى كيفية تحقيق الغزو العسكرى للعراق لأهدافه وكيفية التغلب على مقاومة القوات العراقية بما فى ذلك قوات الحرس الجمهورى.. مع تقدير الاحتمالات المختلفة لمواقف الحلفاء الأوروبيين، ومواقف الدول العربية.. التى قد تحتاج أمريكا إلى دعمها ولكنها مازالت تنأى بنفسها عن المشاركة فى العمل العسكرى ضد العراق. وتنشر «وجهات نظر» هذا المقال فى محاولة منها لقراءة ما يجرى فى تفكير العسكريين الأمريكيين واستشفاف نواياهم، لكن نتعرف على مواقع الخطر القادم واحتمالاته.

المحرر

تصور حكومة بوش الحملة العسكرية الأمريكية التى يجرى الإعداد لها على أنها «حملة ضد الإرهاب». وهذا التوصيف قد يفيد من الناحية الخطابية، غير أنه ليس ذا شكل محدد ويحدث قدراً كبيرًا من الارتباك. وعلى أى الأحوال فالإرهاب أسلوب أو تكتيك حربى وليس كيانًا. و«الحرب ضد الإرهاب» شبيهة بـ «الحرب ضد الحرب» التى تقترب اقترابًا خطيرًا من ليبرالية وودرو ويلسون المجاهدة وما قاله عن «الحرب لإنهاء كل الحروب». و«الحرب ضد الإرهاب» تعهد مفتوح يجعل الشركاء الدوليين المحتملين يتراجعون عن التعاون فى المجالات التى يشاركون فيها الولايات المتحدة مصالحها بدافع من الخوف من احتمال اختلاف الخطوات الأمريكية التالية اختلافًا كبيرًا مع مصالحهم.

كان من الأحكم بالنسبة لحكومة بوش أن تسمى الحملة العسكرية الأمريكية باسمها، أى أنها حرب لتدمير شبكة القاعدة والأنظمة والكيانات التى تدعمها، ومنع الآخرين من تقديم أى دعم للشبكة المسئولة عن قتل الآلاف من المدنيين الأبرياء داخل وطننا. إذا كانت تلك المباشرة ستوفر الوضوح الاستراتيجى اللازم لربط الغايات بالوسائل فى فن الحكم، وتعزز أهداف الحرب.

وفى أعقاب ما بدت أنها حملة عسكرية أمريكية ناجحة للقضاء على نظام طالبان فى أفغانستان وتقطيع أوصال شبكة القاعدة الإرهابية، يتجه الاهتمام الآن صوب العراق، وهو مصدر محتمل آخر للمفاجأة الاستراتيجية والخطر الشديد الذى يهدد المصالح القومية الأمريكية. وتطالب أصوات كثيرة فى النقاش المتجدد باستمرار استخدام العقوبات الدولية ومفتشى الأسلحة التابعين للأمم المتحدة لاحتواء العراق ومنع الواردات التى قد تستخدم لإعادة بناء جيش صدام حسين وتحديثه. ومع ذلك فهناك رأى سياسى متنام فى العالم العربى وخارجه يقول بأن العقوبات لم تضر سوى المدنيين العراقيين.

وتطالب بعض الأصوات الولايات المتحدة بمضاعفة دعم حركة المعارضة العراقية ودراسة الخيارات العسكرية الجريئة لمساعدة قوات المعارضة فى عمليات للإطاحة بنظام صدام. ويطالب عدد أقل من المراقبين بغزو عسكرى أمريكى شامل لتخليص المنطقة من صدام وتعزيز توازن القوى فى الخليج.



ويبدو أن الخيار الأخير يحظى بقبول من كبار الفاعلين السياسيين، إلا أن حكومة بوش ستخطو خطوة خاطئة أخرى إن هى شنت حربًا ضد العراق باعتبارها استمرارًا لـ«الحرب ضد الإرهاب» ،حيث إن هذا الوصف لن يزيد سوى القلق لدى الشركاء الإقليميين الذين سيكونون على استعداد أكبر للتعاون مع الحملة الأمريكية للقضاء على نظام صدام إن كانوا أقل خوفًا من أن يكون تقديم الدعم دعوة فعلية إلى أعمال أمريكية أكثر طموحًا فى الشرق الأوسط. بل إنه لم يظهر دليل قوى بشكل علنى يربط العراق بالقاعدة فى الإعداد لأحداث الحادى عشر من سبتمبر. وسيكون عدم وجود صلة مباشرة بين القاعدة والعراق هو «نقطة الضعف» التى سوف يغرس فيها معارضو التحركات الأمريكية العدوانية ضد العراق ـ أى الفرنسيين والروس والصينيين ومعظم دول الشرق الأوسط ـ سكاكينهم ويقضون على الدعم السياسى والاقتصادى والعسكرى الدولى للحملة.

سيكون من الأجدى شن حرب ضد العراق ـ

منفصلة عن الحرب ضد القاعدة - بروح موضوعية بحتة. فصدام لم يمتثل لقرارات الأمم المتحدة طوال عقد من الزمان، وخاصة بحمايته القوية لبرامج العراق الخاصة بإنتاج أسلحة الدمار الشامل. وأية حرب لتخليص العراق من صدام وما لديه من أسلحة الدمار الشامل باعتبارها سياسة معلنة ستدوم فى محكمة الرأى العام أكثر من شن حرب ضد العراق باعتبارها استمرارًا للحرب ضد القاعدة. وستكون الحرب ضد العراق استمرارًا لعمل لم تنهه حرب الخليج. وبينما ينظر الأمريكيون إلى حرب الخليج على أنها أمر انتهى، حيث انتصرنا بتحرير الكويت، ينظر صدام فى المقابل إلى حرب الخليج على أنها هزيمة تكتيكية أو معركة خاسرة. فهو يرى أنه انتصر استراتيجيًا فى حرب الخليج بنجاحه فى البقاء فى السلطة بعد بوش الأب، وتحمله العقوبات الدولية، وحمايته ما لديه من برامج أسلحة الدمار الشامل، وبقائه على قيد الحياة ليحارب مرة أخرى.

قد تساعد الحرب التى تقضى على قوة صدام وما لديه من أسلحة الدمار الشامل فى وقف اتجاهات انتشار أسلحة الدمار الشامل الإقليمى. فالعراق بلا صدام حسين وأسلحة الدمار الشامل سيشكل قدرًا أقل من الخطر على إيران وسيقلل من سعى طهران للحصول على أسلحة الدمار الشامل. ذلك أن إيران تسعى بطبيعة الحال للحصول على أسلحة الدمار الشامل لأن قيامها بذلك أيسر نسبيًا من تحديث القوات التقليدية إلا أن أية حملة عسكرية أمريكية قوية ضد العراق ربما تؤدى إلى تغيير حسابات إيران الاستراتيجية. ذلك أن طهران وقتها قد تعيد حساب الأمر باعتبار أن بناء قدرات أسلحة الدمار الشامل القوية تزيد احتمال الصراع مع الولايات المتحدة وليس ردع القوة الأمريكية فى المنطقة.

فشل العقوبات وضعف المعارضة

الواقع المؤلم هو أن العقوبات الدولية وأعمال التفتيش المزعجة فشلت فى القضاء على النظام العراقى أو إجبار صدام على التخلى عما لديه من برامج أسلحة الدمار الشامل. بل إنه ربما أدت العقوبات إلى تعزيز نظام صدام بدلاً من إضعافه. ويجرى تجنب العقوبات من خلال كل جيران العراق، بمن فيهم شركاء أمريكا فى الأردن وتركيا، وكذلك عن طريق أعداء صدام فى إيران وسوريا. لقد خلقت العقوبات سوقًا سوداء ضخمة يسيطر عليها صدام وعائلته. ويستخدم صدام أرباح السوق السوداء لشراء ولاء مخابراته وأمنه والنخبة من قوات الجيش كى تحمى نظامه.

كان منع صدام لفريق التفتيش التابع للأمم المتحدة فى عام ١٩٩٨ بمثابة النهاية للجهود الدولية لسبر أعماق برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية. وربما كان انتهاء الرصد الفعال قد بلغ نقطة تضاؤل العائدات قبل ذلك بوقت طويل. ففى السنوات الأولى من أعمال التفتيش التى قامت بها الأمم المتحدة كان المفتشون يضبطون العراقيين على حين غرة ويفضحون من حين لآخر عدم اتساق العراقيين فى البيانات والوثائق والمواد التى كانت تكشف الخداع العراقى. وأعطت تلك الأحداث لمحات للعالم الخارجى عن مجال برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية وتقدمها. ولكن بمرور الوقت أصبحت أجهزة الاستخبارات العراقية أكثر كفاءة فى احتواء ضيوف التفتيش التابعين للأمم المتحدة احتواء اليراعات فى الزجاجة.

وبينما لم يتمكن العراقيون من عمل الكثير لإخفاء البنية التحتية الرئيسية المتصلة بالأسلحة، فقد شتتوا وأخفوا بسهولة الوثائق والأفراد - أحجار البناء المهمة لإعادة بناء برامج الدمار الشامل - فى أنحاء البلاد بحيث تتضاءل فرصة الكشف أمام مفتشى الأسلحة. ويروى ديفيد كاى، باعتباره مفتشًا كبيرًا سابقًا ضمن فريق التفتيش عن الأسلحة التابع للأمم المتحدة، أن ميزانية برنامج أسلحة الدمار الشامل العراقى هى ٢٠ مليار دولار ويعمل به ٤٠ ألف شخص. وهو يقدر أن العراق يحتفظ بالخبرة التكنولوجية اللازمة لإعادة بناء قدرات إنتاج الأسلحة وتشتيت برامج الأسلحة على نطاق واسع فى أنحاء البنية التحتية الصناعية والعلمية العراقية. وهو ما يمكن أن ينجو حتى من «أعتى العقوبات».



ورغم العيوب الواضحة فى الرؤية المتأخرة للتاريخ، فقد كانت العقوبات الدولية وأعمال التفتيش على الأسلحة تستحق المحاولة. فعقب حرب الخليج مباشرة بدت هاتان الأداتان السياسيتان سبيلين حكيمين ومناسبين للسير فيهما. وكان ينظر إلى عقوبات الأمم المتحدة على أنها وسيلة سوف تؤدى فى نهاية الأمر إلى الإطاحة بصدام تحت ضغط التدهور الاقتصادى، بينما يسمح تدخل فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة بالتقدير الدقيق لبرامج أسلحة صدام ومنع بنائها من جديد. كانت تلك هى النظرية، إلا أن أيًا من الغايتين لم يتحقق من الناحية العملية. وبعد أكثر من عشر سنوات من التجريب، حان الوقت لأن نستنتج أن أعمال التفتيش على الأسلحة النووية قد تعدت فائدتها كأدوات للتعامل مع صدام حسين.

واستفادة من الرؤية المتأخرة مرة أخرى، يسهل انتقاد قرار جورج بوش الأب فى عام ١٩٩١ بعدم التقدم إلى بغداد بعد تحرير الكويت. فمع أن قرار إنهاء العمليات البرية بعد مائة ساعة من القتال كان سابقًا لأوانه وسمح لكثير من قوات الحرس الجمهورى العراقية - التى كان من الصواب أن تكون على رأس الأولويات بالنسبة للهجوم فى الحملة البرية - بالهروب من مسرح العمليات الكويتى، فقد تحقق الهدف السياسى والعسكرى الخاص بتحرير الكويت. وكان جورج بوش يعلم أثناء قيادته المتقنة للتحالف المتنوع أن شركاءه العرب يعارضون بشدة احتلال القوات الأمريكية للعراق. ولو أمر الرئيس بوش قواته بالاتجاه شمالاً إلى بغداد لترك الدعم الذى يلقاه من نظرائه العرب على جانب الطريق شمالى البصرة. وإذا كان بوش الأب قد أولى القادة العرب اهتمامًا أكثر مما يجب فى ذلك الحين، فإن المستشارين قد ينصحون بوش الابن بألا يستمع إليهم كثيرًا الآن عند وضع خيارات السياسة العراقية.

جعل الاعتراف بفشل العقوبات الدولية وأعمال التفتيش على الأسلحة التابعة للأمم المتحدة على مر السنين الولايات المتحدة تسعى لتحقيق فكرة تعزيز المعارضة العراقية للقضاء على نظام صدام. ويمضى دعم المعارضة العراقية، التى تعمل تحت مظلة المؤتمر الوطنى العراقى، بشكل متقطع. فقد كانت السياسة مباراة كرة قدم سياسية بين الكونجرس، حيث يحظى المؤتمر الوطنى العراقى بقدر أكبر من الدعم - قد لا يكون هينًا بسبب حشد التأييد الفعال - والسلطة التنفيذية. حيث تؤمن الحكمة التقليدية الراسخة بأن المؤتمر الوطنى العراقى أضعف على الأرض من أن يتحدى قوات صدام تحديًا خطيرًا. ويبدو أن المؤتمر الوطنى العراقى خبير فى إنفاق أموال دافعى الضرائب الأمريكيين على مكاتبه وعملياته خارج العراق، إلا أن هناك دليلاً ضعيفًا على أن له البنية التحتية الضخمة داخل العراق اللازمة للدخول فى معركة مع نظام صدام.



حكومة بوش ستخطو خطوة خاطئة أخرى إن هى شنت حربًا ضد العراق باعتبارها استمرارًا لـ« الحرب ضد الإرهاب »، حيث إن هذا الوصف لن يزيد سوى القلق لدى الشركاء الإقليميين

وحتى مع وجود فائدة لزيادة دعم المؤتمر الوطنى العراقى، بما فى ذلك التدريب العسكرى والمعدات الأمريكية، فإن من الصعب تخيل أن يتعدى المؤتمر الوطنى العراقى كونه واجهة. قد يجد المؤتمر الوطنى العراقى ملاذًا آمنًا له لفترة ممتدة فى الدول المجاورة للعراق، كالأردن والكويت وتركيا، كى ينشئ تنظيمًا عسكريًا ضخمًا من الصفر. وقد يتعدى الوقت اللازم لبلوغ تلك القوات حد النضج - وهو ما قد يصل إلى سنوات - الموعد الذى يحدده القرار السياسى اللازم لاستضافتها فى الدول المجاورة. ومن غير المحتمل أن تظل أية مهمة فى حجم تلك المطلوبة لبناء قدرات عسكرية معارضة قوية طى الكتمان هذه المدة الطويلة، كما كان الحال بالنسبة للدعم الأمريكى شبه السرى للمجاهدين أثناء احتلال السوفييت لأفغانستان. كما أنه من غير المحتمل أن تتمتع المعارضة العراقية بالروح القتالية والوحشية التى نماها الأفغان فى بوتقة الحرب القبلية طوال سنوات. وكما يشير كينيث بولاك، فإنه «فى عام ١٩٩١ ومرة أخرى فى عام ١٩٩٦، هزم الحرس الجمهورى العراقى بسهولة أقوى القوات العراقية المعارضة، وهما الميليشيتان الكرديتان». بل إن قواعد المعارضة العراقية ستكون على مسافة بعيدة من قلب أمن صدام فى بغداد، وستضطر قواتها إلى الدخول أثناء تقدمها فى قتال مع قوات الأمن العراقية الأكثر تسليحًا. كما أن سنوات من هجمات الكر والفر غير الحاسمة التى تقوم بها المعارضة العراقية سوف تحدث احتجاجات من العالم العربى، والأوروبيين، وحتى داخل الولايات المتحدة مطالبة بوقف العمليات وتداعياتها السلبية على المدنيين العراقيين المحصورين بين النيران المتبادلة.

الحرب للقضاء على نظام صدام

إن أراد الرئيس بوش حل المعضلة العراقية فسيكون عليه تأكيد قيادته من موقع القوة كى يكون إجماعًا بين الجمهور الأمريكى والكونجرس على أن الإطاحة بصدام ستحدث فقط على يد حملة عسكرية أمريكية ضخمة. وطبقًا لتقديرات مايكل أيزنشتات لخطط دعم المتمردين العراقيين، فإنه «عن طريق تقويض أطراف النظام وليس توجيه ضربات ساحقة إلى مراكزه العصبية، يتحاشى أسلوب الملاذات الآمنة نمط التدمير والعمل العسكرى الأمريكى الحاسم الذى قد يكون هو المطلوب للإطاحة بصدام، دون حدوث عواقب وخيمة للأبرياء من العراقيين وشعوب المنطقة».



ودرس حرب الخليج الذى يعيه الكثيرون من المراقبين هو أن صدام مُنع من استخدام الأسلحة الكيماوية والبيولوجية خوفًا من الرد الأمريكى الضخم، بما فى ذلك احتمال استخدام الأسلحة النووية. وفى جنيف فى يناير عام ١٩٩١ قبل بداية الحرب، حاول وزير الخارجية جيمس بيكر تسليم نظيره العراقى طارق عزيز رسالة مغلقة من الرئيس بوش إلى صدام، إلا أن وزير الخارجية العراقى رفض قبولها واضطر بيكر لتسليم أجزاء منها شفويًا. وكان بوش قد كتب فى رسالته أن «الولايات المتحدة لن تغفر استخدام الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية... وربما طالب الشعب الأمريكى بتوجيه أقوى رد ممكن. وسوف تدفع أنت وشعبك ثمنًا فادحًا إن أنت أمرت بأعمال غير معقولة من هذا النوع». والقول البديل، ولكنه يستحق الاهتمام، هو أن صدام احتفظ بما لديه من أسلحة الدمار الشامل كى يستخدمها كورقة أخيرة لإبعاد الخطر الأمريكى عن سيطرته على السلطة. ولو كان بوش الأب قد أمر القوات الأمريكية بالاستيلاء على بغداد، فمن المحتمل أن آثار الأسلحة الكيماوية والبيولوجية كانت ستتناثر على الطريق المتجه شمالاً من الكويت.

وفى أية حملة عسكرية فى المستقبل للقضاء على نظام صدام، من المحتمل أن يكون خطر استخدام العراق للأسلحة الكيماوية والبيولوجية أكبر مما كان عليه أثناء حرب الخليج، لأن صدام سوف يدرك أن الولايات المتحدة تلعب للفوز بكل شىء أو لا شىء. وكان صدام سريعًا أثناء حرب الخليج حين أطلق الصواريخ الباليستية على إسرائيل فى محاولة لجر القوات الإسرائيلية إلى الصراع والقضاء على الدعم العربى للمجهود الحربى الأمريكى. وإذا كان القضاء على صدام سيكون على أيدى حملة أمريكية أخرى، فإنه سيستهدف إسرائيل من جديد، وهذه المرة بغرض القضاء على الإسرائيليين معه ليجعل بذلك من نفسه شهيدًا فى العالم العربى. والخطر الذى تمثله الأسلحة الكيماوية والبيولوجية العراقية يجعل من الضرورى أن تكون العمليات العسكرية الأمريكية ضخمة وسريعة وغاضبة ومتعددة الأبعاد، بحيث تحرم القوات العراقية من

استعادة توازنها وتنظيم هجمات مضادة للدفاع عن النظام أو توجيه ضربات انتقامية ضد إسرائيل وغيرها من شركاء الولايات المتحدة الإقليميين.

ويبعث ما لدى صدام من قدرات أسلحة الدمار الشامل على الاهتمام، غير أن قدراته العسكرية التقليدية أضعف الآن مما كانت عليه إبان حرب الخليج، بينما ازدادت القوات الأمريكية قدرة. وقد مزقت القوات الجوية والبرية الأمريكية القوات العراقية بسرعة أثناء حرب الخليج وخفضتها من حيث الحجم إلى النصف تقريبًا. وعلى امتداد العشر سنوات الماضية كان العراقيون يستخدمون قطعًا من طائراتهم ودباباتهم وحاملات الجنود المصفحة وشبكة الدفاع الجوي المعطلة لتسيير السليم منها. إلا أن العقوبات الدولية نجحت في منع صدام من شراء كميات ضخمة من الأسلحة الحديثة - من روسيا أو أوروبا التي كان يشتري منها أنظمته القوية قبل حرب الخليج - اللازمة لتجديد قواته التقليدية. ومن ناحية أخرى، ازدادت القدرات العسكرية الأمريكية زيادة كبيرة، مع اعتمادها على عتاد التوجيه الدقيق وقاذفات ب٢ بعيدة المدى أكثر مما كان عليه الحال في حرب الخليج. والذكي من يراهن على تقييم البروفيسور إليوت كوين الذي يقول إن القوات التقليدية العراقية ستنهار بسرعة في مواجهة أية حملة عسكرية أمريكية قوية.

وفي السنوات التي انقضت منذ حرب الخليج، لعبت الولايات المتحدة مع القوات العراقية لعبة العين بالعين في الإشراف على مناطق حظر الطيران في جنوب العراق وشماله. ففي حوادث لا حصر لها كانت رادارات الدفاع الجوي الأرضية العراقية بها أجهزة لملاحقة الهدف للكشف عن الطائرات في مناطق حظر الطيران، وكانت بالتالي مستهدفة من طائرات التحالف. ولكن حتى عند الرد على أي عمل عراقي فظيع - مثل مؤامرة اغتيال الرئيس السابق بوش حين كان في زيارة للكويت - كان الرد الأمريكي محدودًا؛ فقد زادت حملة ثعلب الصحراء التي أعقبت ذلك واستمرت أربعة أيام في عهد حكومة كلينتون قليلاً عن شكة الدبوس.

لا بد أن تكون أية حملة عسكرية كبيرة للإطاحة بصدام انتقالاً ضخمًا من الخيارات العسكرية المحدودة التي استخدمت ضد العراق منذ حرب الخليج. إن الآلة العسكرية العراقية كبيرة، حيث يبلغ عدد القوات البرية حوالي ٣٧٥ ألف رجل. وينبغي أن تركز الحملة العسكرية الأمريكية القصف الجوي الضخم على مركز جاذبية النظام العراقي الواقع في قيادته، وأجهزة الاستخبارات، وهيئة الأمن الخاص، والحرس الجمهوري الخاص، والحرس الجمهوري، وفدائيي صدام، وهي هيئة أمنية شبه عسكرية. ويتكون الحرس الجمهوري العراقي من ثلاث فرق مدرعة وفرقة ميكانيكية وفرقتي مشاة، ويتكون الحرس الجمهوري الخاص من أربعة ألوية. ويتراوح عدد فدائيي صدام شبه العسكريين بين ١٨ و ٢٠ ألف رجل، وهذه القوات هي جهاز النظام الحاكم العصبي ومن الأرجح أن تكون مسئولة عن التعامل مع أسلحة الدمار الشامل العراقية. وينبغي أن يكون هدف الحملة العسكرية الأمريكية هو تدمير أعمدة أمن نظام صدام هذه.

وتشكل قوات الجيش النظامية الجزء الأكبر من القوات البرية العراقية، إلا أن صدام ينظر إليها على أنها علف للمدافع، بسبب ضعف تدريبها وتسليحها وإدارتها. ولا يدخل الجيش النظامي في دائرة القوة الداخلية الخاصة بصدام، بل هو ذلك العدد الضخم اللازم للهجمات الأرضية الدموية والفظة التي يشنها الخصم، سواء أكان أمريكيًا أم إيرانيًا. وبعد الضربة الأولى فحسب يأمر صدام قوات الحرس الجمهوري النخبوية بدخول المعركة؛ وكان ذلك دأب صدام إبان حربه التي دامت ثماني سنوات مع إيران، وكذلك خطته لمقاتلة القوات الأمريكية أثناء حرب الخليج.

أية حملة عسكرية أمريكية قوية ضد العراق ربما تؤدي إلى تغيير حسابات إيران الاستراتيجية. ذلك أن طهران وقتها قد تعيد حساب الأمر باعتبار أن بناء قدرات أسلحة الدمار الشامل القوية تزيد احتمال الصراع مع الولايات المتحدة وليس ردع القوة الأمريكية في المنطقة



ولا ينبغي أن تستهدف الحملة العسكرية الأمريكية قوات الجيش النظامي العراقي بشكل مكثف، بل تركز تركيزًا شديدًا على قوات الأمن سابقة الذكر التي يعتمد عليها نظام صدام. ويتكون الجيش النظامي العراقي من ثلاث فرق مدرعة وثلاث ميكانيكية و ١١ فرقة مشاة، إلا أن معظم هذه الوحدات ليست مكتملة القوة. ويمكن عدم قتل جزء كبير من الجيش العراقي أثناء الحملة العسكرية الأمريكية، فيما عدا تلك الوحدات التي تختار القتال بدلاً من الاستسلام للقوات البرية الأمريكية الغازية. ولا بد أن تغرق أدوات الدعاية الأمريكية، كالإذاعة والمنشورات التي تسقطها الطائرات، مواقع الجيش العراقي ومناطق الانتشار قبل القتال وأثناءه، لإبلاغ الجنود العراقيين بأن الولايات المتحدة تعتزم الإطاحة بصدام، وأنهم إذا استسلموا سوف يعاملون معاملة طيبة، كما عومل الجنود العراقيون في حرب الخليج، أما إذا قاوموا فسوف يقتلون. وسيكون الجيش العراقي مفيدًا في الحفاظ على الأمن الداخلي والحفاظ على عراق ما بعد صدام كبلد واحد. وسيكون هذا الهدف السياسي مهمًا إذا كانت الولايات المتحدة ستحصل على قواعد ودعم عسكري مهم من تركيا في الحرب ضد صدام. فسوف يحتاج الأتراك إلى ضمان أن الحرب لن تؤدي إلى تقسيم العراق بحيث تقوم دولة كردية على حدود تركيا، وكذلك دولتان يسيطر عليهما السنة والشيعة في وسط العراق وجنوبه.

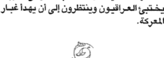
سيكون من الواجب أن تصبح الحملة العسكرية الأمريكية مبتكرة، كما طالب إليوت كوين، وليست شبيهه بحملة حرب الخليج التي كانت ثقيلة الحركة وذات بعد واحد. وقد تسعى الحملة الجوية إلى تدمير القوات الجوية العراقية والدفاعات الجوية الأرضية والمنشآت والأفراد والمعدات المرتبطة بقيادة النظام الحاكم والحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص وهيئة الأمن الخاص وقوات فدائيي صدام. ومن الممكن شن الحملة الجوية بالتزامن والتنسيق مع غزو القوات البرية متعدد الشعب والعمليات المنقولة جوًا في أنحاء العراق للتغلب بسرعة على دفاعات صدام والاستيلاء على الأرض وتقليل خيارات صدام الخاصة باللجوء إلى أسلحة الدمار الشامل. وربما تضم الحملة البرية، من الناحية التخيلية، هذه العناصر:

* يمكن أن تتقدم شعبة من القوات البرية جنوبًا من تركيا لتتجه إلى مسقط رأس صدام ومعقل عائلته في تكريت. وسيكون الاستيلاء على تكريت بالنسبة للشعب العراقي بمثابة انتهاء سيطرة صدام على السلطة، حتى وإن نجح في تحاشي الهجمات الجوية والبرية الأمريكية في المراحل الأولى من الحملة.
* يمكن أن تتجه الشعبة الثانية إلى بغداد من الغرب قادمة من المملكة العربية السعودية أو الأردن، بينما يجري تمشيط الصحراء الغربية العراقية بحثًا عن راجمات الصواريخ البالستية المتحركة التي يمكن أن يستخدمها صدام ضد إسرائيل. والصحراء الغربية العراقية شاسعة وقد لا تتمكن القوات الأمريكية من احتلالها بالكامل، إلا أنه يمكنها على أقل تقدير السيطرة على خطوط الاتصال الرئيسية هناك لتعقيد عمليات الصواريخ البالستية العراقية.
* تنطلق شعبة ثالثة من الكويت مسرعة إلى الشمال للاستيلاء على البصرة قبل التحرك إلى بغداد. وقد تشكل هذه الشعبة الجزء الأكبر من قوة الغزو الأمريكية، لأن الكويت ستكون أنسب منطقة للتوجيه، وسيكون جنوب العراق أنسب منطقة لمناورة القوات المدرعة الثقيلة اللازمة للاتجاه إلى بغداد. وستطهر هذه الشعبة كذلك طريقها من راجمات الصواريخ البالستية العراقية الموجهة إلى قواعد الدعم الأمريكية والشركاء في الخليج. وقد تُستخدم الكويت كذلك كقاعدة لحشد القوات المتجهة إلى الصحراء الغربية العراقية، في حال رفض الأردن والمملكة العربية السعودية السماح للقوات الأمريكية باستخدام أراضيهما.
* قد يبعد الهجوم البري الأمريكي متعدد الشعب من الشمال والغرب والجنوب وحدات الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص والفدائيين التي نجت من الهجمات الجوية الأولى عن بغداد، مما يجعلها فريسة أسهل للقوات البرية الأمريكية من بقائها متحصنة في المناطق كثيفة السكان.
* ستزيد الهجمات المحمولة جوًا ضد أهداف النظام ذات القيمة العالية وكذلك القواعد الجوية داخل بغداد وحولها من شعب غزو القوات البرية. وستقام نقاط حصينة في القواعد الجوية التي استولى عليها لنقل قوات الاحتلال والمعدات.



سيحاول الغزو البري ثلاثي الشعب والعمليات المحمولة جوًا سد طرق الهروب المحتملة التي يسلكها مسئولو النظام العراقي الفارون. وستكون الدبلوماسية الأمريكية القوية مطلوبة لتقديم مذكرة إلى طهران ودمشق بأن إيواء المسئولين العراقيين الفارين في إيران وسوريا لن يغتفر.

ستكون الاستخبارات العسكرية العراقية في وضع غاية في الصعوبة وهي تحاول تكوين صورة كاملة عن القوات البرية والمحمولة جوًا التي تتحرك بسرعة في حملة ضخمة للإطاحة بصدام. و طوال فترة دامت شهورًا كان لدى العراقيين أثناء حرب الخليج القليل من المعلومات الاستخباراتية، أو لا شيء منها بالمرة، بشأن وضع وموقف قوات التحالف التي كانت تستعد لتحرير الكويت، وقد فعلوا القليل منذ ذلك الوقت لتحسين قدراتهم الاستخباراتية. ومع وجود صورة استخباراتية غير دقيقة وغير مكتملة في مواجهة هجوم أمريكي، سوف تنشر القوات نشرًا غير مكثف في محاولة للدفاع عن كل الجبهات، إلا أنها سوف تُحشد بأعداد أقل وبعد فوات الأوان، بحيث لن يمكنها إضعاف الهجمات الأمريكية المتعددة في أنحاء العراق. ومع الهجمات الموجهة إلى أعمدة القوة الأمنية الخاصة بصدام، قد تواجه القوات الأمريكية معارضة قليلة من الشعب العراقي؛ فربما يختبئ العراقيون وينتظرون إلى أن يهدأ غبار المعركة.



قد لا يجلس صدام مكتوف اليدين انتظارًا للهجوم الأمريكي، حتى وإن لم تكن لديه الصورة الكاملة عن حجم التعزيزات الأمريكية داخل العراق وحوله. والقوات الأمريكية اللازمة للحملة قد تكون فرقة أو فرقتين أمريكيتين يتراوح عدد الجنود فيها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف. وهذه القوات لن يمكنها تحاشي الاهتمام الإعلامي الذي سيحرم الولايات المتحدة من إمكانية المفاجأة الاستراتيجية. وقد يجرب صدام عددًا من الإجراءات لإعاقة حشد القوات الأمريكية، مثل توجيه أسلحته البالستية، التي قد تكون ذات رؤوس حربية كيماوية وبيولوجية، ضد مناطق حشد القوات الأمريكية المحتملة في الكويت وتركيا. وقد يوجه كذلك ضربة استباقية بالصواريخ البالستية ضد إسرائيل لجر الجيش الإسرائيلي إلى الحرب حتى قبل أن تكون القوات البرية الأمريكية قد دخلت الأراضي العراقية. ويمكن أن يصور صدام نفسه على أنه صلاح الدين الجديد الذي يخوض الحرب باسم العالم العربي ضد الكفار. إلا أن تلك الهجمات قد تكشف صواريخ صدام وما لديه من قدرات أسلحة الدمار الشامل السرية وتدعم الحجة الأمريكية في الغرب بالنسبة للحرب ضد العراق.

سيكون أحد أفضل خيارات صدام لمواجهة الهجوم الأمريكي هو البحث عن مأوى لقواته في المناطق الحضرية. فبإمكانه نقل قوات الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص من حامياتهم ونشرهم في المناطق الحضرية. ذلك أن قوات الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص ستكون معرضة لخطر الهجوم الجوي الأمريكي حين تنشر في الصحراء والمناطق قليلة السكان، حيث يمكن تمييز الحرارة المنبعثة من الدبابات وحاملات الجنود المصفحة عن الصحراء الأبرد منها في الليل بأجهزة الأشعة تحت الحمراء. أما نشر قوات النظام العراقي في المناطق المكتظة بالسكان فسوف يوفر لها غطاء ويعقّد مهمة المخططين الأمريكيين الذين يسعون لتقليل الأضرار المصاحبة التي تلحق بالمدنيين العراقيين. وكما يشير بايمان، فإن «أمريكا تهتم، بصورة قد تكون فريدة في التاريخ العسكري، بمعاناة شعب النظام المعادي اهتمامًا يزيد على اهتمام النظام ذاته. وقد أظهر صدام مرارًا أنه سوف يسمح بموت آلاف من مواطنيه حين يناسبه ذلك». وستضطر القوات البرية الأمريكية إلى فرض حصار على المدن العراقية المحتلة، ما لم تختر القوات العراقية الاستسلام. وقد يبدو ما

شهدته المواقف المشابهة الأخيرة فى أفغانستان بين القوات الأمريكية ومقاتلى طالبان والقاعدة من موت وعنف ضئيلاً مقارنة بالموت والعنف فى حرب المدن العراقية. فسوف يشن صدام الحرب من مناطق حضرية كى يعطل تقدم القوات البرية الأمريكية، ويلحق بها الخسائر، ويثير جنون الرأى العربى بالتغطية الإعلامية الحية لمقتل المدنيين العراقيين نتيجة للهجمات الأمريكية.

حث الشركاء القلقين

لا بد أن تستعد الولايات المتحدة لدخول الحرب بقليل من الشركاء فى هذه الحملة الضخمة التى تستهدف تغيير النظام الحاكم فى العراق. فالقادة العرب ينأون بأنفسهم بالفعل عن الولايات المتحدة فيما يخص السياسة العراقية. ذلك أنهم قلقون بشأن استقرار أنظمتهم ويشغلهم أن الحملة الأمريكية ضد العراق قد تكون الشرارة التى تشعل أعواد الخشب الجافة التى تشكل الإحباط العربى، فيما يخص العنف الفلسطينى الإسرائيلى. ولن ترغب دول الخليج، وكذلك مصر والأردن، فى تعريض أنفسها لخطر أكبر بتقديمها الدعم العلنى للحملة ضد صدام. ربما تقدم الدعم فى السر ومن وراء الكواليس، إذا كانت مقتنعة بأن الولايات المتحدة ملتزمة كل الالتزام بتغيير النظام فى العراق وبأنها لن تدخر جهدًا لإنجاز المهمة. وفى الجولة التى قام بها مؤخرًا نائب الرئيس ديك تشينى - الذى يحظى بسمعة جيدة لدى الزعماء العرب بسبب دوره الرئيسى فى حرب الخليج - فى الشرق الأوسط، يبدو أنه بدأ العملية الاستراتيجية والدبلوماسية غير المؤكدة للسعى إلى حث دول المنطقة الرئيسية على دعم الحملة الأمريكية.

وسوف تضطر الولايات المتحدة إلى الاعتماد على دعم كبير من الكويت وتركيا، وكذلك إلى اللجوء إلى الأردن والمملكة العربية السعودية للحصول على مساعدات إضافية. والكويت، بخلاف الكثير من الدول العربية التى تفصلها فواصل جغرافية أكبر عن العراق، تدرك إدراكًا عميقًا اعتمادها على الولايات المتحدة فى ضمان بقائها، وستكون أكثر استعدادًا لدعم واشنطن. أما تركيا، التى يتضح أنها واحدة من أكثر الدول الأعضاء فى الناتو التى يمكن للولايات المتحدة الاعتماد عليها، فسوف تصر على الضمانات الأمريكية بعدم قيام دولة كردية منفصلة، ثمنًا لدعم أنقرة. إلا أنه من المحتمل أن يكون الحصول على المساعدة السعودية والأردنية موضع جدل وشك. فقد زادت القاعدة وأسامة بن لادن من الحساسية السعودية بشأن الاستقلال الداخلى والانتقادات الدولية بخصوص المجتمع السعودى، والاعتماد على الولايات المتحدة فيما يتعلق بأمنها. وكان العاهل الأردنى الملك عبد الله من أبرز مؤيدى الحملة الأمريكية ضد القاعدة وطالبان، إلا أنه قد يواجه خطرًا سياسيًا جمًا لو أبدى تأييدًا بارزًا للحرب ضد العراق. فالأردن يعتمد اعتمادًا كبيرًا على العراق فى موارده الاقتصادية وسوف يتعرض لاحتجاجات فلسطينية داخلية. ومع ذلك فمن المحتمل أن تكون لدى الملك عبد الله الرغبة فى تحاشى الخطأ الذى وقع فيه والده إبان حرب الخليج بدعمه الخاسر للعراق.



سوف تشن الولايات المتحدة الحملة بدون مساعدة من حلفائها فى حلف الناتو. فقد أعلن الفرنسيون والألمان صراحة أنهم لن يدعموا مثل هذه الحملة. ووصف وزير خارجية فرنسا فدرين إشارة الرئيس بوش إلى «محور الشر» بأنها «مفرطة فى تبسيطها»، فى حين صرخ وزير الخارجية الألمانى قائلاً «لن نُعامل كدول

يبدو أن المؤتمر الوطنى العراقى خبير فى إنفاق أموال دافعى الضرائب الأمريكيين على مكاتبه وعملياته خارج العراق، إلا أن هناك دليلاً ضعيفًا على أن له البنية التحتية الضخمة داخل العراق اللازمة للدخول فى معركة مع نظام صدام

تابعة»، واشتكى مفوض العلاقات الخارجية بالاتحاد الأوروبى من أن الولايات المتحدة تدخل فى «تصعيد من جانب واحد». وهذه الآراء الأوروبية غريبة، إذ كان كل من الألمان والفرنسيين فى التسعينيات لديهم رغبة شديدة فى جر الولايات المتحدة إلى صراعات البوسنة وكوسوفو حين لم تكن قواتهم العسكرية كفؤًا للمشاركة فى المهام. وبينما كانت صراعات البلقان تمثل أزمات إنسانية ضخمة، فإن الزعيم الصربى ميلوسيفتش لم تكن لديه قط القدرة على تهديد المصالح الأوروبية أو الأمريكية تهديدًا مباشرًا بالقدر الذى يهددها به صدام إن هو تُرك يفعل ما يحلو له. وينبغى على الأمريكيين شن هجوم سياسى ضد عدم رد حلفائنا الأوروبيين جميل الدعم العسكرى الأمريكى السابق فى البلقان، ولو بقدر بسيط من الدعم السياسى لشن حملة ضد العراق.

وفى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر، صدرت عن الناتو إشارة سياسية رائعة، حيث وضع المادة الخامسة من معاهدة شمال الأطلنطى موضع التنفيذ - لأول مرة فى تاريخه بقدر هائل من الضجيج - لإظهار تضامنه مع الولايات المتحدة. وتبيّن ضآلة القوة العسكرية الأوروبية التى أعيرت للحملة فى أفغانستان أن التحالف أجوف إلى حد كبير. والاستثناء الواضح بطبيعة الحال هو البريطانيون بزعامة رئيس الوزراء تونى بلير. فقد كان بلير موقعًا حصينًا يعتمد عليه، وإن كان بمفرده، لدعم الولايات المتحدة سياسيًا وعسكريًا فى حملة أفغانستان، وسوف تكون لمساعدته أهميتها بالنسبة للحملة ضد صدام. وفى المقابل، لن تحتاج الولايات المتحدة إلى أية مساعدة عسكرية فرنسية أو ألمانية بخلاف حقوق المرور المحتملة للقوات، وهو ما لا يزيد عما كان عليه الحال إبان حرب الخليج، حين كانت المساهمات الفرنسية هامشية فى أحسن الظروف ولم يكن للمساهمات الألمانية وجود.

ويقول مراقبون كثيرون، فى الولايات المتحدة وأوروبا، إن عملاً أمريكيًا «من جانب واحد» ضد العراق دون موافقة حلفائنا الأوروبيين قد يجبر هؤلاء الحلفاء على الابتعاد عن الناتو ورعاية ترتيباتهم الأمنية المنفصلة فى أوروبا لموازنة «النفوذ الزائد عن الحد» للولايات المتحدة». ومن المنظور الأمريكى، قد نرحب فى الوقت ذاته بذلك التطور. إذا كان سيدفع الأوروبيين إلى معالجة ذلك التدهور المطرد الذى طال أمده فى قدراتهم العسكرية. وتخسر الولايات فى وضعها الراهن شركاء فى أوروبا وتكسب تابعين، وهو ما سوف يقضى على المدى الطويل على القوة الأمريكية اللازمة للتصدى للتهديدات المحتملة الأكثر خطورة والأكثر مباشرة للأمن الدولى، وخاصة فى الشرق الأوسط وآسيا، حيث يفتقر الأوروبيون إلى القدرة على فرض النفوذ. وربما يكون الوقت قد حان كى يحمل الأوروبيون مسئوليتهم الخاصة بأعمال النظام ومهام حفظ السلام فى البلقان لتوفير الموارد الأمريكية للتحديات الأمنية فى أماكن أخرى.

شجاعة رجل دولة وخطوات نحو المجهول

سوف يتطلب توجيه حملة عسكرية شاملة للإطاحة بصدام شجاعة سياسية هائلة من الرئيس بوش. وسيجلس جزء كبير من الدول الشرق أوسطية والأوروبية والآسيوية على الخط، ويخاطر القليل منهم بتقديم المساعدة العسكرية. بل إن البعض سوف يتمنى عجز الحملة الأمريكية عن التقدم ووصولها إلى نتيجة غير حاسمة. وسوف يبحثون عن إثبات لتوقعاتهم السياسية ويستطيبون معاناة الولايات المتحدة من الهزيمة السياسية والعسكرية الكبيرة، تلك الهزيمة التى سوف «تذل الولايات المتحدة». وفى حال انخفاض مستوى الأداء السياسى والعسكرى والاقتصادى فى أنحاء الشرق الأوسط وحتى بين من كانوا يومًا حلفاءنا الأوروبيين الأقوياء، سوف يفرح البعض فى سره لفشل الولايات المتحدة فى حملتها العسكرية ضد العراق.

إلا أن ما يسميه البعض «النزعة أحادية الجانب» ينبغى تسميته التسمية الصحيحة وهى «القيادة». فلا بد أن تقوم الولايات المتحدة، بقوة التاريخ والظروف والنفوذ، بدور «الموازن» فى الخليج. فصدام ليس راضيًا بالوضع القائم ويسعى للحصول على القدرات العسكرية من أسلحة الدمار الشامل لإشاعة الفوضى للإضرار بالولايات المتحدة وشركائها فى المنطقة. ولا بد للولايات المتحدة أن تأخذ بزمام المبادرة وتتحرك ضد صدام قبل أن يمتلك وسائل التحرك ضد مصالحنا. والسبيل إلى ذلك حافل بالعناصر المجهولة، مثل عدد الخسائر من الجنود الأمريكيين والخسائر من المدنيين العراقيين، ومدى الاحتلال العسكرى وزمنه، وإدارة عراق ما بعد صدام. وسوف يكون على الولايات المتحدة أن تتغلب على تحديات غير متوقعة قد تنشأ عن احتلال العراق، كما فعلت عند احتلال ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية. كما ستكون تكاليف الاحتلال ومخاطره كبيرة، إلا أن ما يفوقها هو مخاطر الوضع القائم الذى يضمن بالفعل حصول صدام على الأسلحة النووية، وهى وسائل مهمة لإحياء العراق ليصبح دولة قوية قادرة على فرض إرادتها على جيرانها وإقامة إمبراطورية فى منطقة الخليج.



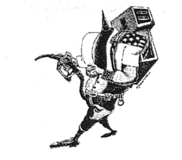
وفى حال إطاحة الحملة الأمريكية بصدام بسرعة معقولة، سوف يتكالب على الولايات المتحدة - لبعض الوقت على الأقل - طالبو الخير الذين سيأتون من خارج الخط قائلين «نحن معكم قلبًا وقالبًا»، دون أن تبدو عليهم أية لمحة خزى. وبعد سقوط صدام، وتشكيل الحكومة العراقية المؤقتة، ورفع عقوبات الأمم المتحدة، سوف يتوافد الساسة ورجال الأعمال الأوروبيون - وخاصة الفرنسيين والألمان والروس - أسرابًا على بغداد لإعادة بناء علاقاتهم المربحة التى قطعتها حرب الخليج. وسيفتح العرب كذلك أذرعهم للترحيب بالعراقيين إلى الحظيرة العربية. وستولى دول الخليج اهتمامها بالعراق الجديد لموازنة الإيرانيين فى الشرق والإسرائيليين فى الغرب.

وستأتى الحرب بالكثير من المساوئ والكثير من النتائج غير المتوقعة وغير المقصودة، كما هى طبيعة الحروب كافة. إلا أن ما يمكن أن نتوقعه هو أن غضب العرب من الولايات المتحدة، لما يدركون أنه ظلم فى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى، لن تخف حدته كثيرًا. ومن المحتمل أن يكون هذا هو الحال حتى مع مضاعفة الجهود الأمريكية لرعاية وقف إطلاق نار إسرائيلى فلسطينى وتسوية يجرى التفاوض عليها كجزء من حزمة لحث الشركاء العرب المترددين على دعم الحرب ضد العراق. وسوف يتفاقم ضيق العرب من الولايات المتحدة وإسرائيل فى حال رد إسرائيل عسكريًا على العراق أثناء الحرب. بل إنه من المحتمل أن يتلاشى تقدير العرب لتوجيه ضربة قاتلة لصدام بنفس سرعة تلاشى التقدير الذى أبدته المنطقة للولايات المتحدة لتحريرها الكويت. وسوف يتناقص ذلك التقدير أكثر وأكثر بإطالة أمد الاحتلال العسكرى الأمريكى للعراق. وربما يشعر السعوديون على وجه الخصوص بالقلق من أن يعطى احتلال العراق الأمريكيين ثقلاً أكبر مما يجب فى سوق البترول العالمية ويهدد نفوذ الرياض وسلطانها.

وربما تفصل الشجاعة السياسية ميراث الرئيس بوش عن ميراث سلفه. فضربات صواريخ كروز التى وجهها الرئيس كلينتون للقاعدة فى السودان وأفغانستان عام ١٩٩٨ ردًا على تفجيرات سفارتى أمريكا فى كينيا وتنزانيا كان رد فعل لرئيس يُنظر إليه على المسرح الدولى على أنه ضعيف وليس له وزن سياسى يتناسب مع قوة دولته. فقد قضت على قوة كلينتون فضيحة داخلية من صنع يده - كما حدث لقوة نيكسون أثناء ووترجيت - ولم يكن بإمكانه ممارسة سلطته كقائد عام ممارسة كاملة. ولا يبدو أن هذا هو حال الرئيس بوش. فتصريحه بأنه «إما أن تكونوا معنا أو ضدنا» قد لا يرقى إلى الكياسة التى تتوقعها النخبة المفكرة فى الولايات المتحدة والخارج، إلا أن الرسالة المقصودة منه مفهومة فهمًا جيدًا فى الشوارع وفى تقلبات السياسة. وكما قدر مكيافيلى، فإن الأمة تكون أكثر أمانًا حين يخشاها الآخرون أكثر مما يحبونها. وقد عانت الولايات المتحدة من ضربة كبيرة حيث قُتل حوالى ٣ آلاف من مواطنيها المدنيين على أرضها ولا بد أن تكون مستعدة للقيام بما تختاره لضمان عدم معاناتنا من تلك الخسائر مرة أخرى على أيدى أى عدو خارجى.

Us Army War College
Parameters, Autumn 2002

ترجمة: أحمد محمود



التقييم الأمريكي لقدرات العراق العسكرية



أنطوني كوردسمان

نادرًا ما تقرر العوامل «غير الملموسة» - كالأرقام الخاصة بالقوى العاملة والمعدات أو جوانب القدرة على البقاء التى يمكن قياسها أو غيرها من مقاييس الفاعلية - المعارك والحروب. ويبين المثال التاريخى تلو الآخر أن المحصلة العالمية الحقيقية للحرب كانت تقررها «الأشياء غير الملموسة»، حيث يختلف العديد من الخبراء اختلافًا حادًا بشأن القدرة النسبية لكل جانب.

وفى الوقت الراهن يرى بعض الخبراء أنه من السهل جدًا تأكيد أن الوحدات القتالية العراقية الرئيسية سوف تحارب بولاء وعزم بسبب ما تتمتع به من ميزات والاعتماد على النظام الحاكم وما لديها من نزعة الوطنية. بينما يرى آخرون أنه يمكن بنفس القدر من السهولة التأكيد على أن القوات العراقية سوف تنهار أو تتخلى عن ولائها بسرعة، لأن النظام الحاكم مستبد وليس محبوبًا.



ومن الناحية العملية أظهر الأداء العراقى فى الحروب السابقة أنه لا يمكن التنبؤ بجوانب كثيرة من سلوكه العسكرى إلى أن تبدأ الحرب، وأن هذه الشكوك تتفاعل مع الشكوك التى تؤثر على أية تنبؤات بخصوص الأداء العسكرى لخصوم العراق.

و«الأشياء الملموسة» والشكوك التالية فيما يتعلق بالقدرة القتالية العراقية تؤثر على أى تقييم دينامیكى للعراق:

* شعبية النظام وعدم شعبيته الواقعية بين عناصر القوات المسلحة المختلفة وفى مناطق العمليات العسكرية. وقد يتباين الولاء داخل عناصر القوة المختلفة كالحرس الجمهورى والحرس الجمهورى الخاص والجيش النظامى الذى يتكون بالتطوع النظامى والجيش النظامى الذى يتكون إلى حد كبير بالتجنيد الإجبارى النظامى.

* الأثر الواقعى للقهر والطغيان مقابل الحوافز والنزعة الوطنية والدعاية فى تحديد الدعم الشعبى للنظام أو المعارضة الفعالة. أثر قضايا مثل التقسيمات العرقية، وعقوبات الأمم المتحدة، وبرنامج النفط مقابل الغذاء، ورد الفعل المعادى الناتج عن الانتفاضة الثانية.

* استعداد الفصائل الكردية المختلفة للمشاركة فى الصراع أو اجتيازه بسلام، وولاء العناصر الشيعية مقابل الانتفاضات والمقاومة.

* قدرة رشاوى النظام وحوافزه على شراء الولاء.

* الأثر الذى أحدثه العنصر القتالى الخاص بما يزيد على عشر سنوات من عدم الوصول إلى سوق السلاح العالمية المفتوحة، إلى جانب التمويل المتاح المحدود لصيانة القوات وتحديثها، وتقييد القدرة بعد الأخرى على تهريب قطع الغيار والأسلحة والعتاد الحربى.

* القدرة المشكوك فيها للرصيد الحالى من العتاد الحربى وقطع الغيار على الصمود.

* نوعية التدريب وتجربة القيادة التى تخوضها الوحدة وعنصر القوة.

* الاعتماد على نظام لوجيستى صارم يؤكد على تكنيكات «التدفق قُدُمًا» للتعويض عن عدم الاستجابة لحاجات القادة والموقف التكتيكى، من خلال تحريك الإمدادات للأمام بكميات كبيرة بغض النظر عن الحاجة الحالية.

* إحراز تقدم فى الحد من عدم المرونة السابقة والمركزية المبالغ فيها فى نظام الأوامر وعدم سماحه باستقلالية التحرك.

* القدرة الواقعية لتنفيذ حرب المدن والعمليات العسكرية فى المناطق التى تكثر فيها المبانى؛ وكذلك القدرة على الاحتماء فى المناطق المأهولة واستخدام الدروع البشرية دون حدوث انتفاضات أو تحرك شعبى. أثر التقسيمات العرقية والولاءات القبلية وغيرها فى أماكن بعينها.

* مستوى التحسن فى العمليات الجوية وفى القدرة على إدارة القتال من الجو للجو ومن الجو للأرض باستخدام القوات المتناثرة القادرة على القيام بعمليات مستقلة.

* كفاءة تكنيكات الانتشار والدروع البشرية، إلى جانب الأهداف الوهمية والخداع، فى الحد من كفاءة الاستخبارات والاستكشافات الأمريكية وتحديد الأهداف وقدرات الضربة الجوية.

* القدرة على الاستفادة بفاعلية من الموانع المائية والحواجز الأرضية؛ والقدرة على ربط الهندسة القتالية بالتكتيكات العسكرية الواقعية فى مواجهة القوة الجوية الأمريكية وقدرة طائرات الهليكوبتر على الحركة.

* القدرة على نشر وتركيز أصول الدفاع الجوى بفاعلية من أجل الأغراض التكتيكية، فى مواجهة نظام SA-2 وSA-3 وSA-6 الثابت ثباتًا كبيرًا.

* القدرة قصيرة ومتوسطة المدى الخاصة باستطاعة دفاعات الصواريخ أرض جو الثقيلة الحفاظ على سلامتها فى زمن الحرب.

* الوضع الحالى للحرب المشتركة وخبرة الأسلحة المشتركة، وتحسين هذه الخبرة، إن كان هناك أى تحسين.

* القدرة المتماسكة على المناورة والقدرة على استخدام طائرات الهليكوبتر للتغلب على الموانع المائية وتقديم التعزيزات.

* حدثت منذ عام ١٩٩١ تحسينات فى تكتيكات المدفعية وأساليب الحصول على قدرات تهديفية بعيدة المدى وإدارة النيران وتغيير مساراها.

* التخطيط والقدرة الواقعية لتنفيذ الحرب غير المتماثلة والحرب الخفية واستخدام الوكلاء الإرهابيين.

* فاعلية قوات الأمن والقوات شبه العسكرية فى مواجهة أية معارضة شعبية خطيرة.

* حجم وفاعلية قوات المعارضة العراقية، إن كانت موجودة.

* حجم وفاعلية الممتلكات الحالية من الأسلحة والصواريخ الكيماوية والبيولوجية والإشعاعية والنووية وغيرها من أنظمة التوجيه. وامتلاك الأسلحة البيولوجية أو النووية المحتمل مسألة مهلكة يمكن أن تلحق دمارًا ضخمًا وتحدث تغييرًا كبيرًا فى مستوى الردع أو القدرة على خوض الحرب.

* وجود الإطلاق المخطط سلفًا عند الإنذار، والإطلاق عند التعرض لهجوم، والقدرة على توجيه ضربة انتقامية لتوجيه القوات الكيماوية والبيولوجية والإشعاعية والنووية، ونشر القدرات الخفية وقدرات الوكلاء الإرهابيين.

من السهل تخمين - أو تأكيد - حكم ما بشأن القدرة العراقية فى أى من المجالات السابقة. إلا أنه صحيح بالتأكيد أن معرفة القليل بشأن السلوك العسكرى العراقى منذ عام ١٩٩١ يوحى بأن العراق سوف يحقق فجاة درجات ضخمة من المفاجأة والتجديد فى العمليات العسكرية، إلا أن ذلك نادرًا ما يستبعد، والمسألة الأساسية فى خوض الحرب هى فى كثير من الأحيان مسألة تتعلق بالكفاءة الهامشية أو النسبية.

ويدعو الكثيرون الذين يعارضون أو يشكون فى ضرب العراق إلى تقديم ما يدل على وجود خطر محدق. وما لم نحقق الإنجاز الكبير الكافى فى المعلومات الاستخبارية البشرية، لن يكون أمامنا من سبيل لتحديد حجم قدرة الأسلحة البيولوجية العراقية على الدمار، أو التعامل مع الاستخدام المحتمل للفيروسات المعدية مثل الحصبة. فالعراق لم يكن أمامه من سبيل لإجراء تجارب ضخمة على تلك الأسلحة. ولن يعرف القدرة التدميرية لما يستخدمه إلى أن يستخدمه بالفعل. وسوف ينطبق الشىء ذاته على مستوى التحسين فى العوامل الكيماوية، حيث يقلل بحث المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية إلى حد كبير من حجم الشكوك التى تنطوى عليها معرفة إذا ما كان العراق قد استولى على مواد أو أسلحة قابلة للانشطار (ولا يمكنك تكذيب النفى) وتتبع أية قدرة على الوصول إلى الأسلحة البيولوجية.

إن الدعوة إلى توجيه ضربة استباقية ضرر «قريب» إلى حد كبير. فقد مضى أكثر من عقدين على جهد العراق فى مجال أسلحة الدمار الشامل، وثمانى سنوات على اكتشاف لجنة التفتيش على الأسلحة التابعة للأمم المتحدة لاستمرار النمو العراقى، وواردات التكنولوجيا التى لم تتوقف، والاحتمالات المتزايدة لتحقيق العراق تقدم كبير بمرور الوقت. وليس هناك إنذار نهائى سحرى.

والواقع أننا سوف نكتشف مدى خطورة العراق الفعلية بمجرد استخدامه لأسلحته، ومرة أخرى سوف يستخدم أنظمة توجيه لم يجربها فى الواقع إلا على نطاق ضيق (وهو ما فعله حين أطلق أول صواريخه من طراز سكود، التى زاد من مداها على إيران واستخدم لأول مرة قنابل غاز الأعصاب وبخاخات غاز الخردل.

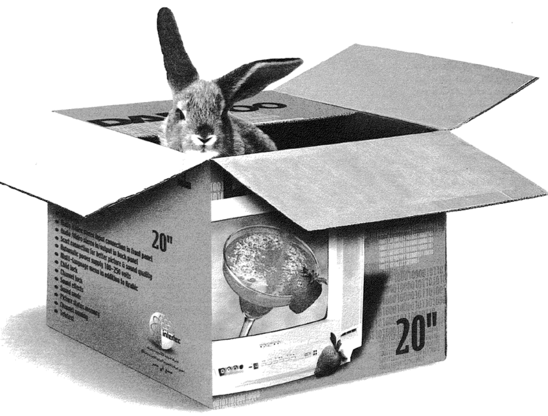
ونحن لا نعلم شيئًا عما أحرزه العراق من تقدم فى مجال تصميم الرؤوس الحربية والقنابل منذ عام ١٩٩٢، ويمكن أن تؤثر طرق التسليح على القدرة التدميرية الفعلية للعوامل البيولوجية عن طريق ترتيبات عديدة للحجم، ولكنه سيكون على العراق إلى حد كبير أن يخمن ما دام يمكنه إجراء تجارب كبيرة. ونحن لا نعلم إن كانت لديهم عوامل بيولوجية للتخزين الجاف، وسلالات جديدة، وقنابل ورؤوس حربية كيماوية ثنائية أفضل وغير ذلك أم لا. ولكننا نعلم أن الشهور والسنين تمنحهم الفرصة كى يخلقوا المزيد من الأسلحة المميتة.

إن معضلتنا الكبيرة فى هذا المجال هى أن أحدًا لا يعلم متى يصبح العراق يحق تهديدًا مميتًا ضخمًا. ليس هناك تاريخ يمكن التكهن به، وليس هناك ميعاد لـ«الخطر المحدق»، وليس هناك خط واضح على الرمل.

كلمة للمؤلف فى تقديم «تقرير القدرات العسكرية العراقية ٢٠٠٢» أمام معهد الدراسات الدولية والاستراتيجية - واشنطن.

ترجمة: أحمد محمود

من سيربح الأرنوب ؟



1,000,000 جنيه

هدية من

دايو الجديد

بمناسبة شهر رمضان تليفزيونات دايو الجديدة بتهديلكم شهادة المليونير من البنك المصرى المتحد

داخل كل كرتونة **ستجد شهادتك، فبادر بتسجيلها باسمك بالبنك لتدخل سحب المليون كل ٣ شهور، أو يمكنك استرداد قيمتها بالكامل بعد ٦ شهور من تسجيلها.**



DAEWOO
ELECTRONICS
سهل يتحب



IGI
المجموعة الدولية للإستثمارات



الألفاظ الأعجمية في القرآن

نبيل حنفي

من إعجاز القرآن
رءوف أبو سعدة
القاهرة: دار الهلال - جزءان - ١٩٩٣: ١٩٩٤م

حينما يتأمل المرء ما آل إليه أمر المسلمين فى السنوات الأخيرة.. يأخذ الأسى منه بمجامع القلب، فقد وقعت الأمة الإسلامية خلال تلك السنوات بين فكىّ تحالف الأعداء الخارجيين والهجمة الداخلية الشرسة لبعض جماعات التطرف التى تتمسح بالدين، فلما وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى نيويورك، وأصبح الإسلام وتابعوه الهدف الجديد للغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، توالت الأحداث تسابق الأيام والشهور، فبعد عربدة إسرائيل فيما تبقى من فلسطين واجتياح أفغانستان، يطلع على المسلمين اليوم فجر غزو العراق ممثلاً فى الحشود العسكرية التى تتجمع فى الخليج والتصريحات النارية والتهديدات تتردد ما بين واشنطن ولندن، وبينما تتجمع النذر فى الأفق تنذر بأوخم العواقب، فإن الأمة الإسلامية تبدو ساكنة لا حراك لها إزاء ما يخطط لحدوثه من أمور، وكأن هذه الأمة لم ترفع أعلامها يومًا على معظم المعمور من العالم القديم، لقد وصل الإسلام إلى أقصى بقاع الأرض فى ظل مناخ فكرى اتسم بالتحرر ونبذ التعصب، وحين امتلكت الأمة وقتها أسباب القوة مدعومة بفيض من علوم الدين والدنيا، فإنها دفعت برايات الإسلام إلى الآفاق. فكيف وصلت الأمة إلى حالها المحزن اليوم من الضعف والهوان؟



تزامنت بداية محنة الأمة الإسلامية ـ ومن ثم توقف المدّ الإسلامى ـ مع محنة الإمام أحمد بن حنبل فيما بين عامى ٢١٨هـ و٢٣٧هـ، وهى المحنة التى امتدت عبر خلافة ثلاثة من الخلفاء العباسيين: المأمون والمعتصم ثم الواثق، دارت محنة الإمام أحمد حول مسألة «خلق القرآن» التى كان أول من قال بها هو الجعد بن درهم فى دولة بنى أمية، ليجئ أحمد بن أبى دؤاد ـ شيخ المعتزلة ـ لينفخ فى نار تلك المسألة من جديد فى خلافة المأمون، وليصاب الإمام أحمد بن حنبل ونفر من العلماء بالعذاب والأذى من جراء شررها المتطاير، فلما انتهت المحنة فى خلافة المتوكل.. فإنها كانت قد أثمرت ثمرتها التى تمثلت فى غلق باب الاجتهاد فى أمور الدين والدنيا، لتتحول النصوص الدينية إلى «نصوص مقدسة» مع مقولة السلف «لا اجتهاد مع نص» وليغلق أيضًا باب البحث العلمى فى جميع العلوم الدنيوية باعتبارها شعوذة وبدعة، فتنسدل ستائر الظلام على عقل الأمة.. وتتباعد فترات الزمان الفاصلة بين ومضات الفكر النادرة التى تجود بها قرائح القلة من مفكرى الأمة بين حين وآخر، حتى أصبح ظهور كتاب يحمل اجتهادًا فكريًا فى شئون الدين أو الدنيا نادرًا ندرة الفرح فى زماننا.

المؤلف والفكرة:

مؤلف كتابنا هذا هو محمود رءوف أبوسعدة، ولد بالإسكندرية وتخرّج فى جامعتها بدرجة الليسانس فى الفلسفة، بدأ حياته العملية فى إحدى شركات التامين بالإسكندرية، وتركها فى عام ١٩٧٨م ليعمل مترجمًا بالمقر الأوروبى للأمم المتحدة فى جنيف وحتى نهاية عام ١٩٨٨م حيث تقاعد آنذاك، ولقد خطرت للمؤلف فكرة محور الكتاب كبارقة إلهام بعد استقراره فى جنيف بحوالى العام، حدث ذلك عندما تأمل المؤلف يقول الله عزّ وجلّ فى مُفتتح سورة «مريم»: ﴿كهيعص. ذكْرُ رحمة ربك عَبْدَهُ زكريا﴾ (مريم ـ ١، ٢)، فاستوقفته المشاكلة بين كلمة «ذكر» العربية والاسم الأعجمى العبرانى لنبى الله «زكريا»، ساءل المؤلف نفسه عن سبب المشاكلة.. أيُراد بها الجناس اللفظىّ أم الجرس الفخم أم أنها مصادفة بحتة؟ وحين طرح المؤلف المصادفة جانبًا منزهًا كلام الله عن ذلك، فإن الإلهام قاده ليبحث عن أصل كلمة «زكريا» فى اللغة العبرية ليجد أنها تعنى «ذاكر الله»، وكأن المولى عزّ وجلّ يقول: ذكر الله ذاكر الله أو ذكر الله فذكره، ثم ازدادت الفكرة لمعانًا فى ذهن المؤلف حتى أيقن أن هذه الآية الكريمة تحمل فى ثناياها سرًا يبحث عمن يجليه، فكان أن سأل المؤلف نفسه للمرة الثانية: أيفسِّر القرآن أعلامه الأجنبية بذكر معناها على التجاور فى ثنايا الآية؟ لقد قضى المؤلف نحو عشر سنوات فى جنيف وقبل أن يبدأ فى كتابة بحثه فى مايو ١٩٨٩م.. يبحث فى المكتبات عن مراجع بحثه بين معاجم اليهود وكتبهم وبين أبحاث المستشرقين، وذلك إضافة إلى دراسة القرآن فى كتب التفسير متسلحًا بعلوم اللغة العربية والحديث والتاريخ والعلوم الطبيعية والاجتماعية، ثم لكى يحقق المؤلف روايات أهل الكتاب فى مصادرها الأصلية ـ أى فى التوراة والإنجيل ـ فإنه ألمّ إلمام الباحث باللغات العبرية (عبرية التوراة لا العبرية المعاصرة) واليونانية الكنسيَّة والآراميّة إضافة إلى المصرية الهيروغليفية، وحين اكتملت للمؤلف أدواته.. فإنه أتم بحثه فى تفسير العلم الأعجمى فى القرآن بالقرآن نفسه فى أقل من عامين، ولقد أدار المؤلف بحثه على محورين: أولهما تأصيل معنى العلم الأعجمىّ فى لغته الأصلية، وثانيهما استخلاص اللفظ القرآنى أو العبارة القرآنية المفسِّرين لمعنى الاسم الأعجمى العلم.

نتائج وأمثلة:



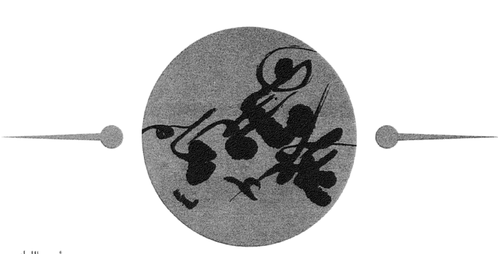
أعمل المؤلف ما أوحى إليه به إلهام الفكرة الأولى من منهج فى واحد وستين اسمًا علمًا ـ أعجميًا أو مشتبهًا فى عجمته وردت كلها فى سياق الآيات القرآنية، فوجد أن القرآن يفسِّر الأعلام الأعجمية فى سياق الآيات القرآنية من خلال ست أدوات للتفسير هى الترادف والتقابل والتعريب والترجمة والمشاكلة والسياق العام، فعلى سبيل المثال.. فسّر القرآن الاسم «داود» التى تجئ فى العبرية «دى ـ أود» بمعنى «ذو الأيد» فى العربية بالمرادف المطابق اللصيق فى قول المولى عزّ وجلّ فى الآية السابعة عشرة من سورة «ص»: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾، كذلك فسّر القرآن الاسم العبرانى «هارون» والذى يعنى فى العبرية «عَلِىّ أو متعال» بالمجانسة على معنى القوة والشدة فى قول الله تعالى على لسان نبّى الله موسى: ﴿واجعل لى وزيرًا من أهلى. هارون أخى. اشدُد به أزرى﴾ (طه: ٢٩ ـ ٣١)، ويقول المؤلف بأن القرآن فسّر الاسم «هارون» مرة أخرى بالتقابل على معنى القوة والشدة بكلمة «استضعفونى» فى قول هارون يعتذر لأخيه نبىّ الله موسى فى فتنة العجل: ﴿قال ابن أمَّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تُشمت بى الأعداء﴾ (الأعراف: ١٥٠)، ومن ذلك أيضًا أن القرآن فسّر الاسم «ميكائيل» بالتعريب إلى «ميكال» المشتقة على «مِفْعال» من «وَكَلَ» بمعنى الوكيل أو الموكل المفوَّض، والاسم «ميكائيل» فى العبرية هو اسم وحيد الجذر على زنة «مفعال» ـ والمستخدمة فى العبرية أيضًا ـ من الجذر العبرىّ «يَكُلْ» المكافئ لـ«وَكَلَ» العربى معناه: أى أوكلت إليه الأمر فهو مُوكّل ووكيل، فيكون معنى «ميكال» فى العبرية: الوكيل الموكّل المفوّض وهو نفس المعنى فى اشتقاقها العربى! أيضًا يجيء القرآن بالاسم «يحيى» على الترجمة لمعنى الحصور فى قول الله تعالى: ﴿إن الله يبشّرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا﴾ (آل عمران: ٣٩)، والحصور فى اللغة العربية هو الذى يكف نفسه عن شهوة النساء، والاسم «يحيى» العربى الذى ليس فيه شبهة عجمة يعنى الحيىّ حياءً.. يأتى به القرآن بديلاً للاسم العبرىّ ـ الآرامىّ «يوحنا» لنبى الله فى التوراة، وقد ردّ المؤلف الاسم «يوحنا» إلى جذره العبرىّ ـ الآرامىّ فأصبح «يُو + حَنِّى» والذى يعنى فى العبرية «الله أحصر» بمعنى «الذى أحصره الله» وهو الحصور الذى فى القرآن!

تتوالى عبر صفحات الكتاب النتائج التى تؤكد فى وضوح لا لبس فيه صحة منهج المؤلف فى تفسير العلم الأعجمى فى القرآن بالقرآن، ومن أعجب ما توصل إليه المؤلف فى بحثه تفسير معنى اسم نبى الله «يونس» على أنه تعريب لكلمة «يونا» العبرية فى العهد القديم، يقول المؤلف إن القرآن عرّب الاسم العبرى «يونا» على المعنى الآخر لهذا الاسم فى التوراة وهو «الظالمة»، فالاسم العبرانىّ «يونا» يعنى فى العبرية «الحمامة» فى العربية وقد اشتق من الجذر العبرى «ينا»، أما اسم الفاعل المؤنث من الجذر «ينا» فإنه «يونا» وهو يعنى الظالمة فى اللغة العبرية، لذلك جانس القرآن المعجز بين اسم «يونس» وبين الظلم فى الآية رقم (٨٧) من سورة (الأنبياء): ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾، يقول المؤلف لقارئه بعد أن انتهى من تفسير الاسم يونس: «كفاك بهذا إعجازًا فى فقه العبرية دونه كل إعجاز، وسبحان الذى علّم بالقلم.. علم الإنسان ما لم يعلم» (الجزء الثانى ـ ص١٩٦).

يمضى المؤلف مطبقًا أدوات التفسير الست التى توصل إليها فى بحثه على الأعلام الأعجمية التى وردت فى القرآن، فما خرج عن القاعدة التى أرستها تلك الأدوات سوى اسم واحد من واحد وستين اسمًا هو «المجوس» التى لم تفسّر على منهاج هذا البحث، وقد أوضح المؤلف أن السبب فى ذلك هو أن اسم «المجوس» ليس من مُعرّبات القرآن وإنما هو من مُعرّبات العرب يريدون به اسم أهل الملة من عبدة النار جميعًا: كهنوت وغير كهنوت، إن انطباق نتائج البحث مع منهجه كان انطباقًا تامًا، وهو ما أغرى المؤلف على أن يتناول أسماء أعلام أخرى لم ترد بالقرآن محاولاً تطبيق منهج بحثه عليها، ومن هذه الأسماء: «حواء» و«يوكابد» و«مريام» وغيرها، ولقد أنجز ذلك ـ بفضل من الله ونعمة ـ إتمامًا لهذا الوجه الجديد من إعجاز القرآن.

أوجه القصور

إن هذا البحث الجديد فى «إعجاز القرآن» يعتمد منهجًا لم يسبق المؤلف إليه أحد على الإطلاق ممن عالج هذا الفرع فى علوم القرآن من علماء وباحثين، وإن أكثر ما يجذب انتباه قارئ هذا الكتاب الذى جاء فى جزءين شغلا سبعمائة وسبعًا وثلاثين صفحة من القطع المتوسط.. هو كثرة القضايا التى يتصدى لها المؤلف والفيض الزاخر من المعلومات التى تترى بين جنبات البحث، والمؤلف يطرح أفكاره فى هذا الخضم بأسلوب يرى الدكتور / محمود الطناحى (رحمه الله) فى تقديمه للكتاب أنه: «ينتمى لذلك النمط العالى من البيان المشرق الوضىء. الذى هو السمة الغالبة على أسلوب علمائنا الأوائل»، وفيما بين التوفيق فى استنباط النتائج والاجتهاد فى كثير من القضايا التى عرض لها البحث، فإن ثمة هنات لابد أن تلحق بالعمل لتحيد به قليلاً أو كثيرًا عن الشكل الأمثل الذى تتغياه نفس الكاتب أو القارئ، ولقد تصدى كل من الدكتور / محمود الطناحى فى المقدمة التى صدّر بها الكتاب والدكتور / محمد رجب البيومى فى مقال بمجلة «المصور» بتاريخ ١١/٢/١٩٩٤م لمعظم ما جاء فى الكتاب من أوجه القصور أو مداخل النقد، ولكن تبقى هناك نقطتان يمكن أن تضافا إلى ما تفضل بالإشارة إليه من نقد كل من الدكتور الطناحى والدكتور البيومى، وهو ما سوف نعرض له الآن.



أحمد اللباد

تدور النقطة الأولى حول اهتمام المؤلف البالغ بالرد على كثير من دعاوى المستشرقين ضد القرآن والإسلام.. مما يقطع من سياق البحث، لذلك اهتم المؤلف كثيرًا بعرض الكثير من روايات العهد القديم وأكاذيب أحبار اليهود حول بعض أعلام البحث، من ذلك ما ذكره المؤلف عند تفسيره للأعلام: الزبور (جزء٢ ـ ص١٥٢) وسليمان (جزء ٢ ـ ص١٥٩) وهى أعلام عربية لا تحمل شبهة لعجمة، لكنه تعرض فى ثنايا تفسيره لهذين العلمين لما أورده كتبة العهد القديم مرادفًا لهما، ثم أوضح ما تكبده أولئك الكتبة من جهد لإثبات دعاواهم المضلة عن نحت هذه الأعلام من جذور عبرية قد لا يكون لها وجود بالمرة أو محاولتهم ضبط الاسم ـ العمل على ما كان ينطق به فى عصر تدوين التوراة وتبعًا لرسمه اليونانى فى أصول الأناجيل، كل ذلك لم يكن كافيًا.. فمضى المؤلف بعد ذلك يفنّد دعاوى كتبة العهد القديم ـ فى سفر صموئيل الثانى ـ على نبى الله داود، ثم يختتم المؤلف ذلك بقوله: «وقد قصصت عليك فأطلت، كى تعلم إلى أى مدى يلغُ الكتبة فى أعراض أنبياء الله ورسله» (جزء ٢ ـ ص ١٦٤)، ولكنه لا يكتفى بذلك.. وإنما يتبعه بعرض ما أورده القرآن.. مفسّرًا وشارحًا ومقارنًا ما جاء به القرآن وما دلّس به كتبة التوراة، يستغرق هذا الاستطراد الصفحات من ١٦٢ إلى ١٦٦ من الجزء الثانى، وذلك بالرغم من أن «سليمان» عربية قح لا تحتاج من القرآن أن يفسرها للعرب على منهج الكتاب كما ذكر المؤلف فى الصفحة السابقة (الصفحة رقم ١٦١ من الجزء الثانى)!

والنقطة الثانية هى نتاج للأولى.. إذ إن الحماس فى الدفاع عن القرآن والإسلام قاد المؤلف إلى موارد الإطالة، وهو ما نتج عنه التفرع فى مسارات كثيرة لم تخدم البحث وإنما أجهدت القارئ وأضعفت ـ فى بعض المواضع ـ من تركيزه على فكرة البحث، ومن ذلك أن المؤلف عندما فسّر العلم «فرعون» بأنه الصرح على الترادف الصريح تبعًا لمنهاج بحثه ومستعينًا بما أورده القرآن فى الآيات: (٣٨ ـ القصص) و(٣٦ ـ غافر)، فإن ذلك تم له فى ثلاث صفحات لا أكثر هى الصفحات من ٣٣ إلى ٣٥ من الجزء الثانى، ولكن ما دأب المؤلف عليه من إطالة وتشعيب لقضايا بحثه.. قاده لأن يفرد الصفحات فيما بين الصفحة رقم ٣٥ إلى الصفحة رقم ٤٩ من الجزء الثانى للخوض فى قضية خلافية تضاربت حولها الآراء، كانت القضية التى تفرع إليها المؤلف عند تفسيره للعلم «فرعون» تدور حول «من هو بالضبط من فراعنة مصر الذى لقب (فرعون موسى)».

كلمة أخيرة

هذا بحث فى واحد من أعقد فروع تفسير القرآن، يبتكر مؤلفه منهجًا جديدًا لم يفطن إليه باحث قبله وهو تفسير العلم الأعجمى في القرآن، ولعل وجود هذا الكتاب بما حواه من فكر ومنهج بحثى فى السنوات الأخيرة التى يعانى فيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها.. يدفع عن الإسلام ما يوجه إليه من اتهامات وما يلصق به من تخرصات، فها هو مسلم معاصر يعمل أدوات البحث العلمى فى بعض آيات القرآن الكريم، ليبحر بعقله فى بحر كتاب الله الزاخر وليغوص فى أعماقه التى تغص بالكنوز والعجائب، ليخرج إلينا بلآلئ الإعجاز التى تملأ القلوب وتنير العقول بصحيح الإيمان.

مكتبة التاريخ.. والأسئلة التاريخية

هكذا التاريخ.. بحكم طبيعته، وبحكم إنسانية رواته وكاتبيه، يبقى صندوقًا للألغاز وعلامات الاستفهام.
وهكذا مكتبة الإسكندرية، العلامة الثقافية التاريخية الفريدة،
تأتى إعادةُ افتتاحها بإعادة لكل الأسئلة القديمة / الجديدة؛
من حرقها؟ وهل هو عمرو بن العاص؟ بل هل احترقت أصلاً؟ وهل هى يونانية كما ساد الاعتقاد؟.. وهل.. وهل.
هنا مقالان عن مكتبة التاريخ والأسئلة التاريخية.



أحمد عثمان

ثار جدال بين الباحثين عن تاريخ المكتبة القديمة وموقعها، وبينما أجمع الأساتذة المصريون على أن مكتبة الإسكندرية أقامها بطليموس الأول، وأنها كانت جزءا من الموسيون (المتحف)، تؤكد الأدلة التاريخية المعاصرة للأحداث أنها أقيمت فى عهد بطليموس الثانى، وأنها كانت جزءا من معبد السيرابيوم. وليس هذا مجرد خلاف أكاديمى ليست له أهمية تاريخية، بل له دلالات هامة فى التعرف على أصل الحضارة الغربية الحديثة. فلو صح أن مكتبة الإسكندرية كانت جزءا من المتحف، فإن هذا يعنى أنها كانت تمثل الحضارة الهيلينية اليونانية، بينما لو ثبت قيامها فى السيرابيوم فهذا يعنى أنها كانت تمثل حضارة مصر القديمة والحضارة الشرقية بشكل عام. وفى اعتقادى أن سبب الخطأ فى تحديد موقع مكتبة الإسكندرية القديمة يرجع إلى قبول الباحثين المصريين لتفسيرات أساتذة الكلاسيكيات الغربيين، دون تمحيص أو مناقشة. وإذا علمنا أن فكرة وجود حضارة هيلينية يونانية مركزها الإسكندرية، هى مجرد نظرية ظهرت حديثا فى القرن التاسع عشر لتفسير التاريخ - وليست حقيقة تاريخية - لأدركنا أن من يزعم بأن الإسكندرية كانت مدينة يونانية، يعتمد على تفسير أيديولوجى، وليس على حقيقة ثابتة تاريخيا. ومع هذا فإن غالبية الأكاديميين فى بلادنا تبنت تفسير رجال التنوير الأوروبى، دون مناقشة.

هل كانت المكتبة الكبرى بالإسكندرية مركزا للثقافة الهيلينية اليونانية، أم لثقافة المصريين القدماء؟ هل كانت مكتبة الإسكندرية القديمة - التى أحرقها الرومان عام ٣٩١ قبل الميلاد - مركزا للحضارة الشرقية، أم أنها تمثل تراث اليونان وبداية الحضارة الغربية على أرضنا؟ كانت الإجابة عن هذا السؤال حتى القرن التاسع عشر، تؤكد الطبيعة الشرقية لمكتبة الإسكندرية التى جمعت تراث الأمة العربية فى مصر وبابل وسورية وبلاد الفرس، تبلورت فى بوتقة ثقافية واحدة. إلا أنه منذ عصر التنوير الأوروبى وبداية استعمار الرجل الأبيض للعالم الثالث فى القرن التاسع عشر، تغيرت الإجابة عن هذا السؤال - بحيث صارت الإسكندرية ومكتبتها تراثا يونانيا غربيا، زرع فى أرض مصر بعد أن ماتت حضارة المصريين ولم يعد لها وجود. ولم تتغير الإجابة بناء على اكتشاف حقائق لم تكن معروفة من قبل، بل بناء على عقيدة عنصرية ظهرت فى أوروبا تقول بتفوق الرجل الأبيض، وعدم قدرة الشرقيين على إنتاج الفكر الفلسفى أو البحث العلمى. وحتى يمكننا التوصل إلى حقيقة الأمر، علينا أولا أن نجيب عن هذه الأسئلة:

هل كان الإسكندر الأكبر يونانيا؟

من الذى أنشأ مكتبة الإسكندرية - بطليموس الأول أم بطليموس الثانى؟

من هو الباحث الذى كلفه الملك بإنشاء المكتبة، ديمتريوس اليونانى أم مانيتون المصرى؟

أين أقيمت مكتبة الإسكندرية، فى الموسيون بالحّى الملكى أم فى معبد السيرابيوم بالحى المصرى؟

عندما جاء الإسكندر الأكبر المقدونى إلى مصر عام ٣٣١ قبل الميلاد، قرر بناء مدينة الإسكندرية على أرض شبه مستطيلة بين البحر المتوسط شمالا وبحيرة مريوط جنوبا، لتكون عاصمة مصر الجديدة. وسرعان ما أصبحت الإسكندرية أهم مركز للبحث والدراسة فى العالم القديم، بفضل سياسة الملوك البطالمة الذين خلفوا الإسكندر فى حكم مصر. فقد أنشأ بطليموس الأول ٢٨٠ قبل الميلاد الموسيون (المتحف) فى الجزء الجنوبى الغربى من قصره ليكون مسكنا للوافدين الأجانب من الشعراء والباحثين الأجانب، كما أنشأ معبد السيرابيوم بالحى المصرى. وعندما تولى بطليموس الثانى الحكم بعد أبيه، أقام المكتبة داخل معبد السيرابيوم الواقع بالقرب من المدافن غربى القصر الملكى. وعهد الملك بمهمة إعداد المكتبة إلى الكاهن المصرى مانيتون الذى قام - اعتمادا على المصادر التى وجدها فى مكتبات معابد عين شمس ومنف - بعمل نسخة من الكتب المصرية مترجمة إلى اليونانية لوضعها فى معبد السيرابيوم بالإسكندرية. قدم مانيتون ثلاثة مراجع رئيسية للمكتبة: الأول يتضمن ملخصا للتاريخ المصرى القديم حتى بداية حكم البطالمة، والثانى يتضمن الكتابات المقدسة والشروحات الفلسفية والفقهية لها، أما المرجع الثالث فيختص بقوانين العلوم الفيزيائية الطبيعية. كما تم جمع كتب التوراة بالإسكندرية وترجمتها إلى اليونانية لتوضع فى مكتبتها، وتضمنت المكتبة معارف الحضارات القديمة فى مصر وبابل وسورية وفارس، إلى جانب أشعار اليونان وفلسفتها. وحوت المكتبة كتب اللغة والبلاغة والفقه والقانون والجغرافيا والتاريخ والفلسفة والمنطق والرياضة والفلك والهندسة والطب والكيمياء والفيزياء، فكانت هذه هى المرة الأولى فى تاريخ البشرية التى فيها تجمعت مصادر تراث الحضارات القديمة كلها فى مكان واحد مدونة بلغة أبجدية واحدة، مما يتيح للدارسين الاطلاع عليها.

إلا أن رجال التنوير وأساتذة الدراسات الكلاسيكية فى العصر الحديث، أنكروا هذه الحقائق التاريخية وفرضوا تفسيرهم الخاص لطبيعة المكتبة. يقول الباحث الألمانى هانز وليش فى صفحة ٩٨ من كتابه عن «مكتبة الإسكندرية وأصل السيرة الذاتية» الصادر عام ١٩٩١:

«إذا ما تساءلنا لماذا جمع بطليموس الأول وخلفاؤه هذا العدد الكبير من الباحثين والشعراء فى بلاطهم ... فعلينا أن نأخذ فى الاعتبار أن (استخدام) تفوق الثقافة اليونانية، لتبرير الحكم المقدونى الرومانى على مصر، لا يمكن إظهاره بشكل أفضل من ازدهار الفنون والعلوم فى الإسكندرية. فهذا الازدهار يثبت كذلك أن الثقافة اليونانية (التى انتهت فى اليونان) كانت لا تزال حية وفى حالة جيدة (بالإسكندرية)، بينما ماتت الحضارة المصرية القديمة - التى طالما أعجب بها العديد من المتعلمين اليونان - منذ زمن طويل. ولم يعد اليونان يهتمون كثيرا بالمصريين فى عصرهم».

كما يعتبر أساتذة الدراسات الكلاسيكية، وعلى رأسهم الدكتور مصطفى العبادى - وهو أستاذ متفرغ بقسم الآثار والدراسات اليونانية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية - والدكتور أحمد عتمان - أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة القاهرة - أن القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد عندما حكمت مصر أسرة الملوك البطالمة وآخرهم كليوباترا، تمثل عصرًا يونانيًا كما يذهب إلى أن ديميتريوس فاليرون هو الذى أنشأ مكتبة الإسكندرية، أقامها على أساس من المراجع اليونانية عندما أحضر مكتبة الفيلسوف أرسطو من أثينا، وهو الذى تولى مشروع ترجمة كتب التوراة من العبرية إلى اليونانية، لتكون جزءا من المكتبة. يقول الدكتور عادل أبو زهرة، وهو أستاذ العلوم السلوكية بجامعة الإسكندرية:

«لم تجد الثقافة اليونانية ملجأ لها خيرا من مصر... وبين فتح الإسكندر لمصر فى القرن الرابع قبل الميلاد والفتح العربى الإسلامى فى أواسط القرن السابع ازدهرت فى مصر ثقافة إنسانية جديدة ... هى الثقافة الهيلينية التى



ظلت حية فى المدارس والأديرة إلى نهايات العصور الوسطى، وكانت مصدرا من أهم مصادر الفكر الإسلامى. هل نتبرأ من هذه الثقافة، ونسقط من حسابنا هذا التاريخ؟».

الإسكندر ليس يونانيا

لم تكن هناك دولة لليونان عند بناء مدينة الإسكندرية ومكتبتها منذ ثلاثة وعشرين قرنا، بل كانت الأقوام اليونانية موزعة فى مدن شبه الجزيرة اليونانية وجزر بحر إيجة وساحل الأناضول، وكلها كانت خاضعة لسيطرة المقدونيين ثم من بعدهم لسيطرة الرومان. كما لم يكن الإسكندر الأكبر يونانيا بل كان مقدونيا، تمكن أبوه فيليب الثانى من توحيد بلاده ثم أخضع بلاد اليونان لسلطته. ولا كان اليونان شركاء الإسكندر فى حروبه وإمبراطوريته فجميع قادته كانوا من المقدونيين، وإنما عمل اليونان مرتزقة فى جيش الإسكندر - كما عملوا فى جيوش أعدائه من الفرس - إلى جانب مرتزقة آخرين من الفرس واليهود والشوام. ولم يكن الملوك البطالمة حكاما أجانب يحكمون مصر لصالح بلادهم، بل كانوا حكاما مصريين من أصل مقدونى، تماما كما كانت أسرة محمد على فى مصر من أصل ألبانى، وكما هو حال أسرة وندسور فى بريطانيا التى تنتمى إلى أصل ألمانى.

لم يذكر الشاعر هومر فى رواياته اسم القبائل المقدونية من بين الأقوام اليونانية، كما أن الجغرافى سترابو لم يتحدث عنهم عندما ذكر أسماء الأراضى اليونانية. تقع مقدونيا شمال شرقى بلاد اليونان وراء جبل الأوليمب، هاجرت إليها القبائل المقدونية التى جاءت من الغرب خلال القرن الثامن قبل الميلاد. وفى العصور الحديثة توزعت أراضى مقدونيا القديمة بين الصرب وكرواتيا ومقدونيا وجنوب بلغاريا، كما حصلت اليونان على الجزء الجنوبى الغربى. وبعد عدة قرون من الحياة القبلية، تمكن فيليب الثانى من توحيد الأقوام المقدونية تحت سلطته عند منتصف القرن الرابع قبل الميلاد وتكوين جيش منظم لها. ولما كانت القوات الفارسية تتجمع عند مضيق الدردنيل استعدادا لغزو أوروبا، لجأ فيليب إلى غزو ممالك اليونان استعدادا لمواجهة الفرس، وتمكن من هزيمة تحالف أثينا وطيبة فى معركة حاسمة عند خيرونيا سنة ٣٣٨ ق.م.

كان الإسكندر المقدونى فى العشرين من عمره عندما مات أبوه فيليب وخلفه هو على عرش مقدونيا. وبعد حروب قضى فيها على تمرد الممالك اليونانية قام الإسكندر - ومعه جيش مكون من ٣٥ ألف مقاتل - بعبور مضيق الدردنيل عام ٣٣٤ قبل الميلاد، لمواجهة الخطر الفارسى. وفى أول معركة له مع الفرس عند نهر جرانيكوس شرقى طروادة، انتصر الإسكندر وهرب دارا (داريوس) ملك الفرس من أرض المعركة، مما جعل مدن آسيا الصغرى تفتح أبوابها أمام الإسكندر دون قتال. وعاد الجيشان إلى اللقاء عند مدينة إيسوس شمالى الأراضى السورية، وهناك اندحرت القوات الفارسية للمرة الثانية وهرب دارا إلى أرض الرافدين تاركا وراءه أمه وزوجته وأولاده، أسرى فى يد الإسكندر. وبدلا من مطاردة الملك الفارسى، سار الإسكندر بجيشه جنوبا على الشاطئ السورى حتى وصل بلاد الفينيقيين، وهناك تلقى رسالة من دارا يعرض فيها شروط الصلح. ورد الإسكندر طالبا من الملك الفارسى الحضور شخصيا لمقابلته ومناقشة شروط السلام معه، ولما رفض دارا هذا الطلب استمر الإسكندر فى طريقه جنوبا على الساحل الفينيقى، ولم تقف فى طريقه سوى مدينة صور التى اضطر إلى حصارها سبعة أشهر قبل سقوطها.

ولم يدخل الإسكندر مصر غازيا بل إنه لم يخض معركة واحدة على أرضها، حيث استقبله أهلها بالترحاب حتى يخلصهم من سوء المعاملة التى تلقوها على يد الفرس. وفى منف العاصمة قام الكهنة بتتويج الإسكندر ملكا على مصر ووضعوا على رأسه تاج الأرضين، وفى احتفال كبير قام الملك الجديد بتقديم القرابين إلى «عجل أبيس» فى معبد السيرابيوم بسقارة، وكان المصريون يعتبرون هذا الحيوان رمزا لبتاح معبود منف. ثم سافر الإسكندر بالمركب فى مياه النيل وسار شمالا فى الفرع الغربى للدلتا، وعندما وصل إلى بحيرة مريوط نزل على البر فى المنطقة المحصورة بين البحيرة جنوبا والبحر الأبيض شمالا، فى مواجهة جزيرة فاروس. وهنا فكر الملك الشاب فى بناء مدينة فى هذا الموقع شرقى القرية المصرية القديمة راقودة، تحمل اسمه وتكون عاصمته الجديدة. جاء اختيار الإسكندر لموقع الإسكندرية عند جزيرة فاروس، لتكون امتدادا شرقيا لقرية راقودة المصرية القديمة، وأثبت تحليل الأخشاب الموجودة فى الميناء مؤخرا بكاربون ١٤، أن راقودة سبقت الإسكندرية بثلاثة قرون على الأقل. وبعد أن وضع خطة بناء الإسكندرية قرر الإسكندر زيارة معبد آمون فى سيوة، وسار وأصحابه مسافة ٥٠٠ كيلومتر وسط الرمال، فى رحلة شاقة استغرقت ثلاثة أسابيع للوصول إلى الواحة.

ذو القرنين

كان معبد آمون فى سيوة - الذى بناه أحد ملوك الأسرة ٢٦ قبل قرنين من عصر الإسكندر - له شهرة عالمية فى النبوءة، بلغت جميع أنحاء العالم القديم. وكان اليونان يسمون آمون المصرى باسم «زيوس»، بينما أطلق عليه الرومان اسم «جوبيتر». وكان الكبش هو رمز لآمون فى معبد سيوة. وصل الإسكندر إلى معبد سيوة فى فبراير ٣٣١ قبل الميلاد، وهناك أخذه الكاهن الأكبر وأدخله إلى قدس الأقداس - وهو حجرة مظلمة لا يدخلها إلا الكاهن الأكبر والملك - ولم يسمح لأحد من مساعديه بالدخول معه. وعندما خرج الإسكندر من المعبد بدا عليه الارتياح، ورفض الإفصاح عما حدث بالداخل، وكان كل ما قاله لأصدقائه «سمعت ما يحبه قلبى». وقبل أن يغادر سيوة قام الكهنة بإعلان الإسكندر ابنا لآمون، ووضعوا على رأسه غطاء رأس آمون الذى يمثل رأس كبش له قرنان. وأصبحت صورة الإسكندر على العملات المضروبة بعد هذا التاريخ تحمل قرنين على رأسه، تشبها بآمون، ولهذا فقد عرف الإسكندر على أنه «ذو القرنين»، وهناك اعتقاد بأنه هو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سورة الكهف: «ويسالونك عن ذى القرنين قل ساتلو عليكم منه ذكرا».

غادر الإسكندر منف بعد بضعة أسابيع من إصداره الأوامر بالبدء فى بناء مدينة الإسكندرية فى ٧ أبريل ٣٣١ ق.م.، ولم تزد مدة بقائه فى مصر على سبعة أشهر. وسار فى طريقه إلى شمال سورية حيث عبر الفرات لملاحقة جيوش دارا إمبراطور الفرس، والتقى به فى معركة حاسمة عند مدينة «جوجاميلا» شرقى دجلة، انهزم فيها الجيش الفارسى وصار الطريق مفتوحا أمام الإسكندر لغزو بلاد الفرس نفسها. سار الإسكندر بجيشه جنوبا إلى بلاد بابل فاستقبلته بالترحاب أينما حل. ثم اتجه شرقا حيث أخضع كامل الأرض الفارسية، قبل دخوله بلاد الهند ومد حدود ملكه ما بين أفغانستان وبلاد اليونان. وكان الإسكندر يستعد لغزو الجزيرة العربية عن طريق جزيرة البحرين فى الخليج، وتقول إحدى الروايات اليونانية إن أهل الجزيرة فى تلك الحقبة، كان لديهم معبودان أساسيان هما «أورانوس» و«ديونيسوس» - أو أوزوريس - إلى جانب عبادة الأجداد. وبنى الإسكندر ميناء على نهر الفرات عند مدينة بابل، جمع به أسطولا تم بناؤه من خشب الأرز، جاء به من بلاد الفينيقيين الذين اختار منهم بحارته كذلك. وأرسل وحدة استطلاعية نزلت بجزيرة الفيلكة



مكتبة الإسكندرية لم تكن يونانية

الكويتية وكذلك على «البحرين». وكانت البحرين، والتي يسميها اليونان «تيلوس»، أرضًا خصبة ومركزا هاما لتجارة مواد العطارة القادمة من الجزيرة العربية. إلا أن الجيش الإغريقي لم يتحرك من موقعه في بابل بسبب المرض الذى أصاب الإسكندر فجأة. فقد أصيب الملك الشاب بجراح بالغة وهو يحارب فى بلاد الهند، هى التى جعلته يلجأ إلى مدينة بابل.

الحضارة الهيلينية

كانت الفكرة السائدة حتى القرن الثامن عشر تقول إن الحضارة اليونانية اعتمدت فى أصلها على الحضارات الشرقية القديمة، إلى أن ظهرت مدرسة جديدة فى عصر التنوير الأوروبى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ذهبت إلى وجود حضارة للأجناس الهند - أوروبية، مستقلة فى نشأتها عن حضارة الشرق الأوسط، وهى التى أنتجت الحضارة الهيلينية. واعتمد المفكرون للوصول إلى هذا التفسير على الدراسات اللغوية التى دلت على وجود شعبة من الكتابات الهند - أوروبية القديمة، كانت مستقلة فى ظهورها عن الكتابات السامية. واستخدم المفكرون الأوروبيون - خصوصا الألمان منهم - هذا التفسير لدعم رأيهم القائل إن الجنس الشمالى الآرى الذى يعتبرونه أكثر تطورا من الناحية البيولوجية، هو الذى أنشأ الحضارة الهيلينية، وأنكروا دور الشرق فى هذه الحضارة. ولما كانت الدول الأوروبية بعد عصر الثورة الصناعية تستعد لغزو واستعمار مناطق الحضارات القديمة فى الشرق، فقد لاقت هذه الآراء نجاحا كبيرا بين الباحثين الكلاسيكيين، الذين استخدموها لتبرير سيطرتهم على العالم القديم.

خضعت بلاد اليونان لحكم المقدونيين أولا ثم الرومان، وترجع فكرة ظهور حضارة هيلينية خارج اليونان - بعد انتهاء الحضارة الهلنستية فى بلاد اليونان - إلى مفكر ألمانى اسمه يوهان جوستاف درويسن (١٨٠٨ - ١٨٨٤). كان درويسن هو أول من اعتبر الإسكندر يونانيا، وقال إن الحضارة اليونانية - وإن انتهت فى بلاد اليونان بموت أرسطو عند نهاية القرن الرابع قبل الميلاد - استمرت فى الإسكندرية. وتبع أساتذة التنوير فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا تفسير درويسن، كما لو كان كتابا منزلا لا يمكن الشك فيه. بل إن التنويريين ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقالوا بوجود حضارة للأجناس الهند - أوروبية، مستقلة فى نشأتها عن حضارة الشرق الأوسط، وهى التى أنتجت الحضارة الهيلينية. إلا أن الحضارة التى اعتبرها التنويريون هيلينية لم تخرج من أية بقعة فى بلاد اليونان، وإنما جاءت من مدينة الإسكندرية. لذلك قرر رجال التاريخ الكلاسيكى - دون استناد إلى أى دليل من التاريخ - اعتبار الإسكندرية القديمة مدينة يونانية وليست مصرية. وظلت هذه الفكرة سائدة إلى أن تمكن علماء المصريات من ترجمة النصوص الهيروغليفية القديمة، كما عثر رجال الآثار على عشرات الآلاف من الكتابات البردية، بالديموطيقية واليونانية والقبطية. وكانت المفاجأة عندما تبين أن غالبية العلوم الرياضية والعلمية التى قيل إنها هيلينية، موجودة لدى المصريين قبل مئات السنين من بناء مدينة الإسكندرية. وعلى سبيل المثال فإن نظرية فيثاغورس التى تنسب إلى الإسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد، تبين أن المصريين استخدموا هذه النظرية فى تصميم غرفة الملك بالهرم الأكبر قبل ذلك بحوالى ٢٤ قرنا من الزمان. ثم جاءت مفاجأة أخرى قبل نهاية القرن العشرين، عندما أخرج الغطاسون الآثار المصرية الفرعونية - بدلا من الآثار اليونانية - من قاع الميناء الشرقى الذى كانت تطل عليه القصور البطلمية، وتبين وجود مدينة راقودة المصرية القديمة فى موقع الإسكندرية، قبل ثلاثة قرون على الأقل من مجىء الإسكندر إليها.

كانت الصدفة وحدها هى التى ساعدت على ظهور حى بأكمله اختفى من مدينة الإسكندرية القديمة، وكان غارقا عند قاع البحر لأكثر من ستة عشر قرنا من الزمان. إذ أدى زلزال عنيف - فى القرن الثالث الميلادى - إلى انخفاض منطقة القصور الملكية الواقعة شرقى المدينة القديمة، بما تحتويه من قصور ومقابر لملوك أسرة البطالمة الذين حكموا مصر لثلاثة قرون قبل العصر الميلادى. ومنذ ثلاثين عاما مضت بينما كان الغطاس المصرى كمال أبو السادات يسبح عند الميناء الشرقى للإسكندرية، وقعت عيناه على شىء لم يكن من السهل عليه تصديقه، إذ وجد فى قاع الميناء على عمق ستة أمتار من السطح، مدينة كاملة من القصور والأعمدة والتماثيل المصرية، غارقة أمام قلعة قايتباى التى بناها المماليك بالإسكندرية، فى منطقة تبلغ مساحتها حوالى اثنين وعشرين ألف متر مربع. وبالرغم من قيام الغطاس المصرى بإبلاغ سلطات الآثار بالإسكندرية عما عثر عليه من حجارة تحت سطح الماء، إلا أن أحدا لم يتصور أن المنطقة التى غمرتها المياه تمثل ثلث مساحة الإسكندرية القديمة وتحتوى على جميع القصور الملكية للبطالمة. كما تبين للأثريين وجود مدينة راخوتس المصرية القديمة فى موقع الإسكندرية، قبل ثلاثة قرون على الأقل من مجىء الإسكندر إليها.

وجاء العثور على بقايا فرعونية فى موقع القصر البطلمى وموقع الفنار الغارق عند قاع البحر، بمثابة الضربة القاضية لأصحاب الرأى الذى يزعم بأن الإسكندرية البطلمية كانت مدينة يونانية. ويؤكد الأثرى الفرنسى جان ايف أمبرير الذى ساهم فى عمليات البحث فى المنطقة الواقعة أمام قلعة قايتباى، أن الإسكندرية القديمة أصبحت الآن تبدو له مصرية أكثر مما كان يعتقد سابقا، كما قال الدكتور زولت كيس الأستاذ بالأكاديمية البولندية للعلوم فى تصريح لجريدة التايمز البريطانية فى ٢٩ أكتوبر الماضى: «فى استطاعتنا القول استنادا إلى هذه الاكتشافات إن إسكندرية البطالمة والرومان كانت أقل هيلينية وأكثر مصرية مما كنا نعتقد».

تم بناء مكتبة الإسكندرية الجديدة فى موقعها الحالى بمنطقة السلسلة بالشاطبى، بسبب اعتقاد الباحثين المصريين أن المكتبة القديمة كانت تقع داخل المتحف (الموسيون)، الذى بناه الملوك البطالمة فى هذا المكان، بينما لم يكن المتحف سوى بيت للطلبة الأجانب فى الحى الملكى المطل على البحر بالقرب من قصر البطالمة. وكل ما نعرفه بشكل مؤكد هو أن المكتبة التى حرقها الرومان فى ٣٩١ للميلاد، لم تكن بمنطقة الشاطبى وإنما كانت موجودة داخل معبد السيرابيوم بحى راقودة المصرى، عند عامود السوارى بالقرب من كوم الشقافة الحالى. وبينما أجمعت المصادر القديمة على أن المكتبة التى تم حرقها كانت داخل معبد السيرابيوم بالحى المصرى، تمكن الأثريون فى العصر الحديث من العثور على بقاياها أسفل عمود السوارى. فقد عثر البريطانى ألان رو أثناء الحرب العالمية الثانية، على عدة نسخ من حجر الأساس الذى وضعه بطليموس الثالث عند قيامه بتوسعة السيرابيوم، مدونا بالهيروغليفية واليونانية. كما يؤكد الأثرى الفرنسى جان - إيف إمبيرور فى كتابه عن «الإسكندرية» الصادر عن المتحف البريطانى عام ١٩٩٨، أن المكتبة التى أحرقها المسيحيون كانت فى هذا الموقع.

ولدينا شاهد معاصر للمكتبة والمتحف، هو الباحث الجغرافى استرابو الذى زار الإسكندرية عام ٢٥ قبل الميلاد، ووصف مبنى المتحف بإسهاب دون أن يذكر شيئا عن وجود المكتبة بهذا المبنى. وهذا غريب حقا حيث إن استرابو قام بعمل أبحاثه الجغرافية بمكتبة الإسكندرية، وهو يعرف موقعها جيدا. وأكد استرابو أن الموسيون كان مكانا تقيم به مجموعة من الشعراء الذين قدموا من مقدونيا والجزر اليونانية، ينامون ويأكلون ويشربون بداخله على حساب القصر الملكى، حتى يتفرغوا للدراسة. وليس هناك دليل آخر ولا ذكر واحد فى المصادر الكلاسيكية المعاصرة للمكتبة، يشير إلى أن المكتبة كانت جزءا من الموسيون، إنما ظهر هذا الرأى للمرة الأولى فى القرن التاسع عشر، لسبب بسيط هو أن المتحف يقع فى الحى الملكى، بينما كانت المكتبة منذ البداية موجودة فى داخل معبد السيرابيوم الموجود بالحى المصرى. وصل استرابو إلى الإسكندرية بعد خمسة أعوام من موت كليوباترا ودخول أغسطس إلى العاصمة المصرية. وفى الفقرة ٨ من كتابه الثامن، وصف استرابو المتحف فى معرض حديثه عن الحى الملكى، قائلا:

«والموسيون (المتحف) هو أيضا جزء من القصور الملكية، له طريق عام ورواق به مقاعد، ومنزل كبير به القاعة العامة لتناول الطعام للدارسين الذين يتشاركون فى الموسيون. وهذه المجموعة من الرجال ليس فقط تشترك فى الملكية (شيوعا) بل لديهم كذلك كاهن مسئول عن الموسيون، كان الملوك يعينونه من قبل والآن يعينه قيصر». لا ذكر هنا لكتب ولا لمكتبة أو أمين مكتبة، وإنما لعدد من الرجال يعيشون فى الموسيون، للتفرغ للدراسة. ومنذ بداية التاريخ، كانت المكتبة المصرية تشكل جزءا من المعبد وهذا هو نفس ما حدث فى الإسكندرية. ولدينا عدة مصادر معاصرة تتحدث عن وجود المكتبة داخل معبد السيرابيوم، مثل كتابات أمانيوس مارسيلينوس الذى زارها بنفسه. كما أن جميع المصادر القديمة تتحدث عن المكتبة - التى حرقها الأسقف ثيوفيلسوس عام ٣٩١ - مؤكدة أنها كانت داخل السيرابيوم. وكل ما نعرفه عن الموسيون بشكل مؤكد، أنه كان مكانا تقيم به مجموعة من الشعراء الذين قدموا من المدن اليونانية، ينامون ويأكلون

هل كان الإسكندر الأكبر يونانيا؟
من الذى أنشأ مكتبة الإسكندرية - بطليموس الأول أم بطليموس الثانى؟
من هو الباحث الذى كلفه الملك بإنشاء المكتبة، ديمتريوس اليونانى أم مانيتون المصرى؟



ويشربون بداخله على حساب القصر الملكى، حتى يتفرغوا للدراسة.

ديميتريوس

بعد أن غيروا موقع المكتبة ليجعلوها فى المتحف الكائن بالحى الملكى، كان عليهم أن يغيروا تاريخ بناء المكتبة كذلك حتى تصبح تفسيراتهم مقبولة. فمن المعروف أن الكاهن المصرى مانيتون كان هو المسئول عن تنفيذ مشروع المكتبة داخل معبد السيرابيوم، فى عهد بطليموس الثانى خلال القرن الثالث قبل الميلاد. لهذا لجأ التنويريون إلى القول بأن بطليموس الأول «لا بد أنه هو الذى أنشأ المكتبة» وليس بطليموس الثانى. والسبب الذى جعلهم يخالفون نصوصًا تاريخية صريحة بخصوص مؤسس المكتبة، هو رغبتهم فى نسبتها إلى ديميتريوس اليونانى وليس مانيتون المصرى. فقد هرب ديميتريوس حاكم أثينا وجاء إلى مصر أيام بطليموس الأول، ومات عند بداية حكم بطليموس الثانى. ورغم عدم وجود مصدر كلاسيكى واحد ينسب المكتبة إلى ديميتريوس، فقد أصر التنويريون على أن ديميتريوس «لا بد أنه هو الذى أقنع الملك ببناء المكتبة، وأحضر لها مكتبة أرسطو من أثينا». وهكذا - ليس فقط بدون دليل - بل بالتعارض مع جميع الأدلة التى لدينا، أثبت التنويريون أن مكتبة الإسكندرية كانت يونانية أقامها ديميتريوس اليونانى الذى أحضر مراجعها من أثينا، رغم أن الكشوفات الأثرية الحديثة بينت بوضوح، أن مكتبة أرسطو لم تصل إلى مصر على الإطلاق حيث تبين وصولها إلى مكتبة برجامون بآسيا الصغرى.

وصل ديمتريوس إلى الإسكندرية حوالى عام ٢٩٧ قبل الميلاد، فضمه بطليموس الأول إلى جماعة مستشاريه، التى تضمنت كذلك الكاهن المصرى مانيتون. ورغم أن ديو جينز لارتيوس الذى كتب قصة حياة ديميتريوس تحدث عن دوره كمستشار سياسى للملك، إلا أنه لم يذكر شيئا عن علاقته بالكتب أو المكتبة. وبمجرد أن خلف بطليموس الثانى والده على العرش عام ٢٨٣ قبل الميلاد، قام بطرد ديميتريوس من الإسكندرية إلى الصعيد، حيث قيل إنه دبر حادثا لقتله. ويرجع سبب كراهية بطليموس الثانى لديميتريوس، إلى أن هذا الأخير نصح والده بعدم تعيينه خليفة له. والمصدر الوحيد الذى يربط بين ديميتريوس والمكتبة، هو خطاب أجمع الباحثون على أنه مزور منحول. فقد تم العثور على خطاب لشخص يهودى - لا يعرف أحد أين عاش ولا أين وجد خطابه - عرف باسم أرستيس، وحددوا له عصرا لا يقل عن مائة عام بعد بناء المكتبة. ويتحدث خطاب أريستيس - كما ورد فى كتابات المؤرخ اليهودى جوزيفوس الذى مات فى روما عند نهاية القرن الأول للميلاد - عن الطريقة التى تمت بها ترجمة الكتب التوراتية إلى اليونانية فى الإسكندرية، فيقول إن ديمتريوس حصل على أموال كثيرة من بطليموس الثانى، لشراء الكتب. ورغم أنهم يجمعون على أن الخطاب منحول ومتأخر فى تاريخه، ورغم أن هذا الخطاب نفسه يحدد عصر المكتبة بعصر بطليموس الثانى، إلا أن الأوروبيين الحديثين اعتبروا هذا هو دليلهم الوحيد لإثبات أن ديميتريوس هو منشئ المكتبة.

وخلاصة ما جاء بخطاب أرستيس الذى انتحل صفة واحد من رجال البلاط البطلمى هى: «أمر بطليموس فلاديلفيوس (الثانى)، بناء على نصيحة من رجلى البلاط الملكى «ديميتريوس فاليرون» و« أرستيس»، بترجمة كتب اليهود المقدسة لوضعها فى مكتبة الإسكندرية. فكتب الملك إلى العازر الكاهن الأكبر للقدس، طالبا منه أن يرسل إليه مترجمين خبراء، وبعث مع خطابه بهدية ثمينة للمعبد اليهودى. فبعث العازر باثنين وسبعين من كبار السن إلى بطليموس الثانى، من المتبحرين فى العلوم التوراتية واللغة اليونانية. ووضعهم الملك فى جزيرة فاروس بالإسكندرية، فقاموا بترجمة كتب التوراة من العبرية إلى اليونانية فى ٧٢ يوما». ورغم إجماع الباحثين على أن خطاب أرستيس هذا مزور، إلا أن أصحاب نظرية الأصل اليونانى لمكتبة الإسكندرية وجدوه فرصتهم الوحيدة لدعم وجهة نظرهم، حيث إنه المصدر الوحيد الذى يتحدث عن ديميتريوس باعتباره مسئولا عن المكتبة. بل إنهم اعتمدوا على هذا الخطاب المزور، لإنكار الحقائق الثابتة التى أجمعت عليها المصادر المعاصرة للمكتبة ذاتها. ذلك أن جميع المصادر القديمة - بما فى ذلك خطاب أرستيس نفسه - تؤكد أن بطليموس فلاديلفيوس (الثانى) هو الذى أنشأ مكتبة الإسكندرية وجرى ترجمة التوراة فى عهده.

عندما تولى بطليموس الثانى الحكم بعد أبيه، أنشأ المكتبة داخل معبد السيرابيوم الواقع بالحى المصرى بالقرب من المدافن غربى القصر الملكى. وعهد الملك بمهمة إعداد المكتبة إلى الكاهن المصرى مانيتون الذى قام بعمل نسخة من الكتابات الموجودة فى معابد عين شمس ومنف، مترجمة إلى اليونانية لوضعها فى معبد السيرابيوم بالإسكندرية. كما تم جمع كتب التوراة وترجمتها إلى اليونانية لتوضع فى مكتبتها، وهى الترجمة السبعينية التى أصبحت النص التوراتى الوحيد لمدة عشرة قرون بعد حرق معبد القدس، إلى أن تم العثور على نسخة من النص العبرى المازورى. كان الملك يهدف إلى تجميع الكتابات الهامة لكل الحضارات القديمة، فأرسل بطليموس الثانى خطابا إلى كل حكام العالم يطلب منهم إرسال أعمال مؤلفيهم ليتم نسجها فى مكتبة الإسكندرية، حيث كانت المكتبة تحتفظ بالأصل وتعيد الصورة. وبحسب الروايات القديمة وصل عدد المخطوطات فى النهاية إلى نصف مليون مخطوط، وتم عمل فهرس لمحتويات المكتبة فى ١٢٠ مخطوطا. كما ترجمت كل المخطوطات إلى اللغة اليونانية، والتى كانت - مثلها مثل اللغة الإنجليزية الآن - قد أصبحت بمثابة لغة الدراسة والتفاهم بين الشعوب المختلفة. وكانت المخطوطات - وهى لفائف من أوراق البردى - توضع على أرفف ملتصقة بالحائط. هذا إلى جانب أعمال عظماء مفكرى العالم سواء كانت شعرا أو نثرا، وكتب اللغة والبلاغة والفقه والقانون والجغرافيا والتاريخ والفلسفة والمنطق والرياضة والهندسة والطب والكيمياء والفيزياء. فكانت هذه هى المرة الأولى فى تاريخ البشرية التى فيها تجمعت مصادر تراث الحضارات القديمة كلها فى مكان واحد، يسمح للدارسين بالاطلاع عليها.

أحدث ظهور مكتبة الإسكندرية ثورة علمية فى تاريخ البشرية، وحدثت طفرة نوعية فى معرفة الإنسان بسبب هذه المكتبة. فبينما كان نظام التعليم فى السابق متوقفا على عدد قليل من الناس، القادرين على قضاء سنين طويلة فى التعرف على ألغاز المعارف المكتوبة بعلامات مختلفة والمختفية داخل رموز لا يعرفها إلا المؤهلون، جاءت الأبجدية اليونانية لتسهل للإنسان العادى تعلم القراءة والكتابة. وبينما كانت الحضارات القديمة تحتفظ بأسرارها فى معابدها ومكتباتها، جمعت الإسكندرية معارف كل هذه الحضارات فى مكان واحد. وهكذا صار فى وسع الطالب الاطلاع على معارف المصريين والبابليين والفرس واليونان، فى مكان واحد وبلغة واحدة. وجاء الدارسون إلى الإسكندرية من جميع أنحاء العالم، من الهند وفارس وبابل وسورية وفينيقيا وبلاد الأنباط وليبيا واليونان وآسيا الصغرى، فتعاون العقل البشرى فى تكوين رؤية حضارة جديدة. وبدلا من الاكتفاء بتلقى المعلومات عن الأساتذة، أصبح فى وسع الدارسين اللجوء إلى مراجع مختلفة فى كل مجالات العلم، مما نتج عنه بداية عملية البحث. فالتلقين يتضمن تلقى الطالب للمعلومات التى يعطيها له المعلم، أما البحث فيتطلب رجوع الباحث إلى النظريات المختلفة فى الموضوع الذى يبحث فيه، ويصبح عليه هو التوصل إلى استنتاجه الخاص فى الموضوع. فكان هذا هو بداية لظهور نظام التعليم الجامعى فى العالم كله. فكان الباحثون يلتفون حول الأساتذة - تماما كما حدث بعد ذلك فى جامعة الأزهر عند نشأتها - يناقشونهم فى موضوع الدراسة، ثم ينفضون عنهم للبحث، كل منهم يحاول إثبات نظريته عن طريق تجميع المعلومات من المخطوطات الموجودة بالمكتبة، والاستدلال بها لإثبات قضيته. وهكذا أصبحت مكتبة الإسكندرية بمعبد السيرابيوم أول جامعة فى العالم، ومن مكتبة الإسكندرية تخرج غالبية علماء العالم الذى عاصرها طوال سبعة قرون، ما بين القرن الثالث السابق للميلاد ونهاية القرن الميلادى الرابع.

وهكذا أصبحت مكتبة الإسكندرية بمعبد السيرابيوم هى أول جامعة فى العالم، فالفارق بين التعليم المدرسى والدراسة الجامعية هو أن المعلم فى المدرسة يقوم بتلقين المعلومات للتلاميذ، الذين يصبح عليهم فهمها وحفظها. أما فى الدراسة الجامعية فإن الأستاذ يثير القضية ويستعرض جوانبها، ثم يترك للطلاب أنفسهم مهمة البحث فى المراجع لإثباتها أو نفيها، كل حسب إدراكه الشخصى. وقد يختلف التلاميذ مع بعضهم البعض فى استنتاجاتهم كما قد يختلفون مع أستاذهم، وهذا هو ما حدث لأول مرة فى مكتبة الإسكندرية. وهكذا لم تكن هذه المؤسسة بمثابة مكتبة تضم حلقات للدراسة، وإنما هى عبارة عن جامعة تضم مكتبة. ومما لا شك فيه أنه من مكتبة الإسكندرية تخرج غالبية علماء العالم الذى عاصرها طوال سبعة قرون، ما بين القرن الثالث السابق للميلاد ونهاية القرن الميلادى الرابع.

لم تكن هناك دولة لليونان
عند بناء مدينة الإسكندرية ومكتبتها
منذ ثلاثة وعشرين قرنا، بل كانت الأقوام اليونانية
موزعة فى مدن شبه الجزيرة اليونانية
وجزر بحر إيجة وساحل الأناضول

عمرو بن العاص لم يحرقها:

مكتبة الإسكندرية ومدارسها العلمية

نسيم مجلي

يقول «جيستوس شيفرز» إن تاريخ العلم يقتفي أحيانًا مسار الإمبراطوريا ت ففتوحات الإسكندر الأكبر نقلت مركز العالم الإغريقي من أثينا إلى الإسكندرية. فقد فتح الإسكندر مصر عام ٣٣٢ ق.م وبنى الإسكندرية في نفس العام وبعد وفاته انقسمت الإمبراطورية بين قواده وكانت مصر من نصيب القائد المقدوني «بطليموس» الذي أقام دولة البطالمة التي استمرت زهاء ثلاثة قرون من الزمان ثم سقطت وانتهت بموت كليوباترة في ٣ق.م.

ازدهرت الإسكندرية في عهد البطالمة وأصبحت مركز العلم والفكر في العالم كله. وكان ذلك أمرًا طبيعيًا لما تنفرد به هذه المدينة من مزايا عديدة، إذ كانت ميناء بحريًا ومركزًا تجاريًا عالميًا يسيطر على طرق المواصلات ويمكنه الوصول إلى ثروة الشرق وثقافته، وظلت هذه المدينة موضع رعاية عظيمة من حكام البطالمة وخصوصًا القادرين والمثقفين منهم.

لقد أحاط بطليموس الأول نفسه بجمهرة من الفلاسفة ورجال الأدب استقدمهم من كل أنحاء اليونان، وأتاح لهم كل ألوان التشجيع الممكنة فأنشأ المتحف كأكاديمية لتدريس الفنون والعلوم (واعتبره مقراً لربات الفن والشعر) وقد ضم المتحف مكتبة زاخرة هي أروع مكتبات العالم القديم.. وأخذ الباحثون يتوافدون على الإسكندرية من كل الأقطار والأجناس، من بابليين ورومان ويهود ... كانوا يأتون جماعات وأفرادا ليدرسوا على أساتذة المتحف ويطلعوا على ما في المكتبة من آثار فكرية وعلمية، ويمعنوا النظر فيها.

وهكذا أشرقت شمس الإسكندرية كمدرسة فريدة للفلسفة والعلوم. ظهرت إلى جانب هذه المدرسة مدارس أخرى منافسة مثل مدرسة بيرجامون ومدرسة رودس لكن الخصومة كانت على أشدها بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة بيرجامون. وفي سبيل محاصرة تأثير هذه المدرسة، أصدر البطالمة قراراً يحظر تصدير ورق البردي إلى أهل بيرجامون، لحرمانهم من مادة الورق اللازمة للكتابة. وقد دفعهم هذا الحظر إلى استخدام جلود الحيوانات التي استخدمها قبلهم كثير من شعوب آسيا في أغراض الكتابة أيضاً.

وقد نجح هؤلاء البرجاميون في تطوير نوع خاص من رقائق الجلد سمي جلد بيرجامون التي اشتقت منها كلمة (Parchment رقائق الجلد أو ورق البرشام). لكن لم تنجح أي منافسة في التأثير على مكتبة الإسكندرية، إذ عقد لها لواء السيادة، وظل تأثيرها مسيطراً على سماء الفكر الإغريقي قروناً عديدة.

وفي الإسكندرية برز كثير من فلاسفة الإغريق الذين استوحوا حكمة حكمائها فنبغوا في شتى ضروب العلم كالهندسة والجبر وحساب المثلثات والفلك والتنجيم، وأيضاً في الجغرافيا والمساحة والميكانيكا والكيمياء. وكان علماء الإسكندرية أساساً من المتخصصين، لم يجولوا في كل ميدان كما فعل أسلافهم، إلا أن التخصص عندهم لم يكن بمعناه الضيق لهذه الكلمة، لكنهم كانوا أبعد ما يكون عن الاجتهاد في كل علم كما فعل أرسطو.

كان بطليموس الأول أو بطليموس سوتر (أي المنقذ) قائدا بعيد النظر اختط لنفسه سياسة طموحة ترمي إلى بناء دولة قوية ونظام مستقر، وكان من رأيه أن الابتعاد النسبي عن شئون الحياة العامة، وهو السمة المميزة لمدارس الرواقيين والأبيقوريين التي تعارض السمات الديمقراطية العادية في مدرستي أفلاطون وأرسطو قد تساهم مستقبلا في خلق رأي عام ملائم لنظامه بين الإغريق في الإسكندرية. لذلك عرض ضيافة قصره على كبار فلاسفة الإغريق،ومن أبرز هؤلاء وأعظمهم هو ديمتريوس الفاليري،وكان أحد الفلاسفة المشائين (الأرسطيين) الذي لعب دورا بارزا في الحياة العامة في أثينا، إذ كان الحاكم الأوتوقراطي للمدينة في أثناء حكم الكسندر المقدوني، وفي أثناء هذا الوقت ساهم في تأسيس مدرسة أرسطو أو«الليكيوم» تحت إشراف ثيوفراستوس خليفة أرسطو.

وفي سنة ٣٠٧عندما استولى ديمتريوس آخر على أثينا - أي ديمتريوس البسيجر،ابن انتيجونوس الأعور، الذي استعاد النظام الديمقراطي،هرب ديمتريوس الفاليري إلى الإسكندرية، حيث أصبح أمين سر بطليموس سوتر وموضع ثقته. وأصبح مسئولا عن تأسيس المتحف والمكتبة وكان تأثيره حاسما في تحديد شكل ووظيفة هذه المؤسسات التي أصبحت قلب الحياة الفكرية للإسكندرية.

كان المتحف مؤسسة حكومية، اختير مكانه في أراضي القصر الملكي، واعتمد على إعانة القصر، ومن ثم صار خاضعا لإرادة القصر وعلى غرار أكاديمية أفلاطون، وهبوه لربات الفن (MUSES) ومن هنا جاء اسم (MUSEUM)، وبهذا تأكدت العلاقة مع العلوم والفنون الإغريقية الكلاسيكية. وتبعا لهذا ونتيجة لصلته بالقصر الملكي، كان لابد أن يكون رئيس المتحف التعليمي كاهنًا أو ربما كان الكاهن الأكبر في معبد سيرابيس ويعينه الملك لكن وظيفته كانت وظيفة اسمية تقريبا.كان علماء المتحف يأتون إلى هناك بدعوة ملكية، وكانوا يقيمون ويتلقون الإعانات من الخزينة الملكية. ويعيشون حياة منعزلة إلى حد ما، على غرار النمط الذي كان يتبعه العلماء الإغريق في العالم الهلينستي، ففي أزمنة الاضطرابات بعد فتوحات الإسكندر،كانوا «أرواحا رقيقة حساسة أحست بالحاجة إلى الهروب من إذلال الحياة العامة فلاذوا بالخلوات، حيث لا يمكن لصخب العالم الخارجي وضوضائه أن تنفذ إليهم فعزلوا أنفسهم عما حولهم، ليس فقط من أجل العلم بل أيضًا لكي يعيشوا عيشة هادئة».

يعتقد مطر MATTER في كتابه Le Ecole d`Alexandrie بأن عدد الباحثين في المتحف لم يزد في أي وقت من الأوقات عن ثلاثين باحثا. رغم أنه كان هناك تبادل بين المتحف والمؤسسات المشابهة في المدن الهللينستية الأخرى. وكان كبار العلماء الزائرين أيضا يلقون الترحيب للإقامة كضيوف في المتحف.

ويبدو أن المتحف لم يكن به تلاميذ مقيمون، لكن علماءه كان لهم تلاميذ ومريدون، يقومون بتعليمهم. ربما خارج المتحف. على كل حال فإن المكتبة اتسعت في وقت قصير وأصبحت أكثر شهرة من المتحف. لقد أنفق ملوك البطالمة الثلاثة الأول مبالغ طائلة واستخدموا كثيراً من الموظفين لشراء المخطوطات الكلاسيكية حيثما يجدونها في كل أنحاء العالم الهلينستي، ويقال أن ديمتريوس الفاليري قد جمع في عهد بطليموس سوتر ٢٠٠,٠٠٠ من لفائف المخطوطات منها ٥٠,٠٠٠ مخطوطة أصلية والبقية صور منسوخة، وذلك قبل أن يفقد رضا الملك وينفى بسبب نصيحته غير المستحبة بترشيح كراونوس keraunos ابنه من زوجته الأولى، كوريث للعرش، بدلا من فيلادلفوس ابن زوجته برينيس BERENICE.

و يقال أن فيلادلفوس وزينودوتس كبير أمناء المكتبة، وهو باحث مشهور في تراث هومر قد اشتريا مكتبة أرسطو. وفي نهاية حكمه حسب ما يذكر الشاعر كليماخوس الذي ربما خلف زينودوتس كأمين للمكتبة ووضع لها الفهارس، فإنها كانت تحتوى على ٩٠,٠٠٠ لفة لمخطوطات أصلية و٤٠,٠٠٠ لفة من الصور المنسوخة، بالإضافة إلى ٤٢٠,٨٠٠ في ملحق أو مكتبة صغيرة أطلق عليها لقب «الابنة» Daughter تم انشاؤها في معبد السيرابيوم، كما يقال إن بطليموس الثالث يورجيتس وأمين المكتبة ايراتوسطين العظيم، ليونارد دافنشي عصره، حصلا على مخطوطات ايسخيلوس وسوفوكليس، ويوربيديس، وقد أنشا بطليموس الرابع فيلاباتور فرعا للمكتبة كرس خصيصا لدراسة تراث هومر وتحريره.

في عالم الأدب الهلينستي، كانوا ينظرون إلى هومر باعتباره أعظم شعراء الملاحم، اعظم الحكماء، وراوي القصص الذي لا مثيل له، فهو مرآة الثقافة الكلاسيكية، وآلهته وأبطاله الذين برغم أن أحدا من المتعلمين لم يعد يعتقد فيهم أو يعبدهم، إلا أنهم لايزالون يشكلون جزءا من سداة النظام الإغريقي ولحمته. كانت إحدى المنجزات الرئيسية التي حققتها مكتبة الإسكندرية في المائة سنة الأولى، هي جمع أعمال هومر وتحقيقها، وتحريرها وتصحيحها وحفظها للأجيال القادمة. لقد جعل زينودوتس هذه المهمة هي شغل حياته وقد زيدت أعماله واكتملت على يد خلفائه، مثل أريستوفانيس البيزنطي، وأريسطارخوس الصامي.وقد قامت مكتبة الإسكندرية بالنسبة للأدب الكلاسيكي عموما بمهمة الجمع والتحقيق والحفظ.



فقد تخصص بعض العلماء في أشكال الدراما - الإسكندر الأيتولي AETOLIA في التراجيديا والهجاء. وتخصص الشاعر ليكفرون في الكوميديا.وقام بتحرير وتصحيح نصوص شعراء الدراما الكلاسيكية التي تم الحصول عليها ووضعها في المكتبة. هؤلاء الباحثون أدوا للأدب الكلاسيكي ذات الخدمة التي أداها الرومان فيما بعد بالنسبة لشعراء الإسكندرية. لقد أنقذوهم من النسيان وسلموا أعمالهم لمن أتى بعدهم من الباحثين وحيث إن الأدب الإغريقي هو أكثر من الأدب السكندري فإنهم قد قاموا بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله.

ربما كان أعظم علماء الإسكندرية

The Library of Alexandria
(مكتبة الإسكندرية)
Edited by Roy Macleod
AUC Press, 2002, 196PP.

History of Eastern Christianity
(تاريخ المسيحية الشرقية)
Aziz Suryal Attia
London, 1968

جميعا، وأكثرهم شمولا هو ايراتوسطين القوريني، الذى سيطر على العالمين: عالم المتحف وعالم المكتبة. كان تلميذا للابيقوريين في أثينا. ولد في قورينة حوالي ٢٧٥ ق.م وعاش حياة طويلة، ومات في الإسكندرية حوالي ١٩٤ ق.م. جاء إلى الإسكندرية وهو شاب في أواخر حكم فيلادلفوس، وعمل كبيرا لأمناء المكتبة في عهد بطليموس يورجيتيس وظل كذلك حتى وفاته. كان ينافس أرسطو في سعة معرفته، كتب الشعر كما كتب أعمالا في النقد التاريخي، وفي علم الكرونولوجيا CHRONOLOGY وفي الفلسفة والرياضيات وكتب بحثا في الجغرافيا، أوجز فيه المعلومات الجغرافية في عصره. واستنتج فيه أن العالم مستدير الشكل فإذا سافر إنسان من أسبانيا في اتجاه الغرب، فإنه سوف يصل في النهاية إلى الهند، لأن كل بحار العالم مرتبطة بعضها مع بعض تطوق اليابسة بطوق كالحزام، ونتيجة لذلك فإنه يمكن لأى إنسان أن يطوف حول قارة أفريقيا. اخترع طريقة يمكن بها اكتشاف الأعداد الأولية تسمى الغربال The Sieve وجهازا ميكانيكيا لاستنساخ المخطوطات، ثم اخترع آلة تسمى الميزولاب MESOLABE للتاكيد على النسب الطفيفة MAEN PROPORTIONAL بين خطين وللوصول إلى جذور الكميات هندسياً.

كان إقليدس عالم الرياضيات أول الأسماء التي نالت شهرة عظيمة ولا يعرف عنه سوى أنه ظهر في عام ٣ ق.م. واشتغل بالتعليم في المتحف، وكتابه (مبادئ الهندسة) يلخص اكتشافات فيثاغورث وغيره من الرياضيين، كما يتضمن بعض الإضافات الهامة التي أسهم بها إقليدس في هذا المجال. فقد رتب إقليدس نظريات الهندسة في نظام منطقي مقبول واخترع عدداً من البراهين الضرورية، إلا أن كتاباته بدت غامضة غريبة بالنسبة لغير المتخصصين في زمنه.



وقيل ان بطليموس الأول سأل إقليدس يوماً عن طريقة أسهل لتعليم الهندسة فأجابه إقليدس (في علم الهندسة لا توجد اختصارات للملوك. فليس هناك طريق ملكي للتعليم يامولاي) كان كتاب المبادئ من أوسع الكتب انتشاراً في الثقافة الغربية. فقد وضعت الأجزاء الستة الأولى من هذا الكتاب قاعدة لعلم الهندسة الذي يدرس في مدارسنا ويعرف باسم الهندسة الإقليدية. لكن أكثر أجزاء الكتاب مثاراً للخلاف في العصر الحديث هي الفرض الذى افترضه إقليدس والخاص «بالخطوط المتوازية». والعبارة تعني أنه يمكن من نقطة خارج خط مرسوم مد خط واحد مواز للخط الموجود. وهذه العبارة لا تعد حقيقة مسلمًا بها الآن بل مجرد افتراض. وفي القرن التاسع عشر أوضح لوباشيفسكي وبولاي أنه يمكن إنشاء نظم رياضية أكثر منطقية وأشد نفعا من الرياضة الإقليدية.

لم يمض وقت طويل حتى ظهر بالإسكندرية أريسطارخوس الصامي «٢٨٠ - ٢٦٤ ق.م» أخذ يعلم في المتحف بعد إقليدس. كان فيثاغورث فيلاوس يعتقد بان الأرض والكواكب والشمس تدور جميعا حول محور من نار يحيط به الغموض. أما أريسطارخوس فكان يعتقد أن الكواكب تدور في دوائر ومدارات متعددة حول الشمس التي هي النار المحورية. وقد أكسبه هذا الاكتشاف لقب كوبرنيكوس العصر القديم. بيد أن أفكاره لم تجد قبولا عند الناس في عصره على اعتبار أنها تخريفات عقل مجنون.

درس أريسطارخوس الأحجام النسبية للشمس والأرض والقمر وحاول تقدير المسافات فيما بينها إلا أن تقديراته جاءت خاطئة تماما إذ حسب أن الشمس تبعد عن الأرض بمسافة تزيد على بعدها للقمر بثماني عشرة مرة بدلا من ٣٨٨ مرة وهو البعد الصحيح. أما تقديره لحجم القمر فكان صحيحا لأنه قال إن القمر أصغر من الأرض وأما الشمس فهي أكبر بكثير.

كان أرشميدس أعظم أبناء هذه المدرسة شأنا (٢٦٧ - ٢١٢ق.م) قضى أرشميدس معظم أيام حياته بمدينة سيراكوزة موطنه الأصلي بجزيرة صقلية، كان ابنا لأحد علماء الفلك وقريبا للملك هيرو الثاني ملك صقلية، لكنه تعلم في الإسكندرية وحين عاد إلى وطنه كرس حياته كلها لدراسة الرياضيات والطبيعة.

كان أرشميدس عالمًا فذا في الرياضيات، أسهم بالكثير في تطوير علم الرياضة البحتة، إذ وصف ما سمي منذ ذلك الحين «بحلزون أرشميدس» ووضع تقديرًا صحيحًا لنسبة محيط الدائرة إلى قطرها. لذلك أثبت أنه إذا وضعنا كرة في داخل أسطوانة يتساوى ارتفاعها وقطرها مع قطر الكرة فإن حجم الأسطوانة وسطحها يساويان حجم وسطح الكرة مرة ونصفًا. لقد اعتبر أرشميدس هذه النظرية أهم إسهاماته لعلم الرياضة وأوصى أن تحفر على شاهد قبره في شكل هندسي ملائم.

ثم توصل أرشميدس إلى طرق بارعة جداً للتعبير عن الأرقام. وكان هذا من أشد الأمور صعوبة في عصره وفي كتابه (دليل الرمال) Sand Reckoned يوضح أرشميدس أن هناك أرقاماً لا نهائية يربو عددها على عدد حبات الرمل الموجودة، ليس فقط في سيراكوزة أو صقلية، بل الموجودة في جبل من الرمال في مثل حجم (هذا الكون).

كذلك كانت إسهامات أرشميدس في مجال العلوم الطبيعية شيئاً بارزاً. ولا غرابة في هذا فهو مؤسس علم الميكانيكا النظرية، وهو الذى صاغ قانون الروافع الذى يعد غاية في البساطة وغاية في الأهمية. يقول أرشميدس (أعطني مكانا لأقف فيه في الفضاء وسوف أحرك لكم الأرض) كذلك وضع المبادئ الأساسية لعلم الهيدروستاتيكا، أحد فروع علم الطبيعة الخاص بدراسة ضغط وتوازن السوائل.



لم يكن أرشميدس عالما مرموقا في صياغة المبادئ النظرية فقط، بل كان رجلا واقعيا يهتم بالتجربة العملية أيضا. فحين وضع قانون الروافع وأثبت بطريقة رياضية أنه يمكن تحريك ثقل كبير باستخدام قوة بسيطة، وطلب إليه الملك أن يثبت ذلك بالتجربة العملية.. صمم أرشميدس جهازا آليا معقدا يمثل رافعة. ثم أمسك طرفه بيد واحدة، وراح يحرك به سفينة كبيرة بحذاء الشاطئ.

وأحيانا كانت الحقائق العلمية تتكشف له من خلال محاولاته الجادة لحل مشاكل الحياة العملية. ففي ذات يوم سأله الملك إن كان بوسعه أن يعرف هل صنع تاجه من الذهب الخالص أم أن الصائغ قد أضاف إليه معادن أخرى أقل قيمة. انشغل أرشميدس بحل هذه المعضلة حتى اهتدى لقانون الطفو والسائل المزاح الذى يعرف باسمه حتى الآن.

كان أرشميدس يتميز بعقلية مبدعة تعد من أخصب العقول في العصر القديم وكان ينظر إلى مخترعاته كما يقول بلوتارك على أنها «تنويعات مهندس يلهو باللعب». بدأ أرشميدس يهتم بالاختراع حين طلب إليه الملك ان يحول اهتمامه من الأفكار المجردة إلى واقع الحياة الملموس وأن يبسط براهينه بحيث تصبح سهلة الفهم حتى يساعد عامة الناس على الانتفاع بها في أغراض الحياة العملية.



اخترع أرشميدس الطنبور الذى يستخدمه الفلاح المصرى حتى الآن لكى ينزح به الماء من قاع سفينة كبيرة بنيت لحساب الملك.. كما أنه قدم عددا من المخترعات الحربية ذات التأثير الفعال، والتي نجحت في صد جيوش الأعداء لمدة عامين. فقد حاصر الجيش الروماني بقيادة مارشليوس مدينة سراكوزة ٢١٤ ق.م. فاخترع أرشميدس (المقلاع) - المنجنيق الذى أوقف جنود المشاة. كذلك اخترع نوعا من «الأوناش ذات المنقار الخطافي» التي تقوم بقلب سفن الأعداء وإغراقها في البحر وقيل إنه صنع مرآة حارقة كانت تشعل النار في سفن الغزاة كلما اقتربت من الشاطئ. وأدى هذا إلى صمود المدينة لمدة سنتين قبل أن تسقط في أيديهم عام ٢١٢ ق.م وتشهد المذابح الرهيبة التي راح أرشميدس ضحيتها.

فقد واصل العمل بالمسائل الرياضية متجاهلا الأوضاع المضطربة من حوله، وفي أثناء انشغاله برسم أحد الأشكال الرياضية على الرمل، قتله جندى رومانى مخمور، وأثار ذلك الحادث حزن القائد مارشيلوس الذى كانت تعليماته تقضي بإعفاء هذا الحكيم العجوز من العقاب. وشيع أرشميدس إلى قبره في موكب كريم وتحققت وصيته فحفروا على قبره كرة بداخل أسطوانة.

لم تنجب مدرسة الإسكندرية قط عالما آخر في منزلة أرشميدس لكنها خرجت عددا كبيرا من أواسط العلماء والباحثين ممن قدموا إسهامات لا تنكر في ميدان العلوم. من بين هؤلاء ايراتوسطين (القرن الثالث ق.م) الذى أجرى تجربة بسيطة دقيقة لقياس حجم الأرض إذ قارن بين طول ظل الشمس بالإسكندرية وطول ظلها عند أول الشلالات في وقت واحد. ونظرا لأنه افترض أن الأرض كروية فقد مكنه ذلك من التوصل إلى تقدير معقول لمحيطها. (حوالى ٢٨,٧٤٠ ميلا) في حين ان الرقم

مكتبة الإسكندرية ومدارسها العلمية

الصحيح هو ٢٤،٨٧٤ ميلا فقط ثم رسم خريطة للعالم واعتقد أنه يمكن للإنسان أن يسافر من أسبانيا إلى الهند لو سار في طريق مواز للشاطئ.

أما هيبارخوس النيقي. (في القرن الثاني ق.م) فكان واحدا من أعظم علماء الفلك في العصر القديم، كذلك كان رياضيًا بارزًا وضع أساس علم حساب المثلثات. كان يعمل في رودس ببحر إيجة حيث بنى مرصدا وأجرى أبحاثا شاقة ورائعة مستخدما أفضل ما أنتج العصر من أدوات. وقيل إنه أول من حدد موقعا على سطح الأرض مستخدما لفظ خطوط العرض وخطوط الطول، وكان أول من لاحظ أن فصل الاعتدال الربيعي والخريف يأتي مبكرا عن موعده عامًا بعد عام. وهي ظاهرة تعرف باسم تسابق فصول الاعتدال Procession of Equinoxes ثم وضع كتيبًا جديدًا للنجوم يضم ما يقرب من ١٠٨٠ نجمًا موزعة على أبراج مثل برج الجبار والدب العظيم وصنف هذه النجوم إلى مجموعات حسب درجة لمعان كل منها وهو نظام لا يزال متبعا حتى الآن مع بعض التعديل.

بعد هيبارخوس بعدد من القرون جاء كلوديوس بطليموس (القرن الثاني الميلادي) فلكي الإسكندرية ليرث ما تركه هيبارخوس من كتالوجات، و نظريات، ويستعين بها في عمل كتاب سماه «التكوين العظيم».

كان بطليموس يعلم تلاميذه بأن الأرض كرة مثبتة في مركز السماء بطريقة تحفظ توازنها وحولها تدور الشمس والقمر والنجوم في دوائر أو دورات من خلفها يمتد محيط بلوري شفاف تتعلق به النجوم النائية، وخلف هذا المحيط يكمن «المحرك الأول» Primum Mobile وفي ضوء نظرية الدوائر التي يدور بعضها داخل بعض، شرح بطليموس عدم الانتظام الظاهري في حركة الكواكب التي تبدو وكأنها تتوقف في السماء ثم تعود في اتجاه الخلف. وطبقا لنظرية الدوائر يفترض بطليموس أن كل كوكب يتحرك في داخل دائرة صغيرة يرتكز محورها على محيط دائرة أكبر محورها هو الأرض.

لقد ترجم كتاب «التكوين العظيم»، إلى اللغة العربية ومنها إلى اللاتينية بنفس العنوان العربي AL. Majest أي الأعظم، وظلت نظريات بطليموس مسيطرة على تفكير الناس في العصور الوسطى حتى جاء كوبر نيكوس في القرن السادس عشر.



كان بطليموس أيضا جغرافيا بارعا وكتابه «دليل الجغرافيا» يعد عملا نموذجيا في هذا الصدد لعدة قرون. لقد اختفت الخرائط المصاحبة لهذا الكتاب إلا أنه يمكن إعادة رسمها لأن بطليموس حدد خطوط العرض وخطوط الطول بالنسبة للمناطق التي قام بدراستها. ويعتبر كتابه «دليل الجغرافيا» عملا عظيم الفائدة عند المؤرخين لأنه يتحدث بالتفصيل عن أماكن لم يعد لها وجود أو أصبحت تعرف الآن بأسماء مختلفة. ومن الناحية العلمية، فإن هذا الكتاب يمثل جهدا كبيرا يستحق التقدير، على الأخص بالنسبة لضآلة المعلومات الجغرافية التي كان يمكن الوصول إليها في ذلك الزمن الغابر الذي كتب فيه.

أما هيرو السكندري «لا يعرف تاريخ ميلاده أو موته» فقد كان نظيرًا أصغر لأرشميدس العظيم. إذ كان مثله حاذقا في الرياضيات والميكانيكا، لكنه يعرف اليوم جيدا بمخترعاته العديدة، فقد اخترع الديوتيرا وهي آلة لقياس الزوايا واخترع «الايوليبيل» وهي أشهر اختراعاته وهي تعتبر الجد الأكبر للآلة البخارية. وقد سماها على اسم ايولس (إله الريح) لكنها لم توضع قط موضع الاختبار العلمي وبقيت كإحدى لعب الأطفال. ويلاحظ أن مخترعات هيرو يتجه معظمها لاستخدام ضغط الهواء أو البخار.

مدرسة الطب بالإسكندرية:

العمل الرئيسي الذي قامت به مدرسة الطب بالإسكندرية هو تطوير علم التشريح. وفي هذا المجال فإن دينها للمصريين كبير جداً. كذلك فإنها مدينة أيضاً للرعاية «الملكية» التي أتاحت للأطباء تشريح أجسام المجرمين وقدمت لهم المجرمين أحياء، من أجل تشريح الأجساد الحية. وكان أساتذة مدرسة الطب بالإسكندرية في سنواتها الأولى هما هيروفيلس الخلقيدوني Herophilus of Chalcedix وايريستراطوس الايولي Eristratos of Iulis ربما كان الأخير هو مؤسس المدرسة. لقد جمع هيروفيلوس حكم أبي قراط وجمع وصفاً دقيقًا لأعضاء البصر وأعضاء الحس، والمخ والجهاز العصبي، لم يكن أحد يعلم بوجودها من قبل واكتشف وظائف الكبد وكتب بحوثاً حول عمليات التشخيص diagnosisوالتنبؤ بالتطورات المحتملة للمرض Prognosis وفرق بين المخ Cerebrum والمخيخ Cerebellum واكتشف أن الشرايين تحمل الدم لا الهواء كما كان الاعتقاد السائد. واكتشف أيضاً وظيفة القلب في ضخ الدم خلال الشرايين. هكذا اكتشف الحقيقة حول الدورة الدموية التي أعاد اكتشافها هارڤي بعد حوالي ألفين من السنين.

بعض أجزاء الجسم مثل الاثنى عشر، التوركيولاس هيروفيللي TorculasHerophilli لازالت تسمى باسمه أو طبقاً للتسمية التي أطلقها عليها. لقد قام ايريستراطوس Eristratos بإجراء دراسة خاصة للمخ والأعصاب والمعدة ونظام التغذية وسمي «رائد علم التحليل النفسي» وفي هذا الجانب استطاع أن يتحقق من وجود بعض أمراض الجهاز العصبي وأسبابها المحتملة.

إن معرفة هذين الرجلين بالتشريح هي التي جعلت اكتشافاتهم شيئاً ممكناً. وقد شيد بعض خلفائهم على ما حصلوه من علم هؤلاء الرجال وعلى موجز علم النباتات الذي جمعه ثيوفراستوس Theophrastus في كتابه «تاريخ النبات» History of Plants وقد كان ثيوفراستوس في ذلك الوقت رئيساً لمدرسة أرسطو في أثينة. وقد اكتشف بعض الخواص العلاجية للحشائش والعقاقير. وكانت صناعة العقاقير ومواد التجميل والعطور والمراهم تعتمد على استيراد البهارات والأعشاب والزيوت الأساسية من الشرق وصارت كلها صناعة إسكندرانية هامة. وأصبحت السلع المصنعة تصدر من الإسكندرية إلى جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط من أجل أغراض الرفاهية والترف، وأيضاً لأغراض صحية ودينية.

وربما قدر للدراسات الطبية بالإسكندرية أن تستفيد من مجموعة الحيوانات التي جمعها فيلادلفوس في حدائق قصره والحقها بالمتحف، و هذه المجموعة تضم أسوداً، ونموراً وفهوداً، و قططاً كما تضم جاموساً من الهند وأفريقيا وحمير الوحش الآتية من مؤاب Moab بالاضافة إلى تنين أو ثعبان ضخم Pythonطوله ٤٥ قدماً، وزرافة وخرتيت، ودب قطبي، ثم ببغاء، وطاووس. لقد تم جمع الكثير من الحيوانات عن طريق رحلات صيد الفيلة من شرق أفريقيا التي نظمها فيلادلفوس. وكان يتم إرسال الفيلة إلى منتزهات خاصة لتدريبها على الحرب، أما الحيوانات الأخرى فكانت تذهب إلى حدائق الحيوان. لقد وضع أرسطو أسس دراسة علم الحيوان في كتابه «تاريخ الحيوان» لكن يبدو أن فيلادلفوس، الذي لم يكن لديه تذوق للعلم ولا للفلسفة إلا بالقدر الذي يخدم أغراضه السياسية أو الترفيهية. فإنه كان هاوياً للشعر والدراما وكان في ذوقه الجمالي عاشقاً للفخامة الباروكية، ينظر إلى حيواناته كتحفة نادرة لتسلية عشيقاته أو للتودد إلى زوّاره.

لقد انقسم خلفاء هيروفيلوس وايريستراطوس إلى مدارس متنافسة تحت أعلام هذين الرائدين العظيمين واشتبكوا في مجادلات أكاديمية طويلة بين الدوجماتية والتجريبية توارثها السكندريون والأطباء جيلاً بعد جيل. فاعتبر أتباع هيروفيلوس أنفسهم دوجماتيين ونظر أتباع ايراستراطوس إلى أنفسهم كتجريبيين. وهذه المعركة لا علاقة لها بأي خلافات كانت بين وجهات نظر العالمين العظيمين اللذين حملوا أسماءهما عبثاً. لقد رمزت هذه المعركة إلى طريقتين تكمل إحداهما الأخرى في منهج العلوم الطبية كذلك أشاعت هذه المعركة بين العامة، الطريقة الكلاسيكية التي تقوم على التعليل والاستنباط التي كان يمارسها أبوقراط، والطريقة التقدمية المعتمدة على التجربة والملاحظة التي كان ينصح بها أرسطو، و التي مارسها كل من هيروفيلوس وأريستوراطوس. وبعد حوالي مائتي عام من النزاع العبثي. تم التصالح في هذه المعركة عن طريق ثيموسون من لوديكيا Laodicea الذي ابتدع طريقة انتقائية تحت اسم المنهجية Methodism في وقت صارت فيه الانتقائية صورة عصرية في دوائر المثقفين.

استمرت مدرسة الإسكندرية الطبية في الازدهار مع بعض التقلبات حتى العصر المسيحي في القرن الثاني الميلادي إذ أخرجت المدرسة واحداً من أعظم الأسماء في عالم الطب هو جالين Galen . الذي كتب خمسة عشر كتاباً في التشريح تشكل أهم ما تبقى من الطب القديم، خصوصاً في تشريح الأوردة والشرايين، والأعصاب وكان كتابه المسمى «فن الطب» هو الدليل العلاجي لعصره.

بعد جالينوس، أخذت ممارسة الطب تتراجع في حوض البحر المتوسط وتعود إلى أصولها السحرية البدائية وأسرارها القديمة عند أورفيوس Orpheus واسكليبيوس Asclepuis و إلى ما هو أقدم وأشد تدميراً في مصر والهند وكالدونيا.

ولابد أن الحياة والتعليم في المتحف قد تعرضا للتوقف فترات متقطعة بسبب الاضطرابات الأهلية المتكررة والتي كانت تحدث في الإسكندرية بدءاً من أوائل القرن الثاني ق.م. وعلى ما يبدو فإن انقساماً خطيراً قد وقع فور انتهاء الحرب الأهلية بين بطليموس السابع سايكون وبين زوجته الأولى المطلقة كليوباترا الثانية. وفي هذه الحرب لقيت كليوباترا المساندة والدعم من سكان الإسكندرية الإغريق في حين كان المصريون واليهود يساندون بطليموس سايكون Psychon ويبدو أن هناك درجة من المبالغة في التقديرات التي وصلتنا من الإغريق عن عدد المفقودين في تلك المذبحة وعن الدمار الذي لحق بالمتحف.

من الواضح أن العلماء والفنانين وحتى الأطباء بالمتحف قد أصابهم الرعب والفزع بصدمة شديدة، فتركوا الإسكندرية، وأصبحت بلاد اليونان والجزر المحيطة بها مكتظة باللاجئين من علماء النحو والفلاسفة، وعلماء الهندسة والموسيقيين والرسامين والأطباء وآخرين من رجال العلم الذين أرغموا بحكم الضرورة أن يقوموا بتدريس ما حصلوه من معرفة وسرعان ما أصابتهم الشهرة.



وعلى الرغم من التخريب والتشتت، فقد أعيد المتحف سريعاً، لكن في وقت غير معروف، أو ربما على مدى فترة من الزمن، ثم نقل الموقع المادي للمتحف إلى معبد السيرابيوم، حيث توجد هناك مكتبة صغيرة (أي الابنة الصغرى للمكتبة الكبرى) التي كانت قد أنشئت في عهد بطليموس فيلادلفوس. ويبدو أن مبنى المكتبة الأصلية قد هدم بفعل الحرائق في زمن

يوليوس قيصر، و ظل المتحف فى موقعه الأصلى فى زمن استرابو Strabo الذى سجل فى كتابه «الجغرافيا» الذى وضعه حوالى ٢٥ ق.م وذكر فيه مبنى المتحف وليس المكتبة التى يحتمل أن تكون قد دمرت خلال الحرب الأهلية فى القرن الثالث الميلادى..

من بداية حكم الرومان لم يعد المتحف مرادفاً للحياة العقلية للإسكندرية. لا يرجع ذلك إلى منافسة المؤسسات التى أقامها الرومان مثل السباستيوم Sebasteum والكلوديوم Claudium التى كان تأثيرها مثل تأثير المجلس البريطانى فى عاصمة إحدى المستعمرات فى أواخر عصر الامبراطورية البريطانية وذلك لأن التيار الأساسى للثقافة قد انحرف عن طريق العلوم التى عرف بها المتحف، والتى أصبح مشهوراً بسببها انحرف إلى طريق الفلسفة الانتقائية الزائفة، وصارت تغذيها تيارات صوفية يهودية وسحرية كلدانية، فأخذت مساراً متعرجاً بعيدا عن الواقع.



ظلت مدرسة الإسكندرية تمارس تأثيرها الفكرى على نحو ما، ولكنها ظلت طوال الأربعة قرون الأخيرة تسير فى طريق الانهيار المستمر. فبعد عصر بطليموس تعرضت إسهاماتها العملية للإهمال الشديد واستمر هذا الحال نتيجة لعدة عوامل هامة منها سقوط دولة البطالمة ووقوع الإسكندرية فى يد أوكتافيوس قيصر فى ٣٠ق.م وتحولها إلى ولاية رومانية ثم انتشار المسيحية وما صاحبه من صراع ومذابح بين المسيحيين والرومان. لقد شهدت الإسكندرية أعنف المذابح فى عصر الشهداء «القرن الثالث الميلادى» وحين تحولت الإمبراطورية الرومانية الشرقية رسميا إلى المسيحية وكتبت السيادة لهذا الدين الجديد لم يهتم المسيحيون بالعلوم الطبيعة وانشغلوا بفكرة الخلاص الروحى التى قامت عليها مدارس فلسفية ودينية مختلفة.

كذلك كانت الفلسفة الرواقية والأبيقورية على ما بينهما من اختلاف فى النظر إلى الحياة متحدتين فى احتقارهما للعلم. وفى القرن الثالث ظهرت الأفلاطونية الجديدة التى أسسها أمونيوس بورتر فى الإسكندرية حيث دعت الناس إلى التحرر من قيود العالم المادى والتركيز على التأمل المستمر، وانتشرت هذه الفلسفة فى ربوع الإمبراطورية الرومانية الغربية فى قرونها الأخيرة. وكانت نتائجها مدمرة للعلم، لأنه حين يعطى الناس ظهورهم للواقع ويغفلون ملاحظة الظواهر الطبيعية يسقط العلم فى عصر شرير.

حريق المكتبة مسئولية من ؟

تناول الدكتور عزيز سوريال هذه المسألة بالدراسة والبحث فى كتابه «المسيحية الشرقية» وتوصل إلى رأى يمكن إجماله على النحو التالى:

يتضمن غزو العرب للإسكندرية واقعة حزينة تتعلق بحرق مكتبتها العظيمة بواسطة عمروبن العاص ,الذى قيل إنه كان ينفذ أوامر الخليفة عمر. مع ذلك، فإن هذه القصة الرومانسية تنتمى إلى عالم الأساطير. فقد ظهرت لأول مرة فى كتابات الرحالة الفارسى (عبداللطيف البغدادى، المتوفى عام (١٢٣١م) والمطران اليعقوبى بارهيبراوس Bar Hebraeus (المتوفى ١٢٨٦م) أى بعد الغزو بستة قرون. إذ يزعمان أنه بناء على تشاور الخليفة عمر قائد جيش المؤمنين فى مكة، فإنه أرسل إلى قائده عمرو بقراره المعروف الذى يؤكد فيه بانه إذا كانت محتويات المكتبة تتفق مع ما جاء فى القرآن فهى أشياء لا ضرورة لها، ومن ثم فهى تافهة، وإذا كانت تختلف مع القرآن، فلابد من التخلص منها على اعتبار أنها خطر يهدد روح الإسلام. وفى كلتا الحالتين، يجب إحراق هذه الكتب.

وبعد أن تسلم عمرو هذه الرسالة. بدأت عملية التخلص من هذه المحتويات الضخمة باستخدامها كوقود للحمامات الشعبية بالإسكندرية وانتهت فى ستة شهور وهى مدة لا تصدق. ولم يشر أحد من المؤرخين المعاصرين إلى هذه القصة. فضلاً عن ذلك، فمن المشكوك فيه أن تكون لمكتبة بطايموس آثار باقية حتى مجىء العرب. والمعروف أن جزءاً كبيراً منها قد دمر فى حروب يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق.م. وحدث فى القرن الرابع الميلادى، أن المسيحيين المنتصرين قد قاموا بعمليات منظمة لإحراق المبانى عمداً لإزالة كل أثر للمؤسسات الوثنية، التى لابد أنها قد أصابت المتحف أو ما بقى منه. إن طبيعة لفائف البردى والمخطوطات المتراكمة فى المكتبة لابد أن تتحلل نتيجة استعمالها على مدى قرون عديدة قبل الفتح العربى. بعبارة أخرى، فإن قصة إشعال حمامات الإسكندرية بتراث مكتبة الإسكندرية قصة يجب رفضها باعتبارها بدعة غير تاريخية ولا أساس لها.

أما الروايات القديمة فقد تناولها د. روبرت بازنز أستاذ الدراسات الكلاسيكية بالجامعة القومية الأسترالية فى كتاب «مكتبة الإسكندرية» الصادر عام ٢٠٠٢ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة حيث يصف لنا ما تقوله المصادر القديمة عن المكتبة وكتبها والباحثين فيها وأيضا عن الدمار النهائى الذى حل بهذه المكتبة وغيرها من المكتبات العامة بالإسكندرية. وهو يبدأ هذه المسألة بالقول:

إن أهم الأسئلة الخلافية حول مصير المكتبة دارت حول مقدار الدمار الذى حدث فى أثناء حرب الإسكندرية التى دارت بين يوليوس قيصر من ناحية وبين كليوباترا وأخيها بطليموس الثالث عشر من ناحية أخرى فى سبيل السيطرة على مدينة الإسكندرية بين ٤٨/٤٧ ق.م.

وفى محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة يقوم روبرت بارنز بعرض روايات المصادر القديمة ببعض التفصيل ويعلق عليها، بادئا برأى الفيلسوف الرواقى سينيكا الذى عاش فى القرن الأول الميلادى الذى يندد بجميع المكتبات الكبرى جملة فيقول «ما هى الفكرة من وراء المكتبات والكتب التى لا حصر لها، والتى لا يستطيع صاحبها أن يقرأ عناوينها بطول حياته كلها؟ إن العدد الكامل لهذه الكتب يمثل عبئا على صاحبها ولا يفيد فى تعليم الشخص الذى يريد أن يتعلم، والأفضل من هذا أن تعطى ثقتك لقلة من المؤلفين على أن تتجول فى كتب كثيرة».

«أربعون ألف كتاب حرقت بمكتبة الإسكندرية. دع شخصاً آخر يمتدح هذا الثراء الملكى الشديد الروعة غير المؤرخ ليفى livy الذى يقول إنه أبرز الإنجازات التى تدل على الذوق الراقى وعلى حرص الملوك ورعايتهم». ويرى بارنز أن هذه المعلومات استقاها سينيكا من تاريخ روما الذى وضعه ليفى وأن الجزء الوثيق الصلة بهذا الموضوع غير موجود، ثم يضيف أن الأرقام التى أوردها سينيكا لابد من تعديلها إلى أربعمائة ألف كتاب حتى يتناسب مع الرقم الذى أورده أوروسيوس،و كما سنرى فيما بعد أن الرقم فى حد ذاته غير دقيق.



أما رواية بلوتارك للقصة فهى على النحو التالى: لقد حوصر قيصر بالأسطول المصرى، فاضطر لمواجهة الخطر إلى إشعال النار فى الأسطول، التى امتدت من أحواض السفن، فدمرت المكتبة أيضا. قد تبدو هذه الرواية مقنعة، لكنها لا تزال مجرد زعم من مزاعم بلوتارك حول ما تم تدميره على وجه الدقة. أما ديوكاسيوس مؤرخ أوائل القرن الثالث الميلادى فإنه يقول:«بعد هذه المعارك الكثيرة التى دارت بينهما (بين قوات قيصر وبين قوات كليوباترا وأخيها) ليلا ونهاراً، وأشعلت النيران فى مواقع كثيرة، وأحرقت أحواض السفن ومخازن الحبوب، وكذلك الكتب التى كانت، كما يقول، كثيرة وممتازة». ونحن نلاحظ أن ديوكاسيوس لم يقل كم عدد الكتب التى أحرقت، أو ما مقدار الجزء الذى كانت تمثله هذه الكتب فى المكتبة.

وجدير بنا أن نتذكر رواية جالينوس التى ذكر فيها أن أهل الإسكندرية لم يعتادوا على وضع الكتب الجديدة التى يحصلون عليها مباشرة فى المكتبة، بل كانت توضع فى المخازن أولاً، وقد يعنى ديوكاسيوس أن الكتب التى تصادف وجودها فى المخازن فقط هى التى أحرقت فى عامى ٤٨/٤٧ ق.م.

وقد صرح إميانوس مارشيلينوس marcellinus وهو من مؤرخى القرن الرابع الميلادى بأنه «بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هناك معابد ذات سقوف مرتفعة، من بينها يبرز معبد السيرابيوم بصورة واضحة. لقد زين بقاعات ذات أعمدة، ومجموعة من التماثيل، تكاد تنطق بالحياة، بجانب عدد كبير من الأعمال الفنية الأخرى، وباستثناء مبنى الكابيتول الذى تفخر به مدينة روما المبجلة، فإنه لا يوجد أروع من السيرابيوم فى العالم كله. ففى ذلك المعبد، كانت توجد المكتبات بأعداد لا تحصى، وأن شهادات الماضى الجديرة بالثقة تسجل بأن سبعمائة ألف كتاب جمعتها عيون البطالمة الساهرة التى لا تنام، قد دمرت فى حرب الإسكندرية عندما وقعت المدينة تحت سيطرة الديكتاتور قيصر».



يعلق بارنز على هذه الروا ية فيقول إن إميانوس يخلط هنا بوضوح بين مكتبة السيرابيوم وبين المكتبة الرئيسية فى حى اليروكيوم مما يجعلنا نشك فى قصته كلها. لعله يفترض أن المكتبة كلها حرقت بالفعل (فتقديره يتفق مع الأرقام التى أوردها أولوس جيلبوس Aulus gellius).

وأخيراً فإن أوروسيوس، وهو كاتب جوليات مسيحى فى القرن الخامس الميلادى يقدم الرواية التالية: فى أثناء المعركة، صدر الأمر بإشعال النار فى الأسطول الملكى الذى كان قد انسحب إلى الشاطئ، فامتدت النيران إلى جزء من المدينة، فأحرقت أربعمائة ألف كتاب، تصادف أنها كانت مخزونة فى مبنى مجاور، وهى سجل عظيم يشهد لحماسة أجدادنا الذين جمعوا الكثير جداً من روائع الأعمال التى أنتجتها عبقرية الإنسان.

وفى رأى بارنز أن هذه الرواية الأخيرة لا تستحق التصديق، لأن الرقم المحدد لعدد الكتب التى أحرقت غير مؤكد، إذ تقرأ فى إحدى المخطوطات أن العدد«أربعون ألفًا» متفقة فى ذلك مع سينيكا. والشىء الذى يستحق الاهتمام فى رواية أوروسبيوس هو إذا كان فى الإمكان العثور على أى شىء يؤكد الشك فى أن الذى تم حرقه هو مخزن كتب فقط.

لقد ازداد الأمر صعوبة ــ بشأن الحكم على هذه الروايات وذلك نتيجة لعدم معرفتنا بشكل مؤكد لموقع المتحف أو المكتبة. فإذا كانت المكتبة قد تعرضت للتدمير، فلابد أن ينتقل أثر ذلك إلى منطقة القصر كلها. لكن قيصر يقرر بنفسه أنه كان يشغل أحد القصور فى وقت الحريق، ويقول أحد الكتاب الذى تابع هذه القصة، وربما كان هيرتيوس Hirtius رفيق قيصر أن قيصر كان يمكنه أن يتوسع فى احتلاله للمدينة، ويؤكد بوضوح أن الإسكندرية كانت فى مأمن من الحريق لأن مبانى الإسكندرية لم تكن تستخدم ألواح الخشب أو العروق.

أكثر من ذلك، لو أن المكتبة قد دمرت لتوقعنا أن يقوم أحد من أعداء قيصر، وليكن شيشرون مثلا بذكر هذه الحقيقة. وبعد ذلك فإن استرابو، يعطينا بوضوح رواية شاهد عيان للمتحف ولم يذكر أى تدمير ولو كان هناك شىء من الدمار فلابد أنه حدث قبل زيارته للإسكندرية بعشرين عاما. وينتهى الكاتب إلى القول:

من الواضح أننا لا نستطيع أن نستحلص نتيجة محددة من كل

هذه المعلومات المتضاربة جزئيا. ففى جزء منها يتضح لنا أن الذى احترق هو مخزن كتب، أو جزء صغير نسبيا من مجموعة كتب المكتبة، ثم تطورت القصة على مدى السنين إلى قول مأثور بأن المكتبة كلها قد احترقت. وفى المقابل لدينا قول آخر مأثور ومثير للشك أيضاً، أن أنطونيوس قد أهدى مكتبة بيرجاموم إلى كليوباترا تعويضا لها عن هذه الخسارة. ومصدرنا الرئيسى هنا هو بلوتارك الذى يسجل أن «كالفيسيوس» الذى كان مرافقا لقيصر، أذاع هذه التهم ضد أنطونيو فقال إنه «قدم لها مكتبات بيرجاموم التى كانت تحوى مائتى ألف كتاب...»، ثم يواصل بلوتارك روايته فيقول: «وقد جرى الظن بأن كالفيسيوس قد لفق هذه التهم الباطلة». ولا يشير بلوتارك مطلقاً إلى أن الكتب قد أرسلت بالفعل إلى الإسكندرية، ويبدو أنه يشك فى القصة كلها، ومن الممكن أن نفعل نحن فعله.



وعن فترة الاحتلال الرومانى لمصر يقول روبرت بارنز:

قليلة هى المعلومات التى قيلت لنا عن المكتبة (وما تبقى فيها) فى فترة الاستعمار الرومانى. وقد سجل استرابو أنه فى زمنه (أى عصر يوليوس قيصر) عين القيصر الكاهن المسئول عن المتحف، كما كان يفعل البطالمة فيما مضى. وهذا قد يشير إلى بعض الرعاية الامبراطورية للمكتبة. فى حين يسجل سوتونيوس كاتب سيرة الامبراطور فى أوائل القرن الثانى الميلادى، أن دوميتيان قد أهمل فى بداية عهده الدراسات المكتبية، رغم أنه كان قد رتب الأمر لاستعادة المكتبات التى دمرتها النيران (فى رواق أوكتافيوس بروما) بنفقات عالية، وبحث فى كل مكان عن نسخ الكتب وأرسل الباحثين إلى الإسكندرية لنسخ الكتب وتصحيحها.

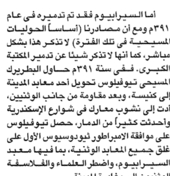
يستنتج بارنز أن هذا التقرير إن لم يكن تدعيماً امبراطوريا لمكتبة الإسكندرية فإنه على الأقل يعنى حسن السمعة التى كانت للمكتبة بسبب احتفاظها بنسخ صحيحة من الأدب الإغريقى.

ربما حدث الدمار النهائى للمكتبة فى عام ٢٧٢م. إذ يسجل اميانوس مارشيليوس: «لكن الإسكندرية امتدت واتسعت ليس امتداداً تدريجيا مثل باقى المدن الأخرى، وإنما امتدت فى بدايتها إلى أبعاد عظيمة، ثم أنهكتها الصراعات الداخلية على مدى زمن طويل. وفى النهاية، عندما تولى أورليان الامبراطورية، تصاعدت المشاحنات الأهلية إلى صراع مدمر. لقد هدمت أسوار المدينة وفقدت الجزء الأكبر من حى البروكيوم، والذى ظل لزمن طويل، مقراً لأبرز وأهم شخصيات المدينة».

أما السيرابيوم فقد تم تدميره فى عام ٣٩١م ومع أن مصادرنا (أساساً الحوليات المسيحية فى تلك الفترة) لا تذكر هذا بشكل مباشر، كما أنها لا تذكر شيئا عن تدمير المكتبة الكبرى. ففى سنة ٣٩١م حاول البطريرك المسيحى تيوفيلوس تحويل أحد معابد المدينة إلى كنيسة، وبعد مقاومة من جانب الوثنيين، أدت إلى نشوب معارك فى شوارع الإسكندرية وأحدثت كثيراً من الدمار، حصل تيوفيلوس على موافقة الامبراطور ثيودوسيوس الأول على غلق جميع المعابد الوثنية، بما فيها معبد السيرابيوم، واضطر العلماء والفلاسفة الوثنيون إلى مغادرة المدينة.

المؤرخ أوروسيوس الذى كتب سنة ٤١٦ ومن الواضح أن ذلك تم بعد زيارته للإسكندرية فإنه يواصل الفقرة التى استشهدنا بها أنفا فيقول «على الرغم من أنه لازالت هناك صناديق للكتب book cases وأرفف فارغة حتى اليوم فى المعابد، وهى التى رأيناها وقد تعرضت لعمليات سلب ونهب بطريقة تذكرنا أن تفريغها من الكتب قد تم بواسطة أناس من عصرنا (وهو بالتأكيد صحيح) مع ذلك فالأجدر بنا أن نصدق أن هناك كتبًا أخرى قد جمعت (غير التى أحرقت) بغرض التنافس مع القدماء فى الاهتمام بالبحوث والمؤلفات وألا نصدق أن هناك مكتبة أخرى غير المكتبة الكبرى التى كانت تحوى الأربعمائة ألف كتاب قد نجت من مصير المكتبة الأخيرة».

لقد اعتبر هذا إشارة إلى مكتبة السيرابيوم التى دمرت سنة ٣٩١م ومع ذلك، فإن هذه الفقرة ينبغى رؤيتها فى سياق اعتقاد أورسيوس (الذى يمكن ألا يكون صحيحا) بأن مكتبة الإسكندرية الرئيسية وبها أربعمائة ألف كتاب قد دمرت فى عام ٤٨/٤٧ق.م. إنه برغم أن جهوداً بذلت فى وقت متأخر جداً لبناء مكتبات للمعابد بالإسكندرية، لكن يبدو أنه يعتقد أنه لم تكن هناك مكتبة أخرى معاصرة للمكتبة الرئيسية قد أفلتت من مصيرها. إنه لا يعرف شيئا عن تاريخ مكتبة السيرابيوم المبكر. على كل حال، فإنه يوضح أنه لم تكن هناك مكتبة كبيرة باقية فى الإسكندرية على أيامه.



وفيما يتعلق بمسئولية العرب عن حرق المكتبة فإن الكاتب ينفيها ويؤكد أن جميع المكتبات العامة بالإسكندرية قد تم تدميرها بنهاية القرن الرابع الميلادى ولا يوجد فى الأدب المسيحى المكتوب بعد هذا التاريخ أى ذكر لأى مكتبة. وبخصوص ماقيل من أن الخليفة عمر قد أمر بحرق الكتب فإنه يقول: «ومن المثير للشك أيضا أن الخليفة عمر قد أبدى نفس الملاحظة حول الكتب التى وجدها العرب أثناء غزوهم لبلاد فارس»، لكنه يختم كلامه بالقول أن هذه القصة دليل على استمرار الأساطير حول مكتبة الإسكندرية بعد اختفائها بزمن طويل. ■



عمر بن عبد العزيز

أخذوا فى جهاز سليمان بن عبد الملك فلم يفرغوا منه حتى وقت المغرب، فصلى عمر بالناس صلاة المغرب - ثم صلى على سليمان ودفن.

ولما خرج عمر من القبر أقبل ركب الخليفة، فرأى خيلاً وبراذين وبغالاً مطهمة لكل دابة سائس، فقال: ما هذا؟

- مواكب الخلافة يركبها الخليفة أول ما يلى.

- دابتى أوفق.

والتفت إلى غلامه وقال: يا مزاحم، ضم هذه إلى بيت مال المسلمين.

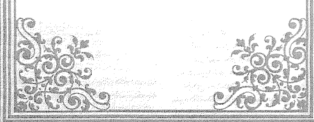
وفغر من حوله أفواههم دهشة. إنه أرسل الدواب لتباع ويضم ثمنها إلى بيت المال وما فعل ذلك خليفة من قبل، إنه طراز جديد من الخلفاء فيه زهد لم يعرفه خليفة قبله.

وانقلب عمر بن عبد العزيز إلى أهله وهو مغتم مهموم، فقال له مزاحم:

- مالك هكذا مغتمًا مهمومًا وليس هذا بوقت هذا؟

- ويحك ومالى لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبنى بحقه أن أؤديه إليه، كتب إلىّ فى ذلك أو لم يكتب، طلبه منى أو لم يطلب.

وأقبلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك الجميلة الشريفة بنت الخليفة وزوجة الخليفة وراحت تهنئه، فلم يقابلها بالفرح والعناق بل خيرها أن تقوم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها. فبكت وبكى جواريها لبكائها فسمعت ضجة فى داره، ثم اختارت مكانها معه على كل حال.



حليب الأم لا يصبح «موضة قديمة» أبداً... وكذلك الحكايات الجيدة

الكتب في عالم بلا قرّاء؟

يوستين جوردر

بمناسبة مرور خمسين سنة على تأسيس المجلس الدولى لكتب الناشئة، انعقد مؤتمره الثامن والعشرون، فى مدينة بازل السويسرية.

وقدمت فى هذا المؤتمر أيضاً شهادات التقدير التى منحها المجلس لثمانية وثلاثين كاتباً ورساماً ومترجماً من جميع دول العالم، وضمت هذه القائمة من مصر إيهاب شاكر على رسمه لكتاب «حكاية الأراجوز» وأمانى العشماوى عن مجموعتها القصصية «الوصفة العجيبة وأخواتها» وكلاهما من نشر دار الشروق بالقاهرة.

ألقيت فى المؤتمر عدة محاضرات كان من أجملها وأكثرها تأثيراً فى الحاضرين محاضرة ألقاها الكاتب النرويجى «يوستين جوردر» بعنوان «الكتب فى عالم بلا قراء»، وقد كان مرشحاً لجائزة هانز أندرسن فى هذا العام. وتُرْجِم له إلى العربية كتابه المشهور «عالم صوفى». وقصته الرائدة «مرحباً.. هل من أحد هناك؟».

«وجهات نظر» تنشر هنا الأفكار التى عرضها يوستين جوردر فى محاضرته.

المحرر

لا تحتاج الحضارات كلها للكتاب بالمقدار نفسه، فهناك حضارات عاشت وازدهرت دون حاجة إلى الكتب. ووجود تقليد الرواية الشفهية كان من أهم أسباب استغنائها عنه. لكن تقوض تقليد الحكاية الشفهية وانهياره فى عصرنا الحديث، لم يحل محله ما يكفى من الكتب، وأقصد بالذات الحكايات المكتوبة.. وهذا يعنى أن أطفالاً كثيرين يُترَكون ليكبروا من غير حكايات. مع أن الحكايات بالذات، سواء منها المكتوبة لتُقرأ أو المروية شفاهة، أمر ضرورى لا يمكن الاستغناء عنه لنمو الصغار.

منذ أقدم العصور، وحتى يومنا هذا، يتشارك الكبار والصغار فى تلك الثروة الإنسانية الهائلة من الأساطير والحكايات الخرافية والخيالية. ففى السابق، كان الظلام يغشى البيوت منذ غروب الشمس.. ولكن فجاة، بين ليلة وضحاها، هبطت علينا الكهرباء، ثم الهوائيات الفضائية.. لذلك سوف يمر وقت طويل قبل أن تحل الحكايات المكتوبة محل الحكايات المروية الراحلة.. وخاصة أن هناك عوامل اقتصادية تتحكم فى إنتاج الكتب، بعد أن كان التراث المروى حرا مجانياً.. متاحاً للجميع.



فى بلادى، كما هو الحال فى باقى الدول الاوروبية، كان الأمر مختلفاً عن باقى بلدان الثقافات المروية. ففى النرويج مثلا، اتخذت الحكايات المكتوبة مكانتها منذ زمن بعيد. قبل ظهور التلفزيون والإنترنت.. بل قبل ظهور الكهرباء والهاتف. فقد بدأ تسجيل الحكايات الشعبية المروية شفاهة وكتابتها قبل منتصف القرن التاسع عشر.. وفى الوقت نفسه راحت الروايات المكتوبة والقصص الأدبية المؤلفة تُعوِّض النقص التدريجى فى الحكايات المروية.. وظهرت أوائل الكتب الموجهة «للأطفال» فى حوالى عام ١٩٠٠ الميلادى.

وهنا نلاحظ أن التراث القصصى المروى شفهياً، من أساطير وحكايات شعبية وخرافية وخيالية، لم يكن مقسماً إلى حكايات للكبار وأخرى للصغار، فقد كانت العائلة كلها تجتمع وتستمع إلى القصة نفسها، وإن كانت هناك بعض الاستثناءات، فالقصص الجنسية المثيرة كانت معروفة فى ذلك الحين أيضاً، فربما كانوا يؤخرون روايتها حتى ينام الصغار.

قد لا يكون الكتاب ضرورياً فى بعض المجتمعات البشرية، لكن الحكاية ضرورية قطعاً لكل المجتمعات. خاصة فى هذا العصر الحديث الذى خلا من تقليد الحكايات المروية، كما حُرِمَ فى الوقت نفسه من الحوارات العائلية الطويلة الممتدة، الثرية بالحكايات البطولية والملاحم الإنسانية، التى كانت تساهم فى تكوين شخصية الصغير. وعلى ذلك، لم يكن تقليد الحكايات المروية فقط هو الذى تحلل فى عصرنا الحديث، وإنما تآكل أيضاً جزء كبير من أساس هذا المجتمع.. وأقصد به الحياة العائلية نفسها.

النصوص المكتوبة ليست لها قيمة حقيقية فى حد ذاتها، فهناك كثير جداً من الكتب المنشورة عديمة القيمة. وإنما مانحتاجه فعلاً هو الحكاية الجيدة، التى تُثرى نفوسنا وتساعدنا على النمو.. فالحكاية تؤثر فينا، وتجسد معنى وجودنا، وتعطينا القوة التى تمكننا من توجيه حياتنا.

الحكايات الهندوأوروبية تعتبر مثالا لذلك الكنز من الحكايات التى عاشت مزدهرة وفى أتم عافية ما يزيد على ألفى سنة. ولم يبدأ تسجيل ذلك الكم الهائل من حكايات شمال ألمانيا إلا مع بداية القرن الثالث عشر الميلادى.. وهكذا نرى أن الشعوب ظلت تحمل تراثها من الحكايات المروية وتحافظ عليه.. ثم تابعت حفظه بتسجيله كتابة قبل أن تضمحل الرواية الشفوية وتموت تماماً.

يمكننا أن نقسم تاريخ الحكاية إلى أربع مراحل ظاهرة:

١- ثقافة ماقبل التراث الأدبى المؤلَف، سواء جزئياً أو كلياً، وهو العصر الذهبى للحكايات المروية شفاهة.

٢- ثقافة ماقبل التراث الأدبى الحديث، وفيه سجلت الآثار المروية شفهياً، بكل ثرائها ووفرتها. كما ظهرت إلى جانبها روايات جديدة، وأُلِفت كثير من الحكايات الخيالية، ونشرت، فكانت أول ما أطلق عليه «قصص الأطفال».

٣- الثقافات القومية الحديثة ودخل معها كثير من الآداب الأجنبية والثقافات المترجمة. وتكثف نشر كتب الأطفال والناشئة، وقامت مؤسسات متخصصة بدورها فى الاهتمام بالكتب ونشرها. وكذلك تأسس المجلس الدولى لكتب الناشئة فى أوائل خمسينيات القرن العشرين.

٤- ثقافة مابعد الحداثة، وهى ثقافة عالمية قائمة على الإنترنت، ويميل «مواطنوها» نحو الحصول على التسلية الميسرة. وقد امتد تراثها وانتشر حتى أصبحت سلعة عالمية.

والآن.. ماذا يحدث للحكاية عندما يواجه الأدب المكتوب منافسة وسائل الإعلام الحديثة مثل التلفزيون والفيديو والإنترنت.. وغيرها؟. لا توجد إجابة شافية لهذا السؤال، ليس الآن على أية حال. وأى إجابة ستكون سابقة لأوانها. فهذه التقنية المعلوماتية الحديثة مازالت فى مرحلة الطفولة. ولازلنا لا ندرى بالضبط كيف ستغير وسائل الإعلام هذه من أساليب حياتنا وتفكيرنا، ولا كيف ستؤثر على حضارتنا عموماً. إننا نشهد نقطة تحول فى تاريخ الإنسانية، وفى الحضارة التى ساهمت نظريات كوبرنيكس فى تأسيسها.

لكنى على ثقة من أمر واحد مهم.. هو أن الحكاية ستظل حية مادمنا نحن نعيش ونتنفس.. مادمنا نتكلم، ونتبادل الحديث.. ستظل هناك حكايات.



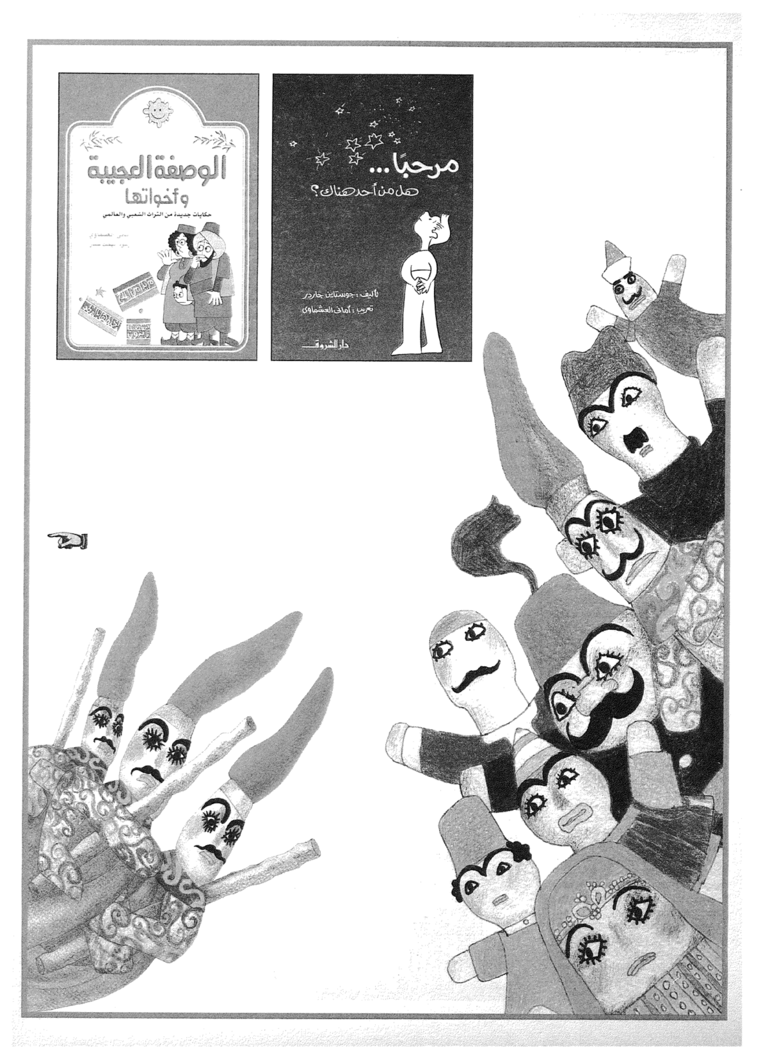
الضمير الإنسانى يحمل فى ذاته بناءً ملحمياً قصصياً دقيقاً.. هكذا خُلقنا، وهكذا كان الحال منذ تكونت أول أسطورةَ وأول قصة خرافية فى التاريخ. كأن العقل الإنسانى مصمم ليتلقى الحكايات أكثر مما يتلقى الحقائق والمعلومات البحتة.

مثلا.. لو عُرض علينا الآن شريط سينمائى يتضمن معلومات مهمة عن مدينة «بازل»، سيثير اهتمامنا بلا شك، وسوف نتابعه بكل حماس. لكننا سوف ننساه بعد ذلك. ولكن، إذا سمعتُ حكاية مثيرة عن «بازل»، ففى الغالب سوف أتذكرها طول حياتى. وهذا الفرق يلفت نظرنا إلى ارتفاع مقام الحكاية وسيادتها على غيرها من الأدب غير الروائى والموسوعات المعلوماتية وألعاب الكمبيوتر. فالحكايات تعيش فينا ومعنا.. وتستحوذ علينا.

الحكايات تخاطب الإنسانية كلها بلغة واحدة مشتركة، متخطية كل التقسيمات السياسية والاختلافات الثقافية والتاريخية. فالأطفال يتعلمون فى البداية كلمات قليلة متناثرة بلغتهم الأم.. ثم فى لمح البصر تظهر الحكاية فى حياتهم، بتكوينها العالمى.. إننا لا نتعلم كيف نتنفس، ولا نحتاج أن نذكر قلبنا كى يدق.. وكذلك لا نتعلم كيف نستمع إلى الحكاية الجيدة، ولا أن نتعرف عليها.. ولا أن نحكيها طبعاً. فالحكاية شكل فريد من الإدراك الخاص بالبشر.

فى تاريخ العالم كله، لا تكاد توجد حضارة إلا وقد أنتجت وكونت حولها مجموعة من الأساطير والحكايات الخرافية والخيالية. وكذلك الحال مع الناس، فكل إنسان فرد له قصة حياته الخاصة. لأن حياتنا ليست مرسومة فى خط سير محدد أو دائرة محكمة، وإنما حياتنا امتدادات مختلطة بالأحاسيس والرغبات الإنسانية.

إذا أردت معرفة شخص ما... فاطلب منه أن



مرحبًا...
هل من أحد هناك؟
تأليف: جوستاين جاردر
تعريب: أماني العشماوي
دار الشروق
الوصفة العجيبة
وأخواتها
حكايات جديدة من التراث الشعبي والعالمي

يحكي لك قصة حياته. فلكل منا قصة حياة مختلفة، وكلنا نتمنى أن يشاركنا الآخرون في معرفتها. وهناك دائماً وأبداً شيء جديد نتعلمه من قصص حياة الآخرين، وروايتها تطهير للروح وتنفيس للعقل والقلب.



بعض الحكايات يكون عمرها قصيرًا، وهذا هو النوع الذى نسمعه فى حياتنا ليل نهار. أما الحكايات المتميزة حقاً فتعيش وتبقى على مر العصور. وهذا هو النوع الذى نريد أن نحفظه مدوناً فى الكتب، سواء كانت بتصاوير أم بغير تصاوير، لأننا لم نعد نثق فى حفظها وانتقالها بالرواية الشفوية كما كان الحال من قبل.

الحكاية الجيدة يفهمها كل من يسمعها، ويمكن حكاياتها مرات ومرات، لأنها تولد من جديد مع كل مرة نحكيها أو نقرأها، سواء بصوت مرتفع أو همساً لأنفسنا.. ذلك لأن الرواية تتشكل فى كل مرة تبعاً لراويها ومستمعها والظرف الذى تُروى فيها. وهناك تواصل عاطفى بين راوى الحكاية ومستمعها.. فالأمر ليس مجرد حكاية مثيرة تسمعها «شارلوت» من أمها أو جدها. فالإطار الذى تُروى فيه الحكاية يعطيها طابعاً خاصاً وإحساساً مميزاً، ويؤكد شعور الصغيرة بالانتماء ويجسد هويتها الشخصية. وهذا ماكان يحدث لنا فى زمن الحكايات المروية شفاهة.. إننا نولد مزودين بملكة اللغة، وكذلك مزودين بالقدرة على القصص. فنحن نتعلم الكلام أولاً.. ومن ثمة نحكى الحكايات.

الحكايات الجيدة مثل الفيروسات، فهى معدية، وتنتشر بسهولة، ومن المستحيل مقاومتها بالتطعيمات أو الفيتامينات. ولا تستطيع التمثيليات التلفزيونية «الواقعية» أو ألعاب الكمبيوتر أن تطغى عليها أو تزيحها عن مكانها أبداً. فالحكاية الأصيلة تُكَوِّن مضادات أجسام تحصننا من هذه التهديدات. ولاحظوا أننا نستعمل تعبير «حكاية أسرة» أو « أسرتنا هذه الحكاية». وكثيرا مايقول المستمع إلى الحكاية المروية، من شدة الضحك أو من شدة الحزن: «كفى.. لا يمكننى تحمل المزيد».

بعد أن يزول تماماً تقليد الحكايات المروية شفاهة، سيصبح الكتاب هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحكايات الجيدة. وأقصد بالكتاب: النص المكتوب، أو بمعنى أدق: الأدب. وعندما نتحدث عن الأدب، نعنى ذلك الأساس الوطيد للحضارة الإنسانية الذى هو عمود من أعمدتها.. أليس من الغريب أن خلط وتركيب أقل من ثلاثين حرفاً، ينتج عنه معان لامحدودة، نضحك منها ونبكى، نرتجف من الخوف أو الإثارة، نفتتن بها أو نبتهج منها؟؟.. أليس أمراً خارقاً أن هذه الحروف تمكننا من الاستغراق فى ملحمة بطولية مر عليها أكثر من ألف سنة؟؟.. أليس أمراً رائعاً أن هذه الأبجدية تمكننا من إشراك الأجيال التى تأتى بعدنا فى حكاياتنا؟؟.

وهناك مانسميه التفاعل.. فالكلمات تبدو كأنها تعبيرات لطيفة مخففة لأشياء بغيضة.. كما أن رواية الحكايات لبعضنا بعضاً ينتج عنها تفاعل فيما بيننا، لا نراه فى تعاملنا مع الكمبيوتر. وهناك انفعال معين يجرى فى عقولنا عندما نقرأ شيئاً يعجبنا. انفعال مختلف تماماً عما يحدث لنا عندما ندخل شبكة الإنترنت.. إننا نحتاج انتباهاً كبيراً ونستهلك طاقة عظيمة من أدمغتنا عندما نقرأ قصة أو رواية، أكثر مما نستهلك من طاقة عندما نشاهد فيلماً على الفيديو أو نلعب على الكمبيوتر.. فمثلا يمكننى بسهولة متابعة قصة فيلم مرئى وفى الوقت نفسه أسرح بأفكارى قليلا فى مواضيع أخرى. لكنى لا أستطيع ذلك أبداً إذا كنتُ أقرأ كتاباً.. فالكتاب يحتكر اهتمام القارئ، إما يعطيه اهتمامه كله، أو يتركه تماماً.

عندما نمسك كتاباً لنقرأه، فإننا نخلق لأنفسنا عالماً من التصورات والانطباعات والأفكار والمعانى. فالكتاب يعيش داخلنا، نحن نعيد تكوينه أثناء قراءتنا له. هناك طبعا كاتب ألفه، لكننا نبعث فيه الحياة عندما نقرأه.. فقراءتنا للكتاب لا تشبه أبداً أن نضع شريط الفيديو أو قرص السى دى فى الجهاز، ثم نستسلم له ليقرأ لنا النص.. فالقراءة فعل إيجابى خلاق ومحقق للذات أكثر كثيراً من مشاهدة فيلم.

حتى فى اليابان، بلاد النظم الإليكترونية الرقمية المتطورة، مازال الناس هناك يقرءون الكتب.. مع أنهم يحتاجون فى تلك البلاد إلى تعلم عشرات الآلاف من أشكال الأحرف والمقاطع ليتمكنوا من القراءة. وهذا التناقض اليابانى العجيب يساعدنا على تصور مدى تفوق النص المكتوب على الإعلام المرئى.



والآن.. مامدى تأثر الحكايات بوسائل الإعلام والترفيه الحديثة؟.. لقد قلتُ من قبل إننا لا نتعلم كيف نتنفس، لكن الهواء قد يتلوث حتى إننا نجد صعوبة فى التنفس. وقلتُ إننا لا نذكر قلوبنا كى يدق، لكن أسلوب حياتنا المعاصرة قد يصيب القلب بالأمراض التى تضعفه أو تؤذيه، حتى يتوقف ذات يوم عن الدق.

لقد أشرتُ من قبل إلى أننا فقدنا القوة الدافعة المميَّزة التى كان تقليد الحكايات المروية يحفظها لنا. فالحكايات المنقولة شفاهة كان لها سحرها الذاتى وخصائصها العالمية التى تتيح لها أن تنتقل من فم إلى فم، وتعيش مئات، بل آلاف السنين. الكتاب، أى النص المطبوع، يستطيع طبعاً البقاء هذا العدد من السنين، لكنه بعكس الحكاية المروية شفاهة لا يملك القدرة على التأقلم ولا الاستجابة الدائمة للأحوال الاجتماعية القائمة. لذلك فهو أقل مرونة من الخرافات والحكايات الشعبية. لقد أتاحت لنا الحكايات فرصة التعرف على تجارب الإنسانية السابقة. لكن الأمر تغير فى العقود القليلة الماضية، ففى عالم مابعد الحداثة هذا لم يعد عمر الذاكرة الاجتماعية للناس يتجاوز عدة ساعات أو عدة أيام على الأكثر.. مثلا: زواج النجم الفلانى أو طلاقه، أو أنه يتبع حمية، أو يتناول عقاقير مهدئة، أو مقاومة للسميات، أو أنه قتل نفسه.. أو أن لاعب الكرة الفلانى قد اشتراه النادى العلانى بمليون دولار، أو يورو، أو أن الاختبارات قد كشفت أن بطل التزلج هذا يتعاطى المخدرات.. أو أن عارضة الأزياء تلك تريد أن تتزوج، أو أنها قررت أن تترهبن باقى حياتها.

هذه الأنواع من القصص الأقاويل تزايدت وأحاطت بنا أكثر من أى وقت مضى. لكنها لا تعيش وقتاً كافياً يسمح للصحف الصفراء أن تطبعها وتنشرها. إذن، لماذا ننتظر صحف الغد؟.. فلنجلس أمام شاشة الكمبيوتر أو جهاز ألعاب الفيديو. لأن الجلوس أمام الكمبيوتر وألعاب الفيديو يرفه عنا ويمتعنا بشحنات إلكترونية قصيرة، لا يزيد عمرها عن ثوان معدودة.



لا شك أن شاشات التلفزيون تسرق منا أعمارنا وتنهب حياتنا. أو إذا أردنا الدقة فهى تُعطى وتأخذ، كما قال أحد مدمنى الشراب: «فى الأيام الخالية، كنتُ أقضى على الزجاجة، أما الآن، فهى التى تقضى علىّ».. هذا القول ينطبق بلا شك على التلفزيون والكمبيوتر والهاتف المحمول. ففى النرويج مثلاً، ٨٠ ٪ من الناشئة، مابين الثالثة عشرة والخامسة عشرة من أعمارهم، يمتلكون هواتف محمولة. وهذا أمر يجعل الآباء أكثر استرخاءً لأنهم يستطيعون العثور على أبنائهم فى أى وقت.. الآن أصبحت الأسرة تُدار بجهاز تحكم عن بُعد (الريموت كنترول)!!. والهاتف المحمول هو هذا الجهاز.

كتب «مايكل إند» رواية عن «مومو وسارقى الزمن».. لقد كانت رواية تنبوئية حقاً.. لأننا أصبحنا الآن محاطين بسارقى الوعى؛ الذين أقاموا صناعة تهريج عملاقة متنافرة الألوان، أكبر مشروع صناعى عرفه العالم حتى الآن. وسارقو الوعى هؤلاء يزدادون ثراءً وقوة كلما جردونا من خبرات الحياة الحقيقية وتجاربها، وهم يقومون بذلك علانية وبلا حياء، دون أن يتصدى لهم أحد ليوقفهم أو يمنعهم من التمادى.

مؤسسو حضارة «الضغط على الأزرار» هؤلاء أفسدوا فطرة الأطفال المتطلعة إلى المعرفة المحتاجة إلى اللعب. لقد سلبوهم القدرة على التخيل والدافع إلى النشاط والإبداع، وعمالقة الاتصالات ووسائل الترفيه هؤلاء، يحاولون سرقة الحكايات أيضاً. لكنهم لن ينجحوا أبداً. فالحكاية أقوى من كل قدراتهم وأمتن. لقد رأيت كثيرين من مدمنى الالكترونيات يُفطَمون بسهولة ويتخلصون من إدمانهم إذا قدمنا لهم حكاية أصيلة.. إذن قدموا لهم ترياقاً من ذلك الرباط الالكترونى المفسد للعافية.. أعطوهم «هارى بوتر». لقد علم «هارى



من كتاب الوصفة العجيبة وأخواتها

بوتر» ملايين الأميين ثقافياً أن يقرءوا.. وأول قصة يقرؤها الإنسان لن تكون الأخيرة، فهو لا يكتفى بقراءة كتاب واحد أبداً، وإنما يتوق عادة إلى المزيد.

من الملاحظ الآن، فى الدول التى يطلق عليها متقدمة «مستنيرة»، أن قطاعاً كبيراً من الناشئة والشباب يعيشون معظم أوقاتهم، أو ربما كلها، بعيدين عن الكتب، وأقصد بالذات الحكايات الأصيلة الجيدة. ومن الملاحظ أيضاً تزايد الأوقات التى يقضونها فى مشاهدة التلفزيون أو الترفيه عن أنفسهم بألعاب الكمبيوتر، بينما تتناقص الأوقات التى يقضونها مع آبائهم أو أجدادهم.. أى أن حاجتهم إلى الكتب فى ازدياد. إننى لا أومن أبداً بنظرية التدهور العام للمستوى الروحى للإنسانية. فلو أننى وضعت نصف استثماراتى فى الكتب والنصف الآخر فى ألعاب الكمبيوتر، لَقَلِقْتُ، فى المدى البعيد، على نصيبى فى ألعاب الكمبيوتر أكثر من نصيبى فى الكتب، وأعنى بالذات الحكايات المكتوبة.

إننا الآن أشد احتياجاً للكتب مما كنا قبل خمسين سنة أومائة سنة. ففى ذلك الزمن كنا لانزال ننهل من رصيد الحكايات المروية شفاهة.. وبلغاتنا الوطنية.

حليب الأم لا يصبح «موضة قديمة» أبداً وكذلك الحكايات الجيدة. أما مؤسسات التليفزيون وألعاب الكمبيوتر والفيديو، فهى تستنزف حيويتنا وتصيبنا بأمراض اجتماعية لا مثيل لها.. فقد أصبحت ضجيجاً ثقافياً، وتلوثاً فكرياً.. وكأن الحضارة الإنسانية قد أصابها سعال مزمن.. أو على الأقل «دور أنفلونزا».

ولكن.. حشائش النجيلة، كما نعرف جميعاً، شديدة القوة والمثابرة، لها قدرة عالية على التشبث بالحياة والنمو فى الظروف كافة. حتى إنها تنمو بين شقوق الأسفلت.. إذن، على أسوأ الظروف، سوف ينشأ تقليد جديد للرواية الشفهية، وينمو ويزدهر فى تلك «الغابة الأسمنتية».. وبالرغم من كل ما نراه من عولمة ثقافية، فإننا نلمح مظاهر إحياء للثقافات المحلية. فنرى معاهد تعليم الكتابة الأدبية، وورش عمل الكُتّاب، ومقاهى الشعر تتخذ مكانها جنباً إلى جنب مع محلات الفيديو..

فالتاريخ لم يكتمل بعد، حتى لو تصورنا ذلك أحياناً.



عندما أتحدث عن رؤيتى لمستقبل الكتاب، فأنا لا أعتنق وجهة نظر حتمية فى مسائل التنمية، بل على العكس من ذلك. وإنما لأنى أعتقد أن الكتاب يستحق أن نكافح من أجله. وأرجو أن تسمحوا لى بتوجيه تلك النصيحة: «أهم مايفعله الآباء لأبنائهم بعد أن يطعموهم ويكسوهم.. هو أن يقرءوا لهم».. ففى كثير من المجتمعات، الغربية بالذات، يزداد احتياج الناس إلى تبادل الخبرات، خاصة وقد اتسعت الفجوة بين الأجيال.. وتبادل الخبرات هذا له تأثير أساسى على شخصية الإنسان، مثل الهوية والشعور بالانتماء. فالآن أصبح الأبناء والآباء والأجداد يعيشون فى عوالم منفصلة، ومع الأيام سوف يزداد تباعدهم. فالأبناء يشاهدون التلفزيون فى جهاز مستقل، بينما يجلس الأبوان فى غرفة أخرى يحدقان فى شاشة أخرى، فى حين يكون الأجداد فى أماكن متفرقة من البلاد، لا يدرى إلا الله ماذا يفعلون بالتحديد، ربما كانوا هم أيضا يشاهدون التلفزيون أو يمارسون ألعاب الكمبيوتر.

لو أن لى أمنية تتحقق، لتمنيتُ أن تصبح القراءة عادة متأصلة فى نفوس الأطفال، وممارسة مفروغاً منها، مثل غسل أسنانهم، فالعناية بصحة الأسنان أمر مهم جداً. لكن الآباء مسئولون أيضاً عن العناية بصحة أبنائهم الإدراكية «التجاربية». فهناك تقصير كبير فى هذا المجال فى بلدان كثيرة ومن ضمنها بلادى. لا أقصد فى الكتب بالذات، فليس هناك نقص فى الكتب، لكننا مترفون، عندنا كتب كثيرة وحكايات جميلة وعظيمة، لكننا لا نكلف أنفسنا باقتطاع جزء من وقتنا لقراءتها.

أتمنى لو أننى أُغير قليلا فى عنوان هذا الحوار، فأجعله: كتب الأطفال فى عالم بلا آباء؟.

دعونى أقدم لكم هذا المشهد المتخيل فى إحدى العائلات: تُحضر البنت الصغيرة كتاباً لأمها وتطلب منها أن تقرأ لها. كانت الأم مشغولة فى ذلك الوقت، فهزت رأسها قائلة: «ليس الآن ياشارلوت». أو تقول: «فى وقت آخر ياحبيبتى». لكن البنت تقول بإلحاح: «من فضلك اقرئى لى» أو تقول: «اقرئى لى الآن».. فتتنهد الأم قائلة: «لا وقت للقراءة الآن».. فتقول البنت بغضب: «هناك وقت كاف.. عندى».. هل تعتقدون، مثلى، أن هذه البنت الصغيرة هى التى وضعت علامة استفهام فى عنوان هذا الحديث؟!.

وبمناسبة الحديث عن الوقت: وقفتُ ذات يوم أتحدث مع أحد الآباء على باب روضة للأطفال، وبينما نحن ندردش، نظر الأب فى ساعته فجأة وتنهد قائلاً: «يالهؤلاء الصغار، إنهم يستهلكون الوقت. وقد شفى نفسى أننى جاوبته بقليل من السخرية: «نعم.. فالحياة نفسها تستهلك الوقت».. لقد سمعت كثيراً من الأزواج، رجالاً ونساءً، يشكون أن الحياة الزوجية تستهلك الوقت بدرجة مبالغ فيها.. وهذا صحيح.. وصحيح أيضا أن الحب يستهلك الوقت. فليس هناك حب فورى. وحبك لإنسان آخر قد يستهلك وقتك، فى بعض مراحل الحياة، حتى يسيطر على حياتك كلها.. لكنه يثريها فى الوقت نفسه.. وهذا ينطبق على الكتاب.. فإثراء الحياة بقراءة الكتب يستهلك الوقت.. وكذلك إثراء حياة أطفالنا يستهلك أوقاتنا، ويتعارض كثيراً مع رغباتنا الشخصية.

لا شىء فى حياتنا المقبلة يعوضنا حرماننا من قراءة قصص مثل حكايات «إخوان جريم» أو «هانز أندرسن» أو «أ.أ. ميلان» أو «سانت إكزوبرى» أو «روالد دال» أو «أستريد لندجرن».. وغيرهم.. لأننا سنكون قد حُرمنا من طفولتنا، ثم يبقى فى داخلنا طفل لا ينمو، علينا أن نتعامل معه ونتحمله باقى عمرنا. أما من كانت طفولتهم ثرية متنامية فيكونون أطفالا معافين ثم يصبحون كبارا أقوياء. فكما تقول الحكمة:

هذا الطفل هو أبو ذلك الرجل أو أم تلك المرأة».

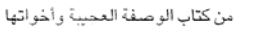


فى عالم مابعد الحداثة هذا، يزداد احتياج الأطفال إلى مصدر للدفء والحميمية. وهو مايعجز كثير من الآباء عن توفيره لأبنائهم، بسبب تعجلهم أو انشغالهم بأمور الحياة. وأعتقد أن الكتب هى أنسب بديل أبوى فى هذا الحالة، وأفضل كثيراً من شاشة الكمبيوتر وجهاز التلفزيون.. ومما لا يخفى على أحد ماللقراءة من فوائد أخرى، صحية ونفسية. فكثير من الخبرات التى يمكن إدراكها والاستفادة منها بالقراءة، توفر حماية من مشاكل عديدة.. وتقدم علاجاً ناجعاً لبعض أمراض العصر مثل الضجر!.. وفقدان الهوية والشعور بالعجز والعدمية.

قراءة الكتب تساهم فى بناء عقول الناشئة، فهى توسع مداركهم وآفاقهم وتنمى شخصياتهم.

عندما نقرأ كتاباً، فكأنما نؤثث بيتنا من الداخل. والحكايات بالذات تعتبر عنصراً أساسياً فى هذا التأثيث.. ففى عصر ماقبل الآداب المكتوبة كانت الحكايات الخرافية والخيالية هى أداة نقل الثقافة والهوية، وكانت الحكايات الشعبية بالذات هى الموسوعات الثقافية فى تلك العصور. والكتب التى نقرؤها فى طفولتنا تشبه تلك الموسوعات. وهذا ينطبق أيضاً على الحكايات التى نسمعها ونحن جالسون فى حجور آبائنا وأمهاتنا. وقد أخذت الكتب تحل، تدريجياً، محل حكايات ماقبل النوم. ولكن، كما تقلصت الحكايات فقد زادت الكتب التى نختار منها.

وعلى ذكر الهوية والانتماء، فقد كانت هوية الشخص ترتبط بقريته. وكانت الإجابة على سؤال: «من أنت؟».. يتصل فيها محل المعيشة مع النسب بصلة لا تنفك. فأنت تعيش فى المكان نفسه مع أبويك، إلى جانب أربعة من أجداد، وعدد من الإخوة والأخوات، ومجموعة من الأعمام والأخوال والعمات والخالات، ثم هناك أبناء العمومة وأبناء الخئولة.. ثم أبناؤهم من بعدهم. أما الآن فقد أصبحنا نشير إلى العالم كله باعتباره قرية واحدة. ونريد أن نثبت انتماءنا إلى هذه القرية الجديدة.. أى أننا نحتاج إلى عناصر مشتركة تحقق لنا قدراً من الاتفاق. وفى اعتقادى أن مثل هذه العناصر يمكن العثور عليها فى الآداب.. وأقصد بالذات الحكايات الشعبية العالمية مثل «سندريللا» و«الجميلة النائمة» أو الحكايات المؤلفة مثل «ملابس الأمبراطور» و«الدب وينى المتأفف» و«الأمير الصغير» و«شارلى ومصنع الشوكولاتة» و«حكاية بلا



من كتاب الوصفة العجيبة وأخواتها



نهاية».. أو حتى رواية «هارى بوتر» التى انتشرت كالوباء.

قل لى ماذا تقرأ، أقل لك من أنت.

قال الفيلسوف الهولندى من عصر النهضة: «الخيل تولد، أما الإنسان فيتكون».

وقال الحكيم الصينى كونفشيوس: «العلم بلا فكر جهد ضائع. أما الفكر بلا علم فخطر شديد».

إننا معشر البشر نوجد فى الحياة ينقصنا الكثير، وعلينا أن نكمل هذا النقص بجهودنا الذاتية، والمشكلة أننا لن نعرف أن هناك ماينقصنا أصلاً إذا بقينا على جهلنا. وإنما سنستمر فى مرحلة البدائية الوجدانية، التى قد تؤدى بنا مع الوقت لأن نكون خطراً على ما حولنا ومن حولنا. حالة البدائية الوجدانية تلك، تجعلنا فريسة سهلة لأن يستحوذ علينا ذلك المجتمع الجديد الذى نسميه: مجتمع «الغابات الأسمنتية».

إننا لم نكد نغادر مرحلة الغابات الخضراء حتى رحنا نحرقها لنتخلص من مخاطرها، لكن الغابات الأسمنتية هى الأخرى مليئة بوحوشها الضارية وحيَاتها المتحفزة الماكرة. و«موجلى» العصر الحديث، الذى لم تتول الحيوانات تربيته، إنما ربته الآلات والماكينات. موجلى هذا يحتاج إلى حماية من مخاطر تلك الغابات الأسمنتية. كما أن هناك مخاطر الغابات الافتراضية الأخرى، التى ربما كان أشهرها الإنترنت. وهناك أطفال يعيشون فى هذه الغابات الجديدة، انتُزِعَت من داخلهم شعلة الحياة، مجردين من هويتهم، محرومين من الإيمان بمستقبلهم، فاقدين الشجاعة والقدرة على مواجهة ذلك المستقبل.. إنهم يستصرخوننا.. يطالبوننا بغذاء لأرواحهم..

«صرخة الأدغال» تلك.. هى أكبر دليل على المستقبل الزاهر للكتاب.




ما هى الأسباب التى دفعتنى للكتابة؟

منذ كنت صغيراً جداً، وحتى يومنا هذا، أشعر شعوراً قوياً أننى أعيش فى قصة خيالية.. نعم، أعيش فى عالم غامض مبهم.. كنتُ أرى أن وجودى حياً فى هذا العالم أمر فى منتهى الغرابة.. بل إننى كنت أتعجب من مجرد وجود هذا العالم من حولى. وكثيراً ماكنت أسأل الكبار: «أليس من العجيب أننا أحياء؟».. أو «أليس من الغريب وجود هذا العالم؟». وكان الكبار يجيبوننى: «ليس غريباً على الإطلاق.. لماذا تراه غريباً؟».. فأتشبث بوجهة نظرى متسائلاً: «إذن.. أنتم ترون أن وجود هذا العالم أمر عادى؟».. فيرد الكبار: «بالتأكيد هو أمر عادى». وقد يقولون بإشفاق: «لا تكثر من التفكير فى هذه الأمور».. لكن أحداً منهم لم يخطر بباله أن يستفسر عن أسباب تعجبى. وقد كنت متأكداً أننى محق فى خواطرى تلك.. فقررت ألا أكون من الكبار أبداً.. حتى لا أفقد شعورى بالدهشة من العالم من حولى. كما أننى اكتشفت أمراً آخر.. اكتشفت أننى سوف أعيش على هذه الأرض مدة قصيرة جداً، وأننى هنا فى زيارة لمرة واحدة فقط، وأننى لن أعود إلى هذا العالم مرة أخرى.

هذا مادفعنى للكتابة.. للكبار أولاً، ثم بعد ذلك للصغار أيضاً. فقد أردت أن أثأر لنفسى بعد أن أصبحت أكثر قدرة على التعبير عن ذاتى. أردت أن أدفع الناس لأن يتوقفوا أحيانا ويتأملوا الحياة من حولهم، يتأملوا تلك المغامرة الخارقة التى يمرون عليها سريعاً ولا يلحظونها. ليتأملوا ذلك اللغز الغامض الذى يحيط بنا.. لابد أن نعود أطفالاً مندهشين مرة أخرى لنشعر بذلك كله.. لابد أن نخلع عنا رداءنا الدنيوى ونعود صغاراً.

لقد وُلِدنا فى حكاية خيالية، لكننا اعتدنا، مع الوقت، على مافيها من عجائب، حتى لم يعد هناك مايبهرنا.

ولكن هناك شيئا مبهرًا ساحرًا يظهر ويتكون داخل ذلك المهد الجديد الذى اشتريناه من محل الأثاث «إيكيا». العالم كله يتشكل فى ذلك المهد منذ أن وصل المولود الجديد إلى عالم الحكاية الخيالية هذا الذى نعيش فيه. ذلك العالم الذى أقصينا أنفسنا عنه عندما وصمناه بأنه «الواقع».

«أمى.. لماذا تلمع النجوم؟».. «كيف يطير الطير؟».. «لماذا للفيل أنف طويل؟»..

«الحقيقة.. أننى لا أعرف.. والآن نامى ياشارلوت وإلا غضبت ماما».

من المفارقات المؤسفة أن الطفل يفقد ذلك الإحساس النابض بأنه حى فى الوقت نفسه الذى يتعلم فيه الكلام. لذلك يحتاج إلى أجهزة دفاع أساسية بديلة.. لذلك يحتاج إلى الكتب.. لذلك يحتاج الكبار أيضاً إلى كتب الصغار.. إنها تساعدنا أن نحفظ تجارب طفولتنا الماضية، وأن نتذكرها، ولو لا الكتب لكنا فقدناها.

هناك مثل لاتينى يقول: «إذا غيرت الاسم، أصبحت القصة عنك».



ما هو ذلك الشىء الغامض الذى يشوق الأطفال ويدفعهم للاستماع إلى حكايات الجن والعفاريت فى الحكايات الخيالية؟.. ربما لأنهم يشعرون شعوراً كامناً بأنهم هم أنفسهم عفاريت فى حكاية خيالية.

كيف نتقبل القصص الخرافية التى يفكر فيها الحيوانات ويتحدثون مثلنا؟.. ربما لأننا نشعر بصلة مبهمة تصلنا بالبوم والغربان، وبالفهود والنمور.

حكاياتنا الخرافية ليست مصاغة من كلمات فقط، وإنما هى منسوجة من غبار النجوم، من الذرات والجزيئات، من البروتين والأمينوأسيد.. إنها منا، وعنا.

لماذا نشعر بالبهجة والإثارة عندما نقرأ الحكايات الخيالية أمثال «يوميات نارنيا» أو «حكاية بلا نهاية»؟.. إننا لا نصدق مانقراه بالتأكيد. ولكن.. ربما وجدنا فيه صدى بعيدًا لشىء نسيناه بداخلنا؟.

«لقاءات من النوع الثالث» كان ذلك عنوان أحد أفلام المخرج «سبيلبرج» الخيالية عن الفضاء. والمقصود بهذا العنوان أن من يرى الكائنات الفضائية رؤية عابرة، يكون ذلك لقاء من النوع الأول. فلو أنه رأى هذه الكائنات فى سفينة فضاء مثلا، وأنعم النظر فيهم، فذلك لقاء من النوع الثانى. أما لو أنه أُخِذ وأُدخِل سفينة الفضاء وقابل هؤلاء الغرباء، فذلك لقاء من النوع الثالث.. ولكن، ماأهمية ذلك كله؟؟.

أنا شخصياً جربتُ لقاء من النوع الرابع.. عندما كنت صغيراً فى العاشرة من عمرى: كنتُ أنا نفسى الكائن الغريب.. كنتُ أحد تلك المخلوقات الغامضة الآتية من الفضاء الخارجى، من كوكب صغير لونه أزرق مشوب بخضرة.. أحس ذلك بداخلى.. استيقظت بعد نوم عميق.. فوجدت الغريب فى فراشى.. فقمتُ أنا وإياه.. وسكنته فكنتُ أنا الذى يُخاف، ويَخاف.. وقفت أمام المرآة فى الحمام، أمسح النوم عن عينىَّ، وأسأل نفسى: «من أنت؟»...

لم يحدث أن التقيت بكائن قادم من المريخ، ليس بعد، ولكنى التقيتُ بنفسى.. أظن أننى لابد أن أقرأ عن سكان المريخ قبل أن ألقاهم.

لابد أن أعبر النهر لأجلب الماء.. فالقصة فى الحقيقة عنى أنا.

من قال إن الحكايات الخيالية قصص ملفقة مصطنعة؟.. من قال إن الخرافات قصص لا يمكن تصديقها؟.. مادام هذا العالم موجودًا فعلاً، فقد انمحى الفاصل بين الممكن واللاممكن.

قد يقول البعض: «ماحاجتنا إلى الخرافات والحكايات الخيالية؟.. فعندنا الواقع، فلنكتب عنه.. مع الواقع لا نحتاج لحكايات وهمية».. ولكن، كلا.. إننا نحتاجها فعلا.. لأننا كائنات أسيرة العادة.. ربما كنا قادرين على رؤية الكون واستكشافه.. لكننا لسنا قادرين دائما على رؤية أنفسنا.

الخرافات والحكايات الخيالية هى مرآة الإنسانية. لكنها ليست مرآة واحدة ننظر فيها فنرى أنفسنا.. إننا عندما ندخل عالم الخيال نكون كمن دخل بيت المرايا الملىء بأنواع عديدة من المرايا المحدبة والمقعرة. فإحدى المرايا ترينى نفسى رفيعاً كالعصا، والأخرى تُظهر صورتى بديناً مسحوقاً، والثالثةُ ترانى فيها منقسماً، فلا أعود شخصاً واحداً، وإنما اثنين أو ثلاثة.. أو ربما عشرة.. وفى كل الحالات، إنما هى صورتى، أنا، فى المرآة.

والمرآة لا تكذب كما يقولون.

بيت المرايا هذا هو الأدب الخيالى، إنه يساعدنا على إزالة الغبار عن واقعنا.. لنشعر بالعالم الحقيقى من جديد، كما كنا نشعر به ونحن أطفال.. قبل أن نصبح «دنيويين». قبل أن نفك غموض عالم الخيال هذا الذى نعيش فيه بأن نطلق عليه اسم «الواقع». وهذا أمل لنا كلنا.. ففى داخل كل منا طفل رائع مندهش متسائل.. فى داخل كل منا كتلة صغيرة من الذهب، مهما تصورنا أننا عاديون.. ففى يوم من الأيام كنا قادمين جُدُداً إلى هذه الحياة.. ولن نبقى هنا إلى الأبد.. وإنما نحن هنا فى زيارة قصيرة فقط.

أدب الصغار يساعدنا على العثور على مكاننا الحق فى الحياة.. ويتيح لنا الفرصة لأن نخطو خطوة إلى الوراء.. فنكتشف عالماً كاملاً أمامنا.. هانحن نشهد عالماً جديداً يتكون.. هاهو ينهض قائماً أمام أعيننا.. فى وضح النهار.. عالمٌ لم يسبق له مثيل، يقوم من العدم..

ومع ذلك، فهناك من يقول إنه يعانى من الضجر!!

كان سقراط يتجول فى أسواق أثينا سائلاً الناس الذين يلقاهم أسئلة عجيبة.

كان يقول: «أثينا مثل حصان بليد. وأنا مثل ذبابة الخيل. أحاول أن أوقظه.. وأن أبقيه حياً».

وكثير من كتب الأطفال تطن مثل ذبابة الخيل، وتدور فى أرض الأدب الرحبة، آملة أن تلدغنا فتوقظنا من سباتنا الرتيب.. وتبقى فينا جذوة الدهشة. ■

ترجمة: أمانى العشماوى



عمر بن عبد العزيز

دخل عمر بن عبد العزيز الجامع الأموى بدمشق وراح يدير عينيه فى المكان وهو يحس ضيقًا، فما فيه من زخارف وتهاويل وفسيفساء وذهب يشغل العابد عن عبادته. أين هذا الترف المصنوع من تلك البساطة الآسرة التى يتسم بها مسجد الرسول. إنه أيام كان يؤم مسجد الرسول فى المدينة قبل أن يأمر عبد الملك بن مروان بعمارته، كان يسعد بالأنوار الربانية التى تغشى المسجد، أما هنا فى المسجد الأموى الكبير فهو لا يشعر إلا بالاختناق. لكأنما قبته وجدرانه توشك أن تنقض عليه وتكتم أنفاسه.

وراح عمر بن عبد العزيز يردد: «إسراف.. إسراف».

أين بساطة الإسلام؟ لماذا كل هذا الإسراف؟ أنفق الوليد أربعمائة صندوق من الذهب فى كل صندوق أربعة آلاف دينار؛ فلو أنفق ذلك على المحتاجين لما كان فقير واحد فى مملكته.

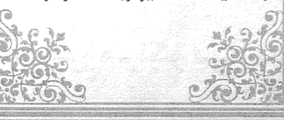
ولما علم أهل دمشق بموقف عمر اختاروا خالد بن عبد الله القسرى ليكلمه وقال له:

- يا أمير المؤمنين بلغنا عنك أنك تريد أن تجرد المسجد مما فيه. فقال: نعم.

- ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين.

وسأل عمر: لم؟ فرد خالد: لأن غالب ما فيه من الرخام إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم وليس هو لبيت المال.

فأطرق الخليفة مفكرًا. إنه لا يحب أن يحمل إلى بيت المال إلا مالاً طيبًا كما أن المسجد بهر الرومان فقال عمر دعوه.



الصين الجديدة .. في ظل

محمد عبدالرحمن يونس

في ظل سياسة الإصلاح والانفتاح، التي انتهجتها الحكومة الصينية، شهد المجتمع الصيني تحولا كبيرا في المفاهيم والقيم والأخلاق. ففي الصين ومع هذه السياسة «صار كل شيء موجودا، أمّا في هونج كونج فصار كل شيء مباحًا، على حدّ تعبير الصينيين المعاصرين، وإذا كان كلّ شيء موجوداً في الصين، فإن كلّ شيء مسموح به، ما عدا انتقاد الحكومة الصينية والتظاهر ضدّها.

وتحاول هذه المقالة أن ترصد أهمّ مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية، وقد قصدت من إعدادها إعطاء القارئ العربي لمحة عن الصين المعاصرة في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح التي قادها زعيم الحزب الشيوعي السابق دنج شياو بنج، والتي أطاحت بأنصار الزعيم ماو تسي تونج، وبالمقربين منه، من زعماء السلطة السياسية، والتي أسست لمفاهيم وقيم رأسمالية جديدة لم تكن سائدة في مجتمع الصين وعلاقاته في حقبة الزعيم ماو تسي تونج.

في البداية أحبّ أن أشير إلى أنه إذا كان من المعروف أنّ ثمة أمراضا مزمنة تتحكم في علاقات مجتمعات بلدان العالم الثالث كالرشاوى والفساد والسرقات والمحسوبيات والعلاقات الشخصيّة والبيروقراطيّة الإدارية والعمولات، فإنّ الصين المعاصرة بدأت تغصّ بهذه الأمراض التي أخذت تنخر جسد المجتمع الصيني وروحه، وتفتته وتقسمه طبقياً، بحيث يزداد الفقراء فيه فقرا والأثرياء ثراء، وذلك في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، إذ يعتقد كثير من الصينيين المعاصرين أنّ في هذه السياسة خلاصا اقتصادياً واجتماعيا وإنسانياً من مشاكلهم وأمراضهم السياسية و الاجتماعية، وأنّها ستحقق لهم أحلامهم في الثراء والرفاهية، التي لم تتحقق في حقبة الرئيس ماو تسي تونج.

وأحبّ أن أشير إلى أنه نظراً لما عانته الصين من الاستعمار الأجنبي الطويل، وما رافق هذا الاستعمار من ظلم للشعب الصيني، وقهره، واستغلال خيراته، قد تشبّعت نفوس الصينيين بحساسية شديدة ضدّ أي أجنبي يقيم على الأراضي الصينية، ويعمل في مؤسسات الصين. فبعد أن استولى ماو تسي تونج على مقاليد السلطة في الصين، قامت السلطات الصينية بمصادرة أملاك الإقطاعيين وتوزيعها على أفراد الشعب، وأمّمت المصانع العائدة لطبقة الرأسماليين، وطردت جميع الأجانب المقيمين على الأراضي الصينية - باستثناءات جدّ محدودة، تشمل مجموعة من الأشخاص المساندين للثورة الصينية والفاعلين فيها. ولم يستطع الصينيون المعاصرون بعد أفول نجم ماو تسي تونج وسياسته الاشتراكية، وسيادة سياسة الانفتاح، وعلاقات السوق، ورأس المال، أن يخفّفوا من هذه الحساسية التي سرعان ما تظهر على وجوههم وفي مواقفهم، وفي انفعالاتهم، وممارستهم اليومية، كلّما لاحت الفرصة لها، فالصينيون المعاصرون كتومون، وحذرون جداً من الأجنبي، سواء أكان أوروبيا أو أمريكياً أو عربياً، أم غير ذلك، ويحاولون دائماً أن يخفوا عنه ما يجري في الصين المعاصرة، على المستوى السياسي والاجتماعي والإنساني والثقافي. ونجد أنّ هذه الحساسية تنفجر في أحيان كثيرة لتصبح عنصرية ضدّ الأجنبي وبغضاً له. وإذا كان المثقفون الصينيون المعاصرون الكثيرون الذين زاروا العالم العربي، وعاشوا في مدنه، وتفاعلوا مع سكانه وعاداتهم وتقاليدهم، يكنون احتراماً لهذا العالم، ويصفون أهله بالكرم والوفاء ومساعدة الغرباء بإنسانية عالية، فإنّ قسماً كبيراً منهم لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من حساسيتهم ضدّ الأجنبي، وظلّوا يتعاملون مع العربي زائر الصين بحذر وريبة وشكّ.

إنّ الصيني، على الرغم من اتساع الصين، وشساعة أراضيها (٩,٦ مليون كيلو متر مربع، أي أنّها من حيث المساحة في المركز الثالث في العالم بعد روسيا وكندا)، وعدد سكانها المذهل (بلغ عدد سكان الصين حتى نهاية عام ١٩٩٨م، ١٢٨٤,١ مليون نسمة، عدا سكان مقاطعة هونج كونج ومقاطعة تايوان، ومنطقة ماكاو) يحذر الأجنبي، ويضعه دائماً في دائرة الشكّ والحذر، وعدم الثقة بنواياه الخبيثة أو الطيبة، ويحاول دائماً أن يخفي عنه ما جرى ويجري في الصين.



بدأت بوادر الطفرة الرأسمالية تتجذّر واضحة في الصين ابتداء من عام ١٩٩٣م، ودخلت في أهم معاقل الشيوعية الصينية في بكين، وهو ميدان (تيان آن مين)، وقاعة الشعب الكبرى الموجودة في هذا الميدان، فقد افتتح بار (كاراوكي) الضخم بجوار بوابة مدينة الصين القديمة، وكان يُقدم في هذا البار أغاني (البوب) متزامنة مع صور الفيديو، وكانت تعقد في هذا البار علاقات الجنس المحرمة، وقد حظيت هذه البوابة التي يرجع تاريخ تشييدها إلى عهد الإمبراطور الصيني (يونج) في القرن الخامس عشر - الذي ينتمي إلى أسرة مينج الإمبراطورية التي حكمت الصين ما بين عام ١٣٦٨ حتى عام ١٦٤٤م - برعاية كبيرة من الحكومة الصينية لأنها من أهم المعالم الأثريّة القومية في الصين. وقد علل مدير البوابة (هو بي يون) - في ذلك

سياسة الإصلاح والانفتاح

الوقت - سبب افتتاح هذا البار قائلا: (لانستطيع التفكير في حماية آثار الصين من دون الأموال الكثيرة).

وجرياً وراء سياسة الكسب السريع وجمع المال من أىّ مصدر كان، شرعت الحكومة الصينية فى فتح الأماكن المحرّمة للسياح الأجانب، فقد فتحت بوابات المدينة المحرمة فى ميدان تيان آن مين فى عام ١٩٨٨م، وأقامت فيها مقاهى وحوانيت مليئة بالهدايا. أمّا قاعة الشعب الكبرى الموجودة فى هذا الميدان، والتى تعد مقرّ الحكومة الصينية الرئيس، والتى كانت قلعة محرّمة أيام ماو تسى تونج، فقد افتتحت أمام عامة الناس فى عام ١٩٧٩م.

وقد سنت الحكومة الصينية سياسة تمييز مالية ضدّ الأجانب المقيمين على أراضيها أيّاً كانت جنسياتهم.

ومن مظاهر هذه السياسة أن المقيم الأجنبى يدفع فى العيادات الطبيّة الخاصّة والعامة الخاضعة لقانون الضمان الصحىّ أكثر مما يدفعه الصينى،فعلى سبيل المثال يدفع الصينى الخاضع لصندوق الضمان الصحىّ يواناً واحداً رسم بطاقة الدخول إلى مشفى الجامعة أجرة الكشف الطبىّ، بينما يدفع الأجنبى الخاضع لهذا الصندوق نفسه خمسة يوانات وأحيانا عشرة يوانات.

ومن مظاهر سياسة التمييز التى سنتها الحكومة ضدّ الأجانب أنها حرّمت على الأجانب المبيت فى الفنادق الرخيصة التى ينام فيها الصينيون، وفرضت عليهم النوم - إذا ما اضطّروا - فى الفنادق عالية الأجر وذوات النجوم العديدة، والتى تبلغ أجور المبيت فيها (٨٨) دولارا فما فوق فى الليلة الواحدة. وقد سألت صديقاً صينيا عن سبب ذلك، فقال: إنّ الخدمات التى تقدّم لزبائن الفنادق الراقيّة عديدة ومتميّزة، وهى تعكس الوجه الحضارى والمتطوّر للصين. ويطمح القائمون على هذه الفنادق - لقاء تقديمهم هذه الخدمات المتميزة - إلى كسب المزيد من الأموال التى يدخلها الأجانب إلى الصين عند زيارتهم لها، وهؤلاء الأجانب كثيرون جداً. أمّا الفنادق الرخيصة - التى هى مقصورة على الصينيين - فإنها تعكس الوجه السلبى للصين، وقاع المجتمع الصينى، إنّها تعرّى هذا المجتمع من قشرته الخارجيّة، وتكشف عن المهمّشين والمستلبين فيه، وهى فى آن تعكس أمراض هذا المجتمع، حيث تمتلئ هذه الفنادق ببائعات الهوى، وبالمدمنين على المخدرات، وبالمقامرين، بالإضافة إلى أن أجور هذه الفنادق رخيصة جدا، إذ لا تتجاوز أجرة الواحد منها (١٢٥) يواناً فى الليلة الواحدة.

ومن مظاهر سياسة التمييز المالى ضدّ الأجانب فى ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح هى تلك التى تتّخذها الجامعات الصينية ضدّ الأساتذة الأجانب العاملين فيها، إذ إنّ بعض هذه الجامعات تقدّم مكافآت مالية للأساتذة الصينيين، علاوة على رواتبهم، كلّ فصل دراسى وأحيانا كل شهرين، ومنها جامعة الدراسات الأجنبية فى بكين، فى حين أنها تمنع هذه المكافآت عن الأساتذة الأجانب الذين يعملون مع زملائهم الصينيين، مع العلم أن الأساتذة الأجانب يحملون شهادات علمية أعلى من شهادات الصينيين، ويدرّسون حصصا أكثر من تلك التى يدرّسها الصينيون. ولا تكتفى الجامعات الصينية بهذا التمييز فحسب بل تعمد إلى إجراء غير إنسانى وغير حضارى، نابع من العقلية المتزمتة المنغلقة والضيقة والحذرة التى يفكّر من خلالها القائمون على سياسة التعليم العالى فى الصين، وهو: أن كليات هذه الجامعات عندما تعقد اجتماعاتها الدورية لأعضاء هيئة التدريس، فإنها لا تدعو أىّ عضو هيئة تدريس أجنبى فيها، مهما كانت درجته العلمية إلى حضور هذه الاجتماعات. ويعلل القائمون على هذه الكليات عدم دعوة أعضاء هيئة التدريس الأجانب بأسباب غريبة منها: إنّ لنا فى الصين عقلية خاصة بنا، ولنا ظروف وخصوصيات وطريقة عمل وتفكير مغايرة لظروفكم وطبيعة تفكيركم، ولذا لا ندعوكم إلى حضور هذه الاجتماعات التى يحضرها زملاؤكم الصينيون حتى لا تتدخلوا فى ما لا يعنيكم، وبالتالى تسببوا لنا حرجا. وهذا إجراء غير موجود فى جامعات العالم الأخرى العربية والأجنبية، ولعلّ الجامعات الصينية هى الوحيدة فى العالم التى تتّخذ مثل هذا الإجراء.

يضاف إلى ذلك إجراء آخر يبدو غريبا جداً، ولا يوجد فى أىّ بلد من بلدان العالم إلا فى الصين وحدها، وهو: ما يتعلق بالنشر فى الدوريات العلمية التابعة لكليات الجامعات الصينية، فالقائمون على إصدار هذه الدوريات الأكاديمية لا يدعون أى أستاذ أجنبى للمشاركة فى الكتابة فى هذه الدوريات، بل يحرمونه من المشاركة إن أبدى رغبة، والسبب بسيط جدا كما أكّد لى أحد زملائى العرب العاملين فى جامعات بكين.فهذه الدوريات تقدم مكافآت مالية لأصحاب الأبحاث الأكاديمية المنشورة فيها، والصينيون يريدون أن يأكلوا الكعكة وحدهم، ولا يريدون للأجنبى أن يشاطرهم فيها، مع العلم أنّ هذه الإجراءات لم تكن موجودة فى حقبة ماو تسى تونج، كما يؤكّد الذين عايشوا هذه الحقبة، ولا يزالون يعايشون ما يجرى فى الصين المعاصرة، بل هى وليدة سياسة الإصلاح والانفتاح الجديدة التى بدأت بعد ماو تسى تونج. ويقول كريستوفر هيتشنس: (من المحتمل أنّه بعد سنوات قليلة لن تكون الصين شيوعية حتى اسما، فقد تظلّ بلدا قوميا وعسكريا وكارها للأجانب).

بعد موت ماو تسى تونج (١٩٧٦م)، كرّس دنج شياو بنج الرجل القوى فى الدولة جميع جهوده للتخلص من المتطرفين - أنصار ماو - وعلى رأسهم: زوجته جانج شنج، وياو وين يوان عضو اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعى، ووانج هنج ون نائبه فى رئاسة الدولة، وشانج تشو شياو زعيم الراديكاليين فى اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعى الصينى، ويطلق الصينيون المعاصرون على هؤلاء (عصابة الأربعة). ولم يكن ماو تسى تونج فى حكمه راضيا عن دنج شياو بنج، فاقصاه عن منصبه كنائب رئيس للحكومة أول مرّة فى عام ١٩٦٦م، بتهمة الرجعية والبيروقراطية، ومحاولة الالتفاف على الأيديولوجيا العامة للدولة وللحزب الشيوعى الصينى الذى يتزعمه ماو. ثمّ أقصاه للمرة الثانية عن المنصب نفسه وقبل وفاته فى عام ١٩٧٦، لإسهامه فى صراعات سياسية كان هدفها الاستيلاء على السلطة. وما إن يموت ماو تسى تونج حتى يعود دنج شياو بنج إلى منصبه ثُمّ فى ما بعد، فى عام ١٩٧٧م، يصبح أقوى رجل فى السلطة، ويطرح برنامجًا اقتصادياً يطمح من خلاله إلى تحديث الدولة صناعيا وتكنولوجيا وتجاريا، فيفتح أبوابها على العالم الخارجى بصناعاته واستثماراته وتجارته واقتصاده الحرّ. ويعمل على إصلاح هيكلية الدولة السياسية والأيديولوجية، ويتخلّص من خصومه السياسيين ومن الأطر والقيادات التى تبنّت أفكار ماو تسى تونج، واحدا بعد الآخر، ويطرح مفاهيمه وشعاراته الخاصة التى تفتح عيون الصينيين صوب الثراء والمال والرأسمالية واقتصاد السوق الحرّة، ويعزّز علاقات الصين مع أمريكا، بعد أن كانت مقطوعة بشكل كامل أيام ماو تسى تونج، وتفتتح أمريكا سفارتها لأول مرّة فى بكين، ويُعين ليو نارد وود كوك سفيرا فيها. وفى عام ١٩٧٩م يستطيع دنج شياو بنج بذكاء أن يتخلص من رجلين قويين فى الدولة، وهما: شن وانز، و دانج وانتيان، القائدان السابقان للحرس الأحمر الصينى، ويقدّمهما إلى المحاكمة بتهم عديدة منها: أنهما من أنصار عصابة الأربعة، وأنّهما لا يزالان يؤمنان بأهداف هذه العصابة، بالإضافة إلى تورطهما فى عدّة مجازر دمويّة ارتكبت فى ضواحى بكين.

ويخلو الجوّ لدنج شياو بنج، وتبدأ بوادر سياسة الإصلاح والانفتاح تظهر فى الساحة الصينية. فتبدأ الفرق الموسيقية الأوروبية بالتوافد إلى الصين للغناء والرقص فيها، فقد كانت الصين أرضاً بكرًا بالنسبة لهذه الفرق التوّاقة لنشر فنّها، ويمكن أن تدرّ عليها أموالا كثيرة، وذلك نظراً لتشوّف الصينيين العارم نحو ما يجرى فى العالم المعاصر، وتحديدا أمريكا وأوروبا. ففى عام ١٩٧٩م زارت فرقة الباليه الراقصة البريطانية مدينة بكين، بدعوة رسمية من الحكومة الصينيّة، وظلّت هذه الفرقة ترقص لعشرة أيام متواصلة على مسرح بكين الكبير.

لقد زرع دنج شياو بنج فى نفوس الصينيين رغبة عارمة فى التطلع إلى حضارة أمريكا والغرب الأوروبى، وقد رأى أنّ خلاص الصين من أيديولوجية ماو تسى تونج الضيقة والمتزمتة، لا يمكن أن يكون إلا بالانفتاح على الغرب وأمريكا، وبكل ما يأتى منهما، فأصبح الصينيون تواقين لزيارتهما، تدفعهم رغبة عارمة فى معرفة ما يدور فيهما. وتشير جملة المفاهيم والمقولات التى طرحها دنج، بشكل أو بآخر إلى السير باتجاه الرأسمالية واقتصاد السوق، هذه المقولات التى لا يزال الصينيون المعاصرون يرددونها حتى الآن. ومنها: «لا يهمّ من أين تتسلق قمّة جبال إيفريست. من الشمال أم من الجنوب طالما أنك ستصل القمّة فى النهاية». و: «ما أروع أن تكون ثريا وغنيا». و: «يجب التشدد فى الداخل والتساهل مع الخارج». وعُرف عنه أنه كان يردد مقولة صينية قديمة: «المجد لمن يصبح غنيًا». ومن أقواله المعروفة فى الصين: «لا يهمّنا إن كان القط أبيض أم أسود بل يهمّنا فى المحصلة الأخيرة أن يصطاد الفئران أنّى كانت».

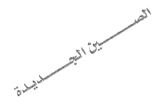
إنّ كثيراً من الصينيين المعاصرين يعتقدون أنّ هذا القول الأخير صائب تماماً. وهذا القول يشير بشكل واضح إلى أنّه لا يهمّ إذا كانت الصين اشتراكية أم رأسماليّة، طالما أنها تسير فى طريق الإصلاح والانفتاح والتقنيات الحديثة صناعيا وزراعيا،و طالما أنّها تسير فى طريق يهدف أولا وأخيرا إلى الثراء الكبير، وشدّ الاستثمارات الأجنبية وتكديس الأموال فى بنوك الصين، ودفع عجلة الاقتصاد الصينى باتجاه اقتصاد السوق.

وتاكيدا لانفتاح سياسة دنج شياو بنج صوب أمريكا والغرب الأوروبى، وإعجابه بهما فقد قام بأول زيارة له إلى أمريكا فى ٢٩ شباط / فبراير ١٩٧٩م، وقد أرسى من خلال هذه الزيارة أسس التعاون الأمريكى الصينى، إذ اقترنت هذه الزيارة «بالتطبيع الرسمى الكامل للعلاقات الأمريكية - الصينية. وكانت جولته هذه بمنزلة ملتقى جامع بين البلدين. وكان من دواعى سرور وسائل الإعلام الصينيّة والأمريكية على السواء، أن عاش دنج، بحماس تجربته الأمريكية،[إذ] ارتدى قبعة رعاة البقر فى تكساس. وشارك فى مباراة الروديو لرعاة البقر هناك. وتناول طعامهم على طريق الباربكيو، واعتاد أينما ذهب، أن يشجّع ويحثّ



لم يكن ماو تسى تونج فى حكمه راضيا عن دنج شياو بنج، فأقصاه عن منصبه كنائب رئيس للحكومة فى عام ١٩٦٦، بتهمة الرجعية والبيروقراطية. ثمّ أقصاه للمرة الثانية عن المنصب نفسه وقبل وفاته فى عام ١٩٧٦، لإسهامه فى صراعات سياسية





وسائل الإعلام الصينية المرافقة له، أن ترسل إلى الوطن صورا توضّح مدى التقدّم التكنولوجي الأمريكي، وضخامة المباني، وارتفاع مستوى معيشة العمال الأمريكيين».

وقد حققت هذه الزيارة فيما بعد لأمريكا مكاسب كبيرة، إذ فتحت أبواب الصين أمام المستثمرين والشركات الأمريكية الكثيرة، وفتحت شهية رجال الأعمال الأمريكيين إلى الأسواق الصينية ذات القدرات الاستهلاكيّة العاليّة. وفي عام ١٩٨٠م أصدر دنج شياو بنج «قانون الاستثمارات المشتركة وأنشأ اللجنة الجديدة للاستثمارات الأجنبية. ومع أنّ العلاقات التجارية مع العالم الخارجي كانت قائمة منذ زيارة ريتشارد نيكسون في العام ١٩٧٢م، فإنّ هذين التغيرين في السياسة كانا بداية ازدهار الصين المعاصر. كان معناهما أنه بوسع الشركات الأجنبية أن تنشئ شركات لا بمشاركة الصين، وأنه يمكن بسهولة نقل الرساميل والتكنولوجيا، وأمكن بالتالي، وهو الأهم عقد القروض الأجنبية الحكومية والخاصة. والخطير كذلك أنّ الشئون التجارية خرجت من سيطرة السلطة المركزيّة، ورجال الأعمال الأجانب أصبحوا قادرين على التفاوض مباشرة مع المصانع، متجاوزين بذلك البيروقراطية والرشوة بعد أن كانت تمرّ هذه المفاوضات عبر الوزارات في بكين سابقاً.

وكان من نتائج هذه الزيارة أن وافقت الحكومة الصينية لبنك «أوف أميركا» بفتح فرع له في مدينة بكين العاصمة، ويعدّ هذا الفرع أول مصرف أمريكي يُنشأ في الصين منذ طرد المصالح الأجنبية من الصين في عام ١٩٤٩م.

وفتحت الزيارة شهية الصينيين للثراء والامتلاك، وبخاصة امتلاك الأدوات الكهربائية الحديثة، وظهرت نزعة كبيرة لدى جيل الشباب المعاصر إلى تقليد الأمريكيين في المأكل والمشرب والملبس، ورافق ذلك موجة من الاحتجاجات ضدّ الحكومة الصينية، مطالبة برفع مستوى المعيشة، وخفض أسعار المواد الغذائية، وانتشرت ظاهرة السوق السوداء في بكين وبقية المدن الصينية، وعبّر كثير من الناس عن رغبتهم العارمة في التخلص من مظاهر ضغط الأيديولوجية الحزبية، ومن أفكار ماو تسي تونج التي اعتبروها متشددة ومتطرّفة، وتحرّرت النساء من كثير من القيود، التي فُرضت عليهنّ أيام ماو، كاللباس المحتشم والابتعاد عن استخدام الماكياج والإفراط في الزينة، وعدم مخالطة الرجال الأجانب. وأقبلت بعض النسوة على خطوة جريئة وجديدة ما كان لها أن تكون في عهد ماو، فقد شوهدت الفتيات الصينيات الجميلات «في المرابع الليلية في شانغهاي وهنّ يراقصنّ الأجانب وقد أزعج ذلك المسئولين، وقامت الشرطة باقتحام بعض هذه الأماكن وطرد الفتيات، وكذلك تعرّض العديد من المراهقين للتأديب من قبل رجال الأمن بسبب إقدامهم على الرقص ليلاً في الشوارع».

وبرزت على الساحة الفنيّة المطربة الشابة الجميلة دانج لي جون التي اجترأت وغنّت أغاني مغايرة لأيديولوجية الغناء الصيني المصبوغ بشعارات الثورة والعمال والفلاحين والنضال، خارقة بذلك نسق الغناء السائد أيام ماو تسي تونج، مع العلم أنّ نظام ماو كان يحارب محاربة شديدة تلك الأغاني التي لا تمجّد الثورة والثوار والعمال والفلاحين، وتمجّده في أحيان أخرى، وكان دائما يحارب الموسيقى الغربية لأنها تسهم في إفساد الشباب طليعة الثورة، وقد حدّ من انتشار هذه الأغاني، حتى كان يقال إنّ من كان (يصغي إلى الموسيقى الغربيّة يبعث إلى مزرعة الخنازير في منغوليا)، عقوبة وتاديباً له.

وفيما بعد دخلت الموسيقى الغربيّة، وموجات الرقص بجميع أنواعه وأشكاله إلى الصين. وفي هذه الأيام يوجد في مدن الصين الكبيرة والصغيرة مراقص وملاه وقاعات فخمة للهو والسكر والعربدة، لا تضاهيها مراقص لندن وواشنطن وباريس، وغيرها من العواصم العالميّة. وتراقص النساء الصينيات من تشاء وعلى مرأى رجال البوليس ومسامعهم، وتسكر، وتتعاطى الحشيش والمخدرات، وتمارس الجنس تجارة، وتتاجر بكل شيء طمعاً في الثراء السريع. ولا تتركّز دور اللهو والمراقص في أحياء المدن الكبرى فحسب، بل إنها تزحف إلى الجامعات والمعاهد العلميّة، ففي الجامعات توجد مراقص للطلبة تغصّ بالراقصين والراقصات من الطلبة وغير الطلبة، وبخاصّة في مساء يومي الجمعة والسبت، لأنّ العطلة الرسميّة في دوائر الدولة الصينية تكون في يومي السبت والأحد.

إنّ من يتجوّل في هذه الأيام في شوارع بكين، فإنه لن يشاهد أولئك النسوة اللاتي كنّ يرتدين الملابس الخشنة والقاتمة الداكنة كملابس الرجال أيام ماو، واللواتي تُنبئ ملامحهنّ بالعزم والجديّة والصلابة، بل سيشاهد نساء في منتهى الأناقة والزينة والتبرج، والملابس القصيرة جداً، والشورتات الساخنة الفاضحة، وقد تخضبنّ بالطيب وأحدث عطور العالم، وهنّ يتعمدن المشي بدلال وغنج، حتى تظهر مفاتنهنّ الأنثويّة المثيرة.

أعود إلى دنج شياو بينج لأقول: إنّ العلاقات الأمريكية الصينية شهدت في عهده تطورا ملحوظا على المستوى التجاري والاقتصادي والسياسي، فالصينيون متعطشون لإقامة علاقات مع أمريكا، ومندفعون اندفاعاً لا مثيل له، في تطبيع جميع أشكال العلاقات معها، فأمريكا في نظرهم السوبرمان، والقوة العظمى التي لا تقهر؛ وهم يطمحون إلى الاستفادة من علومها وتقاناتها الصناعيّة والعسكرية. وقد وعت أمريكا حاجة الصين الماسة إلى مثل هذه العلاقات، فاستثمرت هذه الحاجة، وفرضت شروطها على الصين، طالبة منها أن تسمح لها بإنشاء القواعد العسكرية على أراضيها، فقد «أقام الأمريكيون في كسينجيانج [شينجيانج] قاعدتين للاستخبارات تحلان محل القواعد التي كانت موجودة في إيران قبل نظام حكم الخميني. ومن الناحية النظرية تدار هاتان القاعدتان بالاشتراك مع الجيش الصيني، إلاّ أنهما تخضعان في واقع الأمر إلى وكالة المخابرات المركزيّة الأمريكيّة التي تراقب قواعد الصواريخ السوفيتية في وسط آسيا».

وأسهمت أمريكا إسهاما واضحا في تعزيز الترسانة الحربية الصينية وتطويرها، فقد وقّعت بكين مع واشنطن عام ١٩٨٤م، وقبيل زيارة الرئيس ريجن إلى بكين اتفاقا نووياً «يكفل تيسيرات هائلة لتنمية الصناعة الصينية وربّما يساعد أيضا على تصنيع رؤوس نووية، فالصين لديها مجموعة متواضعة من الصواريخ دونج فانج (رياح الشرق) تضمّ صواريخ عابرة للقارات وقادرة على ضرب أي مدينة سوفيتية، فضلاً عن مقذوفات متوسطة المدى. كما يوجد في الصين خمسة وأربعون منجما لليورانيوم، وخمسة مصانع لمعالجة اليورانيوم والبلوتونيوم. وثمة أمر له أهميّة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية هو قدرة الصين على صناعة المنتجات الإشعاعية والتي تقدر بـ (١,٢) طن سنويا وهو ما يكفي لتموين قرابة خمسة وسبعين رأسا نووية سنوياً، ويزيد عن احتياجاتها».

ولم يكن التعاون الصيني الأمريكي في مجال التسليح تعاونا نظيفاً يخدم السلام العالمي، بل كان تعاوناً وظيفياً يهدف بالدرجة الأولى إلى زيادة هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على الدول الأخرى. ويسهم أيضا في كبح جموح الأعداء التقليديين للصين وأمريكا معاً، وهم الروس واليابانيون، فالصين مستعدة لأن تقدّم لأمريكا كلّ شيء نكاية بالعدو التقليدي الأيديولوجي للصين، وهو الاتحاد السوفيتي(سابقا). وكانت أمريكا مستعدة أن تقدّم المزيد للصينيين، وتدغدغ أحلامهم في الثراء والوصول إلى مصافّ الدول المتقدمة تكنولوجيا، حتى لا يحدث أي تقارب بين الصين والاتحاد السوفيتي من جهة، وبين الصين واليابان من جهة أخرى، فقد كانت مهمة الوجود الأمريكي في الصين - وبالدرجة الأولى - تهدف إلى «حماية المصالح الاقتصادية الأمريكية، وفي هذا الشأن، يسهم التحالف مع الصين إسهاما ضمنيًا في وقف التوسع الياباني في جنوب شرقي آسيا وفي منطقة المحيط الهادئ.

ومع تكريس سياسة الإصلاح والانفتاح وتجذّرها في بنية الدولة الصينية، صارت أمريكا قبلة الصينيين، وأصبح الحلم الأكبر بالنسبة للصيني زيارة أمريكا، أو الهجرة إليها، أو الدراسة في جامعاتهالأنها تمثّل في نظره صورة عن الجنة الأرضيّة، ففيها التقدم العلمي والمعرفي، وفيها الحريات الفرديةّ، وفيها الثراء والمال، وفيها التحرر من قيود العائلة وضغط المجتمع، والتزمت السياسي والأيديولوجيا السياسية الضيقة. إنها بصراحة - كما يؤكد الصينيون - منبر للحريات الفكريّة والسياسية، ويستطيع الفرد فيها أن يفعل ما يشاء، وإن كان نشيطا يستطيع أن يجني الأموال الكثيرة، وأكدوا أن ما تنتجه أمريكا من ثقافة، وأدب وفن وسينما هو النموذج الأمثل والأكثر رقيا إلاّ أنّ كثيرا من المثقفين يؤكدون أنّ الغزو الثقافي الأمريكي النشيط للصين سيشكّل خطراً كبيراً على أخلاق الصينيين، وأنّ أفلام الجنس الأمريكيّة الموجودة على أقراص (DVD -CD)، ستسهم - في المستقبل - في إفساد جيل الشباب، وابتعاده عن الأخلاق البوذيّة أو الكونفوشيوسية الفاضلة، وستسهم في تفتيت الأسرة الصينيّة التي شُكلت تاسيساً على الوفاء الزوجي، وعدم الخيانة الزوجيّة، واعتبارها عملاً محرّماً ومنافياً للأخلاق الفاضلة التي دعا إليها بوذا وكونفوشيوس.



وتشير الإحصائيات إلى عدد الطلاب الصينيين الذين درسوا في أمريكا وتخرّجوا في جامعتها، ففي السنوات السابقة على عام ١٩٥٤م، حصل الطلاب الصينيون على (١٣٧٩٧) شهادة جامعية أمريكيّة، وعلى (٢٠٩٧) شهادة عليا بدرجة دكتوراه، «وبحلول عام ١٩٦٤ كان ثلاثة أرباع أعضاء مجلس إدارة وأعضاء اللجنة الدائمة للأكاديمية الصينية للعلوم قد تلقوا تدريبا غربيا». وفي عام ١٩٨٥م، جاء إلى أمريكا(٨٠٠٠) طالب فقط، مما أزعج هذا العدد القليل، الطلاب الصينيين الذين لم تتح لهم الفرصة للقدوم إلى أمريكا، إذ «وجّه



تشير جملة المفاهيم والمقولات التي طرحها دنج، بشكل أو بآخر إلى السير باتجاه الرأسمالية واقتصاد السوق، هذه المقولات التي لا يزال الصينيون المعاصرون يرددونها حتى الآن. ومنها: « لا يهمّ من أين تتسلق قمّة جبال إيفريست، من الشمال أم من الجنوب ما دمت ستصل القمّة في النهاية »

أكثر من ألف طالب منهم كتاباً مفتوحاً للحكومة الصينيّة يعربون فيه عن قلقهم تجاه التخفيض، ويعارضون الإجراءات الجديدة التي تحدد عدد السنوات التي يقضيها الطلاب الموفدون رسميا في الولايات المتحدة بسنتين لشهادة الماجستير وخمس سنوات للدكتوراه». وفي عام ١٩٨٨م، أوفدت لجنة التعليم الصينية (٦٠٠) طالب إلى أمريكا، بينما قامت الجامعات والأكاديميات الصينية بإرسال أربعة آلاف إلى جامعات أمريكا وقد حضر طلاب جاءوا بقصد الدراسة على نفقتهم الخاصة، وعددهم من (٢٠٠٠) إلى (٣٠٠٠) طالب وطالبة. ومعظم هؤلاء الطلاب يميلون إلى الاهتمام بالإنسانيات والعلوم الاجتماعية والقانون والتاريخ وعلم الأجناس والأدب الإنجليزي والدراسات الأمريكيّة، وهندسة الراديو والفيزياء النووية، وتاريخ العلوم، وتتراوح أعمارهم بين الثلاثينيات والأربعينيات حتى الحادية والستين. وقد بلغ عدد الطلاب الصينيين الذين تخرّجوا في جامعات أمريكا حتى عام ١٩٨٩م، مائة وعشرين ألف خريج تقريباً، بينما كان عشرون ألف طالب مسجلين في هذه الجامعات.

وتصرّ النخبة السياسية الحاكمة في الصين على إرسال أولادها لأجل الدراسة في أمريكا، إذ يكونون هؤلاء في مقدمة الموفدين، لأنّ هؤلاء السياسيين يعون تماماً أنه لا مستقبل علميًا ولا سياسيًا لأولادهم المدللين إن بقوا في الصين. ويقول دوجلاس موراي، رئيس معهد الصين في أمريكا: «يبدو أنّ لكلّ زعيم صيني ابناً أو ابنة في الولايات المتحدة».

وبطبيعة الحال لن يرضى أبناء النخبة السياسية الحاكمة في الصين، والمتواجدون في أمريكا أن يعيشوا في مستوى المعيشة التي يعيشها أبناء الشعب العاديّون، وذلك نظراً لثراء آبائهم الفاحش، ومراكزهم الطبقيّة سياسياً واجتماعياً في مجتمع صيني، يقوم أساساً في تركيبته على التباين الطبقي الحادّ في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، إذ يعيش فيه نخبة سياسية واقتصاديّة وتجاريّة، تمتلك كلّ شيء، وتغرق في الثراء الفاحش، بينما يوجد فيه تسعمائة مليون«من الفلاحين الذين يحتالون على العيش وسط أوضاع أشبه بتلك التي كانت سائدة في العصور الوسطى. فهل يمكن للأغنياء أن يضمنوا حياتهم ومصائرهم وسط هؤلاء الفقراء؟».

ولم تشهد الصين في ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح تطوّراً مذهلاً في علاقاتها مع أمريكا فحسب، بل أقامت علاقات سياسية واقتصاديّة وتجارية وعسكريّة متميّزة مع إسرائيل، وقد حاولت الصين أن تبقى هذه العلاقات سريّة، وأن تنفي ذلك دائماً في المحافل العربيّة والدوليّة، خوفاً من إثارة حفيظة أصدقائها العرب، لكنّ الخبراء والمحللين السياسيين يعرفون تماماً أبعاد العلاقات الصينيّة الإسرائيليّة وخفاياها، و«يبدو أن ثمّة تجارة مستترة وشبه سريّة قد نشأت بين إسرائيل والصين في قطاع الأسلحة، وهو ما تنفيه بكين بقوة. وقدّم الإسرائيليون إلى الصينيين معلومات تتصل بالدبابات والمدفعيّة. وقد ترددت في عام ١٩٨٤م أقوال عن مبيعات من الأسلحة الإسرائيليّة تقدّر قيمتها بما يتراوح بين مليار وثلاثة مليارات من الدولارات، وذكرت صحف القدس أنّ قرابة مائتي مستشار إسرائيلي أسهموا في تيسير عملية إدماج المعدّات المصنوعة في بلادهم ضمن عتاد القوات المسلّحة الصينيّة، وقد برّرت إسرائيل سياستها في هذا الشأن بالإلماح إلى الأمن الشامل للولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربي».

إنّ من يتجوّل في أسواق بكين التجارية الرئيسة، سيشاهد البضائع الإسرائيليّة في هذه الأسواق، وقد شاهدت بأمّ عيني شابات صينيات يرتدين سراويل وقمصان جينز إسرائيليّة، مكتوب عليها باللغة الإنجليزية: (YATA ISRAEL)، و: (MADE IN ISRAEL) وعندما سألت إحدى الشابات: لماذا ترتدين ثياب جينز إسرائيلية، والصين من أكثر دول العالم إنتاجا لهذه الألبسة؟ أكّدت الشابة أنّ الجينز الإسرائيلي متميّز في جودته، وهو أفضل من الصيني بكثير، وأكثر أناقة منه، ويضفي على المرأة جمالا خاصا مقارنة بالصيني. مع ملاحظة أنّ الوجود الإسرائيلي في الصين، كان معدوماً في عهد ماو تسي تونغ، حيث كانت الصين تخلو تماماً من الإسرائيليين واليهود من الجنسيات الأخرى، ومن أيّ مظهر من مظاهر الدعاية الإسرائيليّة، لأنّ الرئيس ماو تسي تونغ كان يرفض رفضاً قاطعاً الوجود الإسرائيلي في الصين. وقد قال لي صديق صيني - من أنصار سياسة الإصلاح والانفتاح - بشكل هادئ ومؤدّب - مسوّغا قيام العلاقات الإسرائيلية الصينية: إننا في الصين بحاجة ماسة إلى الخبرات الإسرائيلية المتطوّرة في مجال التسليح والتكنولوجيا، ولذا فإننا نقيم علاقات وطيدة مع إسرائيل حتى نستفيد من هذه الخبرات، وذلك انطلاقا من مصالحنا وأهدافنا في تطوير بلدنا وعصرنته.

إذا كانت الصين قد حققت قفزات واسعة، وتحت ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، في مجال الصناعات الخفيفة والثقيلة والتجارة الخارجيّة، والاستثمار، والتعليم والتكنولوجيا بشكل عام، فإنها أصبحت غارقة في مشاكل عديدة تؤرّق الصينيين، وتحدّ من طموحهم لأن يصبحوا في عداد الدول الحضاريّة المتقدّمة إنسانياً وعلمياً ومعرفياً، وهذه المشاكل كثيرة جداً، ولعلّ من أهمّها: مشكلة التلوّث، فالصينيون، بشكل عام، يستخدمون الفحم الحجري للتدفئة، في شتاءاتهم القاسية جداً، وهذا يعني أنّ الدخان الملوّث بثاني أكسيد الكربون الناتج عن اشتعال الفحم الحجري، سوف ينافس الغيوم في سماء العاصمة الصينية بكين، ومعروف عن الصين أنها تستخدم الفحم في إنتاج الطاقة بمعدل ٧٢ بالمائة. ويعدّ الفحم الحجري مصدراً أساسياً لتلوّث الهواء في العالم، ففي العالم يوجد عشرون مدينة كبيرة ملوّثة بفعل الفحم الحجري، ومنها (١٦) ست عشرة مدينة موجودة في الصين. وقد أسهم هذا التلوّث في زيادة عدد المصابين بالأمراض الصدريّة، إذ بلغ هذا العدد في الصين ضعف عدد المصابين في جميع دول العالم الثالث.

ويشير أحد تقارير البنك الدولي إلى أنّ التلوّث يكبّد الصين خسارة سنويّة تُقدّر بـ (٥٤) مليار دولار، فالصين هي البلد الأكثر تلويثاً للبيئة في العالم، إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية الأكثر استخداماً للطاقة. وقد اعتاد السياسيون في بكين أن يديروا الأذن الصمّاء لنداءات علماء البيئة وتوصياتهم، إلا أنهم في الآونة الأخيرة بدأوا يبحثون عن مصادر بديلة للطاقة، على الرغم من أنّ هذا البحث مكلف اقتصادياً. فالإنتاج الصيني من الفحم الحجري هو ربع الإنتاج العالمي، والصين تحتوي على (٢٥) ألف منجم للفحم يعمل فيها (٤٠٠) ألف عامل بشروط وقائيّة متخلّفة. هذا وقد عمدت الحكومة الصينيّة، وأملاً في الإسهام في نظافة البيئة، إلى إقفال (١٣) ألف منجم غير شرعي. الأمر الذي دفع بضعة آلاف من العمال إلى رصيف البطالة، وهذا يعني أنّ اهتمام المسئولين الصينيين بنظافة البيئة سيسبب لهم متاعب أخرى على الصعيد الإنساني والاجتماعي والاقتصادي. فقد قررت حكومة بكين أن تستدين (٣٤٩) مليون دولار من البنك الدولي، لأجل الانتقال من استخدام الفحم الحجري إلى استخدام الغاز الطبيعي في التدفئة الجماعيّة وإنتاج الكهرباء.

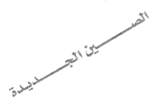
ومن مشكلات الصين الكبرى مشكلة (تايوان)، فهي الجرح الأكبر في حياة الصينيين بعامة، شعباً وحكومة، وقد اعتقد الصينيون أن انفتاحهم على أمريكا، وتطبيع العلاقات بأشكالها كافة مع الأمريكيين من شأنه أن يوقف الدعم الأمريكي لتايوان، وأن يوقف تأييد أمريكا لحكام تايوان، وتمرّدهم على وطنهم الأم (الصين)، غير أنّ حسابات الصينيين لم تكن صحيحة، فمهما كانت علاقاتهم متينة مع أمريكا، فإنّها لن تقف معهم ضدّ تايوان. ولقد أحسّ الصينيون فيما بعد بخيبة الأمل من نظرائهم الأمريكيين بشأن قضية تايوان. فها هو أحد الشبان، من أعضاء الحركة الديموقراطية التي قادت مظاهرات (تيان آن مين) ضدّ الحكومة الصينيّة، يعبّر عن رأي جيله من الشبان، في موقف أمريكا من قضية تايوان قائلاً: «منذ سنوات عديدة كنّا نظن - عن سذاجة منا - أنّ الولايات المتحدة كانت تريد مساعدة الصين بدلاً من تخريبها، ولكننا اليوم مقتنعون جميعاً بأنّ حكومة الولايات المتحدة تريد تدمير الصين».

إنّ واشنطن تسعى دائماً في أن تظلّ تايوان منفصلة عن الصين، وتعمل جاهدة على أن تعزّز في نفوس التايوانيين الرغبة في الانفصال، حتى تظلّ تايوان ورقة رابحة وضاغطة بيد أمريكا، وتستثمرها متى تشاء ضدّ بكين. وعندما زار الرئيس الحالي (جيانغ تسه مين) الولايات المتحدة خريف ١٩٩٧م، بحث مع الأمريكيين مشكلة تايوان، وأوضح لهم «أنّ تايوان تظلّ القضية الأهم والأكثر حساسية في العلاقات الصينية - الأمريكية. وحثّ الولايات المتحدة أن تتعامل بحذر مع مسألة تايوان. إلا أن أمريكا لا يمكن أن تتعامل بحذر مع مسألة تايوان، لأنها تشجّع علناً قادة تايوان لكي يظلّوا متمردين على نظام بكين، وتمدّهم بالأسلحة الحديثة، وتعزّز أسطولها البحري المنتشر على سواحل تايوان، وهي مستعدة لأن تخوض حربا ضروسا ضدّ الصين، إذا ما فكّرت في أن تسترجع تايوان عنوة، فـ«الولايات المتحدة سوف تردّ عسكرياً، إذا ما استخدمت الصين القوة لضمّ تايوان».

وعلى الرغم من محاولات الحكومة المركزيّة في بكين التقارب مع النظام اللدود في تايوان، فإنّ محاولاتها لم تفلح، لأنّ الرئيس التايواني (تشين شو وي بيان) معروف بعداوته الشديدة لنظام بكين، وبسعيه لإعلان طلاق نهائي بين بلاده والبرّ الصيني، فالصين تسعى جادة في إقامة علاقات تجاريّة واقتصاديّة واسعة النطاق مع تايوان، لكنّ تايوان ترفض ذلك، وتفضل عليه تقارباً بطيئاً.

ومن مشاكل الصين المعاصرة، والتي تعمل حكومة بكين جادة





على القضاء عليها، مشكلة الجريمة، فقد كثرت الجرائم المتعددة فى ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح بشكل واضح، مقارنة بما كانت عليه فى عهد ما وتسى تونج، فهناك جرائم خطف النساء والأطفال وبيعهم، وجرائم الاغتصاب والسلب والقتل وتهريب المخدرات، وجرائم العنف، والجرائم المتعلّقة بالأسلحة، وجرائم العصابات، وجرائم نشر المطبوعات غير المشروعة، ولعلّ أفظع هذه الجرائم تلك الجرائم الجنائية الخطيرة التى ارتكبها تشانج تشى تشيانج، و(٣٥) مجرما فى هونج كونج والمناطق الداخلية الصينية حيث ألحقوا أضراراً جسيمة بأمن المجتمع وسلامة المواطنين الصينيين وممتلكاتهم . ولقد لعبت عصابات(ترياد) المنظمة تنظيما دقيقا فى هونج كونج، والقوية بأسلحتها وعددها وميزانيتها الماليّة دوراً كبيراً فى نشر الجريمة فى هونج كونج، والمدن الأخرى. وتأتى مشكلة الجريمة فى ماكاو التى عادت إلى الصين فى ٢٠ ديسمبر عام ١٩٩٩م، والتى كانت تحتلها البرتغال، لتقضّ مضجع الصينيين فى هذه المدينة، فماكاو «التى تعتبر (جنّة) الملاهى بمختلف أنواعها هى أيضاً أكبر مساحة مفتوحة لكلّ أنواع التهريب وتبييض الأموال، ولذلك فإنّ «حروب العصابات» فيها لا تنتهى والضحايا يتساقطون سنويا».

ومن المشاكل التى تعانى منها الصين المعاصرة فى ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، والتى أسهمت فى تشويه سمعتها خارجياً أمام الرأى العام العالمى، وداخلياً أمام قومياتها المتعددة التى تبلغ(٥٦) ستاً وخمسين قوميّة وضع العالم لها فى اللوائح السوداء المعادية لحقوق الإنسان.

ولعلّ أهم الأحداث فى مسيرة الصين المعاصرة، بعد انتهاجها سياسة الإصلاح والانفتاح، التى أسهمت فى تشويه سمعتها عالمياً، ووضعها على اللوائح السوداء المعادية لحقوق الإنسان هى مذبحة (تيان آن مين)، فى عام ١٩٨٩م.



ومن المشكلات الجديدة التى ظهرت فى الصين، فى ظلّ سياسة الإصلاح والانفتاح، مشكلة الدعارة السريّة والعلنيّة التى غصّت بها المدن الصينيّة، وبخاصّة الكبرى منها. وعلى الرغم من محاولات الدولة الجادة للتخلص من هذه المشكلة، بأساليب القمع المتعدّدة، إلاّ أنّها لا تزال قائمة ونشيطة فى البيوت السريّة والملاهى والمراقص وقاعات الحلاقة، وصالونات الشاى، والميادين العامة الكبيرة، والأحياء الشعبيّة التى تغصّ بالفقراء والمهمشين. وقد كان لهذه المشكلة أثر سلبى على صحّة المجتمع الصينى المعاصر، إذ سببت مزيداً من الأمراض الجنسيّة،وبخاصّة مرض الإيدز.وعندما سألت صديقا صينياً عن عدد المصابين بهذا المرض فى الصين قال: إنّه لا يعرف عددهم بالضبط، إلاّ أنه سمع أن الأطباء يقولون إنّ عددهم حوالى(٧٠٠,٠٠٠)، سبعمائة ألف مصاب ومصابة، ويتركّز معظمهم فى المدن الجنوبيّة الصينيّة.

وهناك ظاهرة حسّاسة وخطيرة بدأت تظهر فى الصين أخيراً، بفعل سياسة الإصلاح والانفتاح، وهى ظاهرة الشخص الثالث، أى عشيق الزوجة، أو عشيقة الزوج، فمعظم الزيجات فى الصين تأتى بعد محبّة عميقة موشّاة بكثير من الرومانسيّات وأحلام الحبّ الكبيرة، والإخلاص والوفاء الزوجى، والوعود المقدّسة بالوفاء وعدم الخيانة الزوجية، إلاّ أنّ حمّى اللهاث وراء المال والامتلاك والتجديد والبذخ والثراء واقتناص فرص الملذّات، تسهم فى تخريب هذه الزيجات، لأنّ الزوج أو الزوجة، وبعد مضى سنوات ليست طويلة من الزواج يصيبهما الفتور والملل والرتابة وخمود الاندفاع العاطفى تجاه الشريك، بالإضافة إلى ضغط الحياة الزوجيّة الاقتصادى والإنسانى، فيلجأ كلّ منهما إلى اتخاذ عشيق سرىّ، وأحياناً يكون علنياً، وبمعرفة كلّ منهما.

وهناك مشكلة داخليّة أخرى يتجاهلها السياسيون الصينيون، أو يحاولون تغييبها بفعل قوة السلاح، وهى:

إحساس الأقليات من القوميات الأخرى بالظلم والمهانة، وأنّها لا تُعامل على قدم المساواة مع قومية (هان) الكبرى التى تشكّل الأغلبيّة العظمى من سكان الصين، والتى تحصل على أكبر الامتيازات السياسية والاقتصاديّة والماليّة والوظيفيّة، والتى تُعامل بدلال وتقدير من قبل المسئولين الصينيين مقارنة بالقوميات الأخرى. وقد عبّر لى بوضوح غير واحد من أبناء هذه الأقليّات أنّ لا مستقبل وظيفيًا لهم فى بكين، وأنّهم من الصعب أن يحصلوا على وظائف فى بقية المدن الأخرى، لأنّ حظوظهم نادرة مقارنة بحظوظ أبناء الصين من قومية هان، وأنّ إحساسهم بالغربة حادّ ومؤرّق فى بكين، لأنّ البكينيين لا يقبلونهم أصدقاء، ويعاملونهم بحذر شديد، وريبة كبيرة، وأكّدوا لى أنّهم مقيمون فى بكين منذ خمس سنوات، ولم يدعهم شخص واحد من سكانها إلى منزله.

وجاء جيانج تسه مين إلى السلطة بعد وفاة دنج شياو بنج فى عام ١٩٩٥م، لينهج طريقته، وليقلّده فى سياسته الإصلاحيّة والانفتاحيّة، وفى تعامله مع الرموز السياسية، فقد أطاح دنج شياو بنج برموز التيار الماوى الأقوياء فى الحزب الشيوعى الصينى، وأهمّهم عصابة الأربعة، وهوا كو فينج رئيس الوزراء، ليخلو له الجوّ، وليكون صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، أمّا جيانج تسه مين فقد أتقن الدرس جيدا من سلفه دنج، ونحا الأسلوب نفسه، إذ قوّى نفوذه فى مؤسسات الدولة، وضمن الجيش إلى جانبه، بالإضافة إلى كوادر الحزب الشيوعى الحاكم ودوائره ولجانه، وبخاصّة اللجنة المركزيّة، وقام بعملية التفاف على أصحاب النفوذ القدامى المقربين من دنج شياو بنج، وأبرزهم (زهو جوان وو)، الذى يعدّ من أهم أقطاب السياسة والاقتصاد الكبار فى الصين، وعزله من منصبه كرئيس لأكبر شركة صينية لتصنيع الفولاذ الداخل فى الإنتاج الحربى، واعتقل ابنه صاحب الاستثمارات الكبيرة فى هونج كونج، وفى الصين كلها، بتهمة «جرائم اقتصاديّة»، وقد كان هذا الاعتقال بمثابة رسالة تحذير إلى جميع المقرّبين من الزعيم الراحل دنج شياو بنج، وبخاصّة إلى أبنائه وبناته الذين يتقلّدون مناصب مهمّة فى شركة الفولاذ المسمّاة (شوغانج)، والذين يبدون اهتماماً بعالم المال والتجارة أكثر من اهتمامهم بعالم السياسة، وعمد إلى ترقية (١٩) تسعة عشر من العسكريين المقرّبين منه، والموالين له إلى رتبة جنرال، وهو أكبر عدد من الترقيّات يقوم به رئيس صينى دفعة واحدة، بحكم منصبه كرئيس للبلاد، وقائداً أعلى للقوّات المسلّحة، وطلب من هؤلاء الضباط تنفيذ تعليمات الحزب الشيوعى الصينى واللجنة المركزيّة العسكريّة، وهما المؤسستان اللتان يتربّع على قمتيهما، أى تحديداً رفع لواء الطاعة والتقيد التام بأوامره ونواهيه، وروّج لنفسه إصراره على متابعة القيام بحملة كبيرة على الفساد المالى والإدارى، والتى كانت قد أطاحت بالعديد من حكام الأقاليم ورجال المصارف الكبار فى المقاطعات، وذلك أملاً فى امتصاص نقمة الرأى العام المتصاعدة بشأن الفساد المستشرى فى دوائر الدولة والحزب، وحتّى لا يكون أمام نوّاب الشعب حجة إثارة البلبلة والانتقادات بشأن تراخيه.

جاء جيانج تسه مين إلى السلطة مصمماً على دفع عجلة الصين سريعاً نحو الإصلاح والانفتاح على الغرب، والنمو الرأسمالى والخصخصة، والتخلى عن معظم مبادئ النظام الاشتراكى ومفاهيمه وقيمه. ويقول الصينيون المعاصرون: إنّ البيروقراطية والفساد والاستبداد الإدارى، والرشوة والمحسوبيات والعلاقات الشخصيّة، هى ظواهر لا تزال قائمة فى بنية النظام السياسى وهيكليته السياسية والاقتصاديّة، الذى يتزعمه جيانج تسه مين.

كان الزعيم ماو تسى تونج بشهادة أعدائه وأصدقائه مقاتلاً شجاعاً، وشاعراً موهوباً، ومفكّراً استراتيجياً، وقارئاً متميّزا، وبخاصّة فى التاريخ القديم والحديث، وقائداً عسكرياً قلّ نظيره، وعنيداً وصبوراً، وأيديولوجياً يعى منهج السياسة الذى يصلح لبلاده، ومحبّاً لفقراء شعبه وفلاحيه وبسطائه، وقد ضرب أعظم الدروس فى الوطنيّة والإخلاص لشعبه. وإذا كان مستبداً ودكتاتورياً فى بعض مواقفه وآرائه، فإنّ ذلك لا ينفى عنه فضائله الإنسانيّة الكثيرة. إنّ كثيراً من حكام العالم المعاصرين لأشدّ منه استبداداً ودكتاتورية، وأذى للشعوب المسالمة والناميّة، وسطواً على خيراتها الاقتصادية، ومواردها الكثيرة. أمّا هو - أى ماو تسى تونج - فقد كان نصيراً كبيراً لحركات التحرر فى كثير من دول العالم.



على أنّه يجب أن نقول - من باب الإنصاف - إنّ الصين فى عهد (جيانج تسه مين) تطوّرت تطوّراً كبيرا فى مجال الصناعة والعمران والاقتصاد، فالنهضة العمرانيّة فى الصين تضاهى النهضة فى كثير من عواصم العالم الأوروبى، حيث توجد فى الصين البنايات الشاهقة، والشوارع الواسعة، والميادين والساحات، والحدائق العامة المخطّطة تخطيطياً جميلاً ومدهشاً. وعلى الرغم من الأزمات الاقتصادية التى تهزّ كثيراً من عواصم العالم، فإنّ الاقتصاد الصينى يحقّق نمواً ونجاحاً كبيراً، وقد تزامن نموّه مع تجارة خارجيّة نشيطة أسهمت فى إنعاش اقتصاد (٢٠٠) مليون صينى من سكان السواحل الصينيّة، وقد قفزت منتجات الصين من الحبوب والقطن واللحوم وزيوت الطعام والفحم والفولاذ والإسمنت والأقمشة وأجهزة التلفزيون، فى عهد (جيانج تسه مين)، إلى المركز الأول فى العالم.

وفى ظلّ الاقتصاد الصينى المزدهر تضاعف معدّل نصيب الفرد من مجمل الناتج الوطنى فى عام ٢٠٠٠م أربع مرّات عمّا كان عليه فى عام ١٩٨٠م، وتحسّنت أحوال الفقراء، وتمّ الإسراع فى بناء نظام المؤسسات الحديثة.

كما أولت الحكومة الصينيّة اهتماماً كبيراً بالتعليم، بمختلف مراحله، وبخاصة مرحلة التعليم الجامعى، فقد وصل عدد الجامعات فى الصين حتى ١٩٩٨م إلى (١٠٢٢) جامعة، يدرس فيها (٣,٤١) مليون طالب وطالبة، أمّا الجامعات الخاصّة بالكبار فقد بلغت(٩٦٢) جامعة، ويدرس فيها (٢,٨٢) مليون طالب وطالبة.

وتولى هذه الجامعات أهميّة كبرى للدراسات العليا فيها، ففى عام ١٩٩٨م، حصل (٣٨٠٥١) طالباً وطالبة على درجة الماجستير فيها، وحصل (٨٩٥٧) طالباً وطالبة على درجة الدكتوراه، وقد أسهم هؤلاء الخريجون إسهاماً كبيراً فى تقدّم الصين وتطوّرها، فقد ذهبت أعداد كبيرة من الأكفاء الخريجين إلى مواقع العمل، وقد شهدت المؤسسات التى تديرها الجامعة. بالاعتماد على التكنولوجيا العاليّة، تقدّماً كبيراً، إذ قامت بتصدير منتجاتها المتطوّرة تكنولوجياً إلى الأسواق العالميّة. إلاّ أنّ التعليم العالى فى الصين لا يزال فى حاجة ماسّة إلى مزيد من الإصلاحات فى النظم التربويّة، والبرامج الجامعيّة، والنظم الماليّة والأقساط الجامعيّة، والإدارة البيروقراطيّة السيئة، حتى يكون قادراً على مواكبة الثورة المعرفيّة والعلميّة الكبرى التى تشهدها جامعات العالم المتحضّر. وقد دعا(لى لان تشينج) نائب رئيس مجلس الدولة الصينى إلى مزيد من الإصلاحات فى التعليم الجامعى قائلاً: «إنّ إصلاح نظام التعليم العالى الإدارى قد خطا خطوة هامّة للغاية، إلاّ أنّه لا يعنى أنّ مهمة الإصلاح قد انتهت، بل إنّه بداية للإصلاح بشكل ما، كما أنّ مهمات الإصلاح والتنمية المستقبليّة ستكون أكثر مشقّة». ■

الهوامش

(*) أمضى كاتب المقال عدة سنوات أستاذًا للغة العربية وآدابها فى جامعات الصين. ويأتى المقال تعبيرًا عن مشاهداته وانطباعاته.

من ريـــو إلى جوهانســـبرج

هل هناك جديد؟

إبراهيم عـبـد الجليل

أنهت قمة التنمية المستدامة فى جوهانسبرج أعمالها بعد عشرة أيام من الاجتماعات والمناقشات والمداولات التى شارك فيها أكثر من عشرين ألفًا من ممثلى الحكومات ومنظمات المجتمع المدنى فى العالم، كما حضرها مائة وأربعة من رؤساء الدول والحكومات، من بينهم تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى، وجاك شيراك رئيس وزراء فرنسا والمستشار الألمانى جيرهارد شرودر.

والواقع أن جوهانسبرج كانت المحطة الرئيسية الثالثة التى توقف عندها قطار المجتمع الدولى منذ انطلق عام ١٩٧٢ من العاصمة السويدية ستوكهولم فى رحلة مليئة بالصعوبات والتحديات فى محاولة للبحث عن إجابة سؤال مهم هو كيف يمكن تحقيق الرفاهية لنحو ستة بلايين من البشر يسكنون كوكب الأرض دون أن يتم الاعتداء على موارد هذا الكوكب لكى تبقى عفية وقادرة على الوفاء باحتياجات نحو ستة بلايين أخرى سيسكنون نفس الكوكب خلال القرن الحالى.

فى ستوكهولم عام ١٩٧٢، كانت بداية الرحلة وكان المكسب الرئيسى حينئذ هو جذب أنظار العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه إلى الآثار البيئية الضارة التى يمكن أن تتسبب فيها الأنشطة البشرية والاقتصادية، وكيف أن تلك الآثار لا تعرف الحدود الجغرافية أو السياسية بين دول العالم، فكلنا نعيش فى كوكب واحد، ولا بديل لنا عن التعاون من أجل الحفاظ على هذا الكوكب وحمايته. وغادر القطار محطة ستوكهولم يحمل معه إعلانًا سياسيًا يؤكد الالتزام بتلك المفاهيم التى كانت مستجدة على الفكر الإنسانى فى ذلك الوقت، ونشطت الأمم المتحدة، وأنشأت برنامج الأمم المتحدة للبيئة الذى لعب دورًا أساسيًا فيما بعد فى قيادة قطار البيئة والتنمية لأكثر من ثلاثين عامًا. وتحدد يوم الخامس من يونيو من كل عام يومًا عالميًا للبيئة، وذلك لرفع مستوى الوعى العام بهذه القضايا - أى قضايا البيئة والتنمية - على مستوى العالم وليكون فرصة تتكرر مرة كل عام لإلقاء الضوء على جهود المجتمع الإنسانى ومحاولاته المستمرة للحفاظ على كوكب الأرض.



ويمضى القطار فى رحلته يجاهد فى التغلب على كثير من الصعاب التى تعترض طريقه إلى أن يصل إلى محطته الثانية وكانت فى ريو ديجانيرو فى الساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية حيث يعيش نحو عشرة ملايين من البشر يواجهون كل صنوف المعاناة من أجل تحقيق حلمهم وحلم كل إنسان فى حياة هانئة وعيشة رضية. كان ذلك فى الثالث من يونيو عام ١٩٩٢ حيث عقد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية والذى عُرف بقمة الأرض الأولى.

وعلى مدار اثنى عشر يومًا دارت مناقشات حامية حول كيف يمكن تحقيق العدالة بين الأجيال بحيث يحقق كل جيل طموحاته وأحلامه دون أن نضحى بقدرة الأجيال التالية على تحقيق ذلك، وكيف يمكن الحفاظ على الموارد الطبيعية المختزنة فى كوكب الأرض من أجل تحقيق هذا الهدف، وكيف يمكن التخطيط لمشروعات التنمية بحيث لا تؤثر سلبًا على النظم البيئية.. كيف.. وكيف.. وغير ذلك الكثير من الأسئلة التى تم بلورة الإجابة عنها فى إعلان للمبادئ أصبح من علامات الطريق سمى «بإعلان ريو للبيئة والتنمية».

ومن المؤكد أن هذا الإعلان الذى رسخ مفهوم «التنمية المستدامة» كان نقطة تحول كبيرة فى الفكر الإنسانى، إذ أصبحت المبادئ التى اتفق عليها حينئذ هى المفردات الجديدة التى فرضت نفسها على قاموس التنمية فى العالم، كما أصبحت تلك المبادئ أسسًا يعتمد عليها المجتمع الدولى فى صياغة أى مبادرات جديدة لتحقيق أهداف التنمية المستدامة. وفى ريو أيضًا أقر المجتمعون دليل عمل عن كيفية تحقيق هذه المبادئ فى شتى المجالات أطلق عليه «أجندة القرن الحادى والعشرين» جاهدت دول كثيرة فى العالم لكى تطبق ما جاء بها بصرف النظر عن النجاح والإخفاق فى تحقيق ذلك.

وتمر عشر سنوات أخرى من رحلة قطار البشرية إلى أن اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارًا فى ديسمبر عام ٢٠٠٠ يدعو إلى عقد القمة الثانية للأرض فى أقصى الطرف الجنوبى للقارة الأفريقية بمدينة جوهانسبرج. وكان الهدف من عقد هذا المؤتمر هو محاولة الإجابة على مجموعة أخرى من الأسئلة أهمها: ماذا تحقق من إنجازات على طريق التنمية المستدامة منذ ريو وحتى الآن؟ وما هى الخبرات والتحديات والنجاحات والإخفاقات التى مر بها الجنس البشرى خلال نفس الفترة؟ ثم ما هى القضايا ذات الأولوية التى يجب التركيز عليها خلال الفترة القادمة فى ظل ما شهده العالم من متغيرات جذرية منذ عام ١٩٧٢ وحتى الآن. وتنفيذًا لقرار الجمعية العمومية بدأت منظمات الأمم المتحدة جهودًا مكثفة للتحضير للقمة المنتظرة بالتعاون مع الحكومات ومؤسسات المجتمع المدنى والمنظمات غير الحكومية وكل شركاء التنمية فى العالم.



وبرزت خلال العملية التحضيرية اتجاهات متباينة هددت بفشل القمة قبل أن تُعقد، إذ بدأ الصراع التقليدى بين دول الشمال الغنى ودول الجنوب الفقير يطفو على السطح، تغذيه مخاوف ناشئة عن ممارسات الدول الغنية فى إطار ما يسمى بالعولمة التى لم تتضح معالمها بعد، وإن أثبتت الشواهد أنها على الأقل لم تجد حلاً للبلايين من بنى البشر الذين يعانون من الفقر المدقع، وغيرهم ممن يتهددهم شبح المجاعة وسوء التغذية.

كما وضح أيضًا من خلال الاجتماعات التحضيرية للقمة أنه لا يمكن الفصل - بأى حال من الأحوال - بين قضايا البيئة وقضايا التنمية فى العالم، وهو أحد المبادئ التى وردت بالفعل فى «إعلان ريو». لذا فإن القمة المنتظرة لا يجب أن تكون قمة للبيئة، ولكنها قمة للتنمية المستدامة التى تركز على محاور ثلاثة: النمو الاقتصادى، النمو الاجتماعى، وحماية البيئة.

ونشطت المنظمات الدولية وغير الحكومية فى إصدار التقارير التى تؤكد تدهور النظم البيئية منذ عام ١٩٩٢ وحتى الآن، كما تؤكد بالأرقام المفجعة اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء فى العالم، ولكى تثبت للعالم فشل الدول المتقدمة فى تحقيق ما التزمت به خلال قمة الأرض الأولى خاصة الجانب المتعلق بتقديم المساعدات المالية والفنية للدول النامية.

وبرزت مشكلة الفقر لكى تحتل رأس قائمة المشكلات التى يعانى منها بنو البشر فى العالم. فتقارير البنك الدولى تؤكد أن هناك نحو ١,٢ بليون نسمة يعيشون بأقل من دولار واحد يوميًا، وهناك هدف التزم به المجتمعون فى قمة الألفية التى عقدت فى عام ٢٠٠٠ بخفض هذا العدد إلى النصف مع حلول عام ٢٠١٥، ولقد بات واضحًا أن مشكلة الفقر ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالفقر المائى، والفقر فى الطاقة، وفى الغذاء، وفى الحصول على خدمات الصحة العامة، وأن كل تلك القضايا ترتبط أيضًا بإدارة الموارد الطبيعية والحفاظ على التنوع البيولوجى هبة الخالق لسكان هذا الكوكب.

وهكذا تبلورت القضايا ذات الأولوية التى تقرر أن تركز عليها مناقشات القمة الثانية، وهى قضايا المياه، الطاقة، الصحة العامة،

لا يمكن أن نغفل دور الولايات المتحدة الأمريكية
التى أكدت كل الشواهد منذ عام ١٩٩٢ وحتى الآن
أنها تضع اعتبارات حماية البيئة فى مرتبة تالية لمصالحها الاقتصادية والسياسية

الزراعة، وحماية التنوع البيولوجى. كما تأكد أن هذه المجالات ترتبط بمجموعة كبيرة أخرى من القضايا مثل: التجارة، التمويل، الاستثمار، ديون الدول النامية، نقل التكنولوجيا والمعلومات والتعليم والبحث العلمى، أنماط الإنتاج والاستهلاك وغير ذلك من قضايا التنمية.

ولكن قبل أن نستعرض حصاد القمة الثانية، فإننا نحتاج لإلقاء الضوء على ما حدث فى العالم من مستجدات منذ ريو عام ١٩٩٢ وحتى الآن لكى نتعرف على طبيعة المسرح الذى دارت فيه مفاوضات القمة الثانية، إذ لا يمكن بأى حال أن نفصل بين المسرح وخلفياته وكبار اللاعبين فيه وهؤلاء الجلوس فى مقاعد المتفرجين، ثم فى النهاية يمكننا أن نحكم على حصاد ذلك كله ومدى فاعليته. فعلى الجانب السياسى لا يمكن أن نغفل دور الولايات المتحدة الأمريكية التى أكدت كل الشواهد منذ عام ١٩٩٢ وحتى الآن أنها تضع اعتبارات حماية البيئة فى مرتبة تالية لمصالحها الاقتصادية والسياسية. فالرئيس الأمريكى بوش الأب رفض عام ١٩٩٢ التوقيع على اتفاقية حماية التنوع البيولوجى، وبعد عشر سنوات يأتى الرئيس بوش الابن لكى يرفض التوقيع على اتفاقية كيوتو الخاصة بحماية كوكب الأرض من أخطار التغيرات المناخية، وعلى الجانب السياسى فإنه من الواضح الدور المهيمن للولايات المتحدة الأمريكية على مقدرات العالم بعد سقوط حائط برلين، وانهيار الاتحاد السوفيتى وانتهاء عصر الحرب الباردة. وعلى الرغم من ذلك كله، رفض الرئيس الأمريكى كل المحاولات التى تمت لإقناعه بحضور القمة الثانية للأرض فى جوهانسبرج، وكأنه مُصر أن ينفى عن نفسه شبهة قيادة العالم نحو تحقيق أهداف التنمية المستدامة.

وعلى الجانب الآخر من الأطلنطى نجد تطورًا آخر لا يقل أهمية، وهو قيام الاتحاد الأوروبى كتجمع اقتصادى كبير يضم خمس عشرة دولة من الدول الصناعية الكبرى فى القارة الأوروبية ويسعى هو الآخر لضمان مصالحه فى مواجهة القطب الواحد المهيمن. ورغم أن الموقف الأوروبى كان دائمًا أقرب إلى التعقل فى مواجهة قضايا البيئة، إلا أن حرب المصالح التجارية خاصة فى مواجهة العملاقين الكبيرين القابع أحدهما فى أقصى الشرق من الكرة الأرضية وهو اليابان والآخر القابع فى أقصى الغرب بالولايات المتحدة الأمريكية، تلك المصالح كثيرًا ما تلقى بعضًا من الظلال على الموقف الأوروبى من بعض قضايا البيئة فى العالم.

وعند الحديث عن المصالح التجارية لا يمكن أن نغفل الدور المتنامى لمنظمة التجارة العالمية التى أنشئت عام ١٩٩٤ لكى تضع نظامًا عالميًا جديدًا يدعو إلى حرية انتقال السلع والخدمات بين دول العالم فى إطار من الشفافية والعدالة وتكافؤ الفرص. إلا أن الشواهد قد أكدت حتى الآن أن ذلك لم يحدث، بل على العكس فإن هذه القواعد أصبحت توضع بمعرفة الأغنياء لكى ينصاع إليها الفقراء، فزاد الأغنياء غنى وزاد الفقراء فقرًا.

ولقد ارتبطت منظمة التجارة العالمية منذ نشأتها وحتى الآن فى ذهن الملايين من شعوب العالم بمفهوم «العولمة» الذى أضحى يمثل شكلاً جديدًا من أشكال الهيمنة على مقدرات شعوب العالم النامى. وارتبط ذلك أيضًا بالدور المتنامى للشركات، عابرة الحدود ومحاولة ضمان مصالحها التجارية على حساب اعتبارات البيئة والتنمية. لقد كان هذا الموضوع بالذات إحدى نقاط الخلاف أثناء مداولات القمة الثانية مما سنتعرض له لاحقًا.

وأخيرًا، فلقد شهد العقد الماضى ثورة حقيقية فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات رسخت مفهوم «العولمة» بشكل لم يسبق له مثيل فى التاريخ الإنسانى، ولعبت دورًا محوريًا ولازالت فى نقل الأفكار وحوار الثقافات، وقربت بين الشعوب، وحولت العالم إلى قرية كونية إلكترونية زاد فيها الوعى العام بكل القضايا التى تؤثر فى حياة الإنسان اليومية وتتأثر بها، ولعل أكبر دليل على ذلك أن هذه القمة التى عقدت مؤخرًا فى جوهانسبرج وحضرها نحو ٢٠ ألف شخص، كان يشارك فيها بالفعل ملايين أخرى من البشر الذين ساهموا بأفكارهم وآرائهم وعبَّروا عن مشكلاتهم وأحلامهم دون أن ينتقلوا إلى جوهانسبرج، إذ لم يكونوا فى حاجة إلى ذلك بعد التطور الرهيب فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

ولكى نستكمل ملامح الخلفية التى تمت فى إطارها القمة الثانية فقد يكون من المفيد أيضًا أن نلقى الضوء فى عجالة على أهم ما تم إنجازه وما لم يتم من مقررات ريو وحتى الآن.

فعلى الجانب المضىء فإن التقارير تؤكد نجاح المجتمع الدولى فى الوفاء بالتزامه لحماية طبقة الأوزون، وأن ذلك سيؤدى إلى استعادة تلك الطبقة لعافيتها لكى تلعب دورها الحيوى فى حماية الحياة على سطح هذا الكوكب.

أما الإنجاز الثانى فهو تعاظم دور مؤسسات المجتمع المدنى فى عملية التنمية، وترسيخ مفهوم الشراكة بين تلك المؤسسات وبين الحكومات، وأكبر دليل على ذلك أن عدد المشاركين من تلك المؤسسات تساوى تقريبًا مع ممثلى الحكومات فى قمة جوهانسبرج الأخيرة. يلى ذلك أيضًا تعاظم الإحساس بالمسئولية الاجتماعية لدى الشركة الكبرى ومبادرتها فى كثير من الأحيان باتخاذ إجراءات طوعية لتحقيق أهداف التنمية المستدامة فى المجتمعات التى تعمل بها.

أما الإنجاز الرابع منذ قمة ريو وحتى الآن فيتمثل فى التطورات العلمية المذهلة التى تمت فى السنوات الأخيرة والتى ساهمت بشكل كبير فى تحسين معرفتنا بالنظام البيئى وما يدور فيه من تفاعلات، ثم نشر تلك المعرفة بشكل واسع من خلال الثورة الهائلة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. وأخيرًا فإن المجتمع الدولى قد بادر منذ قمة الأرض الأولى بإقرار مجموعة أخرى من الاتفاقيات التى تؤكد التزامه بتحقيق أهداف التنمية المستدامة مثل بروتوكول كيوتو للحد من ظاهرة تغير المناخ، وبروتوكول كرتاخينا للأمان الحيوى وتنظيم الاتجار فى المواد المهندسة وراثيًا، وبروتوكول ستكهولم الخاص بمنع إنتاج واستخدام مجموعة من الكيماويات الخطرة التى تمثل تهديدًا للصحة العامة والبيئة.

هذا عن النجاحات التى تحققت منذ ريو، فماذا عن الإخفاقات؟

كان أهم تلك الإخفاقات فشل الدول الصناعية الغنية فى الوفاء بما التزمت به من تخصيص نحو ٠,٧٪ من جملة الناتج القومى لتقديم مساعدات مالية للدول الفقيرة ولم تتجاوز تلك النسبة ٠,٥٪ منها على أفضل تقدير، وقد أدى ذلك إلى عدم تمكن الدول النامية من مواجهة الحاجات المتزايدة لشعوبها التى تنمو بمعدلات عالية، وكانت النتيجة ازدياد أعداد الفقراء فى العالم منذ ريو وحتى الآن.

أما الإخفاق الثانى فهو فشل الدول الغنية فى التخلص من أنماط الإنتاج والاستهلاك غير المستدام لديها، ويتجلى ذلك واضحًا فى الفجوة الواسعة بين نصيب الفرد من الموارد فى الدول الغنية مقارنة بالدول الفقيرة. فعلى سبيل المثال يبلغ نصيب المواطن الأمريكى من الطاقة الكهربائية سنويًا نحو ١٤ ألف كيلووات/ساعة، فى حين يبلغ نصيبه فى الهند نحو ٣٠٠ كيلووات/ساعة وفى مصر ١٣٠٠ كيلووات/ساعة. كذلك فإن بعض مصادر الطاقة الأحفورية لازالت تلقى عناية وتشجيعًا من عديد من الدول الصناعية الكبرى مقارنة بأشكال الطاقة النظيفة.



وتأتى قضية السلام والأمن كأحد المحاور الأساسية اللازمة لتحقيق التنمية المستدامة، إلا أنه وللأسف الشديد ورغم انتهاء الحرب الباردة، فإن العالم لازال يعانى من الحروب والنزاعات الإقليمية والأهلية بدءًا من حرب التطهير العرقى فى يوغوسلافيا السابقة، مرورًا بالحروب الأهلية التى تمزق أوصال العديد من الدول الأفريقية، وانتهاء بحرب الخليج ثم بزلزال الحادى عشر من سبتمبر الذى لازالت تداعياته تتوالى فى العديد من بقاع العالم. وفى هذا السياق لا يمكن أن ننسى الممارسات العنصرية والفظائع التى ترتكبها إسرائيل فى حق الشعب الفلسطينى بدعم وتأييد من الحكومة الأمريكية، بينما يقف العالم متخاذلاً غير قادر على وقف تلك الجرائم. ومن الملاحظ أن جانبًا كبيرًا من المسيرات والمظاهرات التى شهدتها جوهانسبرج أثناء انعقاد القمة الأخيرة كان من جانب المؤيدين لحقوق الشعب الفلسطينى فى مواجهة الغطرسة الإسرائيلية.

ويتساءل المرء عن كيفية تحقيق مستقبل أفضل للأجيال القادمة بينما يتعرض الملايين من البشر لأخطار الحروب والصراعات والحصار فى فلسطين، العراق، أفغانستان، والشيشان وغيرهم. ولقد خيمت التهديدات الأمريكية بضرب العراق على أجواء القمة حيث سعى طارق عزيز نائب الرئيس العراقى إلى حشد الأصوات الرافضة لتلك التهديدات.





بدأ الصراع التقليدى بين دول الشمال الغنى ودول الجنوب الفقير يطفو على السطح، تغذيه مخاوف ناشئة عن ممارسات الدول الغنية فى إطار ما يسمى بالعولمة التى لم تتضح معالمها بعد، وإن أثبتت الشواهد أنها على الأقل لم تجد حلاً للبلايين من بنى البشر الذين يعانون من الفقر المدقع، وغيرهم ممن يتهددهم شبح المجاعة وسوء التغذية





عمر بن عبد العزيز

دخلت فاطمة بنت عبد الملك على زوجها وهو جالس فى مصلاه واضعًا خده على يده ودموعه تسيل على خده فقالت : مالك؟

- ويحك يا فاطمة ، وقد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض الضائع والعارى المجهود واليتيم المكسور والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور والغريب والأسير والشيخ الكبير وذى العيال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة . وأن خصمى دونهم محمد ﷺ ، فخشيت أن لا تثبت لى حجة عند خصومته فرحمت نفسى فبكيت .

وأرادت فاطمة أن تسرى عنه ، إنه يعجبه جارية من جواريها وقد سألها إياها إما بيعا أو هبة ، فكانت تأبى عليه ذلك . إنه الآن فى حاجة إلى من تنسيه أعباء الخلافة ، فألبستها وطيبتها وأهدتها إليه ووهبتها له . ودخلت الجارية عليه يسبقها عبيرها ودنت منه فى دلال ، فأعرض عنها فراحت تداعبه فصدف عنها فقالت له :

- يا سيدى فأين ما كان يظهر لى من محبتك إياى؟

- والله إن محبتك لباقية ، ولكن لا حاجة لى فى النساء ، فقد جاءنى أمر شغلنى عنك وعن غيرك .

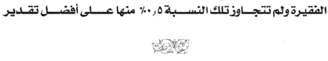
ثم سألها عن أهلها ومن أين جلبوها ، ثم قال :

- إنا لله وإنا إليه راجعون ، كدنا والله نفتضح ونهلك .

ثم أمر بردها إلى بلادها .







أهم تلك الإخفاقات فشل الدول الصناعية الغنية فى الوفاء بما التزمت به من تخصيص نحو ٧ر٠٪ من جملة الناتج القومى لتقديم مساعدات مالية للدول الفقيرة ولم تتجاوز تلك النسبة ٥ر٠٪ منها على أفضل تقدير



وأخيرًا وليس آخرًا يبرز انتشار مرض الإيدز فى العالم خاصة فى أفريقيا كشاهد على مدى إخفاق المجتمع الدولى فى التصدى للمشكلات التى تتسبب فى إزهاق أرواح الملايين من بنى البشر، إذ تشير التقارير أن ٦٨ مليون شخص سيموتون بسبب مرض الإيدز بحلول عام ٢٠٢٠، معظمهم من الدول الأفريقية.

هكذا كانت الصورة، بينما كان يستعد الآلاف من المشاركين فى القمة للذهاب إلى جوهانسبرج يشاركهم الملايين الذين يتابعون ما يجرى من خلال وسائل الإعلام وأساليب الاتصالات الحديثة.

ومن خلال مجموعة من الاجتماعات التحضيرية فقد تم الاتفاق على إعداد إعلان سياسى يصدر عن القادة المشاركين فى القمة يؤكد الالتزام بمبادئ التنمية المستدامة وضرورة سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء تحقيقًا لأهداف الألفية الجديدة التى أقرها زعماء العالم مسبقًا. كما يحدد هذا الإعلان التحديات التى تواجه المجتمع الدولى لتحقيق تلك الأهداف والتى تتلخص فى الفقر والتدهور البيئى والتباين الواضح فى الظروف الاجتماعية والاقتصادية بين الدول، كما يؤكد على ضرورة تحقيق السلام والأمن والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.



أما الوثيقة الثانية التى تم التفاوض بشأنها فكانت خطة للعمل ذات أهداف محددة وإطار زمنى واضح لتنفيذ تلك الأهداف. ولقد شهدت الاجتماعات التحضيرية خلافات حادة بين المفاوضين لتحديد تلك الأهداف، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية - للأسف الشديد - تعارض الالتزام بأى أهداف محددة أو أطر زمنية خاصة فى قضايا الطاقة والمياه وفقدان التنوع البيولوجى والحد من الفقر، كما حاول المفاوضون من الدول المتقدمة إعادة فتح بعض الملفات الساخنة من قضايا التنمية مثل قضية المساعدات للدول النامية، قضايا التجارة والبيئة وحقوق الإنسان والديمقراطية ومكافحة الفساد والمواد المعدلة وراثيًا وقضية الدعم للحاصلات الزراعية فى الدول الغنية على حساب الصادرات الزراعية للدول النامية وكذا القضايا المتعلقة بحقوق الملكية الفكرية والعولمة ومحاربة الإرهاب. وفى واقع الأمر كاد المؤتمر أن يغرق فى تلك القضايا ويحيد عن تحقيق أهدافه فى المجالات الأساسية السابق الإشارة إليها لولا يقظة الدول النامية، تساندهم المنظمات غير الحكومية وحكمة رئيس المؤتمر ورئيس جنوب أفريقيا الذى بذل جهدًا خارقًا تسانده منظمات الأمم المتحدة لكى تحقق القمة الأهداف التى انعقدت من أجلها.

ولإثبات مدى الالتزام بتلك الوثائق - الإعلان السياسى وخطة العمل - فلقد فتح الباب للحكومات والمنظمات ومؤسسات المجتمع المدنى للتقدم بمبادرات طوعية يتم تنفيذها على أرض الواقع حتى تتحول تلك الوثائق بلغة الصياغة إلى مشروعات وبرامج يستفيد منها الملايين من البشر الذين يتطلعون إلى كوب مياه نظيف ومصدر مستقر للطاقة ومأوى وغذاء وغيره من أبسط حقوق الإنسان فى مطلع القرن الحادى والعشرين. ولقد بلغ عدد تلك المبادرات نحو ٢٢٠ مبادرة حتى انتهاء القمة.

وعلى مدى عشرة أيام ليلاً ونهارًا دارت مناقشات صاخبة أوضحت حاجة الملايين من البشر لمستقبل أفضل لهم ولأبنائهم ولأحفادهم، كما أوضحت الحاجة إلى نظام عالمى تسود فيه روح التعاون والفهم المشترك واحترام الآخر وتنتهى منه النزعات الأنانية وحب السيطرة وروح الهيمنة واستخدام القوة بكل أشكالها.

وشهد المؤتمر لحظات كادت تهدد بفشله نتيجة لإصرار البعض أن مواقفهم المتعنتة تجاه بعض القضايا. وكانت أهم قضايا الخلاف كما سبق أن أشرت رفض الولايات المتحدة الأمريكية الالتزام بأى أهداف محددة أو جداول زمنية، كما أصرت دول الاتحاد الأوروبى وأمريكا على موقفها من قضية دعم الصادرات الزراعية التى قدرت بنحو مليار دولار يوميًا والتى تقف عقبة فى سبيل وصول الصادرات الزراعية للدول النامية لأسواق العالم، ثم قضية حجم المساعدات المالية للدول النامية ومحاولة الدول الغنية التحلل من سابق التزاماتها فى ريو عام ١٩٩٢. وأخيرًا وليس آخرًا إصرار الولايات المتحدة الأمريكية حتى الآن على الانسحاب من بروتوكول كيوتو مما أدى إلى الإخفاق فى دخوله حيز التنفيذ.



ولقد تعرضت الحكومة الأمريكية إلى هجوم شديد من الجميع أثناء انعقاد القمة سواء فى قاعات المفاوضات أو خارجها من جانب المنظمات غير الحكومية حتى وصل الأمر إلى أن إحدى الدول الصغيرة فى البحر

انفض سامر التنمية المستدامة في جوهانسبرج بعد أن ساهم المشاركون فيه بتلويث البيئة من خلال استخدامهم لنحو خمسة ملايين صفحة من الأوراق، وانبعاث نحو ٣٠٠ ألف طن من غاز ثاني أكسيد الكربون للغلاف الجوي

الكاريبي قد هددت باللجوء إلى محكمة العدل الدولية لإرغام الولايات المتحدة واستراليا على التصديق على البروتوكول حماية لها من الأخطار الناجمة عن التغيرات المناخية.

ولقد أصرت الولايات المتحدة على موقفها الرافض إلى تحديد أهداف زمنية محددة لترويج استخدام الطاقة المتجددة، تساندها في ذلك شركات البترول الأمريكية العملاقة ومجموعة من دول الأوبك المصدرة للبترول، فكان ذلك إحدى الفرص الضائعة لكي تنطلق تكنولوجيات الطاقة المتجددة لتوفر الاحتياجات الأساسية من الطاقة لنحو ٤٠٪ من سكان العالم لا يحصلون عليها في الوقت الراهن كما أصر الوفد الأمريكي - تسانده في ذلك دول الاتحاد الأوروبي - على عدم فتح ملف قضايا الديون التي تعوق جهود التنمية في الدول النامية، وجاءت الإشارة واضحة في الكلمة التي وجهها توني بلير للقمة والتي أشارت إلى ضرورة مكافحة الفساد ودعم الديمقراطية وحقوق الإنسان في الدول النامية قبل الحديث عن إسقاط الديون أو زيادة المساعدات.



ولقد نشطت المنظمات غير الحكومية المدافعة عن البيئة والمناهضة للعولمة في الضغط على المشاركين في القمة لاتخاذ خطوات فعالة لحماية كوكب الأرض ومحاربة الفقر. وكانت قضية تغير المناخ على رأس تلك القضايا، خاصة بعد موجة الفيضانات العاتية التي اجتاحت وسط أوروبا وآسيا والتي تزامنت مع انعقاد القمة. كما نشطت تلك المنظمات في التأكيد على عدم هيمنة منظمة التجارة العالمية على قضايا التنمية وأن تسبق اعتبارات حماية البيئة الاعتبارات التجارية، وضرورة إعطاء أولوية لقضية الصحة العامة وحصول الفقراء على حاجاتهم اللازمة لمقاومة أمراض الإيدز والملاريا والسل وغيرها، بصرف النظر عن قواعد منظمة التجارة العالمية وحقوق الملكية الفكرية.

ثم كانت قضية المسئولية الاجتماعية للشركات عابرة الحدود والتي تعاظم دورها في إطار اتفاقيات تحرير التجارة، والحاجة إلى كبح جماح تلك الشركات ومراقبة ممارساتها الضارة بالبيئة والتنمية، خاصة في الدول النامية التي تفتقر إلى القدرات اللازمة لتحقيق ذلك، إلا أن القمة قد أوكلت هذه المهمة رغم اعترافها بأهميتها إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة.

وأخيرًا فإن النظرة الموضوعية للإعلان السياسي الصادر عن القمة وخطة العمل المصاحبة له تكشف أن القمة قد حققت جانبًا كبيرًا من الأهداف التي انعقدت من أجلها، فهناك التزام بخفض أعداد البشر الذين لا يحصلون على حاجاتهم من مياه الشرب وخدمات الصرف الصحي إلى النصف. وهناك التزام بتوفير مصادر للطاقة لنحو ٢ بليون شخص في العالم لا يحصلون عليها في الوقت الراهن، وهناك التزام بالتخلص من الكيماويات السامة بحلول عام ٢٠٢٠، وهناك التزام بالحفاظ على التنوع البيولوجي ومصايد الأسماك وإنشاء شبكة من مناطق المحميات البحرية. كما أن هناك التزامًا بدعم مرفق البيئة العالمي بنحو ٢,٩ مليار دولار حتى عام ٢٠٠٦ مع تكليفه بتمويل مشروعات مكافحة التصحر في الدول النامية، وهناك التزام بدعم مكافحة مرضى الإيدز والملاريا وغيرهما من الأمراض الناشئة عن تلوث المياه. وأخيرًا فإن هناك التزامًا بإمداد الدول النامية بالتكنولوجيا والبدائل اللازمة لحماية طبقة الأوزون.

وفي الجانب المقابل، فلقد فشلت القمة في إقناع الوفد الأمريكي المكون من نحو ثلاثمائة شخص بالموافقة على التصديق على بروتوكول كيوتو أو الالتزام بتشجيع الطاقة المتجددة ونشر استخدامها في العالم من خلال جدول زمني محدد. كما أصدرت توصيات عامة في قضايا دعم الصادرات الزراعية وفتح الأسواق لصادرات الدول النامية وإجراءات الاستعداد والتصدي للكوارث الطبيعية التي زادت حدتها خلال الفترة الماضية.



وانفض سامر التنمية المستدامة في جوهانسبرج بعد أن ساهم المشاركون فيه بتلويث البيئة من خلال استخدامهم لنحو خمسة ملايين صفحة من الأوراق، وانبعاث نحو ٣٠٠ ألف طن من غاز ثاني أكسيد الكربون للغلاف الجوي.

ويبقى عدد من الأسئلة لازال يبحث عن إجابة! هل سينجح العالم في تحويل تلك الوثائق بليغة الصياغة إلى أفعال؟، وهل ستنجح الأمم المتحدة في كبح جماح نزعة الهيمنة من جانب القطب الأوحد؟، وهل سيقف المجتمع الدولي في جانب الحق والعدل في مواجهة المصالح التجارية؟.. الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها ستكشف عنها مجريات الأمور خلال الأشهر القادمة.



عمر بن عبد العزيز

سار عمر ليرد المظالم وهو خاشع متواضع لله، لم يعد يتبختر في مشيته كما كان يفعل، فقد أقلع عن مشيته العمرية التي اشتهر بها، بل كان يفكر فيما يحمل من مسئوليات جسام تكاد تنقض ظهره. وتذكر ذلك اليوم الذي ولي فيه الخلافة إذ جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء فقال له:

- إنما أنا رجل من المسلمين.

ورأى نفسه وهو يسير وهم معه حتى دخل المسجد، وراح يذكر خطبته التي خطبها:

- أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ولم أطلبه ولا طلبته، ولا مشورة من المسلمين، وأني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم ولأمركم ما تريدون.

وجاء من أصداء الماضي صياح المسلمين صيحة واحدة:

- لقد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ورضينا كلنا بك.

وراح يذكر ما قاله بعد ما هدأت الأصوات:

إن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في كتابها ولا في نبيها وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم. وإني والله لا أعطي واحدًا باطلاً ولا أمنع أحدًا حقًا.

أيها الناس: من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم.



نبوية موسى .. شاعرة

عفـــاف عبد المعطـي

في عام ١٨٨٦ ولدت ثلاث من رائدات الفكر النسوي في المشرق العربي، هن ملك حفني ناصف (فبراير) - مي زيادة (ديسمبر) - نبوية موسى (ديسمبر أيضا). وكانت الأخيرة من المجاهدات اللائي شققن طريقهن عنوة لأجل تحقيق رسالة مُحدّدة لخدمة المرأة تتمثل في إعلاء مكانة المرأة التعليمية وتحقيق أكبر وأرفع الدرجات لها.



ولدت نبوية موسى محمد بدوية في ١٧ ديسمبر ١٨٨٦ بكفر الحُكما بندر الزقازيق. وصدر ديوانها في مايو من عام ١٩٣٨ و قد كُتبَت قصائده حسب تواريخها بين أعوام ١٩٠٤ - عندما كانت الشاعرة في مدرسة السنية - و ١٩٢٥ وكانت أكثر القصائد في عام ١٩١٩ ولهذا مبرره حيث كان المجتمع المصري يمر بعنفوان ثورة ١٩١٩ التي احتاجت إلى تعضيد. وقد أتاحت الثورة للمرأة فرصة الخروج إلى المجتمع والمشاركة في فعالياته، لذلك اضطلعت نبوية موسى بقول الشعر إلى جانب دورها التعليمي الرائد المعروف، وقد رأينا على الديوان عبارة «الجزء الأول» وبناء عليها ظننا أن للديوان جزءاً ثانياً، ثم شرعنا نبحث عنه في المصادر المختلفة خاصة دار الكتب فلم نجد تحت اسمها الديوان نفسه، كذلك رأيناها لم تتطرق خلال سيرتها الذاتية إلى الحديث عن ملكتها الشعرية صراحة ولا عن وجود ديوان شعري لها؛ إنما ظهر الشعر عنها على هيئة مقطوعات متفرقة قالتها الشاعرة في مناسبات متباينة.

و قبل الحديث عن علاقة نبوية موسى بالشعر ينبغي أن نلقي الضوء على الشعر المصري في الفترة بين ١٩٠٤ و ١٩٢٥ آن إصدارها للديوان، ففي عام ١٩٠٤ رحل البارودي، لكنه كان قد لعب دورا كبيرا في إحياء الشعر العربي.. من منظور التواصل مع الإبداع الشعري في أزهى عصوره، خاصة العصر العباسي، واحتذاء تقاليده وانتهاج معجمه وموسيقاه وأبنيته العريقة. كانت فكرة الإحياء الشعري متواكبة مع حركة المجتمع الصاعد نحو مستقبل جديد، يبحث فيه أبناؤه عن مكانهم تحت الشمس، ويواجهون المستعمر الغربي وواقع مجتمعهم الحائر بين ولائه للدولة العثمانية المنهارة وبين المستعمر الذي يضغط بقوة للسيطرة على مُقدّراته. كان الإحياء جسرا تعبره الذاكرة إلى مساحة من التاريخ والثقافة تمثل الأرض الصلبة والشعور بالانتماء لمراحل من السطوع والعزة.

هكذا تسلم شوقي وجيله راية الإحياء وبرز حافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وخليل مطران وعلي الجارم ومحمد عبد المطلب وأحمد نسيم والكاشف وغيرهم.



وفي منتصف العقد الثاني من القرن العشرين بدأت تلوح في الأفق إبداعات جيل جديد من الشباب رأى في تيار الإحياء الشعري، واحتذاء النموذج التراثي جمودا لا يتوافق وتطلعاته. وقد تميز هذا الجيل الصاعد باطلاعه على الثقافة الغربية ممثلة في الشعر والنقد الإنجليزيين. وكان في طليعتهم عبد الرحمن شكري ثم العقاد والمازني، الذين ما لبثوا أن التقوا على رؤيتهم الجديدة قبل أن ينفصل عنهما شكري ويصدر العقاد والمازني كتاب الديوان، الذي نال فيه من تيار الإحياء وخاصة شوقي، بل إن عنفهم واندفاعهم نال شكري نفسه، بعد أن كان في طليعة الداعين إلى التجديد الشعري من منظورهم الفني ذاته.

هكذا نجد أن العشرينيات من القرن العشرين قد شهدت أوج الإبداع الشعري لتيار الإحياء وصعود جيل جديد من الشعراء عرف بجماعة أو مدرسة الديوان، وقد كان التيار الأخير هو المهد الحقيقي لبزوغ الحس الرومانسي في الإبداع الشعري، خاصة أن شعراءه تأثروا بشكل مباشر بشعراء الرومانسية الإنجليز.

وفي نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات كان الحس الرومانسي قد بدأ يسود النتاج الشعري وتدريجيا طغى تماما على الساحة الشعرية في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات. ولمعت أسماء أحمد زكي أبو شادي - مؤسس مجلة أبولّو التي حمل التيار الرومانسي الجديد اسمها - بعد ميلاد جماعة أبولّو التي رأسها لفترة وجيزة أحمد شوقي وكان نائباه خليل مطران الذي عُرف بخطواته الرائدة الراسخة في التجديد، وأحمد محرم المعروف بأصوليته التقليدية التي دفعته إلى نظم «الإلياذة الإسلامية»، وقد أباح وجودهما نوعا من التضافر النوعي بين الجديد والتقليدي، ثم جاءت مجلة أبولّو المشهورة التي كانت منبرا لأصوات شعرية جديدة منها إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل من مصر، وأبي القاسم الشابي من تونس ويوسف بشير التيجاني من السودان، وكان بداية صدور مجلة أبولّو إيذانا بوجود الشاعر المُحدث بالقياس إلى غياب الشاعر المحافظ عن المشهد الشعري العربي.

في هذا المناخ الشعري المصري ظهر ديوان نبوية موسى[1] الذي يضم الباب الأول منه قصائد وطنية تبلغ خمس عشرة قصيدة. والباب الثاني «قصائد قيلت في الحوادث الهامة في الحركة الوطنية» وعددها ثماني عشرة قصيدة، والباب الثالث «في الشكوى من الزمان» يضم ثماني قصائد والباب الرابع «في المراثي» يضم سبع قصائد، ثم الباب الخامس عنوانه «في التهاني والمديح» يضم اثنتين وثلاثين قصيدة قصيرة، ثم الباب السادس وهو عبارة عن قصائد قيلت والشاعرة تلميذة بمدرسة السنية وهو عبارة عن ثماني قصائد قصار قيلت في مناسبات متباينة وظروف مرت بها الشاعرة في هذه السن الصغيرة إبان دخول المرأة مجال التعليم.

وقد وجدنا أخطاءً في تبويب الديوان مثل وجود «الباب الثالث» تحت عنوان «في الشكوى من الزمان» ص ٤٣ من الديوان ثم تكرار جملة «الباب الثالث» مرة أخرى على أنه «في باب المراثي» ص ٥٤ والصحيح أنه «الباب الرابع». ويأتي بعده «الباب الخامس» - بصورة طبيعية - تحت عنوان «في التهاني والمديح» ص ٦٣. ثم يأتي خطأ آخر هو تبويب «الباب السابع» تحت عنوان «قصائد قيلت والشاعرة تلميذة بالمدرسة السنية» بعد «الباب الخامس» فمن الصحيح أن يبوب بـ«الباب السادس»، بل يأتي بعده «الباب السادس» تحت عنوان «في الألعاب» وفيه ثلاث مقطوعات قصيرة. كما جاءت ص ٢٩ قبل ص ٢٨، وقد أرجعنا ذلك إلى بدائية الطباعة وعدم المراجعة الكافية آنذاك.

ولما لم نجد حديثا لها في سيرتها الذاتية عن شعرها قمنا نتتبع اهتمامها بالأدب فوجدنا أنها ذكرت تعلقها بالأدب العربي عامة من خلال عين أخيها الرائية، العارفة للثقافة العامة بحكم أنه سبقها في مراحل التعليم، فتقرر كيف تذوقت الأدب العربي قبل أن تعرف القراءة «كنت في سن السادسة لما كان شقيقي في سن السادسة عشرة، وكان طالبا في المدارس الثانوية وقد ألف مجالستي فكان يقرأ لي في كتب الأدب القديم كالأغاني وغيرها، وكنت لصغر سني أصغي إليه باهتمام حتى تعودت فهمها، وكان إذا حاول حفظ قصيدة كلفته المدرسة حفظها حفظتها معه ولا يخفى أن موهبة الحفظ قوية عند صغار الأطفال فهم لا يجدون فيها صعوبة. ولهذا كنت كثيرا ما أحفظ القصيدة بمجرد استماعي له وهو يقرؤها قبل أن يحفظها هو، وكان يسرّه ذلك فيُسمعها لي ويطلب مني أن أُسمعها له وهكذا تمّت بيننا الصداقة والألفة واستطعت أنا أن أتذوق الأدب العربي قبل أن أعرف الألف من الباء».



أما عن الاهتداء الأول للشعر، فقد جاءها من خلال قراءة أشعار عمر بن أبي ربيعة وأبي نواس ومجنون ليلى وغيرهم وكلهم كانوا يتغزلون ويتشببون بالنساء، وأخيرا في سنها الباكرة قرأت ديوان «حلية الطراز» للرائدة عائشة التيمورية[2] وكان يضم الكثير من الغزل، تقول: «واعتقدت لسذاجتي إذ ذاك أن الغزل سهل وأن الإنسان يستطيع أن يقول في الغزل ما لا يستطيع أن يقوله في أي موضوع آخر، إذن يجب أن أقول الشعر في الغزل ومادمت لا أشعر بالحب فكيف أتغزل وأتشبب؟ و أخيرا اهتديت إلى حل وهو أن أكتب قصصا لأقول فيها الشعر الغزلي على لسان غيري وكتبت أول قصة في كراسة صغيرة وكانت فيها الأبيات الآتية:

أحالت على العهد الذي كنت أعهده
وموعدنا بالأمس خانت مقاصده
حبيبة قلبي لا تميلي لعاذلٍ
فإن عذولي قد دهتني مكايدُه
وزوري فتى في هواك متيما
عليلا ليشكو ما يلاقي لعائده

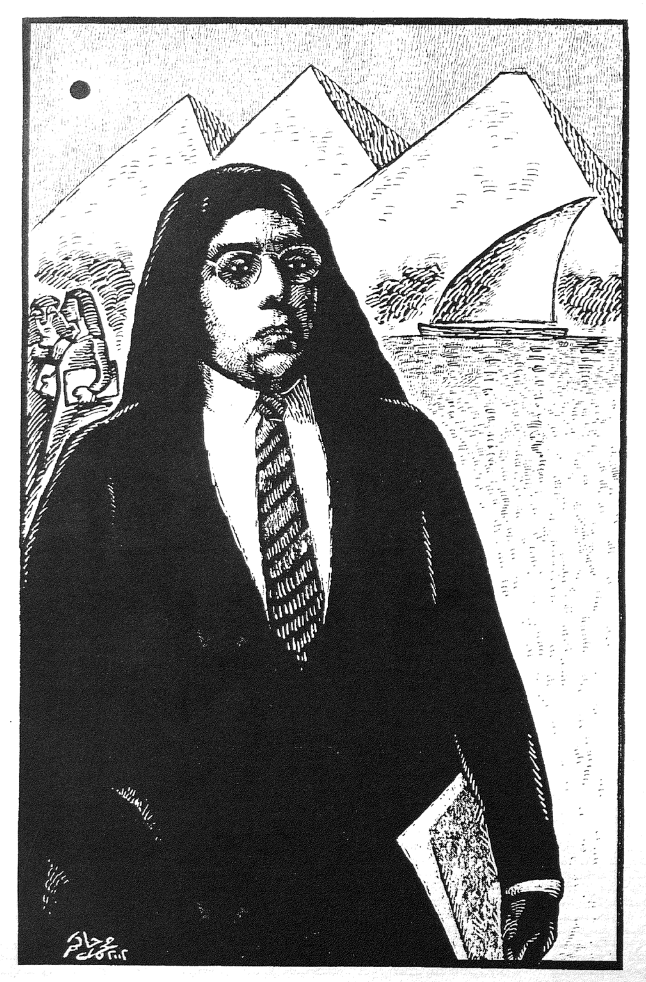
ولا أدري لم نصبت متيما وعليلا وأنا في ذلك الوقت لا أعرف شيئا من أصول النحو؟ كما يرى القارئ الكريم من ذلك البيت الأخير أني لم أكن أعرف حروف الجر ولهذا رفعت عائدا تبعا لقافية الأبيات مع أنه مجرور».

وقد جاءت صورة كتابة نبوية موسى للشعر بوساطة استخدامه وسيلة في بعض المواقف تكشف عن طبيعة شخصيتها من ناحية وكذلك عن طبيعة المناسبة التي فرضت فيها هذا الشعر من ناحية أخرى، وإن كانت الأغراض الشعرية التي كتبت فيها نبوية موسى قد تناولت في الرثاء والمديح أعلام العصر بما ينبئ عن انتباهها لما يدور حولها من أحداث من جانب وقولها الشعر تعضيدا لبعض المواقف من أولئك الأعلام من جانب آخر.

تذكر أولاً موقفها مع جارها الشاب الأزهري وهو من باكورة كتاباتها الأولى بمدرسة السنية - التي التحقت بها في السنة الثالثة الابتدائية سنة ١٩٠١ ونجحت في الشهادة الابتدائية فيها في يونية سنة ١٩٠٣ - ثم قول الشعر في مدرسة السنية بما يكشف عن طبيعة وجودها في المرحلة التعليمية الأولى، وحكاياتها مع رفيقتها ملك حفني ناصف، ثم الأغراض المتعددة التي تناولها شعرها بما يبرز موهبتها الشعرية.

الانتقام من الشاب الأزهري:

تذكر نبوية موسى أنها في إحدى إجازات الصيف ذهبت إلى بلدتها وحدث أن «أخذت معي مصحفًا، وجعلت أحفظ بعض سوره وكنت أختار سور القَصَص كسورتي يوسف ومريم وكنت أفهمها فهمًا جيداً، ولكن أحد جيراننا وكان طالبًا في الأزهر قال لي إنه من الكفر أن أقرأ القرآن وحدي.. فقلت: لمَ يكون كفرًا وأنا لا ألحن فيه؟ وقرأت أمامه بعض


محمد حاكم
٢٠٠٢

الآيات فوافق على أنى أقرؤها صحيحة، ولكنه قال يجب أن أحذر كل الحذر من أن أحاول فهم معناها وإلا عُدّ ذلك كفرًا لأنه هو نفسه لا يحاول فهم سورة إلا إذا تلقى تفسيرها على أستاذه فى الأزهر؛ فقلت: ولكنى افهمها جيداً حسب ما أعتقد. قال إن ما تعتقدينه شىء والحقيقة شىء آخر. فاردت أن أعرف المعنى الذى تعلمه هو فى الأزهر واقسمت له إن أفادنى أمدحه بقصيدة، وإن لم يفعل فلابد من ذمه بقصيدة أخرى، وسألته عن معنى الآية: «يا أبانا مُنع منّا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون». وقد كنت افهم معنى تلك الآية على حقيقتها، فقال لى إن أخاهم اسمه نكتل. وهنا سخرت منه وقلت له: إن الكفر هو ما تعلمت أنت عن أستاذك. وكتبت له قصيدة الذم كما أوعدته وكان اسمه «محمدا أبا نصرة»، ولست أذكر شيئا من تلك القصيدة إلا البيتين الآتيين:

أمحمد سموك خابت ظنونهم
لو أنصفوك لكنت تدعى باقل
لُقّبت بالنصرة وفعلك ضدها
فلتعلم الأقوام أنك متخاذل

قول الشعر فى مدرسة السنية:

إن الناظر إلى سيرة نبوية موسى وكذلك شعرها يلمس مدى التمرد الذى كان يستولى على شخصيتها، ومن هنا لم تخف نبوية موسى عدم رغبتها فى أى شىء بدءًا من الزواج حيث ظلت آنسة حتى وفاتها وانتهاءً بسائر ما لا ترغبه.

تروى حكاية قولها للشعر فى مناسبة فى مدرسة السنية إبان كرهها لدروس قواعد الصرف فتقول: «كنت غريبة عن المدرسة السنية بعيدة عن كل نظمها، وكنت أنتقد ما يلقى علينا وأحتقره إذا كان لا فائدة منه، لهذا لم تعجبنى قواعد الصرف فكنت أسخر منها ولا أرى أية فائدة فى أن أعرف أن (سار) أصلها (سير) وأن (كان) أصلها (كون) وغير ذلك من العلل الصرفية، لأنى كنت أرى أنى أعرف أن أفهم واقرأ، و أن أكتب ما يفهم قبل أن أتعلم تلك القواعد التى لا معنى لها، وأعطانا المعلم يومًا امتحانًا فى الصرف، وبدلاً من أن أجيب عليه كتبت له فى الكراسة الأبيات التالية:

دهتنى صروفُ الصَّرف لا درّ درُّه
ولا خيرَ فى فعلٍ إذا رُمتَ صرفه
كما أنه يخشى الزمانَ وصرفه
أرى الفعل موهوبا لدىّ وصرفهُ
فإن تكسروا للفعل عينا فإننى
كسرت ذراع الفعل عمدا وأنفهُ
وإن كان معتلا فلست طبيبةً
دعوه دعوه علّه يلقى حتفهُ

وبالطبع فقد منحنى ذلك الأستاذ فى ذلك الامتحان صفرا باكمله دون أن يبخل علىّ بشىء منه. وأمرنا الأستاذ يوما أن نحفظ حروف المعانى المكتوبة فى كتاب النحو بترتيبها عن ظهر قلب، فلم يعجبنى أن أتعب نفسى فى هذا السخف الذى لا معنى له، وعندما طلب منّى المعلم فى اليوم التالى أن أسمّع ما حفظت قلت له إنى نظمتها شعرا قال هاتى، فقلت الأبيات الآتية:

أشكو إليك حروفاً فى تعلمها
حلّت بقلبى من تكرارها العللُ
(إذن وإذ ما) فما كررتها أبدا
إلا بدت أدمعى كالسيل تنهملُ
ولا ذكرت (بلى والكاف ثم جلل)
إلا وخاب لدى تذكارها الأملُ
(جيرى وحتى وحاشا) بت أقرؤها
حتى ثنى همّتى عن حفظها المللُ
علّى بذلك لا ألقى العقاب ولا
عن ساحة الكرم المأمول أنتقلُ

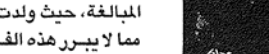
فقال المعلم: ومكافأة لك على هذا الاجتهاد ساعطيك صفرا، فقد مللت أن أكتب فى كل شىء عشرة وهذه فرصة أغير فيها العشرة إلى صفر، تشجيعا لك على قول الشعر، وهكذا لا آخذ فى اللغة العربية درجة إلا الدرجة النهائية أو صفر».

حاولت نبوية موسى أن تعبر عن تمردها على حصص النحو والصرف فقرضت عليها شعرا على غرار ألفية ابن مالك، وإظهاراً لصورة المدرس الصلب الذى يتعامل بشدة مع فتيات حديثات العهد بالتعليم منحها - انتقاما منها - صفرا فى مادة اللغة العربية التى سوف تكون هى رائدة فى تعليمها بعد ذلك.

قصة الشعر مع ملك حفنى ناصف[3]:

ولدت «ملك حفنى ناصف» فى السنة نفسها التى ولدت فيها نبوية موسى (١٨٨٦) فى شهر فبراير بينما ولدت نبوية موسى فى شهر ديسمبر، ودرست كل منهما بمدرسة السنية لكن الأولى كانت أسبق من الثانية فى المرحلة التعليمية، تقول نبوية ما يفيد قولهما للشعر معا وتباريهما فيه:

دخلت المدرسة السنية فى السنة الثالثة الابتدائية وكان ذلك فى سنة ١٩٠١ وكانت المرحومة «ملك حفنى ناصف» فى السنة الثانية من معلمات السنية أى كان بينى وبينها فرق دراسة ثلاث سنوات، وكانت المرحومة مشهورة بجودة الإنشاء فى اللغة العربية وهى موهبة ورثتها عن المرحوم والدها «حفنى بك ناصف» فلما دخلت أنا اتجهت أفكار المعلمين إلى الموازنة بينى وبينها، وأخيرا قرَّ رأيهم على أن يعطى معلم السنة الثالثة الابتدائية نفس موضوع الإنشاء الذى يعطيه معلم السنة الثانية من قسم المعلمات. وتم هذا وعرض الموضوعان على مدرسى اللغة العربية فى القسمين الابتدائى والثانوى فمال أغلبهم إلى تفضيل موضوعى، وقالت الأقلية إن الموضوعين متساويان فى الجودة وأغضب ذلك المرحومة ملك وكانت طيبة القلب وقد نمت بينى وبينها صداقة



الناظر إلى سيرة نبوية موسى وكذلك شعرها يلمس مدى التمرد الذى كان يستولى على شخصيتها، ومن هنا لم تخف نبوية موسى عدم رغبتها فى أى شىء بدءًا من الزواج حيث ظلت آنسة حتى وفاتها وانتهاءً بسائر ما لا ترغبه

فكانت تميل إلى مجالستى، فجاءتنى بعد هذه الموازنة تشكو إلىّ سوء تقدير المعلمين فى وقع موازنة كهذه بين تلميذة فى السنة الثالثة الابتدائية وطالبة فى السنة الثانية من قسم المعلمات، وقالت إنها تظن أن اهتمامهم بى لأنى فى السنة الثالثة الابتدائية يجعلهم يقدرون إنشائى فوق ما يستحق وأنها تريد أن تعرض الأمر على والدها، وطلبت منّى أن أكتب قصيدة فى مدح الخديو وأن تكتب هى الأخرى وتعرض القصيدتين على والدها، ففعلتُ وفعلتْ ثم جاءتنى بعد ذلك وعلى وجهها علامة عدم الرضا وقالت لقد انضم والدى إلى رأيهم ويظهر أنك محظوظة فقلت لها مازحة ولكنى عرضت القصيدتين على أخى ففضل قصيدتك وبهذا أصبحنا خالصتين واحدة بواحدة. وفى السنة الرابعة قالت هى قصيدة مدح فى الخديو وقلت أنا أخرى، ولكن لم تعرض قصيدتها علىّ بل فوجئت بها على صفحات المؤيد، أعجبنى بيت فيها أيما إعجاب وكنت خارجية وكانت المرحومة داخلية فلما رأيتها فى الصباح قرأت لها البيت فقالت لمن هذا؟ قلت: عجبا ألا تعرفين؟ قالت: لا. قلت إنه من قصيدتك المنشورة اليوم فى المؤيد. قالت لعل والدى وضعه ومن هذا علمت أن المرحوم «حفنى بك ناصف» كان يساعدها فيما تكتب أثناء دراستها.

ربما كانت الحوادث المروية بخصوص علاقتها بملك حفنى ناصف يعتورها بعض المبالغة، حيث ولدت كل منهما فى سنة واحدة مما لا يبرر هذه الفروق فى سنوات التعليم، وبينما تروى نبوية موسى بنزعتها التفاخرية إجادتها للشعر، فهذا لا يتسق مع كونها لم تذكر فى مذكراتها نهائياً رأيها فى الشعر، ومستواها فيه - وحبها لأغراضه - وممارستها له - لم تذكر كونه جزءا أساسياً من حياتها، فكيف تتفوق على ملك حفنى ناصف التى عرفت بشاعريتها. وليس هذا فحسب، بل تسند إجادتها للشعر الحَسن إلى والدها حفنى ناصف. وهو ما يتعارض مع أبيات القصيدة المشهورة التى وجهها أحمد شوقى إلى باحثة البادية «ملك حفنى ناصف» ومنها:

صداح يا ملك
الكناريا أمير البلبل
صبرا لما تشقى به
أو ما بدا لك فافعل[4]

اعترافها فى الشعر بعدم اشتغالها بالسياسة:

أثناء فترة دراسة نبوية موسى بمدرسة السنية كانت المدرسة فرعاً من وزارة المعارف التى كانت مثل كل المؤسسات خاضعة لرئاسة الإنجليز بحكم الاستعمار، وقد كانت علاقة نبوية بناظرة المدرسة الإنجليزية علاقة تقوم على التحدى - وهو ما تعترف به نبوية نفسها فى مذكراتها - نظرا لما لمسته فيها الناظرة من غرور وصَلَفْ وتعالٍ فى المعاملة المتبادلة بينهما، وأغلب الظن أنهاً كانت تشعر تجاه الناظرة بهذا الشعور لأن الناظرة كانت إنجليزية فكُرْه الناظرة نبع من كره المصريين للاحتلال الإنجليزى «كنت أكن للناظرة ما كانت تكنه لى وفى يوم دخلت علينا فى المذاكرة فحركت حقدى وما كادت تخرج حتى ابتدأت أكتب فى كناشة الأعمال الأبيات الآتية:

حلوا فراح الحزم وارتحل الحجا
وانهد جاه العلم والآراء
حملوا على جيش الفضيلة فانثنوا
متسربلين بحلّة حمراء
هذا دمّ الإنصاف فوق ثيابهم
يبدى فظائعهم لعين الرائى

نيران حقد أضمرتْها قلوبهم
فتسربلوا من لونها برداءِ
مادام أهل النار تحجب روضنا
عنا فأين معالمُ السراءِ
إن يدّعوا الإنصافَ أو ينسب لهم
فوفاء عرقوب وبخل الطائى

كتبت ذلك فى كناشة الأعمال بالقلم الرصاص وما كنت كما قدمت أهتم بالسياسة ولا أود خروج الإنجليز من مصر، ولكن هو الغيظ من الناظرة جعلنى أصب جام غضبى على أبناء جنسها وشاء التجسس أن تسرق هذه الكناشة بحيلة لا أعرفها إلى الآن، وأن تُعطَى للناظرة وأن تُرشد إلى مكان الأبيات وجن جنونها ووجدت دليلا على اشتغالى بالسياسة التى علم الله أنى ما اشتغلت بها فأرسلت الكناشة إلى وزارة المعارف تطلب عقابى».

ويغلب على سيرة نبوية موسى وكذلك ديوانها - منذ قصائدها الأولى وهى تلميذة بمدرسة السنية - الحض بقدر كبير على العلم والرسالة التربوية الإصلاحية، وإن كانت هناك أغراض شعرية مهمة تناولها شعر نبوية موسى، وهو ما تعترف به فى مقدمتها للديوان قائلة:

«ولست كغيرى ممن يقولون الشعر أو النظم وهم متفرغون له، بل أنا معلّمة شغلنى حب التعليم عما سواه من الفنون الجميلة وما قلت شعرا إلا لحاجة أطلبها لذلك التعليم أو لشيء آسف على ضياعه، وكنت أروم منه الخير لتعليم البنات الذى شغفنى حبه، فقلما تخلو قصيدة من قصائدى من الإشارة إليه، فإذا مدحت شخصا فمن أجل التعليم أمدحه وإذا شكوت الدهر فمن أجله أشكو».

والناظر إلى مفتتح ديوان نبوية موسى يجدها وقد فضّلت الكلام المنثور على المنظوم وكأنها تؤيد منذ هذه المرحلة الباكرة ظهور ما يعرف الآن بقصيدة النثر «أعتقد أن وزن المنظوم إن لم يكن من الفنون المطربة فى نغماتها كان المنثور أفضل منه، ولا شك أن المنثور فى سهولته وطلاقته أفضل من منظوم يأتى من بحر لا تطرب النفس نغماته الموسيقية الشيقة، ولا تخف عليها قافيته التى يظهر فيها من التكلف اللفظى ما ينفر منه الذوق السليم».

ثم تقرر صراحة الهدف الحقيقى من وراء شعرها وخلاصة تجربتها الشعرية: «وتكاد قصائدى تكون مجمل تاريخ لأول أدوار تعليم البنات فى مصر وقد ضمنتها جزءا عظيما مما كان فى الحركة الوطنية التى قد تكون الظاهرة الثانية فى أشعارى إذا اعتبرنا أن الظاهرة الأولى هى تعليم البنات».

ومنها ما تقول:

تعليم النساء
بالعلم ترتفعُ البلادُ وتظفرُ
ويسود بعد خموله المتأخّرُ
فإذا ولاة الأمر راموا نفعها
عمدوا إلى دور العلوم فعمَّروا
وتعهَّدوا التعليم فيها بالذى
يرجى لهم منه النجاحُ وأكثروا
ولخير ما تعلو به أوطاننا
علمٌ تواليه الفتاةُ فيثمرُ
علم تعزُّ به الفتاةُ وترتقى
وتسود حين تكون أمّا تُبصرُ

المعنى فى الأبيات أن الأمم تعلو وترتقى وتفخر بالنساء وتنحط حين تهملهن. وعندما نتأمل ديوان نبوية موسى نجد أنها قد وظّفت شعرها إلى رسالتها التعليمية وتدعيم ثورة ١٩١٩ وإعلاء شأن المرأة، وكان يدفعها إلى كتابة قصائد ومقطوعات الديوان دعم مشروعها الرئيسى وهو الحضّ على تعليم المرأة والارتقاء بعقلها وتعميق ثقافتها، إضافة إلى المشاركة فى الأحداث الاجتماعية والمواقف الوطنية، ورثاء أعلام العصر، ومنها ما رثت به كلا من الإمام محمد عبده، والزعيم مصطفى كامل، تقول فى رثاء محمد عبده:

لقد مالَ ركنُ الدينِ وانهدم الفضلُ
وأقوت ديار العلمِ وارتحل العدلُ
وغالت يدُ المقدارِ نفس محمد
فكان نصيبُ الكونِ من بعده الثكلُ
فهلا قضىَ العافونَ حزناً لفقده
ومادت رواسى الأرض وانطبقَ السهلُ
وهلا فديناهُ بخيرِ هُداتنا
فليس له فى علمه منهُم مَثَلُ

ترثى الشاعرة الإمام محمد عبده بما يؤكد جهاده فى سبيل العلم كاشفة عن الفجيعة التى لحقت بطلاب العلم نتيجة لفقد فصاحته وفكره وعلمه واجتهاده، وهى تقدم صورة الفجيعة ليست مقصورة على البشر فحسب، بل من عمق هذه الفجيعة اهتزت لها الجبال وانطبقت سهول الأرض على من فيها.



وفى رثاء مصطفى كامل تقول:

أكامل هل تدرى بما نتوجَّعُ
وتعلم من كاس الأسىَ كيف نجرَعُ
بلى لو علمتُ اليوم وقع مُصابنا
لقُمْتَ تردُّ الظلمَ عنّا وتدفعُ
كعادتك الأولى تخوضُ غمارها
وتحمى بلادَ النيل قهراً وترفعُ
تضحى بنفس أن تمسَّ حقُوقنا
وتدفعُ كيدَ الغاصبينَ وتردعُ
تردُّ إلى مصرَ العزيزة حقَّها
وتُرشدُها فى أمْرها كيف تصنعُ

يأخذ رثاء الشاعرة للزعيم مصطفى كامل صورة استرجاع للدور الوطنى الذى قام به، وخاصة أن قضية الدفاع عن حرية مصر ضد الاحتلال البريطانى كانت لا تزال قائمة على الرغم من وفاة مصطفى كامل.

لذلك تحاول الشاعرة أن تستنهض همّته كى يواصل مسيرته ضد الاحتلال، وكأنه لم يمت بعد، أو كأن الموت لم يخفت صوته القوى ونبرته المُحفِّزة للشعب كى يقاوم المُحتل الإنجليزى.

إلى جانب الرثاء هناك أغراض أخرى ضمّها الديوان كالمديح والتهانى وتغذية الشعور الوطنى. تقول فى وصف مصر:

ويغلب على سيرة نبوية موسى وكذلك ديوانها - منذ قصائدها الأولى وهى تلميذة بمدرسة السنية - الحض بقدر كبير على العلم والرسالة التربوية الإصلاحية، وإن كانت هناك أغراض شعرية مهمة تناولها شعر نبوية موسى

يا مصر يا فخرَ المدائنِ والقُرىَ
كم لجَّ دهرُك فى العنادِ وأكثر
يا أم آمون غدوت بحاجةٍ
لذكائه المخبُوء فى جوفِ الثرىَ
لو كان حيّاً ما تجاسرَ لوردَهُم
أن يستبدَّ بما أبانَ وأظهرا
كلا ولا وطِئتك يومًا خيلَهم
واستعذبوا من ماء نيلك كوثرا
فرعون لو نظروا سيوفك شرعا
لارتاعَ طاغيهُم وولى مُدبرا

فى أبيات القصيدة تفتخر الشاعرة بمصر، وتُكنيها بأم آمون نتيجة لتاريخها المديد المستنير منذ عصر الفراعنة والمقصود به الملك أحمس قاهر الهكسوس، الذى تتمنى الشاعرة وجوده كى يُجلى الإنجليز عن مصر، ولو كان موجودا لما استطاع لوردهم (لورد مضاف إليها ضمير الغائب عائدا على الإنجليز - واللورد هو اللورد اللنبى) أن يعيش فى الأراضى المصرية استبدادًا، فإذا كان فرعون موجودا عندما غزا الإنجليز مصر، لما تجاسروا على تجرع ماء النيل. والشاعرة إلى جانب اعتزازها بمصر يظهر فى أسلوبها الشعرى تمنيها وجود قائد عظيم يستطيع التصدى للاحتلال الإنجليزى كما عُهد على قواد مصر الذين استطاعوا عبر التاريخ قهر الغُزاة.

بأغراضه الشعرية المتباينة: يمثل ديوان نبوية موسى جزءاً مهما من ذاكرتنا الأدبية لمرحلة النهضة الثقافية - خاصة فيما يتعلق بمسيرة المرأة المصرية - إلى جانب ما يُشكّله من إبراز قدرٍ مهم من جوانب شخصية نبوية موسى التى تفاعلت مع مجتمعها المصرى وانفعلت به وقامت بحسها الوطنى وإيمانها بدورها الفاعل تؤدى لهذا الوطن الدور المنوط بها: لذلك صارت إحدى العلامات البارزة الدالة على ريادة المرأة المصرية فى عصر النهضة. ■

الهوامش:

(١) ديوان نبوية موسى - مطبعة العباسية - ١٩٣٨.

(٢) عائشة التيمورية (١٨٤٠-١٩٠٢) كانت تقرض الشعر بالفارسية والتركية والعربية، وكتبت قصة «نتائج الأحوال» بلغة المقامة، ومرآة المتأمل فى الأمور سبقت فيهما قاسم أمين إلى النقد الاجتماعى والدعوة إلى الإصلاح، كتبت الشعر والحكايات بعد مضى سنوات قليلة فقط من إلغاء قانون الرق فى مصر، حيث كانت هى نفسها ابنة لجارية شركسية لكن من أسرة مثقفة أخرجت العلامة الموسوعى «أحمد تيمور» والرائد المسرحى «محمد تيمور» لكن عائشة كانت صاحبة سبق وفضل عليهم، حيث كانت تكبر شقيقها أحمد تيمور، فهى التى حببت إلى نفسه حب القراءة والثقافة. أما محمود تيمور فقد دخل عالم الشعر عن طريق أشعارها التى كانت كما يقول «باكورة ما قرأت وما حفظت». ولما أرادت أمها أن تجعل منها حيوانا أليفا تعلمه هوايات ربات القصور قالت «كنت أفر منها فرار الصيد من الشباك».

(٣) هى ملك هانم كريمة اللغوى المحقق حفنى بك ناصف الذى شغل المناصب العالية فى وزارة المعارف والقضاء. ولدت سنة ١٨٨٦ وتلقت مبادئ العلوم فى مدارس أولية ثم دخلت المدرسة السنية فى أكتوبر سنة ١٨٩٣ وحصلت منها على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ وهى أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات لأداء الامتحان للحصول على تلك الشهادة. انتقلت إلى القسم العالى فى المدرسة المذكورة وحصلت على الشهادة العالية (دبلوم) سنة ١٩٠٣ واشتغلت بعد ذلك بالتعليم فى مدارس البنات الأميرية وقد اقترن بها صاحب السعادة عبد الستار بك الباسل وجيه قبيلة الرماح بالفيوم. وكانت وقتذاك بادية صحراوية لذلك سميت هى باحثة البادية. وتوفيت فى سن صغيرة بالحمى الإسبانيولية فى القاهرة ليلة الخميس ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٨.

(٤) للمزيد انظر: باحثة البادية وعائشة التيمورية للآنسة مى - كتاب الهلال - العدد ٥٨٢ - يونيو ١٩٩٩ - ص ١٧٤.

وقل لى كيف تنظر

رواية من الأدب التركى الحديث

ناصر الرباط

الإعلام كله اليوم، مكتوب ومرئى ومسموع وأثيرى، ملىء بالتحليلات والدراسات والآراء عن التقارب والتضاد فى الماضى والحاضر ما بين الغرب والشرق، ما بين النظام العلمانى الغربى والنظام الدينى الإسلامى، ما بين الثقافة الغربية العملية والعلمية والثقافة الشرقية الروحية والشاعرية، وما بين التحرر والانطلاق والفردانية من جهة والتزمت والانغلاق والانصياع لإرادة فوق - فردية من جهة أخرى. كل هذه التضادات تضادات حدية، بعضها صحيح تاريخياً وبعضها مركب ومصنوع أو متخيل ومهول أمره لغايات سياسية غالبًا. ولكنها كلها تحدد علاقة الطرفين - أى الغرب والعالم الإسلامى - ببعضهما البعض وتضفى عليها نكهة مرة يزيدها مرارة كونها تطبق كل يوم على أرض الواقع فى التحالفات الدولية والعمليات العسكرية أو «التخريبية الإرهابية» والتفجيرات والاغتيالات والغارات الجوية والاعتقالات التى تنبع من قبول هذه التضادات الحدية كحقيقة تاريخية ومبدئية وكواقع معاش وحتمى، ولعلها كذلك.

ولكن التاريخ، وعاء التجارب الإنسانية الواسع والدائم، لا يحب التضادات الحدية الثابتة بين الشعوب والأقوام والثقافات والحضارات، فهو يقوضها على أوهامها كلما شمخت راسخة متباهية، ويفت من اكتمال هيئتها كلما استمرأت ثباتها وديمومتها لكى يفتق حدودها ويجعل التشابه والتكامل والاندياح المتبادل بين الثقافات المختلفة، متحابة كانت أو متباغضة، معيار حركته وعلامة تدفقه وعنوان واقعه. فالثقافات تتعارف وتتقاطع وتتبادل التأثير باستمرار. ولعل هذه هى حقيقة التاريخ الأولية والدائمة التى تطغى عليها أى حقيقة أخرى. ولا يوجد أصلاً تضاد كامل بين الحضارات أو الثقافات فى التاريخ، اللهم إلا تلك التى لم تتعارف وتتقاطع بسبب من بعد المسافة واستحالة المواصلات، وبالتالى لا يمكنها أن تكون متضادة تعريفًا وواقعًا. أما تلك الحضارات التى تعارفت وتعايشت وتحاربت وتصالحت وتقاطعت وتبادلت المعرفة والسلع والناس والأفكار - والحضارتان الإسلامية والغربية على رأسها - فهى بحكم تقاطعها فى الزمان والمكان والعقائد لم تتمكن من المحافظة على وهم تضادها إلا فى اللحظات العويصة عندما كانت هويتها وكينونتها مهددتين بالذوبان والاختفاء، وحتى فى تلك اللحظات القصيرة لم يكن التضاد الحدى أكثر من وهم سطحى استعمله المؤججون العقائديون من ساسة ومنظّرين وعسكريين فى كلا الطرفين للمحافظة على امتيازاتهم بسبب من كونهم قد ابتدأوا يصدقون رسالة النقاء العرقى والحضارى التى لفقوها أساسًا لأنها أسهل على التصديق أو لأنهم اقتفوا خطى مفكرين سياسيين أكثر منهم فاشية وانغلاقًا وعدوا شعوبهم بالنصر والسؤدد والسيطرة، وفى غالب الأحوال لم يجلبوا لها سوى الدمار والخراب وسوء السمعة.

ولكنى اليوم لست بصدد تحليل تاريخى للعلاقة بين الشرق والغرب وإن كنت أود أن أتخذ من هذه العلاقة الطويلة ودائمة التغير والمتعثرة عمومًا مدخلاً لتقديم الرواية الرائعة للقاص التركى الأشهر أورهان باموك، «اسمى القرمزى» (My Name is Red) التى ظهرت طبعتها الأمريكية الأولى قبل أقل من شهر من هجمات الحادى عشر من أيلول على واشنطن ونيويورك، تلك الهجمات التى يبدو أنها عمقت من التضاد المستشرى ما بين الشرق المسلم والعربى بوجه خاص، والغرب التكنولوجى والعلمانى سياسياً وحقوقياً، وإن كان لايزال ثقافياً مسيحياً - يهودياً. لا أعلم بسبب من إقامتى فى الولايات المتحدة فيما لو كانت هذه الرواية قد ترجمت للعربية وإن كنت أرجو ذلك لأجل قراء العربية ولأجل تدفق الحوار الثقافى فى العالم الإسلامى وخارجه، هذا الحوار الذى تراجع الدور العربى فى قيادته وإذكائه تراجعًا كبيرًا فى العقدين الأخيرين، بحيث أصبحت الثقافة العربية هامشية فعلاً ليس فقط على الصعيد العالمى، وهذا هاجس كبير ولكنه مفهوم تاريخياً، ولكن أيضًا على الصعيد الإسلامى والآسيوى - الأفريقى والعالمثالثى، أى الدوائر الثقافية الثلاث التى تنتمى لها الثقافة العربية والتى يمكنها نظرياً أن تكون فى مركز العقد منها.



أورهان باموك اليوم هو الروائى الأكثر شهرة فى تركيا وواحد من أكثر الروائيين شهرة فى أوروبا، التى يشعر هو نفسه بالانتماء الحضارى لها كما غالبية مواطنيه العلمانيين أكثر من انتمائه لتراث بلاده المسلم والإمبراطورى العثمانى وإن كان يشعر بالفخر تجاه إنجازات هذه الامبراطورية. وقد ترجمت كتبه الستة كلها إلى العديد من اللغات الأوروبية وهو ما يؤمن له الشهرة العالمية التى أصبحت فى عصرنا المعولم دليل التفوق الأوحد. وهو فى النصف الثانى من العقد الرابع من عمره ومن مواليد استنبول، المدينة التى تختزل فى موقعها وناسها وتاريخها كل العقد المتشابكة فى العلاقة ما بين الشرق والغرب على مر أكثر من ألفى سنة منذ أن كانت بيزنطة الإغريقية إلى أن أصبحت القسطنطينية البيزنطية المسيحية فاستنبول العثمانية المسلمة وفى المائة سنة الأخيرة مدينة عالمية، علمانية، تنام على البوسفور فوق حدود حضارية وسياسية فقدت أهميتها الاستراتيجية، وتنسج من ذكرياتها الامبراطورية العظيمة أحلامًا تهدهد فيها نفسها وتبعد عن مخيلتها هواجس المعاصرة، والهوية والانتماء والإسلام السياسى والعنجهية الأوروبية التى ترفض أن تنسى لها دورها كعاصمة العثمانيين الذين هددوا قلب أوروبا لأكثر من ثلاثة قرون وتضمها لاتحادها العلمانى القوى. وباموك ملتصق بمدينته، لا يطيق الابتعاد عنها لفترة طويلة كما صرح فى أكثر من محاضرة، وهو يقيم فى واحد من أكثر أحيائها تشبعًا بالماضى العالمى الذى طبع المدينة بطابعها المتميز، حى «جاشنكير» الذى يهرول نازلاً من «بيرا» الحى الأوروبى التقليدى خارج حدود العاصمة الامبراطورية، إلى البوسفور، عصب الحياة التجارية والفاصل التقليدى بين أوروبا وآسيا. ولعل تعلق باموك بمدينته هو أكثر العناصر تأثيرًا فى كتابته الروائية، فالمدينة هى خلفية سرده كله، وشوارعها وأزقتها وأحياؤها وممراتها المائية تشكل الأبطال الثابتين فى كل رواياته التاريخية والمعاصرة. ولعل خلفيته التعليمية كمعمار، وإن كان لم يعمل قط بالعمارة، قد جعلت من تعامله السردى مع المدينة أكثر وضوحًا ومادية بل وربما واقعية.

وقد قورن باموك بالعديد من أعلام الرواية المعاصرين، فهو صنو مارسيل بروست فى حفره الدائم فى غياهب الذاكرة وآلامها. وهو تلميذ الروائيين الخياليين الواقعيين من أمريكا الجنوبية من بورخيس إلى جابرييل جارسيا ماركيز فى تحليقه من الواقع إلى الخيال بدون أى تردد أو تعجب أو توقف برهة لتغيير الإطار أو تهيئة القارئ. وهو معادل الروائى الإيطالى إيتالو كالفينو فى سبره لدروس التاريخ من خلال مرآة الحاضر، أو للروائى اللغوى الإيطالى الآخر، أمبيرتو أيكو، فى تماهيه مع واقع تاريخى بحيث ينسى القارئ نفسه فى سرده ويبدأ بالاستغراب عندما يرفع نظره عن الورقة وينظر حوله ليرى الضوء الكهربائى وغيره من علامات الحياة الحديثة التى تحيط به. ولكن أورهان باموك أيضًا نسيج وحده ونسيج موهبته الروائية المتميزة ونسيج مدينته ودولته وثقافتها المتأرجحة بين شرقها الماضى وغربها الحاضر، والمفروض فرضًا بقوة المؤسسة العسكرية الأتاتوركية والمستقبل المأمول فى أحضان الديمقراطيات الأوروبية المتحدة. وهو كقاص وروائى يعكس هذا الهاجس الحضارى فى كل ما يكتبه بطريقة فيها الكثير من الحنكة السردية والهم الإنسانى والحس النقدى المتوهج. ولكن رائعته الأخيرة «اسمى القرمزى» فاقت كل ما سبقها مما كتبه فى عمقها وغوصها المحفور فى التاريخ وفى حدسها المتواتر بالعلاقة الحدية بين الثقافتين الشرقية والغربية وفى تصويرها لتفاعل الناس والأحداث مع المتغيرات حولهم بما

قورن باموك بالعديد من أعلام الرواية المعاصرين، فهو صنو مارسيل بروست فى حفره الدائم فى غياهب الذاكرة وآلامها. وهو تلميذ الروائيين الخياليين الواقعيين من أمريكا الجنوبية من بورخيس إلى جابرييل جارسيا ماركيز فى تحليقه من الواقع إلى الخيال بدون أى تردد



My name is Red

«اسمى القرمزى»

Orhan Pamuk
Erdag M . goknon (Translator)
Knopf, 2001, 384 pp.

أقــــل لــــك مــــن أنــــت ‌“

يمتص التضاد الحضارى إلى داخل حيواتهم نفسها وينقل السؤال ـ الهاجس ـ عن الهوية والتراث والعولمة من بُعده الثقافي إلى بُعده الوجودى والكيانى، أى يجعله سؤالاً إنسانيًا.



والرواية تبدو لأول وهلة كرواية بوليسية مشوقة ذات حبكة متمرسة وإن كانت أحداثها تحصل فى نهاية القرن السادس عشر فى استنبول طبعًا حاضرة السلطنة العثمانية بعد أن همدت همتها فى متابعة مشروعها التوسعى فى أوروبا وبدأت بالتعرف على حدود قوتها خاصة مقابل قوة أوروبا المناهضة التى هزمتها طلائعها فى معركة «لبيانتو» البحرية عام ١٥٧١. فالرواية باختصار هى قصة سلسلة من الجرائم تقع فى محترف الفن التابع للقصر السلطانى، قصر طوبقابى، ويبدو أنها متعلقة بتطور حصل فى المحترف عندما حاول فنان عجوز وسياسى داهية، يدعوه باموك ببساطة «إينيشتى» أى زوج الخالة، إدخال طرائق التصوير الغربية الحديثة على التقليد التصويرى الإسلامى الذى ورثه العثمانيون عن سابقيهم فى إيران وأناضوليا ووسط آسيا بعد أن شاهد بأم عينه اللوحات الواقعية التى كان فنانو البندقية ينجزونها خلال عصر النهضة المتأخر خلال زيارة دبلوماسية قام بها للجمهورية السامية. وهو قد جند لهذا الغرض أربعة فنانين ملحقين بالمحترف السلطانى لمساعدته فى مشروعه سرًا، وهم كلهم أصحاب أسماء ملغزة، «الفراشة»، و«زيتون»، و«اللقلق»، والخطاط»، و«أنيق أفندى». هذا المشروع الفنى والثقافى الثورى هو عقدة الرواية الفكرية والحضارية الرئيسية.

للرواية، كما للقصص التقليدية بطلان رئيسيان، رجل وامرأة، وتعبر قصة حبهما عبر أحداث الكتاب عبورًا هادئًا وتصبغه بالنهاية بصبغة رومانتيكية متأججة من دون كبير دراما. هذان البطلان هما «الأسود» ابن أخت «إينيشتى» وشكورة ابنته. وهما قطبا السرد، فالأحداث تدور حول افتراقهما والتقائهما وقبول الأسود بمساعدة إينيشتيه فى حل لغز الجرائم والمحافظة على المشروع الثورى الفنى الذى كرس إينيشتى نفسه له مقابل سماحه للأسود بالتزوج من محبوبته وابنة خالته. ولكن شكورة متزوجة ولها ابنان وزوجها المحارب الصنديد اختفى فى حملة عسكرية، وهى بالتالى فى وضع قانونى صعب، لا تعرف نفسها فيما لو كانت على عصمة رجل أم لا، بالإضافة لوضعها العائلى المعقد حيث إن شقيق زوجها الصغير

والعربيد مغرم بها حتى الجنون. فوق ذلك كله، شكورة امرأة واعية ومثقفة وصاحبة رأى وتدبير. وهى مطلعة بشكل ما على مشروع أبيها الثقافى ومهتمة بإنجاحه أيضًا، وهى بالتالى جزء من الحبكة، ولكن الفنانين الآخرين الذين اختارهم إينيشتى، والذين تهددهم سلسلة الجرائم الغامضة التى ابتدأت بمقتل خطاطهم «أنيق» أفندى، ليسوا بنفس درجة حماس الأسود أو شكورة لمشروع إينيشتى، بل إن بعضهم معاد له لأسباب أيديولوجية. وهناك أيضًا السلطانَ مراد الثالث راعى المشروع (حكم ١٥٧٤ـ١٥٩٥)، الذى لا يريد له أن يُعرف قبل الأوان، بل ربما ألا يُعرف إطلاقًا، لكى يتجنب ردود فعل القوى المحافظة المتمثلة برئيس المحترف، «عثمان» المتعلق بأساليب القدماء، ومجموعة تابعة لواعظ متصوف من شرق الأناضول ـ موئل الحركات المحافظة فى التاريخ العثمانى والحاضر التركى ـ تهدد بمعاقبة كل من يتبع المستورد الأوروبى ويترك التقليد الإسلامى فى الرسم وغيره. هذه القوى تتصارع فيما بينها، كل ضمن مجاله، لتخلق مستويات الحبكة المختلفة فى الرواية، ولكى تسمح لباموك بعرض آرائه فى الاختلاف والتضاد والتقارب بين الحضارتين الغربية الأوروبية والشرقية الإسلامية، وهو ما يفعله عمومًا بحنكة ودراية.

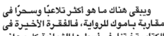


ولكن باموك بالتأكيد ليس روائيًا تقليديًا. وإطار روايته بالتأكيد ليس إطارًا تقليديًا بل هو مبدع ومجدد إلى أقصى حد. بداية هناك الأصوات المتعددة لرواة الرواية والذين قسمت القصة على أساس تبادلهم مهمة السرد إلى تسعة وخمسين فصلاً. هؤلاء الرواة ليسوا فقط الأبطال الواقعيين الذين أدرجنا أسماءهم، مع الأسود وشكورة كشخصيات مركزية، ولكن مخيلة باموك الجامحة تدخل إلى مهمة السرد رواة ما اعتدنا سماع أصواتهم فى القصص. فهناك فى فاتحة الكتاب فصل يقشعر له القارئ، حيث إن الراوى هى جثة «أنيق» أفندى بعد مقتله التى تتنطع بقصة قتله كما أحس بها المجنى عليه لا كما رآها، والتى تبدو مهمومة لكيف سيراها الناس مهشمة الجمجمة ومجرحة الأطراف. وهناك بعد ذلك القاتل الذى لن نعرفه حتى نهاية الرواية، ومن هو أكثر منه بشاعة أو إثارة للخوف بالشكل المجرد، إذ أن كلاً من «الموت» و«الشيطان» يعتليان خشبة السرد ويقدمان فصلاً خاصًا بكل منهما. وبعد ذلك هناك أيضًا كلب وحصان وقطعة نقد، لكل منهم فصله، بالإضافة إلى اللون القرمزى أو الأحمر التى استقت الرواية اسمها منه «اسمى القرمزى»، بما أن كل فصل عنوانه: «أنا الشيطان»، «أنا قطعة نقد» وهلم جرا. ولكن هذه الشخصيات الخيالية أساسًا أو غير الناطقة على أقل تقدير لا تظهر فى الرواية من منطلق واقعها، مهما كان هذا الواقع بعيدًا عن الصياغة التشخيصية، وإنما تظهر من خلال كونها تمثيلاً لهويتها فى لوحة أو فى منمنمة ما يستعملها بعض أشخاص الرواية. أى أن هؤلاء الأبطال الإضافيين ليسوا شخصيات قائمة فى فراغ الرواية الواقعى، وإنما تمثيل فنى لواقعهم مبنى على مصطلحات الفن التصويرى الذى كان يتجاذبه تياران خلال زمن الرواية على ما بناه باموك: التيار التجديدى الواقعى المتأثر بالابتكارات التصويرية الأوروبية والتيار التقليدى المحافظ الذى يعتمد على طرق وأساليب طورت عبر قرون طويلة واكتسبت بذلك شبه قداسة يكثفها باموك بأن يسمى المنظور التقليدى للتصوير الإسلامى، منظور الله، أى أن الفن يسعى لتمثيل العالم كما يراه الله لا كما يراه عبد الله، وهو ما سعت إليه المدارس التصويرية الأوروبية كافة منذ عصر النهضة. ويزيد باموك فى مقارنته الترميزية لأساليب الرؤية والتصوير بين الحضارتين بأن يقترح أن الهدف الأعلى والمرجو للمصورين المسلمين فى المحترف العثمانى وفى التاريخ المتخيل هو أن يصابوا بالعمى لكى يتجنبوا التسميم البصرى الذى تخلفه رؤيتهم للعالم وللأشياء بدلاً من تخيلها كما وعتها بصيرتهم من رسوم الأولين، أى من التقليد، أو من الوحى الربانى، على حين أن الرؤية والتمعن ومقاربة الواقع المنظور هى الأهداف الأساسية للتصوير الغربى الناهض.



هنا بيت القصيد فى مشرع باموك نفسه، فهذا القاص العلمانى سياسيًا والمبدع والمفكر عميق التفكير قرر استعمال هذه الثنائية المتضادة لمقاربة هاجسه الأصلى: كيف يمكن للثقافة التركية المعاصرة أن تنفض العطالة التاريخية الموروثة عن نفسها وتلتحق بالغرب المتقدم من دون أن تفقد أصالتها العظيمة المتمثلة بالإنجازات المتميزة للسلطنة العثمانية ومن دون أن تقطع التواصل مع ماضيها قطعًا باترًا؟ هذا السؤال الذى لازال يشغل بال المنظرين والمجددين النهضويين فى العديد من بلاد العالم الثالث يكتسب حدة خاصة فى تركيا بعد مرور ثمانين عامًا على مشروع كمال أتاتورك التحديثى الذى حاول تدمير كل ما هو عثمانى أو إسلامى، من اللغة إلى المعتقد فالكتابة والمظهر واللباس، وحاول حرق المراحل والقفز على الحواجز وإجبار الأتراك رغمًا عن أنفسهم بالتمثيل بالحضارة الأوروبية، وفشل مع ذلك فى الخروج من قمقم التقاليد وفى الدخول فى آفاق الحداثة الرحيبة كما اشتهى وتمنى لأنه فشل فى فهم الدرس الأول للتاريخ: الناس أبناء تجربتهم ونضالهم وصيرورتهم هم، لا نضال ونظرة وتجربة وصيرورة غيرهم. ثم أتى جيل باموك ليلملم الأشلاء وليعيد صياغة المشروع صياغة جديدة وحساسة ومتماشية مع واقعها وتاريخها، وإن كانت المعوقات الاقتصادية والعسكرتارية والجيوسياسية مازالت تضع العصى فى عجلة هذا المشروع. ويبدو أن باموك قد اعتمد هذه المراجعة كخلفية نقدية لعمله الروائى. وبرأيى أنه نجح فى إدماجها بالرواية من جهة وفى معالجتها نظريًا ونقديًا عبر معالجته المتعمقة والمتفلسفة أحيانًا لمسألة التمثيل التصويرى فى الشرق والغرب التى ينثرها فى مقاطع طويلة خلال الرواية تقدم نظرة شخصية ومتفردة لتاريخ الفن التصويرى الإسلامى، وإن كان أحيانًا يشط فى التنظير وينسى أنه فى خضم رواية تتسارع أحداثها مما يتطلب منه تركيز اهتمامه على السرد.

لم يقدم الفن الإسلامى للثقافة العالمية تعبيرًا أكثر دقة ولطفًا وطرافة مما يسمى تجاوزًا المنمنمات. تلك اللوحات التصويرية الصغيرة والمسطحة شكلاً وتشكيلاً والمليئة بالألوان الفاقعة التى لا تتقاطع أو تختلط على سطح اللوحة أبدًا، والتى تمثل عمومًا مواضيع محددة اقتبس معظمها من ملاحم الشعر الفارسى الوسيط، وإن كان بعضها يمثل وقائع تاريخية حقيقية. هذا الفن الذى اندفع فوارًا فى القرون بين الرابع عشر والسابع عشر ليخلق تراثًا تعبيريًا متفردًا وفذًا يدين بوجوده أصلاً لنمو فئة ذواقة مرفهة رعت مبدعيه واقتنت إبداعهم فى ظل الإمبراطوريات الكبيرة التى شهدها العالم الإسلامى فى فترة ما قبل الحداثة كالمغول والعثمانيين والصفويين. ولكن هذا الفن كان مختلفًا بشكل جذرى عن معاصره الأوروبى فيما يتعلق بطرق التمثيل ودوافعه ونتائجه. فهو لا يروم تمثيل الواقع ولا يسعى لمحاكاة الطبيعة بل ولا يهمه دقة الشبه بين التمثيل والأصل، على عكس الفن التصويرى الأوروبى الذى كان فى تلك الفترة يطور المنظور والظل ودقائق الشبه لكى يصل بالتمثيل إلى أبعد مدى واقعى وطبيعى ممكن. هذا الاختلاف هو عصب النقاشات العديدة فى الرواية وموئل تساؤلات باموك عن إمكانية الموافقة بين الأصالة والحداثة بشقيهما الإسلامى والغربى اللذين يبدو أنهما قد تجمدا اليوم كرمزين على التضاد المطلق الذى لا يمكنه التلاقى. ولعل هذا الفشل الثقافى المحتمل هو السبب الرئيسى وراء نجاح باموك فى سرده: فحرقته وسخريته وتوجسه كلها مشاعر قوية تضفى على الرواية بعدها الإنسانى والعالمى.



ويبقى هناك ما هو أكثر تلاعبًا وسحرًا فى مقاربة باموك للرواية، فالفقرة الأخيرة فى الكتاب تختزل فى أسطرها الثمانية كل معانى القص، وبشكل خاص القص التاريخى. فالأم شكورة تخبرنا أنها أعطت لابنها أورهان، الذى يتميز بمنطقيته فى كل الأمور، كل الوثائق التى فى حوزتها عن قصتها وقصة الأسود على أمل أن يتمكن من صياغتها وتقديمها، مع أنها مقتنعة بأن هذه القصة عصية على التقديم. أى أن شكورة هنا تمنحنا الدليل على أن القصة ذات أساس حقيقى مدعم بالوثائق اللازمة، ككل كتابة تاريخية حقة. ولكنها لا تقف هنا، بل إنها تكمل لكى تضيف البعد الثانى والأهم للقص، الذى يبعده عن الحقيقة ببرودتها وحديتها ويقربه من الخيال بتحرره وسعيه وراء الجمال، أى البعد المتخيل أو البعد الموضوع الذى لا يمت للحقيقة بصلة والذى لا يتطلب إثباتًا أكثر من تأثيره على عواطف ومدارك القارئ. فشكورة التى جمعت فى شخصيتها فى الكتاب بين الجموح العاطفى والأعصاب الهادئة والنظرة الثاقبة تحذرنا نحن القراء من أن نؤخذ بسرد أورهان الذى يقدم لنا نسخًا متخيلة عن حقيقة الأسود وشكورة وشوكت، لأن أورهان على قول أمه فى سبيل الوصول إلى قصة مقنعة ومشهية لن يتوانى عن استعمال أى كذبة ممكنة. ولا أظن أن هناك سبكًا أجمل من هذه الفقرة لماهية القص، أو أن هناك تلاعبًا أكثر حذقًا من تلاعب الكاتب هنا بين دوره هو، أى أورهان باموك، كقاص، ودور أورهان، الشخصية القصصية فى تقديم القصة كلها لنا وجعلنا نستسلم لعالمها بافتتان. ■

هذه القوى تتصارع فيما بينها،
كل ضمن مجاله، لتخلق مستويات
الحبكة المختلفة فى الرواية، ولكى تسمح
لباموك بعرض آرائه فى الاختلاف والتضاد والتقارب
بين الحضارتين الغربية الأوروبية والشرقية
الإسلامية، وهو ما يفعله
عمومًا بحنكة ودراية





دماغ الإنسان

جغرافيا جديدة

فتح الله الشيخ

هل كان الفلاسفة الأولون على حق وبصيرة بتفريقهم بين «عقل» الرجل و«عقل» المرأة؟

يكتشف المتتبع لأخبار العلم والتقدم العلمي أن العلماء يضيفون جديدا كل يوم، يؤكدون فيه مقولات وأفكارا ونظريات لهم سابقة أو ينفونها أو يشككون فيها، وقد يضيفون إليها أو يحذفون منها. ويحدث كل ذلك بصورة ديناميكية مكثفة تجعلنا نلهث وراء الأحداث، فلا تسعفنا ذاكرتنا المحدودة ولا إمكاناتنا الذهنية القاصرة في اللحاق بها. (رحم الله زمانا كان فيه «العالم» يحيط بكل شيء ويتعرض للفتوى في جميع المسائل). فإذا أخذنا بعض فروع العلم كالبيولوجيا مثلا لوجدنا بها عشرات، بل مئات التخصصات، وكذلك الطب والفيزياء والكيمياء... وهكذا. وقد طلع علينا العلماء في الأشهر الأخيرة باكتشافات عديدة تتعلق بالمخ البشري والدور الذي تلعبه المناطق المختلفة داخله في العمليات الحيوية التي نقوم بها، سواء إراديًا أو لا إراديًا. فقد اتضح أن للكوليسترول فائدة عظيمة في اتصال وتواصل الخلايا العصبية في المخ، الأمر الذي يؤثر مباشرة في عمليات التعلم والذاكرة. كذلك تمكن الباحثون - باستخدام الطرق المختلفة لرسم المخ - من رصد ودراسة عدة ظواهر مثل روح الفكاهة، والميل للجمال في الوجوه المحيطة بنا، والفرق بين الذكور والإناث في استخدام نصفي المخ الأيمن والأيسر، وضبط النفس والتحكم في العواطف والأحاسيس، والعلاقة بين الموسيقى واللغة والجنس والمراكز المسئولة عن ذلك في المخ، وربط درجة الذكاء بحجم المادة الرمادية في المخ، وظاهرة النوم وحاجتنا إليه، وتغريد الطيور والآمال المعقودة على إعادة تكوين الخلايا العصبية، والعلاقة بين الألم والسرور داخل مخ الإنسان، وأخيرا الدور الذي قد يلعبه تدمير أجزاء من المخ في تحول الإنسان الطبيعي إلى مجرم قاتل.

«جغرافية» جديدة:

تستولي فكرة تحديد موقع لكل شيء داخل الدماغ على جهود الباحثين المتخصصين سواء كانوا من علماء الأعصاب أو علماء النفس أو السلوكيين. وفي هذا الصدد يظهر الجديد كل يوم بفضل التطور الهائل في تقنيات الكشف والقياس. واكتشاف المواقع المختلفة داخل المخ يفيد كثيرا في علاج الحالات المرضية المتعلقة بحدوث خلل في وظائفه، وعلى وجه الخصوص بعد الإصابة بالسكتة الدماغية وتعرض مناطق مختلفة من المخ للدمار الجزئي أو الشامل.

ولنبدأ بالفكاهة والدعابة والتي يبدو أن الجزء الأيمن من الفص الأمامي (الجبهي) من المخ هو المسئول عنها عند الإنسان، وهو الجزء الذي يعلو العين اليمنى مباشرة. وقد اتضح ذلك من الفحص بالرنين المغناطيسي (MRI) للمخ أثناء إلقاء النكات أو متابعة الرسوم المتحركة المضحكة وبمقارنة نشاط الأجزاء المختلفة للمخ.

ومن الطبيعي أن تساعد هذه الدراسات - على الرغم من كونها تنصب على الضحك - في تفهم حالات الاكتئاب وغيرها من أعراض الأمزجة المختلة. وتساعد هذه البحوث كذلك في فهم ما يحدث أحيانا لمن تعرضوا للإصابة بالسكتة الدماغية (stroke) ونجوا منها، حيث يفقد بعضهم الإحساس بالدعابة وتختل أمزجتهم وتتغير شخصياتهم. ومن الطريف أن الجزء من المخ المسئول عن التحكم في الأمور الاجتماعية والعاطفية والتخطيط هو نفسه المسئول عن الإحساس بالدعابة والفكاهة.

وقد أجريت أربعة اختبارات على ١٣ متطوعا تعرضوا أثناءها لمثيرات متنوعة للضحك، وقام فريق البحث من جامعة «روتشيستر» بتسجيل صورة الرنين المغناطيسي (MRI) للمخ. ومع أن الهدف من الضحك عند الإنسان ليس معروفا حتى الآن، على الرغم من مرور أكثر من ٢٠٠٠ سنة من المحاولات المستمرة، إلا أن الإحساس بالدعابة يعتبر أحد مفاتيح الشخصية ويمكن أن يلعب دورا قويا في مواجهة الأحاسيس السلبية مثل «الرهاب». ومن المعتقد أن دراسة وفهم الأحاسيس الإيجابية سيساعد كثيرا في فهم المخ البشري تماما مثل دراسة الأحاسيس السلبية.

وهناك كشف «جغرافي» آخر داخل المخ يربط بين ثلاثة أشياء هي المال والكوكايين والوجه الحسن، فما هو الشيء المشترك بينها؟ ربما يكون هناك شيء ما يربط بين هذه الثلاثة، وعلى الأخص لو سألنا الشباب. فقد ثبت أن رؤية وجه امرأة جميلة يثير رد الفعل نفسه في المخ مثل الكوكايين أو كسب المال. وفي تجربة مثيرة قامت مجموعة من الباحثين من المستشفى العام في «ماسيتشوسيتس» بعرض صور لحسناوات على ١٠ من الرجال (الطبيعيين جنسيا) تتراوح أعمارهم بين ٢١ و٢٨ سنة اكتشف بعدها فريق البحث أن الجمال يثير المراكز نفسها في مخ الإنسان التي يثيرها تعاطي الكوكايين أو اكتساب المال.

تضمنت التجارب تعرف الباحثين على الوجوه التي يفضلها الرجال المتطوعون ويُسَرُّون بمشاهدتها. وقد عرضت ٨٠ صورة مقسمة إلى أربع مجموعات من الوجوه: رجال متوسطو الوسامة، ورجال يتميزون بالوسامة، ونساء متوسطات الجمال، ونساء جميلات. ورتبت الوجوه في مستويات من ١ إلى ٧ وقد طلب من المتطوعين أن يقوموا بالضغط على زرٍّ يسمح لهم بمشاهدة صور الوجوه التي يفضلونها أكثر من غيرها. جاءت النتائج لتؤكد أن الأفضلية في ترتيب الصور كانت للوجوه الجميلة سواء كانت للرجال أو للنساء. وقد بينت نتائج الاختبارات أن الرجال يبذلون أقصى ما عندهم لمشاهدة وجوه النساء الجميلات، فعلى مدى ٤٠ دقيقة كان متوسط عدد مرات الضغط على الأزرار ١٥٠ مرة في الدقيقة (!). ومن الطريف أنه المعدل نفسه الذي تضغط به الفئران الأزرار للحصول على الكوكايين. ومغزى هذه النتائج هو أن صور الوجوه الحسناء لها نمط التأثير نفسه الذي للكوكايين أو الطعام أو اكتساب المال.

ويعلق علماء السلوك آمالا عريضة على دراسة ردود الأفعال في مخ الإنسان تجاه الجمال، فما زال الجدل محتدما حول ماهية الجمال، وهل هو مفهوم فطري أم مفهوم يصوغه المجتمع ؟ وقد سبق أن أظهرت تجارب أجريت على مواليد من عمر أسبوع واحد أنهم يفضلون الوجوه الجميلة على الوجوه متوسطة الجمال، الأمر الذي يشير إلى أن الجمال مبرمج في عتاد أدمغتنا. لكن البعض ما زال يجادل ويدفع بأن الجمال مفهوم أو بنية اجتماعية صِرْفة نتعلمها من ظروفنا وبيئتنا، كما جاء في كتاب «ناعومي وولف Naomi Wolf الشهير» أسطورة الجمال (The Beauty Myth) ويدعو البعض إلى نبذ التفكير في الأشياء بمنطق الأساطير والخرافات، وأن علينا استخدام أدوات علم الأعصاب لتحليل وفهم كيفية أداء الأشياء لوظائفها.

وتعتبر مراكز ردود الأفعال في المخ البشري، والتي تتضمن مناطق مثل (متكئات النواة nucleus accumbens) و(اللوزة amygdala) و(اللحاء أو القشرة cortex) و(الأدمة البطنية ventral tegmentum) وغيرها، من مخلفات التطور التي ورثناها عن الزواحف، وقد ارتبطت بطيف عريض من الخلل السيكولوجي الذي يمتد من الإدمان وحتى الاكتئاب.

هذا هو المخ البشري الذي نسعد ونشقى به في صراعنا الأزلي من أجل الحياة، فهل يستخدمه الرجال والنساء بنفس الكيفية ؟ وهل كان الفلاسفة الأولون على حق وبصيرة بتفريقهم بين «عقل» الرجل و«عقل» المرأة ؟ تشير الأبحاث الحديثة إلى أن الأولاد والبنات تحت سن البلوغ يستخدمون أجزاء مختلفة من المخ عندما يسلكون طريقهم في الحياة. وتبين هذه الأبحاث أن البنات لايتعرفن بشكل أفضل على التغيرات الطفيفة في تعبيرات الوجوه فقط، بل اتضح أن الجنسين (الأولاد والبنات) يتعاملان مع التعبيرات والتغيرات التي تطرأ عليها بطرق مختلفة. فبينما يتمكن الأولاد والبنات من التعرف على تعبيرات الوجوه بنفس الدرجة، إلا أن الأولاد يستخدمون النصف الأيمن من المخ أكثر، في الوقت الذي تستخدم فيه البنات النصف الأيسر أكثر، ومن المعروف أن النصف الأيمن من المخ يتعامل مع أشياء خاصة مثل الهيئة أو المظهر وهو المسئول عن إدراك الموقع واستيعاب المعلومات الجغرافية. ومن المحتمل في ظل هذه النتائج أن يكون تعرف الأولاد على الوجوه مقصورًا على النصف الأيمن بينما يتعرف البنات على الوجوه بطريقة أكثر تدقيقا، ولذا فالبنات قد يكن الأفضل إذا قمن بالمفاضلة الدقيقة بين التعبيرات المختلفة على الوجوه.



وقد أظهرت هذه الدراسات أن المخ مرتب بطريقة مختلفة عند البنات والبنين قبل سن البلوغ، كما أن الدراسات السابقة كانت قد أكدت وجود اختلافات في طريقة ترتيب المخ عند الرجال والسيدات البالغين. تضمنت الدراسات عرض صور للوجوه على الأطفال بواسطة جهاز عرض مع تسجيل موجات المخ كهربيًا (electroencephalograph) أثناء ذلك. وقام فريق البحث بقياس دقة الأطفال في تحديد التعبيرات العاطفية على الوجوه في هذه الصور والزمن الذي يستغرقونه في ذلك. وقد اتضح ارتباط نشاط نصف المخ الأيمن عند الأولاد بدقة أدائهم لهذه المهمة (تحديد تعبيرات الوجوه)، بينما لا يحدث ذلك عند البنات. فالبنات قد يستخدمن أنظمة عصبية مختلفة ومتداخلة لإتمام المهمة. فهل يعني ذلك أن البنات أذكى أو أمهر من الأولاد؟ كلا، كل ما في الأمر أنهن يتعاملن مع العالم المحيط بهن بطريقة مختلفة. وطريقة البنات في التعرف على تفاصيل التغيرات الدقيقة في تعبيرات الوجوه قد تكون هي الأفضل، مما يعني أن لهن مقدرة أكبر على قراءة الوجوه.

ولعل أحد أهم التطبيقات العملية لهذه الدراسات هو تركيز العلاج على مناطق مختلفة من المخ وبطرق مختلفة عند الرجال عنها عند النساء في حالة تعرضهم للإصابة بالسكتة الدماغية. فإذا أمكننا

معرفة أوجه الخلاف بالضبط بين الرجال والنساء فى أداء وظائف المخ، إذا تمكنا من مساعدة ضحايا السكتة الدماغية الذين يعانون أحيانا من مشكلة التعرف على الناس وتعبيرات الوجوه. ويخطط الباحثون الآن لدراسة عملية التعرف على الوجوه بين البالغين للتيقن مما إذا كانت العمليات نفسها تحدث فى مخ الرجال والنساء أم لا.

ومن أحدث الكشوف الجغرافية فى تلافيف وثنايا المخ البشرى ما طلع علينا به مجموعة من الباحثين من جامعة مونتريال فى كندا حيث تمكنوا من تحديد الموقع المسئول عن الاعتدال فى السلوك، بمعنى التهذيب، وضبط النفس والتحكم فيها داخل المخ. وقد أجروا تجاربهم على مجموعة من الرجال أثناء مشاهدتهم لأفلام جنسية، فاكتشفوا منطقة فى مقدمة المخ مسئولة عن التحكم فى عملية الإثارة الجنسية وكبحها فى أكثر أشكالها بدائية. طلب فريق البحث من أكثر من عشرة متطوعين من الرجال أن يطلقوا العنان لأحاسيسهم أثناء مشاهدة مناظر جنسية مباشرة دون محاولة ضبط أو تقييد هذه الأحاسيس. وباستخدام التصوير بالرنين المغناطيسى اكتشف الفريق أن المركز المسمى «المخ العاطفى أو الانفعالى» emotional brain قد نشط عند الرجال المتطوعين. طلب فريق البحث بعد ذلك من الرجال مشاهدة المناظر الجنسية نفسها لكن مع ضبط النفس والتحكم فى الأحاسيس ما أمكن، وذلك بمحاولة الانفصال عما يشاهدونه. وقد اتضح من هذه التجارب أن بعض مناطق المخ، وهى اللحاء الجبهى prefrontal cortex قد نشطت عند إظهار المتطوعين لضبط النفس والتحكم فى رد الفعل.



من المعروف أن الفص الجبهى هو أحدث الأجزاء التى ظهرت أثناء مسيرة تطور الجهاز العصبى. فالشمبانزى تمتلك فصا جبهيا فى المخ، لكن حجمه لا يتعدى ٢٥ ٪ من حجمه عند الإنسان. وبذلك فإن التحكم وضبط النفس فى ردود الأفعال - فيما يتعلق بالجنس - يتم بواسطة عضو فريد خاص بالرئيسيات (منها القردة العليا الشمبانزى والغوريلا والأورانجوتان والجابون) لكنه متطور جدا فى الإنسان. وربما يكون لظهور خاصية المقدرة على التحكم وضبط النفس فى العواطف والأحاسيس تطبيقات واسعة، فقد تستخدم لمواجهة أنواع من الخلل السيكولوجى مثل الاكتئاب والاستثارة، وهى أمور ترتبط بعدم قدرة المريض على الانفصال عن التفكير فى الحزن والقلق فى نفسه.

عن الموسيقى والحب

اكتشف العلماء مؤخرا أن أنغام الموسيقى تثير أو تنشط المناطق نفسها التى يثيرها الطعام والجنس فى مخ الإنسان. فالناس يستخدمون الموسيقى لتساعدهم فى التغلب على الأحزان والرهبة، وهى تثير مراكز فى المخ تجعلهم يشعرون بالسعادة استخدم الباحثون فى دراسة هذه الظاهرة نوعا من رصد أو تصوير المخ يسمى «توموجرافيا انبعاث البوزيترون» PET أو التصوير الطيفى، ليحددوا المناطق التى تُستحث بواسطة الموسيقى. وقد صرح المتطوعون الذين خضعوا للتجارب بأن صدح الموسيقى كان يبعث بقشعريرة فى العمود الفقارى لهم.

وجد العلماء أن كثيرا من مناطق أو مراكز المخ التى تنشط بالطعام أو الجنس هى نفسها التى تنشط بالموسيقى. وكانت دراسات سابقة قد أشارت إلى ارتباط الأجزاء الوسطى والبطنية من التراكيب المخية وكذلك أجزاء من اللحاء بالجنس والطعام. غير أن هذه الدراسة الحديثة بينت وجود رد الفعل نفسه فى المناطق نفسها تجاه الموسيقى عند جميع المتطوعين العشرة الذين خضعوا للاختبار. وعندما كان هؤلاء المتطوعون يستمعون للموسيقى التى تبعث فيهم القشعريرة كانت صور المسح المخى تُظهر نشاطا فى أجزاء المخ التى يثيرها الجنس والطعام.

ومن جهة أخرى، توصل علماء معهد ماكس بلانك لعلم الأعصاب المعرفى بمدينة لايبزج بألمانيا إلى الارتباط القوى بين مقدرة التعرف على النغمات الموسيقية الجيدة وإجادة اللغة، فقد وجدوا أن المنطقة من المخ التى تتعامل مع القوانين المعقدة للغة هى نفسها التى تساعد فى التعرف على جودة النغمات الموسيقية. وقد تساعد هذه الاكتشافات فى الإجابة عن السؤال المحير: هل يتعلم الأطفال قواعد الموسيقى فى السنوات الأولى من عمرهم أم أن هذه القواعد قد طُبعت فى مخهم قبل ولادتهم؟ وعموما فإن الموسيقى العادية محكومة بمجموعة من القوانين قريبة الشبه بالقوانين التى تحكم بنية الجُمل اللغوية.

وقد قام علماء معهد ماكس بلانك بقياس المجال المغناطيسى وذلك بتصوير المخ كهرومغناطيسيا (Magnetoencephalography) أثناء استماع ستة من المتطوعين لم يدرسوا الموسيقى قط إلى خمس نغمات متتالية دون فاصل زمنى. وقد وجد الفريق أن منطقة من المخ اسمها: منطقة بروكا (Broca's area) تظهر ردود أفعال مختلفة اعتمادا على ما إذا كانت النغمات تمثل موسيقى حقيقية أم موسيقى زائفة.

ومن الحب واللغة والموسيقى إلى مزج الألم والسرور فى مناطق المخ البشرى المسئولة عن ذلك. فقد اتضح مؤخرا أن أجزاء المخ التى تنفعل تجاه الإحساس بالسرور والغبطة هى نفسها التى تنفعل بالألم. وربما يؤدى هذا الاكتشاف إلى تفهم أفضل لتأثيرات الألم داخل المخ، وبالتالى إلى ارتياد طرق جديدة فى تشخيص

وعلاج الألم. والألم، كما يقول الدكتور بورسوك من المستشفى العام فى «ماسيتشوسيتس»، خبرة متراكبة معقدة تتضمن كلا من الحس والمشاعر. فإذا فهمنا المكون الشعورى للألم فإننا قد نتمكن من تطوير طرق جديدة لمساعدة مرضى الألم المزمن، والذين هم معرضون أكثر من غيرهم لاحتمالات الإصابة بالتعصب (الحصرى) والاكتئاب والرغبة فى الانتحار.



وقد استخدمت وسائد حرارية ملتصقة بأيدى ثمانية من المتطوعين الشباب، كانوا يتعرضون للتسخين الهين والتسخين الشديد (الذى يحدث الألم) ثم انقطاع التسخين بالتناوب، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تصوير مخ كل منهم بتقنية «التصوير الأدائى (الوظيفى) بالرنين المغناطيسى» Functional Magnetic Resonance Imaging (fMRI)، مع التركيز على مناطق معينة فى المخ سبق تحديدها لأنها تتضمن خبرة الإحساس، وكذلك على مناطق ثبت من الدراسات السابقة أنها تنشط بالعوامل التى تُدخل السرور على النفس مثل الكوكايين والطعام والمال. وقد بينت نتائج الدراسات أن درجات الحرارة المرتفعة تنشط الدوائر التقليدية الخاصة بالألم، وتقوم كذلك بتنشيط بعض المناطق التى كانت معروفة بأنها مناطق الانفعالات السارة. وقد اتضح أثناء إجراء الاختبارات أن ردود أفعال دوائر الألم فى المخ أبطأ من ردود أفعال دوائر السرور، فقد نشطت دوائر الألم قرب نهاية فترة التسخين فقط. ومن الطريف أن هذين النظامين لم يرتبطا قط فى الماضى، وهذه أول مرة نجد فيها أن شيئا مبغوضا أو مكروها يثير دوائر وبنية السرور فى المخ. ويبدو أن بعض الفلاسفة كانوا على صواب عندما قالوا بأن «السرور والألم أجزاء من طيف واحد للأحاسيس والمشاعر» وقد تبعث مثل هذه الاكتشافات الأمل فى تطوير علاج بديل للألم لا يتضمن أدوية أو عقاقير، وقد تساعد الذين يعانون الألم بشكل مزمن على التحكم فى درجة احتمالهم له.

وتأخذنا الطيور المغردة إلى آفاق لم نكن نحلم بها من قبل، فهذه الطيور بالتحديد قد تسببت فى اكتشاف ظاهرة غريبة. فقد اتضح أن مخ الكنارى قادر على إعادة إنبات الخلايا العصبية (العصبونات) التى تتلف فى المخ، الأمر الذى كان يعد مستحيلا حتى الآن. اكتشف العالم «فيرناندو نوتيبوهم» من جامعة روكفلر بنيويورك أنه إذا أعطى أنثى الكنارى جرعة من التستوستيرون فإنها ستبدأ فى التغريد مثل الذكر، ذلك لأنها أنبتت عصبونات جديدة فى «مركز الغناء الأعلى» High Vocal Center (HVC) والذى ازداد حجما بتناول هرمون الذكورة (التستوستيرون). وقد اتضح أن مواسم التغريد عند الطيور عموما تتطابق مع مواسم نمو وتلف مراكز الغناء العليا (HVC).

ويكاد هذا الأمر أن يكون من الخيال العلمى حيث إنه من المفروض ألا يقوم المخ ببناء (إنبات) ما يتلف من الخلايا العصبية. فوجهة النظر السائدة والمعترف بها حتى هذه اللحظة هى أننا نولد بجميع عصبوناتنا التى يمكن أن نحصل عليها بلا زيادة، فإذا تعرضت هذه الخلايا للتلف أو الدمار فإننا لا نستطيع تعويضها أبدا، وعلينا أن نحيا بما يتبقى منها. فإذا اكتشفنا الطريقة التى تنبت بها الطيور المغردة عصبونات جديدة، فقد نتمكن من علاج الأمراض المرتبطة بتلف وموت الخلايا العصبية (مرض باركنسون مثلا).



لماذا نحتاج إلى النوم؟ ولماذا يتحول البعض إلى قتلة ومجرمين؟ وهل نتوارث الذكاء؟

يقول كريستوفر نيوتن، المحرر العلمى لوكالة «أسوشيتد برس»: «عندما يتصارع العقل البشرى مع المعضلات فى لحظات التماس بين الحلم واليقظة، فإنه يأخذ الحقائق والذكريات والعواطف والانطباعات ويضمها معا ويفعل بها كما نفعل بالصور المتقطعة عندما نحاول إعادة تجميعها، وقد يأخذ المخ الحالمين أثناء نومهم على موجة شاطئية من الخوف والأمل تحملها العواطف والأمانى المكبوحة». ويختلف العلماء اليوم اختلافا شديدا حول فهم أسباب النوم والأحلام عند الإنسان. ويؤكد الخبراء أن النتائج والاستنتاجات المتباينة فى ما ينشر حول هذا الموضوع ما هى إلا دليل على أن القليل فقط هو المعروف عنه. وقد توصل بعض الباحثين إلى أن المخ يعمل بجد أثناء النوم «لإعادة ترتيب المعلومات فى صورة تساعدنا على فهمها، فالعالم الذى تحيا فيه على درجة عالية من التعقيد، والمخ لا تكفيه ساعات اليقظة لإنجاز مهمة فهم هذا العالم، لذا فهو - أى المخ - يستعين بساعات النوم أيضا».

وعلى العكس من ذلك تماما، يؤكد باحثون آخرون أنهم قاموا بتحليل عشرات النتائج والبيانات حول العلاقة بين الأحلام والمخ والنوم والتعلم، فلم يجدوا دليلا على أن المخ يقوم بعمل أى شىء مهم أثناء النوم. ومنذ القدم تتباين الآراء حول ما يحدث عندما ننام ونحلم، فقد كان الناس قديما يعتقدون أنهم يتصلون بأسلافهم عندما يحلمون، أما اليوم فتظهر نظريات تقول بأن المخ يعمل بجد أثناء النوم. ولا توجد أدلة قاطعة على صحة أية نظرية من كل ما قيل عن النوم والأحلام.

وقد جاءت نتائج التجارب التى أجريت على متطوعين لتزيد من الجدل والتباين فى الآراء. فعندما قسم «ستيكجولد» المتطوعين إلى قسمين، سمح لقسم منهما بالنوم العميق حتى الوصول إلى REM أو نوم حركة العين السريعة rapid eye moveme وحرم القسم الآخر من النوم، وجد أن القسم الذى تمتع بالنوم كان أداؤه أفضل تجاه إيجاد حلول للمشكلات. فسر «ستيكجولد» ذلك بأن جزءًا من المخ يستخدم قسما صغيرا من الذاكرة ليصوغ منها الأحلام بينما ينشغل جزء آخر من المخ بمعالجة المعلومات الجديدة ووضعها فى نظام معين ليتمكن المخ من فهمها. غير أن «جيروم سيجيل» من مركز أبحاث النوم بجامعة هارفارد يرى عكس ذلك، فالمتطوعون الذين حرموا من النوم يعانون من ضغط أو توتر (stress)، الأمر الذى يجعل أداءهم أسوأ أو أقل كفاءة. وتسلك الحيوانات السلوك نفسه إذا حرمت من النوم، لكنها عندما حرمت من النوم العميق (REM) نوم حركة العين السريعة - فإن أداءها لم يتأثر. وينقسم العلماء بين مؤيد ومعارض لآراء ونظريات «ستيكجولد»، لكنهم جميعا يرصدون تحسن الأداء بعد ليلة نوم هادئ، ويتفقون على أن الحرمان من النوم أمر غير صحى.

وإذا تركنا النوم وأسبابه إلى ما يحدث للمرء عندما يتعرض جزء من مخه للدمار، فإننا سنجد «جوناثان بينكوس» رئيس قسم الأعصاب بمستشفى واشنطن لقدامى المديرين والأستاذ بجامعة جورج تاون، سنجده يؤكد فى أحد كتبه أن جميع القتلة الذين فحصهم يتمتعون بصفات مشتركة. فقد اتضح أن ١٠٠ قاتل من ١٥٠ خضعوا للفحص يشتركون فى ثلاثة أشياء: وجود مرض عقلى (ذهنى)، ووجود تهتك أو دمار فى بعض أجزاء المخ، والتعرض للاغتصاب بشكل أو بآخر فى الطفولة. أما الخمسون الآخرون فيشتركون فى اثنين من هذه الأمور الثلاثة على الأقل. ويلاحظ «بينكوس» أن اختبارات الذكاء .I.Q ليست اختبارات شاملة لجميع أجزاء المخ، لأنها فى الواقع لا تصلح إلا للأجزاء الخلفية من المخ، أما الأجزاء الأمامية فالحكم عليها بواسطة اختبارات الذكاء ليس بالجودة نفسها. والأجزاء الأمامية هى مكمن التشوهات العصبية عند القتلة والمجرمين، وعادة ما تصاب الفصوص الأمامية بدمار جزئى أثناء الحوادث (حوادث السيارات) أو عند السقوط أو الضرب على الرأس.

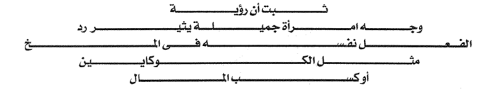


ولا يشعر معظم مرتكبى الجرائم بأنهم على خطأ، وهم يعرفون أنهم مخطئون، لكنهم لا يشعرون أو يحسون بذلك (يعرفون ولا يشعرون). ويروى «بينكوس» مثالا نموذجيا على ذلك، فأحد مرضاه يعمل طبيبا وقد أجريت له عملية جراحية لإزالة ورم من الفصوص الأمامية للمخ، مع ما يتبع ذلك من دمار لهذه الفصوص. وقعت لهذا المريض ثلاث حوادث أثناء قيادته لسيارته جاءت كلها نسخة مكررة من بعضها. تبدأ الحادثة بوجود حاجز على الطريق السريع لا بد من التوقف أمامه أو الالتفاف حوله، لكن الرجل يواصل قيادته لسيارته بالسرعة نفسها حتى يصطدم بالحاجز. إنه يعلم جيدا أن الاستمرار فى السير خطأ لكنه لا يستشعر هذا الخطأ ولا خطورته. وفى مثال آخر قام أحد الأشخاص باغتصاب ابنته بالتبنى وهى فى الخامسة من عمرها بعد أن تعرض لحادث سيارة أدى إلى تدمير الفصوص الأمامية للمخ. ولم يشعر هذا الرجل بأية غضاضة أو ندم، بل اعتبر أن الصحافة والتلفزيون يهولان من الأمر كعادتهما. ولم يكن التدمير الجزئى للفصوص الأمامية فى المثالين السابقين هو السبب الوحيد للتحول الذى أصاب الرجلين، فقد تبين أن أحدهما يعانى من مرض ذهنى وكان عرضة لما يمكن أن يفهم منه أنه اغتصاب فى طفولته. أما الآخر فقد تعرض للاغتصاب من والديه وهو طفل صغير.

أثارت نتائج هذه الدراسات الكثير من الجدل حول أمور حيوية عديدة. فقد أثارت التساؤل عن مكمن الأخلاق والذوق، وعن مسئولية مرتكبى الجرائم الكبرى (إذا سلمنا بأنهم مرضى) وهل يجب محاكمتهم ومعاقبتهم؟، وعن الدعوة لتوقيع الكشف الطبى والنفسى الشامل على مرشحى المناصب العليا حتى لا يبتلينا القدر بأمثال هتلر أو موسلينى..... والقائمة تطول. ويؤكد العلماء أن الأخلاق والذوق مقرهما المخ، لكن أين بالضبط؟ لا يستطيع أحد أن يدعى معرفة ذلك. أما الذكاء والميل لارتكاب الجرائم فأشياء ما زالت قيد البحث والجدل والخلاف بين العلماء وغير العلماء.

وقد أثبتت إحدى الدراسات أن حجم أماكن معينة من المخ البشرى يخضع لعوامل الوراثة، وأنه كلما ازداد حجم هذه الأماكن كلما ارتفع مستوى الذكاء عند الإنسان، ورغم أن هذه الاكتشافات حقيقة واقعة إلا أنها تحمل الطابع الإحصائى الصرف، أى أنها تصدق فقط فى تناولنا للمتوسطات ولا تصلح للحكم على الأفراد، مثلها فى ذلك مثل متوسط العمر المتوقع الذى هو قيمة معروفة بالضبط لكل مجتمع لكنه لا يمكن أن يصلح لتوقع عمر الأفراد. ومن المعروف أن قياس مستوى الذكاء ودور عوامل الوراثة والبيئة فى تحديده كان وما زال محل جدل وخلاف بين المتخصصين. وقد قابل العلماء اكتشاف العلاقة بين الذكاء وحجم بعض الأماكن فى المخ ودور العوامل الوراثية فى ذلك بشتى التعقيبات، فقد قال البعض بأن مناطق فى المخ يسودها التأثير الوراثى، بينما قال آخرون أن وجود ارتباط قوى بين حجم مناطق معينة فى المخ والذكاء يجعل من الذكاء أمرا حقيقيا وليس «عبثا» كما يحلو للبعض أن يصوره. وقد استخدمت تقنية التصوير بالرنين المغناطيسى (MRI) فى هذه الدراسة، وهى تقنية تمكننا من التمييز بين المادة الرمادية والمادة البيضاء فى المخ الحى. وتتكون المادة الرمادية من خلايا المخ بينما تتشكل المادة





البيضاء من خطوط الاتصال التى تتواصل بواسطتها الخلايا مع بعضها.



ويتكون المخ البشرى من عدة وحدات تقوم كل منها بمهام منفصلة، فيقوم الفص الجبهى (الأمامى) مثلا بالتخطيط والتعامل مع المجازفات، بينما تتولى المناطق الخلفية مهمة الإبصار...وهكذا. وقد حاول العلماء أن يكتشفوا التأثير الوراثى على الحجم النسبى لكل وحدة من وحدات المخ، فقام فريق بحثى من جامعة كاليفورنيا بقيادة الدكتور بول طومسون ـ رائد رسم تراكيب المخ ـ بدراسة حجم هذه الوحدات فى التوائم. استعان الدكتور طومسون بزملاء من فنلندا، حيث تحتفظ الدولة بسجلات وطنية للتوائم. وقد تم مسح مخ التوائم المتطابقة وغير المتطابقة وقياس حجم وحدات المخ عندهم. ومن المعروف أن الخواص التى تخضع لعوامل الوراثة لا تظهر أى اختلاف يذكر بين التوائم المتطابقة لأن لهم نفس الجينات.

اتضح من الدراسة التى قام بها الدكتور طومسون وفريقه أن كمية المادة الرمادية فى الفصوص الأمامية للمخ تخضع تماما للعوامل الوراثية، كذلك اتضح أن هناك منطقة أخرى بجوار النصف الأيسر للمخ، اسمها «منطقة فيرينيك» (Wernick's area) تخضع لعوامل الوراثة، وهى المنطقة التى تلعب دورا محوريا فى العمليات المرتبطة باللغة. ويحدد الدكتور طومسون الهدف من وراء الدراسة بأنه اكتشاف الجينات المسئولة عن الأمراض العقلية التى يمكن أن تنتقل بالوراثة مثل الشيزوفرانيا والتوحد (Autism) لكنه كان يهدف أيضا هو وفريقه إلى فهم دور الوحدات المختلفة للمخ فى الأفراد الأصحاء، ولذلك فقد قام بإجراء اختبارات الذكاء على الأشخاص المتطوعين، واكتشف أن مستوى الذكاء يرتبط بوضوح بكمية المادة الرمادية فى الفصوص الجبهية (الأمامية) للمخ.

كانت هذه الاكتشافات أول خرائط تبين درجة تحكم العوامل الوراثية فى بنية المخ. ومع أن الاختبارات قد أُجريت على عشرة أزواج من التوائم المتطابقة وعشرة أزواج من غير المتطابقة، إلا أن ذلك كان كافيا للمعالجات الإحصائية وللتوصل إلى الارتباط بين العوامل الوراثية وبنية المخ. وقد أبدى صاحب البحث والدراسة نفسه (طومسون) استغرابه لوجود ارتباط بين كمية المادة الرمادية فى الفصوص الأمامية للمخ وبين مستوى الذكاء :«من الصعب تخيل أن يقوم شىء فى بساطة المادة الرمادية بالتأثير فى شىء فى درجة تعقيد الذكاء»، غير أن كمية المادة الرمادية، والتى تدل مباشرة على عدد خلايا المخ، قد تعكس ما يدل على الذكاء مباشرة (فى صورة عدد الارتباطات بين الخلايا العصبية فى المخ). لكن البعض يرى أن الأمر قد يكون على العكس، فقد يقوم بعض الناس من ذوى المهارات العالية بتشغيل المخ بصورة أكبر مما يؤدى إلى تطوير كثافة أعلى من العصبونات.

وتزداد فرص استخدام طرق مسح المخ للتعرف على عناصر الشخصية والسلوك عند الأفراد، وذلك بتطوير دراسات رسم المخ وتحسينها، الأمر الذى سيجعل هذه الطرق أكثر دلالة حيث ستحمل معلومات أدق وأكثر. وسيثير هذا الأمر موضوع الخصوصية مرة أخرى تماما كما فعلت الاختبارات الجينية، ولذا وجب حماية خصوصية دراسات تصوير وخرطنة المخ بالطريقة نفسها التى طبقت فى حالة الاختبارات الجينية. ويجمع العلماء والمتخصصون ورجال الفكر والثقافة على أنه يجب ألا تستخدم طريقة تعيين حجم المادة الرمادية كمقياس لتحديد ذكاء الأفراد، كما لا يجب أن تستخدم المتوسطات الإحصائية التى تقاس للمجموعات البشرية للحكم أو لمقارنة ذكائها مع بعضها البعض. وسيكون أمرا فى غاية السوء أن تستخدم تقنية تطورت لمواجهة المرض فى مثل هذه الأهداف اللاإنسانية.



وفى مواجهة الآراء التى ذكرناها عن دور عوامل الوراثة المحدد فى بنية ونشاط المخ، ظهرت مؤخرا دراسات وبحوث تشير إلى إمكانية تخطى عقبة الوراثة عن طريق التدريب الموجه، فقد أثبت عالم الأعصاب «ميرزنيتش» أن الأطفال المعاقين لغويا يمكنهم التعلم. وقد أوضحت الصور المأخوذة بالتقنيات المتقدمة أن التدريب باستخدام ألعاب الكمبيوتر التعليمية يؤدى إلى تغيرات فيزيائية فى المخ. ويعتقد «ميرزنيتش» أنه إذا كان التدريب قادرا على التغلب على الإعاقة اللغوية، فلماذا لا يكون قادرا على التغلب على إعاقات أخرى أشد مثل التوحد (Autism) والشيزوفرانيا؟ فمثل هذه الإعاقات ليست أمراضا موروثة بل هى ضعف موروث فى المخ، قد يصبح إعاقة إذا نحى المخ منحى خاطئا، الأمر الذى فى الإمكان دفعه فى الاتجاه العكسى ـ أى إزالة الإعاقة عنه.

ويتفق علماء الأعصاب اليوم فى شبه إجماع على أن : « لدانة (plasticity) المخ»، والتى تتمثل فى التغيرات المستمرة التى تمكننا من تعلم أشياء جديدة كل يوم، قد تحيد أو تنحرف خارج نطاق التحكم فتسبب خللا كنا نعزوه فى السابق للعوامل الوراثية فقط (الجينات السيئة). ويمكن اعتبار المخ كمبيوتر طيعًا لدنًا، لا يحتوى الكثير من العتاد (hardware) عند الميلاد، لكنه يعمل ببعض البرامج (software) ومع التعلم يتغير المخ فيزيائيا، ومع التغير تزداد إمكانية التعلم فيستمر التغير الذى يفضى إلى مزيد من التعلم...فالتغير... فالتعلم.. وهكذا تطور مستمر يصنع خبرتنا الحياتية. ولو أخذنا عملية الإبصار كمثال لوجدنا أن الأطفال حديثى الولادة لا يكادون يبصرون أو يشكلون صورة العالم الذى يحيط بهم. لكن مع مرور الزمن تعمل الرسائل التى تنطلق من الأعين عملها فى تكوين وضبط دوائر الإبصار فى المخ إلى أن يتمكن الأطفال من الرؤية الطبيعية. وقد بينت التجارب التى أجريت على القردة أن الاعتماد فى الإبصار على عين واحدة (بحجب الأخرى) تجعل المخ يعيد ترتيب دوائر الربط الخاصة بالإبصار بحيث يلغى الإشارات القادمة من العين المغلقة.

ولا تحدث عمليات إعادة الترتيب فى وحدات المخ المختلفة للأطفال فقط. ففى الفئران البالغة اتضح أن أعداد الخلايا العصبية التى ينالها التغيير (بالنمو فى الحجم والترابط مع الخلايا الأخرى) فى المخ ضئيل فى حالة الفئران المحبوسة فترات طويلة فى أقفاصها. أما أعداد الخلايا التى تتعرض للتغيير فى الفئران البالغة الطليقة (التى تكتسب خبرة أكبر وتتعلم أكثر) فهى أكبر كثيرا. ويحدث الشىء نفسه فى الإنسان، فقد لوحظ أن المزيد من التدريب والخبرة عند الموسيقيين يزيد من حجم ودرجة تعقيد المناطق من المخ المسئولة عن الموسيقى(!). إلا أن صدعا أو خللا جينيا فى الانتظام العام قد يدمر أو يفسد الدوائر المسئولة عن بعض العمليات فى المخ. فبعض الناس المعاقين لغويا يعانون من مشاكل فى القراءة، ولا يرجع ذلك لضعف إبصارهم ولكن لأن المخ لا يتعامل مع الأصوات بشكل دقيق.

وقد قامت بعض المختبرات بتصميم ألعاب تعليمية على الكمبيوتر لإعادة تدريب وترتيب مناطق المخ المسئولة عن الأصوات. وتبدأ اللعبة بإطالة زمن التعرف على الصوت ثم يبدأ هذا الزمن فى النقصان كلما تمكن الطفل من التعرف على الصوت فى زمن أقل حتى يصبح زمن التعرف عاديا. وقد أظهر تصوير المخ بالرنين المغناطيسى (MRI) بعد ٦٠ ساعة من التدريب أن اللحاء السمعى (auditory cortex) قد أصبح عاديا أو أقرب إلى العادى. وأظهرت الاختبارات أن الأطفال الذين يمارسون التمرين على هذه الألعاب أصبحوا يتعلمون بشكل أفضل.



ويبدو الأمر أشق بالنسبة للإعاقات الأكبر مثل التوحد والشيزوفرانيا، فمن الواضح أن الجينات وحدها (عوامل الوراثة) لا تحدد من الذى يصاب بهذه الأعراض، حيث تبين من الإحصاءات أن ١٥ ٪ من التوائم المتطابقة لمرضى التوحد لا يصابون بالمرض (!). كما تبين أيضا أن ٥٠ ٪ من التوائم المتطابقة لمرضى الشيزوفرانيا لا يصابون بها (!). وهكذا ليست الجينات فقط هى التى تحدد من يصيبه المرض. ويعتقد «ميرزنيتش» أن المعرضين للإصابة بهذه الأمراض نتيجة لعوامل وراثية (جينية) لا يصابون بها إلا عندما يحدث خلل ما فى لدانة المخ. و يفسر الإصابة بالتوحد بأنها فشل محاولة التعامل مع فيض المعلومات الذى ينهمر على منطقة المخ المسئولة عن التطور الاجتماعى «اللوزة» (amygdala) فتصبح فى وضع حرج تحاول الخلاص فيزداد الوضع صعوبة. ويشبه «ميرزنيتش» ذلك بالسيارة عندما «تغرس» فى الوحل وكلما حاولت الفكاك ازداد وضعها سوءا.

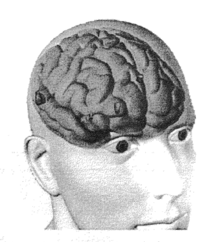
كيمياء المخ

إذا كانت جغرافيا المخ على هذه الدرجة من الصعوبة وما زالت موضع جدل وخلاف شديدين بين الاتجاهات العلمية المتعددة، فإن كيمياء المخ ـ سواء ما يفرز من كيماويات أو مايستهلك داخل المخ أو ما تؤثر به الكيماويات من خارجه ـ على درجة أعلى من الصعوبة. فالكوليسترول الذى يسبب المشاكل فى الدم مفيد فى الاتصال والتخاطب بين الخلايا العصبية (العصبونات neurones) فى المخ، الأمر الذى يعتبر أساسيا فى عمليات التذكر والتعلم. وقد أشارت بعض البحوث السابقة إلى أن الخلايا الداعمة (support cells) والمسماة (glial cells) فى المخ تنتج مادة ضرورية تمكن الخلايا العصبية ـ العصبونات ـ من التواصل والتخاطب مع بعضها، وقد اتضح أن هذه المادة كوليستيرول.

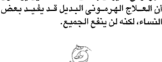
وبالقطع لا يعنى ذلك أن تناول قطعة دسمة من اللحم ستنشط وتدعم مقدرتك الذهنية، فمستوى الكوليستيرول فى الدم لا يلعب دورا فى تزويد المخ بالكوليستيرول، لأن جزيئات كوليستيرول الدم أضخم من أن تعبر الحاجز الفاصل بين الدم والمخ. وهذا الحاجز عبارة عن آلية خاصة تتحكم بدقة فى نوع الجزيئات المسموح لها بالدخول إلى المخ من الأوعية الدموية. ويبدو أن الخلايا الداعمة تفرز الكوليستُرول الخاص بها والمطلوب للمخ. وقد تبين أن عزل الخلايا العصبية خارج الجسم وتنميتها يؤدى إلى إفراز بعض الكوليستيرول، إلا أنه فى وجود الخلايا الداعمة فقط يصبح الكوليستيرول كافيا لتكوين أجزاء الترابط والتواصل (synapses) بكثافة معقولة.

وفى الآونة الأخيرة تبدى الأوساط العلمية اهتماما متزايدا بالمعالجات الهرمونية البديلة (HRT)، وذلك بعد أن تبين فائدتها فى منع التدهور العقلى الذى يصيب السيدات فى السن المتقدمة. كما أن هذا النوع من العلاج الكيميائى يساعد النساء اللاتى لم تظهر عليهن بعد أعراض التدهور العقلى الذى يؤدى إلى الخرف. وقد قام فريق من العلماء من عدة جامعات أمريكية بإجراء دراسة موسعة على ٢٥٠٠ امرأة جميعهن من منطقة واحدة، وينتمى ٩٠ ٪ منهن إلى كنيسة معروفة بتحريمها للكحول والتدخين، الأمر الذى يعنى أن المشاركات فى الدراسة يتبعن نظاما صحيا غير منتشر فى المناطق الأخرى.

اكتشف فريق البحث أن النساء الشابات،



الأقل تعرضا لمرض الاكتئاب، واللاتى استمرت فترة علاجهن لمدة طويلة، ويحملن الجين (apo E4) المعروف بعلاقته بمرض «الزهايمر»، أظهرن نتائج جيدة فى اختبارات الوظائف المعرفية. وقد وجدوا عموما أن المعالجات الهرمونية البديلة قد أدت إلى نتائج جيدة فى القدرات المعرفية أثناء مرحلة العلاج الأولى. كما أدى العلاج إلى تدهور أقل للقدرات العقلية فى نهاية فترة العلاج التى استمرت ثلاث سنوات. وقد اتضح أن النساء اللاتى يفقدن الكثير من قدراتهن المعرفية، واللاتى تجاوزن سن الخامسة والثمانين، يبدو أنهن ينتفعن أكثر من غيرهن من تناول العلاج الهرمونى. غير أن بعض المتخصصين يؤكدون أن العلاج الهرمونى البديل قد يفيد بعض النساء، لكنه لن ينفع الجميع.



إلى هنا نكون قد أوجزنا - أتعشم دون خلل - الحالة الراهنة لمخ الإنسان بمناطقه المختلفة وما اكتشف حديثا جدا (خلال الأشهر الأخيرة) من تداخلها مع بعضها. لكن الموضوع ينقصه شىء مهم يتعلق بما يسميه الأطباء «بلاسيبو» أو الأدوية (أو العلاج) الوهمية (مثل إعطاء أقراص من السكر أو النشا لمن يرغبون فى تعاطى الأدوية بأى شكل). فقد كشفت دراسة حديثة أن أدوية «البلاسيبو» تؤثر على مخ المصابين بالاكتئاب. وحتى الآن كان السائد فى اعتقاد الأطباء والعلماء أن العلاج بالوهم لا يؤثر فى المخ بالشكل الواضح الذى استطاع فريق بحث من جامعة كاليفورنيا فى لوس أنجلوس أن يثبته بالتصوير الكهربى للمخ.

تضمنت الدراسة التى أجراها فريق البحث ٥١ متطوعا يعانون من اكتئاب حاد، عولج ٢٦ منهم بالبلاسيبو أو الأدوية الوهمية فاظهر ١٠ ردود فعل إيجابية. وفى المقابل عولج ٢٥ بأدوية حقيقية مضادة للاكتئاب فاظهر ١٣ منهم ردود فعل إيجابية. والأكثر من ذلك أظهرت الصور الكهربية لمخ المرضى الذين استجابوا للأدوية الوهمية نشاطا متزايدا فى القشرة الأمامية للمخ. بينما لم تبين الصور الكهربية لمخ الذين تجاوبوا مع الأدوية الحقيقية إلا نشاطا محدودا فى المنطقة نفسها. ومن المعروف أن للقشرة الأمامية للمخ تأثيرا على نشاط الذاكرة والتعامل مع المعلومات ومعالجتها ونوع السلوك وترتيب الأفكار والتركيز والانتباه. وبذا فقد ثبت أن الدواء الوهمى (البلاسيبو) يؤثر على المخ فى حالة الاستجابة له، تماما كما تفعل الأدوية الحقيقية.

وبعد، هل يندرج ما اصطلح على تسميته «غسيل المخ» تحت باب العلاج بالوهم ؟ أم أن الغسيل شىء والوهم شىء آخر مختلف تماما؟ عموما، كم من محاولة للغسيل (العقائدى أو الثيولوجى) أو البلاسيبو (العلاج بالوهم المادى أو المعنوى) - سياسى أو اقتصادى - مرت على أدمغتنا فى العصر الحديث فلم تنل منها إلا بقدر ما تسطحت هذه الأدمغة وتفلطحت ولانت وامتزجت فصوصها بلحائها وقشرتها، فتداخل الألم مع الألم - فلا مسرة هناك - وغابت الموسيقى ومعها اللغة، فأصبحت العربية غريبة فى بلاد العرب، ولم يعل شأن إلا لضجيج الطرب الذى يخاطب أدنى الحواس فى «الحيوان» الذى أطلق عليه «ديزموند موريس» اسم كتابه الأشهر «القرد العارى The Naked Ape»، كما أطلق على مجتمعه (حديقة الحيوان البشرية (The Human Zoo) اسما لكتاب آخر. فهل قدرنا أعظم عضو ملكناه حق قدره... المخ؟ كلا، وفى رأيى أننا أهدرنا وما زلنا نهدر الطاقات الجبارة الكامنة فى أدمغتنا متعللين بعلل وأوهام شتى.

طلع علينا العلماء فى الأشهر الأخيرة باكتشافات عديدة تتعلق بالمخ البشرى والدور الذى تلعبه المناطق المختلفة داخله فى العمليات الحيوية التى نقوم بها. سواء إراديا أو لاإراديا

فجميع الحيوانات الفقارية - سواء كانت ثديية أم طيورا أم زواحف أم أسماكًا أم برمائيات - تمتلك مخا، لكن المخ البشرى متفرد، فهو يمنحنا القدرة على التفكير والتخطيط والتحدث والتخيل، وهو عضو عجيب يقوم بعدة مهام رائعة لأنه :

١ - يتحكم فى درجة حرارة الجسم وضغط الدم وضربات القلب والتنفس.

٢ - يستقبل فيض المعلومات عن العالم المحيط بنا من حواسنا المختلفة (العيون والآذان والأنوف... الخ).

٣ - يتحكم فى الحركة الفيزيائية عند السير أو التحدث أو الوقوف أو الجلوس.

٤ - يجعلك تفكر وتحلم وتفسر الأمور وتمارس عواطفك.

ويتم التنسيق بين كل هذه المهام والتحكم فيها وضبطها بواسطة هذا المخ الذى لا يزيد حجمه (وإلى حد ما شكله) عن حجم ثمرة قرنبيط صغيرة. ويشكل المخ مع الحبل الشوكى والأعصاب الطرفية نظاما متكاملا ومعقدا للتحكم ومعالجة المعلومات يسمى الجهاز العصبى.

ونظرا للأهمية القصوى للدماغ - المخ - فى تسيير وإدارة حياة ونشاط الإنسان فقد تأسست جمعيات ومراكز علمية عديدة فى جميع أنحاء العالم لرعاية الحالة العقلية (الذهنية) المبنية على الحالة البيولوجية والفسيولوجية للدماغ. فمن الإحصاءات الرسمية اتضح أن ١٠ ٪ من المواطنين فوق سن ٦٥ عاما مصابون بالعته (أو الخرف)، وترتفع هذه النسبة لتصل إلى ٤٠ ٪ فيمن هم فوق الثمانين من العمر. لكننا جميعا معرضون للإصابة بأعراض العجز المعرفى cognitive deficits . فعادة ما ننسى السبب فى حركتنا من غرفة إلى غرفة أخرى فى المنزل، أو ننسى اسم إنسان نعرفه حق المعرفة، كما أننا نلقى صعوبة فى التعلم مع التقدم فى السن. وقد أصدر المعهد الأمريكى للشيخوخة مع المركز الدولى للعمر المديد بالولايات المتحدة تقريرا مبشرا بإمكانية التغلب على العجز المعرفى وتنشيط الذاكرة عند المتقدمين فى العمر، فقد توصل العلماء إلى أن معظم الخلايا العصبية لا تفقد مع التقدم فى السن على الرغم من التباطؤ فى نشاط المخ الذى يصاحب ذلك حتى فى الأصحاء المتقدمين فى العمر. وفى الواقع تتكون ارتباطات جديدة بين الخلايا العصبية فى أى سن مهما كانت متقدمة بشرط استخدام المثيرات المناسبة لذلك، مما يشجع النشاط الذهنى ويرفع من فعالية وظائف المخ. وقد أوجز التقرير مجموعة من الإرشادات جاءت نتيجة الخبرة فى التعامل مع كبار السن الأصحاء من جهة ونتائج البحوث المتخصصة من جهة أخرى. كانت هناك أربعة تحذيرات هى:

١ - التدخين لأنه يتسبب فى تصلب الشرايين وتقلصها.

٢ - الكافيين (الموجود فى مشروبات الشاى والقهوة والكاكاو والكولا وتنوعاتها) لأنه يبطىء من سريان الدم إلى المخ.

٣ - المشروبات الكحولية لأن الكحول يقتل الخلايا العصبية.

٤ - التعرض للإصابات المباشرة فى الرأس (إيذاء المخ وتدمير أجزاء منه) أو غير المباشرة نتيجة أمراض مثل الحمى المخية والالتهابات وأنواع الصرع.

أما النصائح السبع (المنجيات) فنختتم بها هذا الحديث، وهى على الترتيب كما جاءت فى تقرير المعهد والمركز:

١ - التعلم والتدريب الدائم، فالحث الذهنى يشجع على استخدام المخ، والشىء الذى لا يستخدم يفقد (use it or lose it) ومن أمثلة الحث الذهنى الألعاب التى تعتمد على التفكير والذاكرة مثل تجميع قطع الصور (Puzzles).

٢ - التدريبات الرياضية المنتظمة، فهى تدفع الدم فى الشرايين وتحسن من توصيله إلى المخ. وقد تبين أن كبار السن الذين يمارسون تدريبات رياضية منتظمة يؤدون الاختبارات المعرفية بدرجات أعلى.

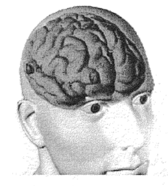
٣ - النشاط اليومى وبالأخص النشاط المتضمن للقاءات مع آخرين، مثل التطوع فى جمعيات وهيئات تقوم بأعمال خيرية، أو الالتحاق بنوادى المسنين، والاشتراك فى رحلات اليوم الواحد، أو مساعدة الشباب والأطفال فى تعلم بعض المهارات التى تجيدها.

٤ - خفض مستوى التوتر (stress) فقد تبين من بعض الدراسات على الحيوانات أن التوتر يؤثر على بنية المخ ويتداخل مع الوظائف الفسيولوجية الطبيعية مما يسبب خللا فى أداء الوظائف المعرفية. ويتسبب النشاط الجسمانى والتأمل فى خفض التوتر، لكن الأمر قد يحتاج إلى تدخل الأخصائيين.

٥ - النوم، حيث يعانى الكثيرون من كبار السن من اضطرابات فى نومهم تجعلهم لا يصلون إلى مرحلة REM أو النوم مع حركة العين السريعة، والتى ترتبط بالأحلام، الأمر الذى يؤثر بشدة فى الوظائف المعرفية للمخ. وقد أنشأ العديد من المستشفيات عيادات خاصة للنوم لتساعد من يعانون الاضطرابات.

٦ - الاستقرار العاطفى والروحى، فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن المقدرة المعرفية تعتمد على الصحة الروحية والعاطفية. وكبار السن معرضون أكثر من غيرهم لنوبات الاكتئاب والتى قد تؤذى المخ وبالأخص الأرامل والذين فشلوا فى الالتحاق بعمل أو نشاط ما بعد تقاعدهم. وعادة لا يكتشف المريض بنفسه الإصابة بالاكتئاب، والأمر يحتاج إلى مد يد المساعدة من صديق أو قريب. وتساعد التدريبات الجسمانية المنتظمة كثيرا فى التغلب على الاكتئاب، وكذلك التطوع فى الأعمال الخيرية وممارسة حياة اجتماعية نشطة.

٧ - التغذية الجيدة، فتناول الأطعمة غير المناسبة قد يؤذى المخ. وقد اتضح أن ذاكرة كبار السن تتحسن كثيرا بتناول مضادات الأكسدة (antioxidant) وفيتامينات E وC والكاروتين بيتا (الموجود فى الخضروات والفواكه الملونة بكثافة). ومن القواعد المعروفة: «كلما تقدم الإنسان فى العمر قلت حاجته للسعرات الحرارية وزادت متطلباته وشروطه الغذائية»، فلنجعل غذاءنا يميل أكثر تجاه ما يفيد لا ما يسمن. وأفضل غذاء يمكن أن نحصل عليه يأتينا مع الأطعمة لا مع الأدوية، لكن قد يستفيد العديد من كبار السن من بعض الأدوية المعضدة.



نحــــن نعــيش فى وقـــت أفـضــــل شىء يمكن أن تقــوم بـه فـيــــه، إذا أردت أن تـضـــمن

التغـريب والاغتراب

فى تقرير التنمية «الإنســانية» العربيـــة!

جـــــلال أمـــــين



[١]

لا بد أن أقـر بدهشتـى الشـديـدة من الاستـقـبال الذى قوبل به: «تـقـرير التنمية الإنسانيـة العربيـة للعام ٢٠٠٢» الذى صدر منذ أربعـة شـهور عن برنامج الأمم المتـحدة الإنمائى. وهو يحمل أيضًا على غلافـه اسم «الصندوق العـربى للإنماء الاقتـصـادى والاجتماعى، باعتباره إحدى المؤسستين الممولتين للتقرير. وإن كـان من الواضح، أن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى هو الذى يتحمل أكبر قدر من المسئولية عنه، إذ يتكرر اسمه وحده بعد ذلك، من صفحة لأخرى، وحقوق الطبع محفوظة له دون غيره، أما كاتبو التقرير فهناك قائمة باسمائهم وكلها تقريبًا أسماء عربية وكثير منها لأشخاص مرموقين يحتلون مكانة ممتازة فى ميادين تخصصهم.

ربما كان من المفهوم الاستقبال الذى حظى به التقرير فى وسائل الإعلام الغربية، فنحن نعيش فى وقت أفضل شىء يمكن أن تقوم به فيه، إذا أردت أن تضمن النجاح والشهرة والتهليل لك فى الغرب، هو أن تشتم العرب أو المسلمين. وهذه هى فى رأيى الرسالة الأساسية لهذا التقرير.

أما الحماسة التى قوبل بها التقرير فى وسائل الإعلام العربية فهى ما يثير أكبر قدر من الدهشة، والأسف أيضًا. وقد فسرته على أى حال بأمرين:

الأول: أن لدينا نحن العرب والمسلمين مدرسة مماثلة لمدرسة تحقير العرب والمسلمين الشائعة منذ فترة فى الغرب. وهى مدرسة لا يجب التهوين من شأنها من حيث عدد أفرادها أو حجم نشاطها وتأثيرها.

والثانى: أن هناك عددًا أكبر مما نظن من مثقفينا لازالوا ينخدعون بسهولة باى شىء فيه شبهة العلم، ويظنون أن أية كتابة تحتوى على أرقام وبعض المصطلحات الصعبة، لابد أن تكون عملاً علميًا يستحق الإعجاب.

ذلك انى وجدت هذا التقرير، فضلاً عن حرصه الواضح على اقتناص أية فرصة لتوجيه الاتهام إلى العرب والتقليل من شأنهم، يتضمن استخدامات معيبة للأرقام، ويحتوى على الكثير من الإكلشيهات الضخمة الفارغة من المضمون (من نوع العبارة الآتية: «وفى التحليل النهائى، التنمية الإنسانية هى تنمية الناس، ومن أجل الناس، من قبل الناس» ص ١٤)، وكذلك الكثير من التقريرات التى لا تزيد على أن تكون مصادرة على المطلوب أو تحصيل الحاصل (من نوع العبارة الآتية: «إن التنمية الإنسانية ضرورية لتحقيق كل من النمو الاقتصادى المستدام وتخفيف حدة الفقر» ص١٢).



والنسخة العربية من هذا التقرير (التى اعتمد عليها فى هذا المقال) مليئة بالجمل والتعبيرات الملتوية التى تجعل من الصعب متابعتها، مما يرجع فى رأيى، جزئيًا، إلى محاولة متعمدة للإيهام بأن التقرير فيه عمق هو فى الحقيقة خال منه، كما يرجع إلى أن النسخة العربية تفوح منها بشدة رائحة الترجمة، بمعنى أن النسخة الإنجليزية لابد أن تكون هى التى كتبت أولاً ثم ترجمت إلى العربية وليس العكس، مما جعل كثيرًا من العبارات، المفهومة بالإنجليزية عسيرة الفهم بالعربية، إذ يتطلب فهمها تخمينًا فى البداية لما يمكن أن يكون أصلها الإنجليزى.

بالإضافة إلى هذا كله يكاد التقرير أن يكون خاليًا من أية محاولة جدية لتفسير ما حدث، أى تفسير الأداء الاقتصادى والاجتماعى العربى، ففيه من التقريرات والوصف أكثر مما فيه من تحليل أو تفسير. لقد كان المرء يتوقع من تقرير بلغ من طموحه أن يطرح مفهومًا جديدًا للتنمية يحل محل المفهوم السائد للتنمية البشرية ويسمى باسم «التنمية الإنسانية»، أن يبذل واضعوه بعض الجهد فى تحليل المفاهيم المختلفة السائدة، أو التى كانت سائدة، كالتنمية بمعنى مجرد زيادة الدخل، والتنمية بمعنى التنمية البشرية، ومفهوم إشباع الحاجات الأساسية، والمفهوم الذى طرحه منذ سنوات قليلة «أمارتيا سن» (Amartya Sen) ويقوم على «توسيع مجال الاختيار»، وأن يناقش مختلف صور القهر التى يمكن أن تعطل تحقيق هذا النوع أو ذاك من التنمية الإنسانية. ولكن القارئ لا يجد مناقشة حقيقية لأى شىء من هذا، بل يجد عددًا من الأفكار المتناثرة أخذت من هنا وهناك، دون تمحيص أو مناقشة، أو يجد رفضًا لما جرى عليه العمل دون تبرير كاف أو مقنع لهذا الرفض. ومع هذا يقدم كل هذا للقارئ دون أية محاولة للاعتذار عن قصور الجهد فى مواجهة مشكلات فكرية عويصة، وبنبرة خالية من أى إيحاء بالتواضع، وإن كانت لا تخلو من خيلاء ومباهاة لا يجد القارئ لها مبررًا.

فما الذى فعله التقرير بالضبط؟

[٢]

تناول واضعو التقرير مقياس «التنمية البشرية» الذى ابتدعه برنامج الأمم المتحدة منذ ١٢ عامًا، والذى يقوم على ثلاثة مؤشرات: متوسط الدخل، والعمر المتوقع عند الميلاد، ومستوى التعليم، حيث تعتبر الدولة متقدمة فى مضمار التنمية البشرية كلما ارتفع متوسط الدخل فيها، وزاد العمل المتوقع عند الميلاد، وانخفضت نسبة الأمية وزادت نسبة الطلاب المقيدين بالمدارس. تناول واضعو التقرير هذا المقياس وأدخلوا عليه تعديلات جوهرية: فحذفوا مؤشر متوسط الدخل تمامًا، واحتفظوا بالمؤشرين الآخرين، ولكنهم أضافوا أيضًا أربعة مؤشرات جديدة:

١- مؤشر الحرية، ٢- ومؤشر أسموه «تمكين النوع»، ويعكس على حد تعبيرهم «مدى توصل النساء للقوة فى المجتمع»، ٣- ومؤشر الاتصال بشبكة الإنترنت، ٤- ومؤشر تلوث البيئة، وسموا المقياس الذى يجمع بين هذه المؤشرات الستة (أو يلخصها) «التنمية الإنسانية»، تمييزًا له عن المقياس السابق (وهو مقياس التنمية البشرية)، وقدموا لنا المقياس الجديد على أنه يقيس مدى التقدم فى تحقيق آدمية الإنسان أو رفاهية الإنسان أو كلتيهما.

تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢
المحرر الرئيسى: د. نادر فرجانى
برنامج الأمم المتحدة الإنمائى، الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى.

وسوف أترك فى هذا المقال مناقشة ما أقدم عليه التقرير من استبعاد مؤشر متوسط الدخل، وهو (أى هذا الاستبعاد) مسلك غريب أثار دهشة الكثيرين من الاقتصاديين العرب. وهو أيضًا مسلك غير مقبول بالمرة ولا مبرر له، ولكنه يحتاج إلى بحث مستقل لكثرة ما يثيره من قضايا، وسوف أركز فى المقال الحالى على بقية المؤشرات التى استبقاها التقرير من المقياس القديم أو أضافها إليه.

من أول ما يثور فى ذهن قارئ التقرير: لماذا اختيار هذه المؤشرات الستة بالذات (العمر المتوقع عند الميلاد، التعليم، الحرية، تمكين النوع، الاتصال بشبكة الإنترنت، وحالة البيئة)؟

لماذا اختار التقرير هذه المؤشرات بالذات من بين عشرات العوامل الأخرى التى لا شبهة فى تأثيرها فى الرفاهية الإنسانية؟ أين معدل البطالة مثلاً، بما يحمله من آثار على الشعور بالكرامة واحترام النفس؟ أين مستوى الاستقرار العائلى وقوة أو ضعف الشعور بالتضامن بين أفراد العائلة الواحدة؟ أين حجم أوقات الفراغ أو معدل التضخم الذى يؤثر فى مدى الاطمئنان أو القلق على المستقبل؟ أين درجة الاستقرار الوظيفى وما يحمله أيضًا من معنى الاطمئنان على المستقبل؟ أين درجة انتشار العنف والجريمة؟ أين درجة انتشار التشرد بين الأطفال أو درجة انتشار الدعارة؟ أين حجم المدن أو مدى التعرض لأفلام العنف فى التليفزيون أو لحملات الإعلان.. إلخ. لماذا أهملت كل هذه الأمور وغيرها وفُضِّل عليها درجة الاتصال بشبكة الإنترنت، وتمكين النوع أو مدى توصل النساء للقوة فى المجتمع؟

إن التبرير الذى يقدمه التقرير لتضمين مؤشر «تمكين النوع» هو أنه «يعكس قصور تمكين المرأة فى المنطقة العربية» (ص١٨). ففضح التقرير نفسه. إذ هل كل شىء يعكس شيئًا سيئًا فى المنطقة العربية يجب تضمينه، بينما يجب استبعاد كل شىء إيجابى لدينا، كقوة الارتباط العائلى مثلاً أو انخفاض درجة انتشار العنف والجريمة؟ أم أن هناك سببًا أهم حتى من هذا، يبرر الاهتمام بمسألة «تمكين النوع» وهو ازدياد نفوذ الحركات النسوية فى العالم الغربى، وأن أى تضمين لمثل هذا المؤشر فى التقرير العربى سوف يضمن رضا المؤسسات الدولية التى سيصدر عنها التقرير؟

أما الاتصال بشبكة الإنترنت، فيبرر التقرير إدخاله فى المقياس بأنه «أحد متطلبات الانتفاع بفرص العولمة فى هذا العصر». فهل استقر الرأى إذن واتضح الأمر على نحو لا يحتمل الشك على أن أى شىء يؤدى إلى مزيد من العولمة هو أفضل من غيره، حتى من حيث الارتفاع بمستوى آدمية الإنسان؟

ثم فلنتساءل عن فائدة الجمع بين كل هذه الاعتبارات المختلفة فى طبيعتها أشد الاختلاف فى مقياس واحد. لنفرض أننا بعد عشر سنوات قيل لنا إن مرتبة دولة عربية، كمصر مثلاً، قد تحسنت طبقًا لمقياس التنمية الإنسانية خلال هذه السنوات العشر فأصبح ترتيبها ٨٢ بدلاً من ٩٢ (كما يقول لنا التقرير الآن)، وأن ترتيب دولة كالكويت قد تحسن أيضًا فأصبح ٦٠ بدلاً من ٧٠ (كما هو الآن طبقًا لهذا التقرير). فما المطلوب من المصريين والكويتيين فى هذه الحالة؟ هل يتعين على المصريين الابتهاج أم يستحسن الانتظار حتى نعرف مصدر هذا التحسن بالضبط: هل هو زيادة قدرة النساء أم زيادة الاتصال بالإنترنت؟ أو فلنفرض أن هذا التحسن الذى طرأ على ترتيب مصر كان نتيجة زيادة الاتصال بشبكة الإنترنت فقط، ولكنها كانت زيادة كبيرة لدرجة عوضت انخفاضًا شديدًا فى قدرة النساء وفى حجم الحريات المتاحة. فهل يجب على المصريين الابتهاج رغم ذلك، مادام الترتيب النهائى الذى وصل إليه تقرير التنمية الإنسانية، فى هذه الأمور مجتمعة قد تحسن؟

ولنفرض أيضًا أن التحسن فى ترتيب الكويت كان ناتجًا عن تخفيض انبعاثات ثانى أكسيد الكربون (التى يقيس بها التقرير درجة تلوث البيئة) بينما كان التحسن فى ترتيب مصر نتيجة لزيادة قدرة النساء، فأى الشعبين يحق له الابتهاج أكثر؟ لا نعرف بالطبع لأننا لا نعرف أيهما أهم: النساء أم ثانى أكسيد الكربون!

هل كان من الممكن حل هذه المشكلة بإعطاء المؤشرات الستة «أوزانًا» تعكس درجة الأهمية النسبية التى نعلقها على كل منها بالمقارنة بالمؤشرات الأخرى؟

لا أعتقد أن هذا الحل مُرْضٍ على الإطلاق، إذ من الذى يستطيع أن يقرر ما إذا كانت الحرية أهم أم المعرفة؟ «تمكين النساء» أهم أم نظافة البيئة؟ وحتى إذا كان هذا ممكنًا، فمن الذى يستطيع أن يعطى لهذه المقارنة أرقامًا، فيقول مثلاً إن النساء أهم من البيئة ثلاث أو أربع مرات، أو أن زيادة العمر المتوقع عند الميلاد أهم بمقدار الثلث أو الربع من الحرية؟!

ولكن التقرير بدلاً من أن يعترف بهذه الصعوبة، ويتبع المسلك القويم بالتخلى عن هذه العملية العبثية التى تجمع وتطرح ما لا يجوز جمعه وطرحه، قرر من باب تسهيل الأمور دون التخلى عن وجاهة التعبير الرقمى، أن يعتبر كل هذه المؤشرات الستة على نفس القدر من الأهمية، ومن ثم أن يعطيها أوزانًا متساوية. ودافع عن هذا المسلك بقوله:

«وكما ينبغى أن يكون معلومًا فإن افتراض تساوى الأوزان يعبر عن الفرض الإحصائى القائل بتساوى الجهل، بمعنى أنه عندما لا يوجد مبرر قوى، بناء على معلومات. لاختلاف الأوزان، يفترض تساويها» (ص٢٠).

لم يوضح التقرير بالضبط ما الذى يقصده بالجهل هنا. والأرجح أنه يقصد بالجهل أحد معنيين:

هناك أولاً الجهل الناتج عن مجرد اختلاف الموقف القيمى، الذى يعبر عنه مثلاً قولى إنى لا أستطيع أن أحكم بما إذا كانت زيادة تمكين المرأة أهم أو أقل أهمية من رفع مستوى المعرفة أو زيادة العمر المتوقع عند الميلاد. فأنا قد أعتبر تمكين المرأة أهم ويعتبر غيرى أن رفع مستوى المعرفة هو الأهم. وقد يسمى هذا الاختلاف وصعوبة حسمه «جهلاً» لا حيلة لنا معه إلا إعطاء المؤشرات كلها نفس الوزن. ولكن هناك ثانيًا الجهل الناتج عن مجرد استحالة التعبير عن أهمية مؤشر بالنسبة لآخر تعبيرًا رقميًا. فأنا مثلاً قد أكون واثقًا من أن الحرية أو رفع مستوى العمر المتوقع عند الميلاد أهم من زيادة تمكين المرأة ولكنى عاجز عن أن أقول أن هذا أهم من ذاك بمقدار كذا، أو أن هذا أهم من ذاك بمقدار الضعف أو الثلث.. إلخ. قد يسمى هذا أيضًا جهلاً. ولكن هذين النوعين من الجهل لا يبرران بالمرة استخدام أوزان متساوية، إذ إن هذا لا بد أن يؤدى إلى نتائج غريبة وغير مقبولة. فمن ناحية، لا يجب أن يؤدى اختلافنا فى تقييم الأشياء إلى القول بمعاملة الأشياء كلها وكأنها متساوية. فهذا المسلك لن يرضى أحدًا فى الحقيقة، وسيسبب لدى الجميع شعورًا بعدم الارتياح إذ لن يعتبره أحد معبرًا عن قناعاته وآرائه. وهذا هو بالضبط ما أدى إليه استخدام أوزان متساوية فى استخراج هذا التقرير لمقياس التنمية الإنسانية، إذ لا بد أن يشعر المرء بالاستغراب عندما يرى ترتيب البلاد العربية طبقًا لهذا المقياس، فيرى الأردن فى القمة تليها الكويت والإمارات.. إلخ.

كذلك فإن العجز عن التعبير بالأرقام عن تفضيل شىء على آخر لا يصلح لتبرير استخدام أوزان متساوية. فأنا مثلاً متأكد من أنى أفضل حكم جمال عبد الناصر على حكم أنور السادات ولكنى لا أستطيع أن أقول أن الأول يفضل الثانى بكذا درجة، فهل يجوز أن نقول إن هذه الصعوبة تسمح لنا بالقول بأنه لا يهم ما إذا كان سيحكمنا هذا الرجل أو ذاك؟ كل هذه النتائج الغريبة نتجت عن جمع وطرح ما لا يجوز جمعه وطرحه، والإصرار على التعبير برقم واحد عن أشياء ذات طبيعة مختلفة أشد الاختلاف. والإحصائى الحصيف هو الذى يعرف متى يجوز أن يمارس مهنته فى الجمع والطرح ومتى يجب أن يمتنع عن ذلك. وهذا هو بالضبط ما لم يفعله هذا التقرير.

أما «الجهل» الذى يشير إليه التقرير باعتباره يسمح للإحصائى باستخدام أوزان متساوية، فالمقصود به فى الحقيقة «اللامبالاة»، أى عدم وجود أى سبب لتفضيل شىء على آخر، ولكن هذه «اللامبالاة» لا يمكن افتراضها فى الموضوع الذى نحن بصدده، لا فى كاتب التقرير ولا فى قارئه. بعبارة أخرى: لا يمكن أن نفترض أن أحدًا منا لا يعلق أهمية أكبر على بعض هذه المؤشرات مما يعلقه على غيرها.

[٣]

ولكن فلنترك جانبًا مسألة الجمع والطرح بين مؤشرات لا تقبل الجمع والطرح، ولنركز على سبب اختيار التقرير لهذه المؤشرات الستة بالذات.

لا شك أن الذى حدث هو شىء كالتالى: سأل المكلفون بوضع هذا التقرير أنفسهم: ما هى طيبات الحياة؟ فلم تتفتق أذهانهم عن أكثر مما يفعله الناس فى الغرب. نظروا إلى الغرب فوجدوا الناس هناك يستهلكون السلع والخدمات بكثرة، ومن أحدث هذه السلع الكمبيوتر، ووجدوهم يذهبون كل بضع سنوات إلى صناديق الانتخاب، ويحاولون بقدر الإمكان - على الأقل فى العقود الأخيرة - أن يعاملوا المرأة كما يعاملون الرجل.. إلخ وقاسوا الأداء العربى على ذلك، فوجدوا الأداء العربى بالطبع

من الذى يستطيع أن يقرر
ما إذا كانت الحرية أهم أم المعرفة؟
«تمكين النساء» أهم أم نظافة البيئة؟
وحتى إذا كان هذا ممكنًا، فمن الذى يستطيع
أن يعطى لهذه المقارنة أرقامًا



منخفضًا وهى نتيجة بديهية، تترتب بالضرورة على ما وضعوه ابتداء من افتراضه. فإذا كان التقدم والتخلف يقاسان بما يفعله الآخرون لا بما نفعله نحن، فلا بد أن نكون نحن متخلفين بالمقارنة بهؤلاء الآخرين!

المهمة إذن بسيطة جدًا: ليس من الصعب على واضعى تقرير التنمية الإنسانية العربية أن يرسموا صورة إذا قيست بمنظور الغرب، تبدو بشعة للغاية، وهذا هو ما صنعوه. فما يقال كل يوم عن هذا وذاك جمع كله فى تقرير واحد مدعم بالإحصاءات الملائمة وصيغ فى صيغة أدبية إنشائية. وتصادف أن صدر التقرير فى وقت لم يكن لدى الغرب فيه همٌّ إلا إلحاق كل النقائص الممكنة بالعرب والمسلمين فتلقفته وسائل الإعلام الغربية بالتهليل، ولخصته مجلة «الايكونوميست» البريطانية تلخيصًا وافيًا مع الثناء الشديد عليه، ونشرت ذلك فى مقال يحمل عنوان «كيف يقود المرء نفسه إلى الفشل» (Self-doomed to fail-ure)، قاصدة بذلك أن العرب متخصصون فى الفشل والخيبة، وهم الذين يجلبون لأنفسهم الخراب والبؤس، وليس من مسئول عما هم فيه إلا هم أنفسهم، وهل هناك دليل أقوى على ذلك من تقرير كتبه كتّاب عرب مائة بالمائة؟ بل وعرب من الخبراء المرموقين؟ هكذا شهد شاهد من أهلها بانه لا الغرب ولا إسرائيل يمكن أن يعتبر مسئولاً عما حدث للعرب.

من أجل التدليل على فساد عملية الاختيار التى قام بها واضعو هذا التقرير بين مختلف صور «التنمية الانسانية»، أو التقدم والتأخر فى مضمار الرفاهة الإنسانية، أو الارتقاء أو التدهور فى معاملة الإنسان باعتباره إنسانًا، سأثير السؤال الآتى:

لنفرض أنه حدث فى السنوات العشر المقبلة أن تدهور حال اللغة العربية بأكثر بكثير مما حدث لها فى العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة، بحيث أصبح الأولاد والبنات العرب أقل قدرة على التعبير تعبيرًا صحيحًا عن أنفسهم بلغتهم القومية. ألا يجب أن يعتبر هذا تدهورًا وتراجعًا فى مضمار «التنمية الإنسانية» العربية؟ إذ ألا يعتبر من حقوق الإنسان ومصادر رفاهيته قدرته على التعبير باللغة التى نشأ عليها والتى يتكلمها آباؤه وأجداده؟ بل ألا يقول البعض (بحق فى رأيى) أن القدرة على الإبداع مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بقدرة المرء على التفكير والتعبير بلغته الأم، لا بأية لغة أخرى؟ إذا كان الأمر كذلك، فأين المؤشر الذى يعكس هذا التدهور أو التقدم من بين المؤشرات المستخدمة فى هذا التقرير؟

أو فلنضرب مثالاً آخر أقل تشاؤمًا وإن كان مفرطًا فى عدم واقعيته. لنفرض أن بعض الدول العربية خلال السنوات العشر القادمة نجحت فى تحقيق نوع من الوحدة أو التكامل السياسى والاقتصادى والثقافى بحيث أصبحت أجزاء الأمة العربية أقرب بعضها من بعض، والعلاقات الثقافية بين أبناء جزء من هذه الأمة وجزء آخر أقوى بكثير مما هى الآن، بل إننا نجحنا فى توحيد مناهج التعليم وتقليل الفوارق بيننا فى التعبير عن نفس الأفكار. ألا يعتبر هذا تقدمًا فى مضمار التنمية الإنسانية العربية شبيهًا بالتقدم الذى يجلبه ازدهار اللغة العربية وحلولها محل اللغات الأجنبية فى حياتنا اليومية؟ فاين يمكن أن يظهر مثل هذا التقدم فى مؤشرات «التنمية الإنسانية» المستخدمة فى هذا التقرير؟



إن مثل هذا يمكن أن يقال عن مجالات أخرى للتقدم والتأخر «إنسانيًا»، كطبيعة العلاقات العائلية السائدة ومدى تماسك العائلة أو تفككها أو نوع الرعاية التى يحصل عليها المسنون من أهلهم وذويهم، بدلاً من إيداعهم الملاجئ والبيوت المخصصة لكبار السن.. وهكذا، يمكن أن نضرب أمثلة كثيرة من هذا النوع، ولكن تقرير التنمية الإنسانية العربية ليس معنيًا بمثل هذا التقدم أو التأخر، إذ أن مثل هذه الأمثلة، وإن كانت تتعلق قطعًا بجوانب «إنسانية» فى التنمية، تتعلق بالتقدم أو التأخر فى مجالات «عربية» صرف، والتقرير لا يُعنى إلا بما يعتبره الأجانب تقدمًا أو تأخرًا، بل ما يعتبرونه الآن كذلك، مثل التقدم أو التأخر فى «تمكين المرأة»، وفى درجة الاتصال بالإنترنت». كما أن المؤشرات الأخرى (كالحرية والتحصيل التعليمى وتلوث البيئة) سوف يتبع فى تعريفها وقياسها نفس المفاهيم المستخدمة فى الغرب دون غيره، مع أن أهدافًا كالحرية أو التحصيل التعليمى أو نظافة البيئة يمكن أن تُفهم عندنا بمعانٍ مختلفة عما تُفهم به عندهم.

خذ مثلاً مؤشر «الحرية»، إن التقرير يتعامل مع موضوع الحرية ببساطة غريبة فلا يعترف بأن الحرية شيء متعدد الأبعاد والجوانب ولا يمكن تحويل بعض هذه الأبعاد والجوانب إلى غيرها، ومن ثم يستحيل قياسها. لا عجب إذن أن يستسهل التقرير إصدار الحكم التالى:

«على مستوى مناطق العالم السبع الوارد فى الشكل ٢ ـ ٤، يظهر أن الناس فى المنطقة العربية كانوا الأقل استمتاعًا بالحرية، على صعيد العالم، فى التسعينيات الأخيرة». (ص٢٥).

إن إصدار مثل هذا الحكم القاسى دون أية محاولة لتحليل المفاهيم المختلفة للحرية، والصور المختلفة لفقد الحرية، يحتاج حقًا إلى جرأة فائقة، ذلك أنى كنت أظن أن المرء يجب أن يتردد كثيرًا قبل أن يقرر ما إذا كان المصرى أكثر أو أقل حرية من الكينى أو البرتغالى، أو أن اليمنى أكثر أو أقل حرية من الأمريكى أو السويدى. من هذا النوع أيضًا من الأحكام المتسرعة ما جاء بالتقرير عن مفهوم «التمثيل والمساءلة»، إذ لم يتردد واضعو التقرير طويلاً قبل أن يقرروا أن الأردن أفضل بلد عربى من حيث «التمثيل والمساءلة»، ويليه فى ذلك الكويت. (ص١٠٧).

إن من الممكن أن نفهم «التمثيل والمساءلة» بمعنى اقتراب المجالس النيابية من التعبير الحقيقى عن رغبات المواطنين ومصالحهم، ومدى قدرتها على محاسبة السلطة التنفيذية على أخطائها. فهل حقًا من السهل على من يراقب الحياة السياسية فى البلاد العربية المختلفة أن يقرر دون تردد أن الأردن والكويت هما أفضل الدول العربية فى هذا الصدد؟ أم أن الأمر يحتمل بعض التردد والاختلاف والكثير من التحفظات؟

وقل مثل ذلك عن معيار «فعالية الحكومة»، الذى يقول التقرير أنه فيما يتعلق به، تاتى دولة عمان فى المقدمة وتليها تونس ثم الأردن وقطر، أو عن «استقلال الإعلام» (الذى تحتل الأردن بشأنه المركز الأول) وعن الحريات المدنية.. الخ، حيث لا يشرح لنا التقرير كيف جرى قياس هذه الأشياء التى تستعصى حقًا على القياس. كل ما نعرفه هو أنه اعتمد فى ترتيب البلاد طبقًا لهذه المعايير على دراستين أمريكيتين قامتا بمقارنة بلاد العالم المختلفة وفقًا لما سمى «بكفاءة الحكم» Governance، وقام بنشرهما البنك الدولى فى سنة ١٩٩٩. وللقارئ أن يخمّن ما إذا كان من الممكن أن تعتمد وتقر مؤسسة كالبنك الدولى، أى تحليل لمعايير مثل الحرية أو التمثيل والمساءلة أو فعالية الحكومة أو استقلال الإعلام.. الخ، لا يتفق مع أيديولوجية البنك وما يؤمن به من مبادئ الحرية الاقتصادية وإطلاق الحرية لقوى السوق.



لا يمكن أن نتوقع طبعًا أن تدخل دراسة يقوم بنشرها البنك الدولى «درجة التبعية السياسية» مثلاً، كمؤشر من مؤشرات «الحرية أو كفاءة الحكم» أو «التمثيل والمساءلة» أو «استقلال الإعلام». وأقصد بالتبعية السياسية مدى تبعية الإرادة السياسية فى بلد ما لقوة خارجية، مع أن مثل هذه التبعية السياسية لابد أن تؤثر فى كل هذه الأمور جميعًا.. تقلل من قدر «الحرية» المتاح، ومن كفاءة الحكم فى تحقيق مصالح المواطنين، ولابد من أن تضعف من درجة تمثيل الحكومة لهؤلاء المواطنين، وتجعل هذه الحكومة «مسئولة» أمام جهات خارجية أكثر مما هى مسئولة أمام مواطنيها، كما أنها لابد أن تضعف أيضًا من درجة استقلال الإعلام، إزاء هذه القوة الخارجية وشركاتها. كذلك، أفلا تؤثر هذه التبعية السياسية، متى وجدت، فى درجة حرية المواطن العربى مثلاً فى التعبير عن تضامنه مع إخوانه فى العراق مثلاً أو مع السودان؟ بل ألا تؤثر حتى على حرية انتقال المواطن العربى بين بلد عربى وآخر؟

لا يمكن أن يكون مثل هذا قد دخل فى الحساب أو أُخذ فى الاعتبار فى إحدى الدراستين (كوفمان وآخرون) اللتين قام بنشرهما البنك الدولى، إذ لا يمكن أن يهتم كوفمان أو البنك الدولى بمثل هذه الأمور التى تهم المنطقة العربية أكثر من غيرها.

مما يثير الشك أيضًا فى فهم واضعى التقرير لموضوع الحرية والديمقراطية أن التقرير يساير الموضة الشائعة (ولكن المشكوك جدًا فى صحتها) فى أن هناك موجة من الديمقراطية تكتسح العالم الآن، ولكن لم يلحق بها للأسف العالم العربى. فالتقرير يشكو من أن رياح الديمقراطية التى هبت على «معظم بلاد أمريكا اللاتينية وشرق آسيا فى





هناك سبب أهم حتى من هذا،
يبرر الاهتمام بمسألة «تمكين النوع»
وهو ازدياد نفوذ الحركات النسوية فى العالم الغربى،
وأن أى تضمين لمثل هذا المؤشر فى التقرير العربى
سوف يضمن رضا المؤسسات الدولية
التى يصدر عنها التقرير



الثمانينيات وأوائل التسعينيات لم تصل إلى البلدان العربية بعد (ص٢). فهل أدخل واضعو التقرير فى حسابهم يا ترى انتشار الدعارة فى أوروبا الشرقية بعد سقوط الشيوعية، وهل اعتبروا ذلك دليلاً على زيادة الحرية أم نقصانها؟ وهل أخذوا فى اعتبارهم الموجة المكارثية الأخيرة فى أمريكا فى أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وهل اعتبروها دليلاً على زيادة الحرية أم نقصانها؟

[٤]

الحقيقة التى يبدو أنها غابت تمامًا عن واضعى التقرير هى أن ما يسمى بالتنمية الإنسانية ليس له مقياس واحد صالح للتطبيق فى مختلف الثقافات، بل لابد من تطبيق مقاييس مختلفة لأن اختلاف القيم يؤدى إلى اختلاف مصادر الرفاهية ومصادر الاعتداء عليها، بل يؤدى إلى اختلاف مصادر الشعور بالكرامة الإنسانية ومصادر إهدارها. إن شيئًا قد يبدو واحدًا، وكان من الممكن الاتفاق عليه، (كزيادة تمكين المرأة أو توسيع قدراتها) له صور عديدة بتعدد الثقافات، كما أن لقهر المرأة والتضييق عليها صورًا عديدة بتعدد الثقافات أيضًا.

المرأة قد تشعر بالقهر لصعوبة حصولها على الطلاق فى بعض الثقافات، ولكنها قد تشعر بالقهر فى ثقافات أخرى بسبب السهولة التى يجرى بها الطلاق وتشتيت جمع الأسرة. المرأة قد تُقهر فى بعض الثقافات بسبب إجبارها على ارتداء ملابس لا تريد ارتداءها، لكنها قد تُقهر فى ثقافات أخرى لتعريضها لخلع ملابسها بأكثر مما ترغب فيه.

لهذا السبب قال عالم أنثروبولوجى مرة أن التعريف الذى يفضله للتنمية هو «زيادة قدرة المجتمع على تحقيق القيم التى يؤمن بها هذا المجتمع». أما هذا التقرير الذى نحن بصدده الآن، فإنه لا يترك لدى قارئه أى شك فى ماهية المعايير التى يستخدمها للتقدم والتأخر الإنسانى، وماهية القيم التى يعتبرها - دون غيرها - جديرة بالتحقق والاحترام. إنها ليست إلا المعايير والقيم التى يرضى عنها برنامج الأمم المتحدة للإنماء.

وهذا هو ما يجعل هذا التقرير مثالاً صارخًا للتغريب والاغتراب معًا، وهو مثال يصيب المرء منا بخيبة أمل مضاعفة لأن الأمر يتعلق هنا ليس بمجرد «نمو اقتصادى»، أى زيادة حجم السلع والخدمات، بل بشىء أعظم وأهم وهو ما يسمى «بالتنمية الإنسانية» الذى يفترض أن يتسع للاهتمام بالقيم والثقافة وآدمية الإنسان.

[٥]

بقيت ملاحظتان ختاميتان:

الأولى: تتعلق بتفسير صدور التقرير بكل هذه النقائص رغم كثرة الأسماء المرموقة التى وردت فى مطلع التقرير باعتبارها أسماء «المشاركين فى إعداد التقرير»، إما كأعضاء فى «الفريق الاستشارى» أو «الفريق الرئيسى» أو باعتبارهم «مؤلفين مشاركين» أى «معدى الأوراق الخلفية» أو من «فريق القراء» (وهى ترجمة للفظ إنجليزى معناه هنا من يطلب إليه قراءة التقرير بعد الانتهاء من وضعه لإبداء ملاحظات عليه بغرض تقويمه وإصلاح عيوبه).




والتفسير الذى أقدمه لهذا اللغز هو أن المعتاد فى كتابة مثل هذه البحوث المعدة بتكليف من هيئة دولية أن تترك درجة عالية من الحرية للمؤلفين الرئيسيين، أو للمؤلف الرئيسى ومعاونيه المباشرين، فى الأخذ أو عدم الأخذ بما يجرى إبداؤه من ملاحظات، وكذلك فى تحديد حجم الإفادة من الأوراق الخلفية. وكثيرًا ما يحدث ألا تستخدم هذه الأوراق الخلفية على الإطلاق، فيبقى الموقف الأيديولوجى (والسياسى) فى النهاية ليتحدد طبقًا لقرار المؤلف الرئيسى ومعاونيه المباشرين، ناهيك بالطبع عن المسئولين الكبار الذين قاموا باختيار المؤلف الرئيسى ابتداء، ولابد أن يقروا التقرير ويرضوا عنه فى صورته النهائية قبل أن يسمحوا بإصداره. الخلاصة إذن أنه من الممكن أن تظهر الصورة النهائية للتقرير فى شكل يفاجأ به كثيرون من هؤلاء «المشاركين» المرموقين مثلما فوجئنا نحن بالضبط.

والملاحظة الثانية والأهم، هى أن كل ما عبرت عنه فى هذا المقال لا يعنى رفض تقديم أى نقد أو اتهام للعرب، أفرادًا أو مؤسسات أو حكومات. إنما العبرة هى بالهدف من النقد والاتهام كما يتبدى من لهجة النقد وطريقة الاتهام، وهل يصب هذا النقد وذلك الاتهام فى نفس الوعاء الذى لا يكف المعادون لنهضة العرب والمسلمين عن ملئه. إن عيوبنا كثيرة وأخطاءنا عديدة، وأوجه التقصير من جانبنا لا نهاية لها، وفى كل ميدان من الميادين. ولكن الاعتراف بكل هذا شىء، وترديد الاتهامات بالحق والباطل بهدف الإذلال والإضعاف و«تمكين» الأجنبى منا، شىء مختلف تمامًا.

نحن نريد بالطبع أن ينهض العرب إنسانيًا ولكن على أن يكون هذا بطريقتنا وطبقًا لقيمنا الخاصة. نعم نحن نحتاج إلى نشر المعرفة، ولكن معايير التقدم فى هذا المجال كثيرة وليس أهمها استخدام الإنترنت والحاسوب.

نعم نحن نحتاج إلى رفع شأن المرأة، ولكن ليس بالضرورة بزيادة عدد أصوات النساء فى مجالس نيابية لا تمثل أحدًا. لا النساء ولا الرجال ولا حتى الأطفال.

نعم نحن نحتاج إلى الارتفاع بالمستوى التعليمى، ولكن رفع مستوى تعليم اللغة العربية لا يقل أهمية عن رفع مستوى تعليم الإنجليزية أو الفرنسية، وهناك مقاييس لقياس مستوى التعليم والمعرفة أفضل بكثير من ذلك المقياس الذى ذرف واضعو التقرير من أجله الكثير من الدموع، وهو عدد الكتب المترجمة إلى العربية من الإنجليزية والفرنسية.

نعم نحن نريد حريات أكثر، ولكن ليس بالضرورة حرية الاختيار بين خمسين قناة تليفزيونية تذيع كلها نفس الكلام الفارغ وتقوم كلها بعملية مستمرة من غسيل المخ. ■

كتاب الزاوية

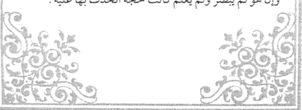
عمر بن عبد العزيز

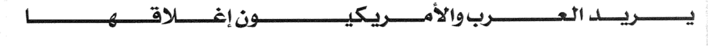
إنه قاسى من تكميم الأفواه أيام الوليد بن عبد الملك، فقد دخل السجن ثلاثًا وقد أصيب بأذى ووجع شديد فى رقبته لما اشتد فى نصحه للوليد وأمره أن يكف عن قتل المسلمين ومنع ولاته السفاحين من سفك الدماء لأوهى الأسباب. إنه ليدرك معنى الحرية السياسية، بل إنه ليرى أن الحاكم لا يركب موجة الطغيان إلا إذا أخرس الألسنة وحال بينه وبين الناصحين الراشدين.

إن الخلافة ليست جلب مغانم ولا التسلط على رقاب الناس ولا علوًا فى الحياة، بل هى مسئولية جسيمة لا ينهض بها إلا أولو العزم من الرجال. وكان ابن عبد العزيز يستشعر خطرها فكان يقول: «فلعمرى ما ازددت علمًا بالولاية إلا ازددت لها مخافة ومنها وجلاً ولها إعظامًا، حتى قدر الله لى منها وقدر على ما قدر، فأنا أشد ما كنت لها استقتالاً، ثم أحسن الله حميد أعوانى وعاقبتى وعاقبة من ولانى أمره، فأصلح أمرهم وجمع كلمتهم».

وعرف عمر أنه ما من حكومة رشيدة إلا وتقيم قوائمها على العدل، فكان أول ما فعله أن نحى الولاة الظلمة.

واختار قضاته من العلماء بما فى كتاب الله وبما مضت به السنة، وبمن اتصفوا بالحلم والعفاف والمشاورة وعدم الاستبداد بالرأى. ولم يتركهم دون توجيه بل كتب إليهم كتابًا بين لهم فيه أصول الحكم: «.. فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره وأن تبتلى به، فرأيت منه سوء نزعة وسوء سيرة فسدده ما استطعت وبصره وأرفق به وعلمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه.

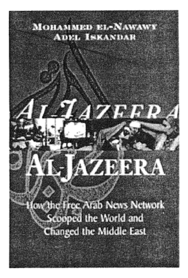




يريد العرب والأمريكيون إغلاقها



قناة الجزيرة



«محزن أن يتخذ وزراء إعلام دول مجلس التعاون الخليجي قرارا بمقاطعة فضائية «الجزيرة» بما فى ذلك مقاطعة الشركات التى تتعامل معها إعلانيا، ولو أن هذا القرار اتخذه وزراء الداخلية أو رؤساء أجهزة المخابرات أو حتى وزراء الخارجية لكان أمرا مفهوما».

صالح القلاب
وزير الإعلام الأردنى السابق

أيمن الصياد

ضبط العربُ - أو نخبهم على الأقل - فى نصف القرن العشرين مؤشرات أجهزة المذياع على «هنا لندن» وألفت آذانهم أصوات حسام أحمد شبلاق ومديحة المدفعى وحسن الكرمى صاحبَ «قول على قول». وأيامها - وربما للمرة الاولى - عرف المغربيون فيروز وناظم الغزالى. وعرف المشرقيون عبد الوهاب الدوكالى. وتعرف الجميع إلى الطيب صالح. ويومها أيضاً، اختلف العرب، وكان هذا طبيعياً - بحكم ضرورات مرحلة، ومقتضيات سياسة، وإرث تاريخ قريب - حول الـ BBC والتى هى فى التحليل النهائى «بريطانية» اسما، وملكية. فشوشت على بثها حكومات، وأجهد الناس مؤشرات أجهزتهم كل ليلة فى البحث عن إرسالها على الموجة «القصيرة» صعبة المنال.

لم يكد يرحل القرن العشرون الذى شهد نصفه الثانى العصر الذهبى للراديو، إلا وكانت الأقمار الصناعية المخصصة للبث الفضائى قد احتلت سماوات صُنفت «إعلامياً» لعقود على أنها المحيط المتلاطم «لموجات» الأثير. وشدت الشاشاتُ التى صارت ملونةً عيوناً كانت تَتْرُكُ للآذان - تقليدياً - مهمة التلقى للخبر والتحليل... والثقافة.

من منا لايذكر هذا الصباح البارد من يناير ١٩٩١ و«بيتر أرنت» مراسل الـ CNN يقف بجوار هوائياته على سطح فندق الرشيد فى قلب بغداد. لينقل لنا «حرباً على الهواء» صوتاً وصورة.. وإبهاراً. يومها نعى البعضُ مرحلة الـ BBC وافتقد البعضُ بديلاً بالعربية، لغة ومضامين. وأدرك الجميعُ أن عصراً جديداً قد بدأ.

من رحم الـ BBC - وياللمصادفة أو المفارقة - وُلدت «الجزيرةُ» قبل سنوات ست، وقبل أن تنتقل بالتبنى، أو الملكية، أو العتق «من الحرية.. أو إليها ربما».

aljazeera: How The Free Arab News Network Scooped The World And Changed The Middle East
الجزيرة: كيف أحرزت شبكة إخبارية عربية حرة السبق العالمى وغيرت الشرق الأوسط.
Mohammed El-Nawawy, Adel Iskandar
Westview Press (USA)

والقصة المعروفة للإجهاض والولادة مليئةٌ تفاصيلُها وملتبسةٌ بكل المفردات العربية: حساسية أنظمة.. وأموال نفط.. وحسابات مصالح.. ومنطق المؤامرة؛ نفترضه أحياناً ونروج له أحياناً أخرى. ويتلاقى كل ذلك حينا. ويتعارض فى معظم الأحيان مع الاعتبارات المهنية المجردة.

أيًا ما كان أمر الميلاد والنشاة فالحاصل أن الجزيرةَ جاءت. واحتلت الشاشات العربية. بما هو - بكل المقاييس - غير مسبوق «مهنياً وسياسياً» وبكل ما هو صادم ومتجاوز لأبجديات الإعلام العربى المعتادة. جاءت الجزيرة لتلقى ربما - كما شعارها المتلفز - حجرا فى الماء الراكد للإعلام العربى فى العقد الأخير من القرن العشرين.

صخب الجزيرة وقصتها كانت موضوعاً لكتاب / دراسة صدرت قبل أشهر فقط (أبريل ٢٠٠٢) فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن بات اسم القناة «العربية» على مدى العام الماضى مألوفا للمواطن الامريكى ومترددا على ألسنة ومانشتات الصحف. بعد أن هددها المسؤولون مرة ملوحين باتهامات الترويج للإرهاب اعتراضاً على ماتبثه عن الشأن الفلسطينى وأخبار القاعدة، الأمر الذى أثار يومها كثيراً من الاستغراب حول المفهوم الامريكى «الجديد» لحرية الإعلام.

يتحدث الكتاب فى عجالة وتبسيط عن مجموعة من الصحافيين العرب فى لندن الذين وجدوا أنفسهم بلا عمل بعد ان استغنى القسم العربى بهيئة الإذاعة البريطانية عن خدماتهم بعد إغلاق تلفزيونه العربى. وفى نفس الوقت كان أمير قطر، الذى تولى الحكم فى انقلاب ابيض، راغبا فى انشاء محطة تلفزيونية خاصة به. تسهم ربما فى إعطاء قطر الاسم الذى بات معروفا. ولابد من الاعتراف بأن القطريين، أو على الأقل العارفين منهم بقوة الاعلام فى عالم اليوم قد نجحوا فى ذلك. فشبه الجزيرة الخليجية تلك (تبلغ مساحتها ١١٤٣٧ كلم مربعا ويبلغ عدد سكانها قرابة ٦٠٠ الف نسمة يشكل المواطنون القطريون ١٠٠ ألف منهم) أصبحت محطة لحوارات ولقاءات ليست فقط تلفزيونية. فقبل أيام فقط كانت الدوحة / العاصمة مكانا لمؤتمر نظمه معهد بروكنجز للعلاقات الدولية حول العلاقات الأمريكية مع العالم الاسلامى.

العلاقة «الحتمية» بين الجزيرة وقطر غابت بعض تفاصيلها ربما عن الدراسة التى لا تجيب عن السؤال «المُلِح» والمزمن على ألسنة منتقدى القناة :«من يمتلك الجزيرة على وجه التحديد؟.. وما هى آليات اتخاذ القرار وتحديد السياسات؟وإن كان الواقع الإعلامى فى منطقتنا يقول بوضوح أن مسألة الملكية الملتبسة ليست غريبة أبدا عن وسائل الإعلام العربية الرئيسة كلها. تتساوى فى ذلك تلك التى تسمَت «بالقومية» أو الأخرى التى اختارت المهجر موطنا لها لتصبح «لندنية» إذا اخترنا الرجوع الى الأوراق القانونية الثبوتيه، أو «غير ذلك» إذا شُغلنا بمركز القوى وسلطة القرار.



وفى حين ينكر البعض أن القناة بوصفها إخبارية كان لها السبق الصحفى فى أكثر من مناسبة معتبرين أن المسألة لا تعدو كون حفنة من الإرهابيين اختاروها لتكون منصتهم الدعائية. وهو الأمر المعروف على مدى التاريخ، يرى آخرون أن الأمر لم يكن أبداً بهذه البساطة. فرغم حقيقة تعاون مفترض من الذين رأوا أنها يمكن بالإمكانيات «المهنية» أن تكون ناقلاً جيداً ومؤثراً لآرائهم ومواقفهم، إلا أن الامر من وجهة النظر الاعلامية البحتة - لم يكن يخلو أبداً من «مهنية وحرفية» عالية.

كما أن القناة نجحت - اتفقنا أو اختلفنا معها - فى أن تأخذ مكاناً مرموقاً بين منافسيها يعرف ذلك «يومياً» المراسلون الذين يتقدمون بطلبات لاختيارهم ضمن المجموعة الصحفية

انه لأمر مثبط للعزيمة أن نرى مســـــــؤولين أمــريكـــــيين يتبنـــــون «تكتيكات مماثلة لأنظمة الحكم العربية التى سعت إلى التأثير فى تغطية قناة الجزيرة للأخبار»

آن كـــوبـــر

المديرة التنفيذية للجنة حماية الصحفيين الأمريكية فى نيويورك

المنتقاة لتغطية هذا الحدث أو ذاك. ويدركون مقدماً أن المكانين الأول والثانى محجوزان دوماً للـ CNN والجزيرة. والمنافسة انما تنحصر فيما خلا من أماكن بعد ذلك.

ويشهد بذلك طبعاً من شهد على شاشاتها حواراتها الخاصة مع زعماء العالم شرقاً وغرباً. ومن يعرف أن طلبها لإجراء حوار مع هذا الزعيم أو ذاك لا تتأخر الاستجابة له أكثر من أيام معدودة. يتساوى فى ذلك تونى بلير أو العقيد القذافى. والإعلاميون المتخصصون يعلمون معنى ذلك جيداً.

ورغم الاتفاق على مستوى الخدمة الإخبارية وحرفية البرامج الوثائقية والثقافية التى تقدمها الجزيرة، يبقى الخلاف - أو الاختلاف - حول برامجها الحوارية حادا وصاخبا. وربما سببًا وحيداً فى لائحة الاتهام الطويلة الموجهة الى القناة. والتى أشار إليها الكتاب حين وصف طريقة القناة بأنها «مستفزة وعدائية وتصادمية ومثيرة للصراعات ومهيجة للمشاعر وهجومية».

ويرى بعض منتقدى الجزيرة - رغم ذلك - أن ليست لديها أجندة حقيقة، على عكس ما تتصور بعض الحكومات العربية، بل إدمان لنوع من صحافة الاثارة تشترك فى كثير منه مع التلفزيون الامريكى، يعتمد على أحداث الصدمة، ورفع درجة الحرارة للحصول على عدد أكبر من المشاهدين.

وفى حين يبالغ مؤلفا الكتاب فيعتبرون أن «الجزيرة» غيرت الشرق الاوسط. يبقى المثير أن كتابات صحفية (انتقدت الكتاب والمحطة معا) وتصف الجزيرة بالديماجوجية والإثارة وإشاعة الفرقة، تنتقد الفضائية العربية من زاوية أنها لم تنجح فى احداث أى تغيير «فالشرق الاوسط بقى كما هو ولم يتغير، ومازالت الحكومات نفسها باقية فى السلطة».

والمثير أيضا انه ورغم التصريحات الأمريكية الرسمية التى تتهم الجزيرة بالتواطؤ مع تنظيم القاعدة و «إذاعة رسائل مشفرة لقادته» يقترح مؤلفا الكتاب على واشنطن استخدام «الجزيرة» لكسب قلوب العرب وتاييدهم بدلاً من «إنفاق أموال طائلة فى شبكة تلفزيونية إذاعية باللغة العربية كجزء من حربها على الإرهاب».. معتبرين - والعهدة هنا على صاحب الرأى - أنها الأنسب لحمل هذه المسؤولية.. «وهى جاهزة ومستعدة لها»!!

وكان الاهتمام بقناة الجزيرة قد تعاظم فى الولايات المتحدة فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر. وبسبب انفرادها باذاعة بيانات بن لادن وغيره من زعماء القاعدة. ثم سرعان ما أصبحت مثار قلق بالغ بسبب تغطيتها الإعلامية للحرب على أفغانستان، فى الوقت الذى تحاول فيه الحكومة الأمريكية تقليص مساحة الحرية الإعلامية لنقل أخبار القصف اليومى.

يومها قالت المديرة التنفيذية للجنة حماية الصحفيين الأمريكية فى نيويورك آن كوبر إنه لأمر مثبط للعزيمة أن نرى مسؤولين أمريكيين يتبنون «تكتيكات مماثلة لأنظمة الحكم العربية التى سعت إلى التأثير فى تغطية قناة الجزيرة للأخبار».

ويومها اعتبرت الواشنطن بوست أن «الجزيرة دولة عاصمتها قطر». وقالت فى تقرير لها إن قناة الجزيرة وضعت قطر على الخارطة بشكل لم تكن عليه من قبل، بعد أن تمكنت من الوصول إلى ٣٥ مليون مشاهد وبشبكة مراسليها على نطاق العالم بدءا من كابل حتى لندن وواشنطن، وأنها ربما حققت شهرة أكبر من الدولة التى تعمل منها. وأن هذا يرجع - حسب البوست - إلى أنها تبث فى منطقة لم تعتد الحرية. وأنها خلال مدة وجودها القصيرة نجحت فى إثارة كل شخص تقريبا بدءا من وزارة الخارجية الأمريكية وانتهاء بالأصوليين المسلمين والسعودية والدول العربية المحافظة فى الخليج.

يومها أيضا تناولت صحيفة نيويورك تايمز فى افتتاحية لها الرقابة على وسائل الإعلام وتعرضت فيها لقناة الجزيرة، وقالت الصحيفة إن إذاعة صوت أمريكا والمفترض أنها هيئة مستقلة، تمولها الحكومة الأمريكية، وهى فى الوقت نفسه معرضة لضغوط الكونجرس وضغوط وزارة الخارجية، مما يجعل استقلاليتها بالضرورة محل تساؤل.

وكانت صوت أمريكا وقد أجرت مقابلة مع الملا محمد عمر، ورغم أن المقابلة كانت وبلا شك مادة إعلامية تستحق البث فإن وزارة الخارجية طلبت من الإذاعة عدم بثها، وقد ترددت الإذاعة عدة أيام قبل أن تكتفى بوضع مقتطفات من المقابلة فى تقرير مطول. وقد أدى الجدل حول الواقعة كلها إلى جدل حول استقلالية ومن ثم مستقبل إذاعة صوت أمريكا ذاتها.

وفى الوقت الذى كان وزير الخارجية كولن باول يعرب «بصراحة» لأمير قطر عن قلقه من التعبيرات المثيرة التى تبثها محطة الجزيرة التلفزيونية. طالبا منه عمل مايمكن «لكبح جماحها». كانت افتتاحية الواشنطن بوست تعتبر أن أكثر ما يقلق فى عمل الجزيرة هو أنها عادة ما تكون فى أخبارها متحاملة على إسرائيل وعلى الولايات المتحدة. ناصحة المسؤولين فى الخارجية الأمريكية بالتفكير «والحال هكذا» فى إنشاء محطة بث تلفزيونى باللغة العربية، تستطيع منافسة الجزيرة وتكون فى مستواها التقنى ذاته.

ويبـــدو أن الفكرة، أو على الأقل التوجه، لم تكن بعيدة عن فكر الإدارة الأمريكية التى خصصت ملايين من الدولارات لتحسين الصورة الأمريكية لدى العرب «نريدهم أن يفهمونا». وتمثلت أولى الأدوات فى إنشاء إذاعة SWA بدلاً من «صوت أمريكا» الشهيرة. والتى بدأت إرسالها فعلاً بخمس لهجات مختلفة. معتمدة تقسيماً ثقافياً «خماسياً» للعالم العربى: خليجى، خليجى، عراقى، شامى، مصرى.. ومغاربى. والنتيجة أن المتابع لـ SWA يكتشف كيف أن الأمريكيين هم الذين بحاجة إلى فهم الذين يحاولون مخاطبتهم.



وبغض النظر عن الكتاب الذى يبدو فى بعض أفكاره «ترويجيا». كما يؤخذ عليه ماتضمنه من ادعاءات يصعب إثباتها. وتضعه فى مربع الغموض والالتباس ذاته الذى كثيرا ماتدخله الفضائية العربية، يبقى لافتا أن الجزيرة متهمة طوال الوقت بالتواطؤ «والعمالة». فحين اذاعت (فجاة) فى أوج الاجتياح الإسرائيلى شريطاً لأحد منفذى هجمات سبتمبر يرتدى الكوفية الفلسطينية، ويعترف بمسئولية القاعدة، اتُهِمَت بالعمالة لإسرائيل و أمريكا. وأنها استهدفت لفت الأنظار عن جرائم شارون. فى الوقت الذى كانت واشنطن تطالب فيه رسمياً بكبح جماح القناة مهددة بمعاقبتها لموقفها المتحيز من إسرائيل ولتحريضها على العنف والإرهاب فى الاراضى الفلسطينية.

وحين أتاحت الفضائية الإخبارية «كل الفرصة» لإذاعة بيانات القاعدة اتُهِمَت بالتواطؤ معها. والسماح بإذاعة تعليمات قادتها «المشفرة» إلى قواعدهم. فى حين لم تسلم من اتهامات عربية مستمرة بأنها أداة للاستخبارات الأمريكية، التى تبدو بصمات أصابعها - حسب قول مسؤول خليجى - فى الكثير مما تبثه هذه القناة.

الجدل حول القناة والبحث فى توجهاتها (فى عالمنا العربى يعتبرون أن التوجه دائماً سابق للمهنية المجردة) امتد إلى ساحات الحوار العربية على الإنترنت. لدرجة أنك إذا جربت استخدام محرك بحث مثل Google للبحث عن الكلمة: «الجزيرة» على الإنترنت لوجدت عجباً. ولدرجة أن الموضوع/الجزيرة احتل منفرداً كل ساحات الحوار العربية على الشبكة الدولية يوم أن (أعلن) الأمريكيون أنهم اعتقلوا رمزى بن الشيبة. وكان ذلك قبل يوم واحد فقط من بث مقابلة معه على القناة/اللغز(تبين بعدها أن الحوار أجرى قبل أشهر من تاريخ الإعلان عن اعتقال القيادى فى تنظيم القاعدة).



أيًا ماكان الأمر تبقى حقيقة أن «الجزيرة» - رغم كل المآخذ وتشابك الخيوط الغامضة - دفعت الإعلام العربى كله، شكلا ومضمونا، دفعة قوية إلى الأمام. وسلحت الجميع بجرأة ربما جاوزت حدود التهور. وأن تقنياتها وحرفية العاملين فيها حثت باقى المحطات العربية على احتذائها. وأنها نجحت فى إزالة عائق اللهجة باعتمادها الدائم للغة عربية سليمة. وأنها الأولى التى ألغت من عناوينها الرئيسية أخبار الزيارات البروتوكولية للرؤساء والحكام و أستقبل وودع.

ويبقى أن الجزيرة، وإن أغضبت الجميع؛ عربا وإسرائيليين وأمريكيين وفلسطينيين، الا أن ذلك «الجميع» يحرص على متابعتها. وتبقى حقيقة أن موقعها على الإنترنت يزوره سبعة ملايين زائر شهرياً.

ويبقى أن الزميل القديم صالح القلاب الذى كان وزيراً لحكومة خاصمت الجزيرة - مثلها مثل حكومات عربية كثيرة - قبل أن يعود إلى القلم «صحفياً» كان على حق. فقرار التضييق على وسيلة «إعلام» لا يليق فى الأرجح بوزراء إعلام. ■

اقتصاد

اقتصاديات الوقت الضائع
عبدالخالق فاروق
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

تضمنت الدراسة جانبين مهمين أحدهما ميداني والثاني إحصائي، وتشير الاستخلاصات النهائية إلى أن أكثر من ثلث ساعات العمل اليومية يضيع في قراءة الجرائد واستقبال الزوار، أو في الجلوس دون عمل حقيقي، وتشير كذلك إلى الخسارة المتحققة من جراء إهدار الوقت بهذه الطريقة والتي تنعكس بالسلب على المستقبل.

مستقبل الجنوب في عالم متغير
سمير أمين
القاهرة: مركز البحوث العربية ودار الأمين للنشر، ٢٠٠٢

الفكرة الأساسية التي يطرحها المؤلف هنا تدحض الخلاف الأيدلوجي السائد الذي يمجد الليبرالية في شقها الاقتصادي، بوصفها وصفة مضمونة لتحقيق ازدهار اقتصادي يستفيد الجميع منه، كما أنها تكرس على الصعيد السياسي لمفاهيم الديمقراطية داخل المجتمعات وتوطد علاقات سلمية على الصعيد العالمي.

المؤلف يرى أن الليبرالية فعلت العكس تمامًا، ركود اقتصادي وتفاوت متزايد في توزيع الثروة وتفاقم مظاهر الفقر والتهميش الاجتماعي وتآكل شرعية النظم السياسية، وتحولت إدارة النظم من الأساليب السلمية المتعارف عليها، إلى أشكال من العنف البوليسي العسكري.

The Mind and the Market: Capitalism in Modern European Thought
(الذهن والسوق: الرأسمالية في الفكر الأوروبي الحديث)
Jerry Z. Muller
Knopf, 2002, 448PP, $ 30.00

يبين المؤلف، وهو أستاذ في تاريخ الفكر الاقتصادي، كيف أن شعارات المناهضين للعولمة ليست أمرًا جديدًا وإنما هي مخاوف أساسية لازمت المفكرين الأوروبيين منذ أن شهدوا صعود الرأسمالية الحديثة، فحتى أهم من نادى باقتصاد السوق ومميزاته من المفكرين الكبار أمثال آدم سميث وجوزيف شومبيتر عبروا عن الآثار السلبية المتخوفة من نمو رأسمالية السوق.

Global Woman: Nannies, Maids, and Sex Workers in the New Economy
(المرأة المتعولمة: المربيات والخادمات وبائعات الهوى في الاقتصاد الجديد)
Barbara Ehrenreich & Arlie Hocsh-child (editors)
Holt/Metropolitan, 2002, 288PP, $25.00

الخادمة الفلبينية في هونج كونج ودول الخليج، والمربية اللاتينية في الولايات المتحدة، وبائعات الهوى في تايلاند، وعقود الزواج العابرة للقوميات.. كلها مظاهر الجانب الخاص بالمرأة في العولمة الاقتصادية. فالعمل الذي تقوم به هؤلاء النساء يعد مصدرًا رئيسيًا للعملة الصعبة في بلادهن، وقد أصبحن سلعة مطلوبة في الدول المتقدمة التي طالما اعتمدت على استيراد الموارد الطبيعية من العالم الثالث. وسلعة اليوم هي «الفلاحة السعيدة» التي تقوم بالخدمات الجنسية، وتربية الأطفال الصغار، والعناية بالعجائز.

بيئة

تلوث الهواء.. القاتل الصامت
حسن أحمد شحاتة
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

تسبح كثير من المواد السامة في الهواء الذي نتنفسه، وهي ناتجة عن عوادم السيارات والغازات المنبعثة من المصانع والأبخرة المتصاعدة من المحارق وغيرها.

المؤلف يحلل تركيب الغلاف الغازي المحيط بالأرض ودوره المهم في الحفاظ على الصحة، وكيف يمكن الإبقاء على هذا الغلاف الجوي لأهميته باستخدام بدائل أخرى للطاقة، وهي بدائل أكثر نظافة وأقل ضررًا مثل الطاقة الشمسية وغيرها.

تاريخ

متون الأهرام المصرية القديمة
ترجمة: حسن صابر
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

إطلالة على أقدم النصوص الدينية على الإطلاق وهي النصوص المصرية القديمة التي وجدت في غرف الدفن داخل الأهرامات المصرية، وهي النصوص التي اشتملت على دراما وترانيم وابتهالات ونصوص سحرية وأخرى شعائرية وطقوسية.. إلخ.

1421: The Year China Discovered the World
(١٤٢١: عام اكتشاف الصين للعالم)
Gavin Menzies
Bantam Press, 2002, 389PP, £20.00

يقدم الأدلة على أن الصينيين - وليس الأوروبيين - كانوا أول المستكشفين البحريين في العالم. ففي الثامن من فبراير من عام ١٤٢١، أبحر أكبر أسطول بحري شهده العالم من قاعدته في الصين في مهمة «الوصول إلى آخر الأرض لجمع الغنائم من البرابرة فيما وراء البحار وتوحيد العالم كله في ظل التجانس الكونفوشي».

استمرت الرحلة عامين دار فيها الصينيون حول العالم، ولكن عند عودتهم كان الامبراطور قد سقط من السلطة ودخلت الصين في عصر العزلة الذي فرضته على نفسها. وهكذا دمرت سجلات الرحلة كما تركت السفن في مرساها حتى أصابها العفن. ولم يدرك العالم أن السفن الصينية وصلت إلى أمريكا قبل كولومبوس بسبعين عامًا، ودارت حول العالم قبل ماجيلان بقرن كامل. كذلك يتضح أنهم اكتشفوا أنتاركتا ووصلوا إلى أستراليا قبل «كوك» بثلاثمائة وخمسين عامًا.

A Secret History of the IRA
(التاريخ السري للجيش الأيرلندي الجمهوري)
Ed Moloney
Norton, 2002, 512PP, £ 28.95

يؤرخ هذا الكتاب لحركة الجيش الأيرلندي الجمهوري بالتركيز على الدور المحوري لجيري أدامز الذي استطاع أن يحول فكر وعمل المنظمة من حمل السلاح إلى مفاوضات التسوية مع العدو البريطاني.

يبدأ مولوني - وهو صحفي أيرلندي - كتابه بعام ١٩٦٩ الحاسم الذي انشقت فيه المنظمة، ثم يتتبع مراحل صعود جيري أدامز في الجيش الجمهوري الأيرلندي المؤقت، من العمل العسكري إلى قيادة الجناح السياسي، ومفاوضات السلام السرية التي قام بها مع الحكومتين البريطانية والأيرلندية. يركز مولوني على السياسات الداخلية للمنظمة، وتظهر صورة جيري أدامز في كتابه شخصية ماكيافيلية لا تتورع عن التضحية بالرفاق المناضلين في سبيل تحقيق نصر سياسي أشمل.

دوريات

الآداب
رئيس التحرير: سماح إدريس
بيروت: دار الآداب

يخصص العدد الجديد من مجلة الآداب ملفًا كاملاً عن فنان الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي يكتب فيه مريد البرغوثي وسليمان الشيخ وفيصل دراج وبشير الديك وأحمد مطر وجورج بهجوري وآخرون، كما يشارك برسومه محمود كحيل ويوسف عبدلكي ومحمد الزواوي ومحمد حاكم وعبدالله الدرقاوي وعمرو سليم وضياء العزاوي وغيرهم من الرسامين العرب.

يتضمن العدد أيضًا حوارًا مع الطاهر لبيب أجراه ماجد السامرائي في تونس تحت عنوان المثقف، دوره وصوره وتحولاته.

وفي قسم الأبحاث دراسات عن العرب والحركة السياسية الناشئة في العالم لقاسم عزالدين، القدرات الصاروخية العربية والإسلامية لكمال مساعد، ثم كي لا يطرد الفلسطينيون من جديد، إضافة لعدد من القصائد والقصص وقراءات في ملف العدد السابق من المجلة، أما ندوة المجلة فهي عن الإرهاب وعالم ما بعد ١١ سبتمبر ويشارك فيها صادق جلال العظم وبرهان غليون ويوسف سلامة.

الجينات والمرض النفسي
باحثون
بيروت: مركز الدراسات النفسية والجسدية، ٢٠٠٢

ملف خاص في العدد يبحث في العلاقة بين الاضطرابات الجينية والأمراض النفسية ويطرح سؤالاً وثيق الصلة بأحداث عالمنا المعاصر من السيكولوجيا وصراع الحضارات، كما يتضمن حوارًا مع مؤلف كتاب الثلاثاء الأسود. إضافة إلى موضوعات أخرى عديدة مما يدخل تحت عنوان دراسات نفس سياسية، فضلاً عن عروض لعدة كتب.

الفن المعاصر
فوزي فهمي
القاهرة: أكاديمية الفنون

في عددها الرابع تقدم هذه الدورية التي تعنى بترجمة الجديد في الفنون المعاصرة والثقافة ترجمات لدراسات عديدة في الفنون المختلفة. منها في المسرح: العرض بوصفه تعبيرًا مجازيًا لبيرت أو. ستيتس، وفي السينما: الجنون في السينما بقلم جوزيبي براديزو، وفي الموسيقى: الموسيقى والزمن الفعلي لبيتر سنيدي، وفي الرقص: أجسام حية آلات حية ليوهانس برنجر، وفي الفنون التشكيلية: الركائز البيئية للأيقونية بقلم جوران سونسون، وغيرها من الدراسات في النظريات النقدية والثقافية وفنون الاتصال والإبداع.

أمكنة
باحثون وصحفيون
الإسكندرية: خاصة، ٢٠٠٢

عدد جديد من هذه الدورية غير منتظمة الصدور والتي يصدرها مجموعة من الشباب بجهود ذاتية تعبر عن وعي وفهم وموهبة في الكتابة والتصوير والمتابعة، وهي مجلة تعنى في الأساس بالعلاقة بين الإنسان والمكان في تجلياتها المختلفة، وهذا العدد يقدم بانوراما شاملة عن حال الفلاحين في العصر الحالي، وتأثير التحولات الاقتصادية العالمية والسياسات الحكومية المحلية على أوضاعهم، وتأثير ذلك كله على المكان، هل مازالت البيوت كما كانت، هل مازالت علاقة الفلاح بقريته كما كانت قبل عشرين سنة مثلاً، هل مازالت القرية كمفردة مهمة في علاقات المكان والجغرافيا تمثل المكانة ذاتها في منظومة التحديث كما كان عليه الحال قبل نصف قرن مثلاً.

دين

الحرية في الإسلام.. الضرورة المحظورة
نشأت جعفر
على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

وضع الإسلام ضوابط شرعية وأخلاقية لمفهوم الحرية التي كفلها وكانت أعظم ما انطوت عليه رسالته التي حررت الأفراد من العبودية إلا لله سبحانه وتعالى وهذه أسمى معاني الحرية، التي لا تتحقق إلا بمحاربة هوى النفس ونوازع الشر والشهوة والتعصب، والحرية تحتاج إلى

يقظة ومجاهدة وتضحية، وفهم صحيح لمعناها ومراميها والمقاصد الشرعية التي تقف وراءها، هذه هي الحرية في الإسلام كما بينها المؤلف.

■■■

مقولات في فقه الموقف

سلمان بن فهد العودة

الرياض: دار المحقق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢

يطرح الكتاب خمس مقولات وتحت كل منها عدة تساؤلات يسعى للإجابة عليها، المقولة الأولى عن مفهوم الفقه وغرض الفقيه، وفيها إجابة عن أسئلة من نوع: ماذا تعنيه كلمة الفقه لدى المختصين، وكيف توازن بين الأحوال المتعددة للنفوس وبين مصالح الأمة في دعوتها وجهادها، والمقولة الثانية عن مفهوم الاجتهاد في الموقف الشامل وأدب أهل الاجتهاد فيه، والثالثة عن حقيقة الخلاف الذي أقرته الشريعة، ويجيب فيه المؤلف عن أسئلة من نوع: هل الخلاف والنزاع محمود، وهل يمكن اتفاق العلماء في سائر مواطن الاجتهاد، والمقولة الرابعة عن الموازنة بين القصد والولاء وبين الفقه والتصور، والخامسة عن التفاضل والتكاليف.

■■■

What Everyone Needs to know about Islam

(ما ينبغي لأي شخص أن يعرفه عن الإسلام)

John L. Esposito

Oxford University Press, 2002, 244PP, $17.95

أنشأ جون إسبوزيتو مركزًا للتفاهم المسيحي الإسلامي في جامعة جورجتاون، وهو خبير في الدراسات الإسلامية والإسلام السياسي، ومنذ أحداث ١١ سبتمبر زاد الطلب على كتبه في أمريكا وأصبح يدعى باستمرار لإلقاء المحاضرات المختلفة للتعريف بالإسلام بصورة يرضاها غالبية المسلمين. هذا الكتاب أعده إسبوزيتو بشكل مبسط في شكل أسئلة وأجوبة لكي توفر المعلومات الأساسية للشخص العادي الذي لا يعرف شيئًا عن الإسلام.

■■■

When Religion Becomes Evil

(عندما يتحول الدين إلى شر)

Charles Kimball

Harper San Francisco, 2002, 235PP, $21.95

حصل تشارلز كمبال على درجة الدكتوراة من هارفارد في الدراسات الإسلامية، وهو الآن قس بروتستانتي وأستاذ في تاريخ الأديان، وقد خدم من قبل في منصب مدير مكتب الشرق الأوسط بمجلس الكنائس الوطنية. في هذا الكتاب يتناول كمبال مجموعة من الأديان ولكن بالتركيز على الإسلام والمسيحية ليبين كيف يمكن أن تتحول ممارسة الدين إلى شر، حيث يعتقد أن أي دين يمكن أن يكون حافزًا للخير وللشر. وهو يقدم خمسة مؤشرات تنذر بأن أصحاب دين ما يتجهون به إلى الشر: أولاً: عندما يؤكد أصحاب دين ما أنهم يملكون السبيل الوحيد إلى الله والتفسير الوحيد الصحيح للنصوص المقدسة، ثانيًا: الطاعة العمياء للقادة الدينيين، ثالثًا: الاعتقاد بعلامات معينة لنهاية العالم، رابعًا: استخدام وسائل شريرة لتحقيق غايات دينية، وخامسًا: إعلان الحرب المقدسة.

"رحلات"

أمريكا من الداخل

إبراهيم عبدالرسول

القاهرة: على نفقة المؤلف

يصنف المؤلف كتابه ضمن أدب الرحلات، وقد سبق له أن قدم كتابًا في هذا الفن الأدبي ذاته هو «مصريون فوق جبال الألب» سجل فيه مشاهداته لبعض دول أوروبا التي زارها، أما في هذا الكتاب فهو يسجل مشاهداته وانطباعاته عن الولايات المتحدة الأمريكية بعد ٥٠٠ عام على اكتشافها.

■■■

Without Reservatios: The Travels of an Independent Woman

(بدون تحفظات: رحلات امرأة مستقلة)

Alice Steinbach

Random House, 2002, 320PP, $ 13.95

قررت صحفية أمريكية - حائزة على جائزة بوليتزر - أن تترك الروتين اليومي لعملها وتسافر في رحلة طويلة إلى أوروبا من أجل إعادة اكتشاف ذاتها وحياتها. هذا الكتاب يحتوي على خلاصة تجاربها ومغامراتها في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، وهي تبدأ كل فصل من كتابها ببطاقة بريدية ترسلها إلى نفسها، فيها أهم ما شاهدته في المدينة المذكورة، وأهم ما تعلمته وما تغير فيها بفضل هذه الزيارة.

"روايات وقصص"

تقارير السيدة راء

رضوى عاشور

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

لوحات قصصية ترسم جوانب من سيرة المؤلفة، وتتعرض لأحداث حميمة حياتية، وبينها ذكريات عن أيام عاشتها المؤلفة متنقلة بين بريطانيا وأمريكا وإسبانيا، وكذلك علاقتها مع الإبداع والكتابة.

■■■

I Don't know How She Does It: The Life of Kate Reddy, Working Mother

(حياة كيت ريدي، أم عاملة)

Alison Pearson

Knopf, 2002, 332PP, $23.00

صدرت هذه الرواية في بريطانيا منذ عدة أشهر والآن تحقق نجاحًا كبيرًا في الولايات المتحدة، بعد أن جذبت أقلام النقاد وأرقام المبيعات معًا. بل إنه قد تم بيع حقوق تحويلها إلى فيلم سينمائي، فهي على غرار «مذكرات بريجيت جونز» تدور حول سيدة تكتب مذكراتها ولكنها في هذه المرة ليست فتاة تبحث عن الحب والزواج، وإنما زوجة وأم لطفلين وموظفة لامعة في شركة مالية كبيرة في لندن. وبالتالي تواجه صعوبات يومية (ضاحكة/باكية) في محاولتها لتحقيق التوازن بين واجباتها كأم وزوجة وبين طموحاتها العملية.

■■■

Dar El Salaam

(دار السلام)

Tara Kai

Bridge Works, 2002, 240PP, $24.95

رواية تدور أحداثها في عاصمة تانزانيا حيث تذهب أسرة بريطانية لقضاء عطلة. فتقع الابنة المراهقة «تاتوم» في غرام «محمد» صديق والدها الهندي الأصل والذي يبلغ من العمر ٤٠ عامًا.

■■■

Baudolino

(بودولينو)

Umberto Eco

Secker & Warburg, 2002, 522PP, $10.00

رواية تاريخية، أسطورية من تأليف الكاتب الإيطالي الشهير أمبرتو إكو، تدور أحداثها في القرن الثالث عشر في مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وبالتحديد في أبريل من عام ١٢٠٤ عندما هاجمها وحرقها فرسان الحملة الصليبية الرابعة.

"سياسة"

الأفكار والأسرار ١١ سبتمبر ٢٠٠١

محمد قدري سعيد - عبدالمنعم سعيد

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

سيظل ما جرى في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عالقًا في أذهان الأمريكيين وذاكرتهم، ومؤثرًا عليهم وعلى العالم كله لسنوات طويلة مقبلة، ما جرى كان أشبه بالخيال أو ما فوقه، لكن تداعياته التي بدأت بالهجوم الأمريكي الكاسح على أفغانستان، وتستمر في العراق وفلسطين لا يمكن التنبؤ بها دون أن تكون الإجابة واضحة تمامًا عن من فعلها.

والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، يناقش الأول منه الحدث ذاته ويرده إلى عناصره الأولية ويناقش ما سبقه وما لحقه من تطورات. والثاني يعود إلى الأطراف المباشرة المحركة للحدث سواء كانت طالبان أو تنظيم القاعدة من جانب أو اليمين الأمريكي المسيطر على الإدارة الأمريكية من جانب آخر.

أما القسم الثالث فيعيد صياغة الحدث وفق أربع قضايا رئيسية هي: «العولمة وصراع الحضارات» و«الأصولية الإسلامية» و«الفكر العسكري» و«الصراع العربي الإسرائيلي».

■■■

الأمة والدولة في الوطن العربي نظرة تاريخية

يوسف الشويري

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

يسلط الكتاب الضوء على جهد سياسي ونضالي كبير سعى فيه عدد من رجالات الأمة منذ القرن التاسع عشر إلى إعادة هيكلة الوطن العربي وتوحيده بوسائل عدة، وقد طرح هذا الجهد فكرة القومية العربية باعتبارها حركة طمحت إلى مقاومة الاستعمار وصد الاختراق الاستعماري الأوروبي في ذلك الوقت، وقد حققت الحركة نجاحات مهمة وتعرضت أيضًا لانتكاسات خطيرة في مواجهة التكتل الاستعماري الذي استهدف تفتيت وحدتها وإفشال محاولاتها للوحدة.

■■■

الحلم المصري أي مصر نريدها؟

رضا هلال

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

يستعير المؤلف ما قاله رفاعة الطهطاوي في أوائل القرن التاسع عشر حين سُئل عن مصر التي يريدها فأجاب: أن تكون مكان سعادتنا أجمعين نبنيه بالحرية والفكر والمصنع.

والمؤلف يراها كذلك ولا يرى مستقبلاً لها إلا إذا أخذت بالليبرالية في شقيها السياسي والاقتصادي، وأن على الدولة دورا مهما هو استكمال تحديث الاقتصاد والسياسة لا تعويقهما تحت أي دعاوى.

الكتاب يتضمن عشرات المقالات التي نشرها المؤلف في الفترة الأخيرة جمعها تحت سبعة عناوين كبرى هي: مصر التي نريدها وتناقضات الحلم المصري ومصر وإسرائيل وجماعة بن لكن ومصلحة مصر والحربجية ومكانة مصر والخوف من العولمة ومصر وتغيير العالم بعد ١١ سبتمبر.

■■■

العلاقات العربية الأوروبية

سمير أمين - علي الكنز

منير الحمش - مصطفى الجمّال

القاهرة: مركز البحوث العربية ودار الأمين، ٢٠٠٢

يمثل هذا الكتاب قراءة نقدية عربية للعلاقات العربية الأوروبية، وهو يضم خلاصة ندوة عقدت في أبريل من العام الماضي في الموضوع، وشارك فيها مثقفون عرب وقدمت فيها أوراق بحثية دارت حول المشروع الأورومتوسطي بين الواقع والخيال والإقليمية والأورومتوسطية وبدائلهما، فضلاً عن تعقيبات على أفكار عديدة في الموضوع.

■■■

ملف التعويضات المصرية من إسرائيل

رجب عبد المتولي - منال مصطفى غانم

القاهرة: على نفقة المؤلفين، ٢٠٠٢

يرى المؤلفان أن هذا الملف لا يجوز إغلاقه بعدما تأكدت الجرائم الإسرائيلية في حق الأسرى المصريين، فضلاً عن الأضرار المادية الرهيبة التي لحقت بالمناطق التي كانت تحت الاحتلال، ويشير المؤلفان إلى استفادة إسرائيل القصوى مما لاقاه اليهود على يد النازي في أثناء الحرب العالمية

قراءات جديدة

الثانية وسعيهم إلى تضخيم المأساة واختراع أكاذيب تسوغ لهم الحصول على معونات وتعويضات هي التي أقامت الاقتصاد الإسرائيلي وهي التي تحافظ على بقاء دولتهم حتى اليوم.

■■■

من داخل إسرائيل الآن ومنذ نصف قرن

تحرير: عماد جاد

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

يقدم الباحثون في ثمانية فصول الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخل دولة إسرائيل، فيتناولون الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وتأثيره على مستقبل إسرائيل والاقتصاد الإسرائيلي، وانتشار المجتمع الإسرائيلي على سياسات حكومته، والتعليم والتطور التكنولوجي في إسرائيل والقدرات العسكرية الإسرائيلية والتهديد الذي تمثله على جيرانها، وعلاقات إسرائيل الخارجية سواء مع العرب أو مع الغرب.

■■■

God, Oil and Country: Changing the Logic of War in Sudan

(الله والبترول والبلد: تغيير منطق الحرب في السودان)

by: International Crisis Group

International Crisis Group, 2002, 274PP, $15.00

التقرير يتوجه لصناع القرار السياسي في الدول الغربية، يحثهم على استغلال الوضع الحالي في السودان بعد أحداث ١١ سبتمبر لإنهاء الحرب الأهلية الدامية هناك. ففي ظل الضغوط الأمريكية على السودان للتعاون معها في محاربة الإرهاب، وفي ظل رغبة الخرطوم في التمتع بعوائد اكتشافاتها البترولية الجديدة، أصبح الآن هناك صراع في داخل الحزب الإسلامي الحاكم بين المتشددين والمعتدلين.

«سير ومذكرات»

ابن منظور مؤلف لسان العرب

أبو القاسم محمد كرو

تونس: دار المغرب العربي، ٢٠٠٢

يأتي هذا الكتاب ضمن سلسلة رواد منسيون ويتناول سيرة ابن منظور أو ابن المكرم مؤلف المعجم الكبير «لسان العرب»، والمؤلف يحقق في روايات مولده ونشأته، ثم من تتلمذ عليهم من المشايخ والكتب التي ألفها ومنها كتاب مختار الأغاني في الأخبار والتهاني وهو مختصر لكتاب الأغاني للأصفهاني، وأخبار أبي نواس ونثار الأزهار في الليل والنهار وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر فضلاً عن عدد من المخطوطات والكتب المفقودة الأخرى، أما أشهر ما ألفه على الإطلاق فهو معجم لسان العرب.

■■■

عبدالقادر القط ذكريات عمر

عبدالبديع عبدالله

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

منذ ما يزيد على نصف قرن، لم تنقطع إسهامات الدكتور عبدالقادر القط النقدية ومتابعاته للحياة الأدبية وإفرازاتها شعرًا ونثرًا، وبرغم أنه رومانسي النزعة ـ كما يقول المؤلف ـ فقد ساند حركة الشعر الحر ودعم مواهب ممثليها في مصر من أمثال صلاح عبدالصبور وزملائه.

وقد ترجم الدكتور القط عديدًا من الكتب المهمة، وأشرف على عشرات الرسائل الجامعية ورأس تحرير مجلات المسرح وإبداع وكانت بصمته في كل منها واضحة حتى رحل عن دنيانا مؤخرًا.

■■■

Elizabeth Taylor: My Love Affair With Jewelery

(إليزابيث تايلور: قصة غرامي مع المجوهرات)

Elizabeth Toylor

Simon & Schusher, 2002, 240PP, $65.00

تعرض إليزابيث تايلور على القراء مجموعتها الكاملة من المجوهرات التي اشتهرت بها، من خلال الحكايات الشخصية التي ترويها عن قصة اقتنائها لكل قطعة، بالإضافة إلى الصور التي يضمها الكتاب. ويظهر أزواجها السبعة السابقون في خلفية كثير من هذه القطع الثمينة، من أمثال ريتشارد برتون الذي أهداها ماسة ٣٣ قيراطا بمناسبة هزيمتها له في مباراة بنج بونج.

«سينما»

سينما النور والظل

مصطفى عبدالوهاب

القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

يسعى المؤلف إلى رؤية سينمائية لأفلام التليفزيون مستندًا إلى أن الأساس الدرامي للفيلم السينمائي والتليفزيوني واحد مما يجعل بالإمكان الاستغناء عن السينما، أو بتعبير المؤلف: هل يصبح الفيلم التليفزيوني طوق النجاة إلى سينما نظيفة، والمؤلف يختص بالذات الأفلام المنتجة من خلال اتحاد الإذاعة والتليفزيون، وبعضها عرضته دور السينما مثل ناصر ٥٦ وأيوب والقتل اللذيذ واضحك الصورة تطلع حلوة وغيرها.

■■■

Dangerous Men: Pre-Code Hollywood and the Birth of the Modern Man

(ستان وأولي: جذور الكوميديا، الحياة المزدوجة للوريل وهاردي)

Simon Louvish

St. Martin, 2002, 528PP, $27.95

صورة لحياة كل من لوريل وهاردي، اللذين اشتهرا كثنائي كوميدي في سلسلة من الأفلام السينمائية في العشرينيات والثلاثينيات. وبالرغم من النجاح المهني الذي صادفه الثنائي، إلا أن الحياة الشخصية والزوجية لكل منهما كانت تعيسة.

■■■

Stan and Olly: The Roots of Comedy The Double Life of Laurel and Hardy

(رجال خطرون: هوليوود ما قبل قانون الإنتاج ومولد الرجل العصري)

MIch Lasalle

St. Martin's Press, 2002, 272PP, $24.95

في عام ١٩٣٤ أصدرت القوى الرجعية في ذلك الوقت قانونا للسينما يدعى «قانون الإنتاج»، يسمح لمجموعة صغيرة أن تحدد ما هو مقبول على شاشة السينما في أمريكا، واستمر هذا القانون لمدة ربع قرن بعد ذلك. هذا الكتاب يبحث السنوات الخمس السابقة للقانون، والتي تبدأ من عام ١٩٢٩ مع بداية السينما الناطقة، مركزًا على صورة الرجل العصري التي ظهرت في هذه الفترة التي عانت فيها أمريكا من الكساد وتأثرت بالحرب العالمية الأولى. في تلك الفترة ظهرت نماذج جسدها كلارك جيبل ورودولف فالنتنو وجيمس كاجني وغيرهم، وأفلام مثل «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» و«ابن الشيخ»، و«القيصر الصغير».. وغيرها. هؤلاء تحدوا السلطة القائمة وظللوا الخطوط الفاصلة بين الخير والشر، وقدموا مشاهد عنيفة لأول مرة في السينما.

«شعر»

أسفار موسى

موسى حوامدة

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢

يستوحي الشاعر قصائده من قصة سيدنا موسى مع قومه، ويستشهد بها على ما يحدث في أرض فلسطين المغتصبة في وقتنا الحالي، من أجواء الديوان: وأرفع عن أرض الكنعانية الجور/ هارون أخي/ والشعر شقيقي الأوفى/ ولساني لا بد يدور.

«صحافة وإعلام»

حمد الجاسر ومسيرة الصحافة والطباعة والنشر في الرياض

عبدالعزيز بن صالح بن سلمة

الرياض: المؤلف، ٢٠٠٢

يغطي الكتاب مساحة زمنية تمتد عشر سنوات فقط (من ١٩٥٢ وحتى ١٩٦٢) من مسيرة علامة الجزيرة العربية حمد الجاسر ودوره في مجال الصحافة والنشر، وهو رائد من روّاده في المملكة العربية السعودية. فهو الذي أنشأ دار اليمامة للصحافة في الرياض وعنها نشأت جريدة ومجلة، ومازالت المجلة تصدر حتى اليوم، والمؤلف يشير إلى جهود الشيخ حمد الجاسر الكبيرة طيلة السنوات العشر التي منحها للصحافة.

■■■

فن الإعداد التليفزيوني

طلال سيف

القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

في ظل انتشار القنوات الفضائية، وتنامي الدور الذي يلعبه التليفزيون كوسيلة ثقافية، يكتسب الإعلام التليفزيوني أهمية متزايدة حتى أنه يعد فنًا قائمًا بذاته، والمؤلف يؤكد على أهمية أن يكون المعد ملمًا بجميع العناصر الفنية التي تمكنه من توصيل رسالته بالشكل الذي يريد.

■■■

Editor

(رئيس تحرير)

Max Hastings

Pan, 2002, 608PP, £ 20.00

في فبراير الماضي، تقاعد ماكس هاستنجز، رئيس تحرير «الديلي تلغراف» إحدى أكبر المؤسسات الصحفية في بريطانيا. الذي اشتهر منذ أن تولى رئاسة تحرير الصحيفة في ١٩٨٥، وهو هنا يروي معاركه مع رؤساء الوزارة في بريطانيا، والأحداث الكبرى التي قام بتغطيتها، إلى جانب الروتين اليومي. كذلك يصف هاستنجز علاقته المعقدة بكونراد بلاك مالك الجريدة، وصعوبة التعامل مع أفراد العائلة المالكة، والمحامين، والنجوم.. وأخيرًا حرص هاستنجز على ضم لحظات الفشل ولحظات الإحراج في كتابه إلى جانب لحظات النجاح والتألق.

«علم نفس»

الإسقاط في دراسة الشخصية

سلمى المصري

بيروت: مركز الدراسات النفسية والنفسية جسدية، ٢٠٠٢

يبدأ الكتاب بمقدمة تشرح فيها الباحثة نظريات الشخصية المختلفة، ثم تعرض للمفهوم الفرويدي للإسقاط والمفاهيم التحليلية المتفرعة عنه، ثم يتطرق لكيفية توظيف الإسقاط في الاختبارات النفسية كوسيلة لمعرفة لاوعي الشخصية موضع الفحص.

■■■

C.S. Lewis and Sigmund Freud Debate God, Love, Sex, and the Meaning of Life

(مناظرة بين سي إس لويس وسيجموند فرويد حول الله والحب والجنس ومعنى الحياة)

Armand M. Nicholi

Free Press, 2002, 304PP, £ 25.00

بعد أن درس المؤلف الكتابات الفلسفية لكل من سيجموند فرويد وسي إس لويس، قام بتخيل هذه المناظرة التي لم تجر مطلقًا في الواقع. فالكاتب وهو دارس أيضًا لكل من الطب النفسي وعلم النفس، اختار الزاوية الإيمانية التي يعبر عنها، لويس والزاوية العلمانية التي يمثلها فرويد، لمناقشة مسائل مثل الضمير، والألم النفسي، والسعادة، والموت، ومعنى الحياة.

«فكر»

تحديث مصر.. قراءة نقدية ومستقبلية

قـــــــراءات جــــــــديـدة

سامي خشبة
القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٢

يعرض المؤلف للوجه الآخر لتيار النهضة والتحديث في مصر منذ عهد محمد علي وحتى اليوم، كاشفًا النقاب عن سلبيات بعض مراحل النهضة وسنوات الردة والانتكاس، ويركز بشكل خاص على العلاقة بين التعليم والنهضة، ويلفت إلى التحولات والتأثيرات الاجتماعية خصوصًا على صعيد الهجرات الداخلية والخارجية وأثرها في البيئة الاجتماعية والعلاقات بين الناس.

■■■

صراع الحضارات أو العولمة

عبدالمنعم سعيد
القاهرة: مركز الدراسات السياسية بالأهرام، ٢٠٠٢

مجموعة من المقالات التي نشرها المؤلف في الفترة الأخيرة والتي يفند في بعضها ادعاءات صمويل هنتنجتون عن صراع الحضارات، وتأثير حوادث الحادي عشر من سبتمبر على أمريكا والعالم، ومعنى العولمة في صيغها المتعددة.

■■■

نساء رائدات

إملي نصرالله
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

قدمت المؤلفة ٦ كتب عن أهم الرائدات اللائي أسهمن في تطور مجتمعاتهن، وقدمت في الكتب الثلاثة الأولى نماذج من نساء شرقيات تركن بصماتهن على الصعيدين السياسي والأدبي، وفي الكتب الثلاثة التالية ركزت على رائدات أجنبيات في الفن والطب والعلوم والأدب.

فن تشكيلي

الفن التشكيلي العربي وأبرز مبدعيه

محمد مهدي حميدة
الكويت: دار سعاد الصباح، ٢٠٠٢

يعرض المؤلف لتاريخ حركات الفن التشكيلي في الوطن العربي منذ القدم وتأثير الإسلام عليه، كما يعرض لتأثير الاستعمار وخصوصًا الاستعمار الفرنسي على الحركة الفنية، ويقسم الدول العربية إلى ست مجموعات تتشابه في تكوينها الفني، ويخصص فصلاً لتأثير الفنانين العرب المهاجرين على الحركة الفنية في البلاد التي يقيمون فيها، ويعرض بالتحليل والنقد للمتابعات النقدية في الصحف والتي تتناول الفن التشكيلي ومبدعيه.

■■■

Picasso's War: The Destruction of Guernica and the Masterpiece that Chaneged the World

(حرب بيكاسو: تدمير جورنيكا واللوحة التي غيرت العالم)

Russell Martin
Dutfon, 2002, 256PP, $23.95

في ٢٦ أبريل من عام ١٩٣٧ ألقيت فوق مدينة جورنيكا في شمال إسبانيا قنابل هتلر المدمرة، في نفس الوقت التي كانت تعاني فيه المدينة من بشائع الحرب الأهلية. كان هذا أول عدوان على مدنيين بهذا الحجم يشهده العالم الحديث، حيث دمرت المدينة تمامًا وقتل معظم سكانها. صور بيكاسو هذا المشهد الحزين في لوحة شهيرة تحمل اسم المدينة، وهذا الكتاب يتتبع التاريخ الفني لهذه اللوحة، من إعدادها إلى استقبال النقاد لها، حيث تراوح تقدير النقاد لها من التجاهل ووصفها بالقبح والسذاجة في أول الأمر، إلى اعتبارها الآن أعظم لوحة فنية في القرن العشرين.

معاجم

القاموس الجنسي عند العرب

عبد الحليم حمزة
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

قاموس يتناول مفردات الجنس عند العرب، وأهم الألفاظ الدالة على العلاقة الزوجية وبعض المسميات التي تطلق على أعضاء جسم الرجل والمرأة، ويكشف المؤلف عن وجود نحو سبعين لفظًا بمعنى ثدي، ونحو ستة وستين لفظًا تدل على العجز الجنسي، وعشرات غيرها من الألفاظ والإيحاءات الواردة في اللغة والتي جمعها المؤلف عن طريق معجم لسان العرب.

■■■

The American Heritage Abbreviations Dictionary

(معجم «أميريكان هيرايج» للكلمات المختصرة)

Houghton Mifflin, 2002, 304PP., $ 6.30

معروف عن الأمريكيين ولعهم بالسرعة واختصار الوقت. وفي مجال استخدامهم للغة الإنجليزية، قاموا بتقديم أكبر طائفة من الاختصارات لمختلف أنواع الكلمات الطويلة (والقصيرة) التي يشيع استخدامها في شتى المجالات. هذا المعجم يساهم في فك هذه الشفرة الأمريكية بتقديم شرح لتسعة عشر ألف كلمة مختصرة تستخدم في المراسلات التجارية والرسمية، أو تستخدم في الإنترنت والمجال التكنولوجي، أو في إعلانات الصحف وغيرها من المجالات الرياضية والفنية والعلمية.

مكتبة الإسكندرية

أسطورة الإسكندرية

قصة أشهر مكتبة عرفها العالم

إعداد: نوال مصطفى
القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٢

في مناسبة الاحتفال العالمي بإعادة افتتاح مكتبة الإسكندرية، يأتي هذا الكتاب الوثائقي بلغات ثلاث هي العربية والإنجليزية والفرنسية في ثلاثة مجلدات تحت عنوان «أسطورة الإسكندرية».

الكتاب رحلة تمتد لأكثر من ألفي عام، يلتقي القارئ فيها رجالاً صنعوا التاريخ وأضاءوا ظلام الجهل بنور المعرفة من أمثال الإسكندر الأكبر، أرسطو، بطليموس، أرشميدس، إقليدس، دميتريس الفاليري، ودور كل منهم في مسيرة أقدم وأشهر مكتبة عرفها العالم.

يكشف الكتاب أيضًا عن القصص المختلفة حول حريق المكتبة، ويتابع في الجزء الثاني منه الجهود الخارقة التي بذلتها السيدة سوزان مبارك لإحياء مكتبة الإسكندرية من جديد.

يتضمن الكتاب صورًا لأهم المخطوطات بالمكتبة ومجموعة من أندر وثائق قناة السويس التي اقتنتها المكتبة.

موسيقى

Parallels and Paradoxes: Explorations in Music and Society

(متوازيات ومتناقضات: استكشافات في الموسيقى والمجتمع)

Daniel Barenboim and Edward W. Said
Ara Guzelmiam (editor)
Pantheon, 2002, 208PP, $24.00

ثمة صداقة من نوع خاص تجمع بين الناقد الشهير الفلسطيني الأصل إدوارد سعيد والمايسترو دانييل بارنبوام اليهودي من أصل روسي. فقد اشتركا معًا عام ١٩٩٩ في ورشة عمل ضمت موسيقيين عربًا وإسرائيليين وألمان لتكوين أوركسترا، كما دعا إدوارد سعيد المايسترو بارنبوام للعزف في جامعة بيرزيت الفلسطينية، إيمانًا بأهمية الموسيقى في التوحيد بين المتصارعين سياسيًا. في هذا الكتاب مجموعة من حواراتهما التي تتناول العلاقة بين الموسيقى والأدب، والعزف والجمهور، وحركة الأصالة في الفن. يدير الحوار ويحرره أراجوزيلمان مدير قاعة كارنيجي ومستشارها الفني.

■■■

Tropical Truth: The Story of Music and Revolution in Brazil

(الحقيقة الاستوائية: قصة الموسيقى والثورة في البرازيل)

Coetono Veloso
Trans. by Isabel de Sena
Knopf, 2002, 336PP, $24.00

أول كتاب يكتبه المغني ومؤلف الأغاني البرازيلي فيلوزو الذي يشتهر في الأوساط المثقفة في أوروبا وأمريكا باعتباره رمزًا من رموز الحركة الثقافية والفنية التقدمية في الستينيات، وهو كثيرًا ما يقارن ببوب ديلان.

■■■

Bang Your Head: The Rise and Fall of Heavy Metal

(صعود وسقوط موسيقى الهيفي ميتال)

David Konow
Crown, 2002, 496PP., $14.00

يرصد المؤلف تاريخ موسيقى وفرق «الهيفي ميتال» التي اشتهرت بالأنغام الصاخبة العنيفة، فيبدأ في تتبعها من منشأها في مدينة برمنهجام في إنجلترا عندما كوّن أوزي أوزبورن فريق «بلاك ساباث» تمردًا على حركة الهيبيز، وفي نفس الوقت تقريبًا كوّن جيمي بيج فريق «ليدزبلين». يسير الكتاب حسب التسلسل الزمني من فريق إلى آخر، مبينًا أسباب صعود فرق مثل «فان هايلن» و«بون جوفي» و«ميتاليكا» و«جنز أند روزس» ثم أسباب هبوطها وخفوت نجمها.

نقد

إطلالة

أمل جمال
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

دراسة نقدية تحليلية لفن الرواية والقصة القصيرة لدى أجيال مختلفة ومن جنسيات مختلفة، وقد اختارت المؤلفة نماذج تطبيقية لإطلالتها منها قصة للكاتب العراقي جبار ياسين «وداعًا أيها الطفل» وقصتان للكاتب صبري موسى «حادث النصف متر» و«السيدة التي.. والرجل الذي لم» وغيرها من النماذج.

■■■

تحليلات عروضية لشعر الجواهري

عبد الحميد الرشودي
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

دراسة تحليلية لقصائد آخر الكلاسيكيين الكبار الذين رحلوا عن عالمنا قبل سنوات، يكشف الباحث فيها عن البحور والأوزان التي نظم عليها الشاعر العراقي الكبير قصائده، وكشف عن العلاقة الوثيقة بين الأغراض التي عالجها الجواهري والبحور التي اختارها، واعتمد الباحث في دراسته على ديوان الجواهري بأجزائه السبعة، والذي طبعته وزارة الثقافة والإعلام العراقية في الثمانينيات.

■■■

Why Orwell Matters

(أهمية أورويل)

Christopher Hitchens
Basi Books, 2002, 208PP, $24.00

يدافع الكاتب اليساري كريستوفر هتشنز (مؤلف كتاب محاكمة هنري كيسنجر) عن جورج أورويل ضد هجوم النقاد اليمينين واليساريين على السواء، على الرغم من رفضه أيضًا لعشاق أورويل الذين يسبغون عليه القداسة.

يتناول هتشنز كراهية أورويل لجميع أشكال الشمولية خاصة الإمبريالية والفاشية والستالينية، وكذلك كراهيته للعنصرية واستغلال الطبقات الدنيا، ويقول إنه من الممكن قراءته باعتباره من مؤسسي تيار ما بعد الكولونيالية. ودفاعًا عن الهجوم النسوي على أورويل باعتباره كان يكره النساء القويات أو الذكيات، يؤكد هتشنز أن هذا اتهام ظالم من خلال تحليل علاقات أورويل الواقعية بالنساء وصورتهن في رواياته، ومع ذلك فهو يشير إلى كراهية أورويل للإجهاض وتنظيم النسل.

عروض موجزة

كتب عربية

نهاية الإنسان

فرانسيس فوكوياما
ترجمة: أحمد مستجير
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢



يطرح فوكوياما ثلاثة سيناريوهات جميعها قريبة الحدوث فى خلال جيلين على الأكثر، فى السيناريو الأول تحدث تطورات مذهلة فى علم العقاقير العصبى، وستتمكن شركات الأدوية من تفصيل الأدوية حسب الخريطة الوراثية لكل مريض، وهكذا سيتدفق متبلدو المشاعر حيوية ونشاطًا، ويصبح الانطوائيون أكثر انفتاحًا على الناس، وبوسع الإنسان أن يبدل شخصيته حسب رغبته، فهو تارة صارم حازم متجهم، وتارة أخرى بشوش رقيق أليف متواضع.

فى السيناريو الثانى، سيكون بالإمكان توليد أى نسيج فى جسم الإنسان بما يعنى تعويض الأعضاء المعطوبة كى تعمل بدائلها بالكفاءة ذاتها وربما بكفاءة أكبر.

فى السيناريو الثالث سيفحص الأثرياء الأجنة قبل زرعها ليحصلوا على أبناء أقرب ما يكونون إلى الكمال، وهكذا يضمنون أبناء أكثر ذكاء وموهبة وأقدر على تحقيق طموحاتهم الاجتماعية.

محصلة هذه السيناريوهات الثلاثة هى إطالة عمر البشر، وتفصيل أبناء على هوى الآباء (الأكثر ثراءً)، والوصول إلى حالة السعادة الكاملة بتوفير العقاقير المعالجة للتقلبات العصبية، والتجديد المستمر للخلايا كلما أصابها وهن.

لكن فوكوياما رفض السيناريوهات الثلاثة، فهو ينفى إمكانية تحقيق توازن بين الزيادة فى عمر الإنسان والقضاء على أمراض الشيخوخة أو تأجيل ظهورها أطول فترة ممكنة.

أما استنساخ أطفال حسب الطلب، وهو بعد خطير آخر تعد به الثورة البيوتكنولوجية، فهو كما يقول فوكوياما، يشبه عملية يا نصيب وراثى غير عادلة.

ويقترح فوكوياما لمقاومة هذه السيناريوهات البشعة تحركًا دوليًا للتحكم فى انتشار البيوتكنولوجى على نطاق واسع، ويحذر من التمسح بمقولات حرية البحث العلمى.

ثمة تناقض لا تخطئه العين يقع فيه صاحب «نهاية التاريخ والإنسان»، والذى يمكن رده إلى سعيه غير الموفق للموازنة بين حياده العلمى كأكاديمى، وموقعه بالقرب من صانع القرار فى البيت الأبيض والذى يلزمه بموقف برجماتى يضع مصلحة أمريكا فوق كل اعتبار.

□ □ □

لماذا أخفقت النهضة العربية

محمد وقيدى - أحميدة النيفر
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢، ٤٢٤ صفحة



لماذا بقيت أسئلة النهضة مطروحة حتى الآن؟

هل لأن النهضة لم تتحقق أصلاً، أم أن ما تحقق منها لم يكن كافيًا للإجابة عن تساؤلاتها الأساسية؟

السؤال يجيب عنه أكاديميان هما محمد الوقيدى أستاذ الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، وأحميدة النيفر الأستاذ بجامعة الزيتونة.

ويبدأ كلاهما بمبحث يحدد مفهوم النهضة وعلاقتها بالفكر الأوروبى، أحميدة النيفر والذى ينطلق أساسًا من أرضية تربط النهضة بالفكر الإسلامى فى إسهاماته واجتهاداته التنويرية، يتساءل عما إذا كانت النهضة حلمًا لم يطأ أبدًا أرض الواقع ويجيب بأن النهضة التى انطلقت وهى موصولة بالماضى كان لديها طموح إلى تمثل الحس النهضوى الذاتى الذى تأسست عليه الحضارة العربية الإسلامية، وهى بهذا المعنى لم يكن هدفها استنساخ نظرية الأسلاف فى النهوض، وإنما أضافت إليها بُعدًا نقديًا اكتسبته من متابعة التجارب الحديثة، وهكذا قدمت النهضة تصورًا للإسلام مختلفًا عن التراثيين والسلفيين.

محمد الوقيدى يميز بين مرحلتين فى النهضة: الأولى قادها أصحاب الثقافة التقليدية، والثانية لعب فيها ذوو الثقافة الغربية والداعون إلى الإصلاح بالمفهوم الغربى دورا كبيرا، ويشير فى الإطار ذاته إلى تعارض مؤكد بين نوعين من تثوير بيئات المجتمع، التثوير الذى قامت به السلطات الاستعمارية وفقًا لغاياتها، والتثوير الذى صار مطلوبًا بعد الاستقلال الوطنى والذى يعيد بناء المجتمع وفق بنيات أساسية مغايرة. ويشير أخيرًا إلى أن شروط العالم المعاصر، جعلت البلدان العربية فى حالة طلب مستمر للنهضة، وهكذا تبرز الأسئلة ذاتها التى طرحت فى مراحل سابقة من طلب النهضة، وبدا العالم العربى والإسلامى وكأنه لم يحقق أى مظهر من مظاهر التقدم منذ بداية القرن التاسع عشر، ولكن الوقيدى يرى أن الأمر ليس كذلك، فالتحولات كبيرة والأسئلة جديدة وشروط الإجابة عنها مختلفة بالضرورة، خصوصًا مع الثورة العلمية والتقنية التى تسارعت وتيرتها فى الربع الأخير من القرن العشرين.

وفى التعقيب ينتقد النيفر عدم وقوف الوقيدى على الجوانب المهمة فى البناء الفكرى للنهضة العربية فى سيرورتها الذاتية، وهكذا لم يفلح فى تفسير كيف أن مصلحًا ذا خلفية أزهرية تقليدية مثل الإمام محمد عبده أثر فى كتابات قاسم أمين وأحمد لطفى السيد وسعد زغلول وعلى عبدالرازق وغيرهم.

من جهته عاود الوقيدى التذكير بالتقسيم الذى اقترحه لمرحلتين من النهضة وتحدث عن تيارات ثلاثة دعا أولها إلى استلهام التجربة الإسلامية السلفية بحذافيرها، وتيار ثان دعا إلى استلهام النهضة الغربية بشروطها العلمانية كما هى، وتيار ثالث يدعو إلى موقف وسط لايتماهى كليًا مع الغرب، ولا يستلهم تجربة السلف كما كانت قبل أربعة عشر قرنًا. ويلاحظ الوقيدى أن رواد النهضة الأوائل واجهوا سؤال النهضة برصيد معرفى غير كاف اعتمد على تراث فكرى عانى من الركود لقرون، وهكذا ظلت النهضة فى العالم العربى والإسلامى حلمًا تاريخيًا، لأن الواقع لم يتطور فى الاتجاه الذى يسمح بتحويل الحلم إلى واقع.

□ □ □

صناعة الكراهية فى العلاقات العربية الأمريكية

تحرير وتقديم: أحمد يوسف أحمد، ممدوح حمزة، ٢٠٠٢
مطابع الأهرام التجارية - (مصر)



لماذا يكره العرب أمريكا؟

تساءل أحدهم عقب أحداث ١١ سبتمبر وأجاب: لأنهم ضد الحداثة. المعنى ذاته كرره توماس فريدمان فى واحدة من مقالاته حين قال إن العرب يكرهون أمريكا لأنها أكثر تحضرًا ورفاهة وثراءً.

لكن السؤال على النحو الذى طُرح به من قِبَل مفكرين ومحللين أمريكيين ليس صحيحًا، ربما يكون الأصوب طرح السؤال كما يلى: لماذا تكره أمريكا العرب والمسلمين؟

هنا يجيب جميل مطر فى دراسته بما يشبه الهجوم المضاد، محذرًا إيانا من الوقوع فى فخ التصور الذى يسعى الأمريكيون لفرضه وهو أن الأمريكيين يكرهون العرب والمسلمين من دون البشر أجمعين، فبحسب ما يقول جميل مطر فإن الأمريكيين لا يثقون فى الشعوب الأخرى.

وفيما يتعلق بالعرب والمسلمين - يضيف جميل مطر - فإنه لم تتكون عنهم لدى الأمريكيين حتى قرب نشوب الحرب العالمية الثانية صورة نمطية واضحة، وبقيت صورة العرب والمسلمين والشرق عمومًا هى تلك المستوحاة من ألف ليلة وليلة وروايات الحروب الصليبية وكتابات الاستشراق، ويشير إلى أن ثمة طرفًا ثالثًا بذل جهودًا كبيرة على مدى قرون فى الإعلام ولدى مراكز صنع القرار الأمريكية كى يعمق كراهية الأمريكان للعرب حتى أنهم يرون أنه: «لا حل فى النهاية إلا بتحقيق نصر كامل وشامل ضد المسلمين يعقبه عمل من نوع العمل الذى قامت به أمريكا فى ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية وفى شرق أوروبا بعد الحرب الباردة، أى فرض تغيير جذرى يمتد إلى النصوص فى الإسلام».

وفى دراسته القيِّمة يشير الدكتور رءوف عباس عبر تتبع تاريخى للعلاقات المصرية الأمريكية، إلى أن الكراهية لم تكن سمة من سمات التعامل العربى مع أمريكا، بل إن العكس هو الصحيح، فقد كانت الكراهية من نصيب دول الاستعمار القديم فرنسا وانجلترا وغيرهما، وحتى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبعدما خابت آمال العرب فى السياسة الأمريكية، فإن صورة الولايات المتحدة لدى العرب - كما يقول الدكتور عبدالعزيز حمودة فى بحثه - لم تتأثر، وسعى الساسة العرب إلى مد جسور الصداقة مع الولايات المتحدة أملاً فى تحرير بلادهم من الاستعمار القديم.

وربما لولا التأييد الأمريكى المطلق لإسرائيل - كما تقول الدكتورة هالة سعودى - لظلت رؤية العرب لأمريكا كما هى، وتضيف الباحثة إلى هذا البُعد الحاسم بُعدًا آخر وهو مسألة أمن الخليج ومصالح أمريكا النفطية وأطماعها فيه، وتشير إلى أن البُعد الوحيد الذى كان بوسعه أن يعوض جزئيًا الآثار السلبية للبُعدين السابقين هو المختص بالديمقراطية وحقوق الإنسان، لولا أن هذا البُعد ذاته خضع لاعتبارات المصلحة الأمريكية، ولم يعدُ كونه سلاحًا سياسيًا يستخدم ضد الخصوم عند الحاجة.

ثمة إسهامات مهمة فى الكتاب «يؤصِّل» فيها الدكتور بهجت قرنى للأبعاد الفكرية فى السياسة الخارجية الأمريكية، وتحلل د. نيفين مسعد، وحسنين توفيق تداعيات الحادى عشر

من سبتمبر على مسار هذه العلاقات، فيما يرسم محمد سيد أحمد استراتيجية من عشر نقاط لإقامة حوار «حتمى» مع الولايات المتحدة الأمريكية فى زمن أصبحت للعبة الموت أسبقية على لعبة الحياة، وبدت البشرية وكأنما باتت تراهن على الهلاك «المتبادل».

□ □ □

بعيدًا عن اليسار واليمين

أنطونى جيدنز

ترجمة: شوقى جلال

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٢



يرى الليبراليون الجدد أن المشروع الرأسمالى هو جوهر ولب كل ما هو صالح فى الحضارة الحديثة، ويرون أن النزعة الفردية هى مفتاح نجاح الديمقراطية فى سياق دولة الحد الأدنى، أما ما أصاب الأسرة والمؤسسات الأخلاقية الأخرى من تفكك، فيردها الليبراليون الجدد إلى الإباحية التى انتشرت على أيدى المفكرين اليساريين، وهو ما يرفضه نقادهم حتى من خارج صفوف اليسار ويرون أن الدعوة إلى المبادرة الفردية فى مجال الاقتصاد ستطال مجالات أخرى بينها الأسرة وغيرها من رموز التضامن التقليدية، ومن ثم فإن فكر الليبراليين الجدد ينطوى على تناقض يجعلهم يمزجون بين الحريات الليبرالية والنزعة التسلطية حتى الأصولية منها.

أما الاشتراكيون، وبعد أن تحولوا إلى موقع الدفاع فقد ركزوا تمامًا على دولة الرفاه، والتى يرى «كروسلاند» أن كثيرًا من مظاهرها تحقق فعلاً، ومنها الإيمان بعمل الفريق والمشاركة الجماعية، لكنه يرى أن العمل لا بد أن يستمر من أجل إعادة التوزيع الاقتصادى للثروة وخفض التفاوتات والنزعات الاجتماعية، ويوصى بترسيخ «ديمقراطية صناعية رفيعة المستوى» وبمزيد من تأميم الصناعات الأساسية، وقد ووجهت أفكار «كروسلاند» تلك بانتقادات صارمة، فقد رأى منتقدوه أن المقترحات التى يقدمها للناس كى يطوروا إمكاناتهم للوفاء بشئون حياتهم فى مجتمع اشتراكى، مقطوعة الصلة تمامًا بالحجج التى يقدمها فى متن الكتاب.

وبعد استعراض لرؤى عديدة عن ثورات العصر الاجتماعية ونظريات الديمقراطية والرفاه الإيجابى وعلاقة الفقر بقيم الحياة، يفرد المؤلف فصلاً خاصًا يعرض فيه لعدد من القضايا ذات الصلة بالبيئة، والتى يمكن إدراجها تحت ما بات يعرف بـ«سياسة الحياة».

والمجتمع الإيكولوجى فى رأى «بوكشين» وهو أحد دعاة الإيكولوجيا الراديكالية هو الذى يستعيد توازن المحيط الحيوى، ويعزز التنوع بين الجماعات البشرية وفى الطبيعة ويسلم بضرورة تفكيك مركزية السلطة جذريًا ليعهد بها إلى المجتمعات المحلية لتديرها اعتمادًا على تقنيات بسيطة.

ويضيف بوكشين: يمكن إنقاذ الراديكالية وتعميقها عن طريق الحركة الإيكولوجية، وإقامة تناغم جديد بين الطبيعة والبشر وأن نستعيد الملامسة البشرية للتربة وللنبات وللحياة الحيوانية وللشمس والرياح.

ويبدو أن فكرة المجتمع الإيكولوجى هى ما أراد المؤلف ترسيخه «بعيدًا عن اليمين واليسار»، حيث المصالح المشتركة والمخاطر كذلك، لكن يبقى الاعتراف بقداسة الحياة البشرية وبالحق الكونى الشامل فى السعادة وتحقيق الذات، وتدعيم التضامن «الكوزموبوليتانى» واحترام الكائنات الفاعلة غير البشرية فى الحاضر والمستقبل، وجميعها قيم تكتسب ربما للمرة الأولى فى تاريخ البشرية قوة دفع حقيقية، هى الأمل فى مستقبل أفضل للبشرية.

□ □ □

الأميرة نازلى فاضل
رائدة النهضة فى مصر وتونس

أبو القاسم محمد كرو

تونس: دار المغرب العربى، ٢٠٠٢، ١٩١ صفحة



الأميرة نازلى فاضل هى صاحبة أول صالون نسائى عربى فى القرن التاسع عشر، وفى هذا الصالون دارت مناقشات جادة ومهمة بين رجالات ذلك العصر من أمثال سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين، وطوال السنوات الثلاث عشرة التى عاشتها فى تونس لعبت الدور ذاته وأسهمت فى نهضتها وسياستها المعاصرة. وتنحدر الأميرة نازلى فاضل من الأسرة العلوية التى أسسها محمد على باشا، وكان مصطفى فاضل مرشحًا لولاية مصر لولا أن الخديوى إسماعيل تمكن من استصدار فرمان من الباب العالى، يمنحه هو ولاية مصر، وصارت إقامة مصطفى فاضل فى مصر مستحيلة فغادرها بعد ما باع لأخيه إسماعيل جميع قصوره وأطيانه وأملاكه واحتفظ لنفسه فقط ببعض القصور وبمكتبة ثمينة.

وفى الأستانة تزوجت نازلى من خليل شريف باشا الذى كان سفيرًا للدولة العثمانية فى عديد من العواصم الأوروبية، وقد تفاوتت الآراء بشأن الأميرة نازلى، فكثيرون أثنوا على آرائها المستنيرة وذكائها وأفكارها التقدمية، وقد زارت الأميرة نازلى تونس لأول مرة فى عام ١٨٩٩ وتزوجت من خليل بوحاجب، وهناك بدأت نشاطها التنويرى من خلال الجمعية الخلدونية التى تأسست قبل وصولها إلى تونس بعامين ونصف، وفضلاً عن آرائها التنويرية فى الثقافة والسياسة واجتماع رواد النهضة التونسية فى صالونها، كما كان الحال فى مصر، فقد ساهمت بأفكارها ومالها فى تأسيس أول مدرسة للبنات المسلمات.

الكتاب يتضمن مقالات عديدة كتبها عدد من رواد الإصلاح والنهضة فى تونس يثنون فيها على دورها فى نشر الوعى القومى فى البلاد، فضلاً عن مقالة للزعيم المصرى محمد فريد الذى لم يكن رأيه إيجابيًا تمامًا فى الأميرة نازلى.

□ □ □

مكتبة الإسكندرية القديمة ومشروع إحيائها فى الوقت الحاضر

شعبان عبد العزيز خليفة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢، ٢٧٠ صفحة



فى السادس عشر من الشهر الماضى أعيد افتتاح مكتبة الإسكندرية فى احتفال حضره رؤساء دول كبرى وملكات وشخصيات دولية معنية بالثقافة الإنسانية على اتساعها.

من خطط لإنشاء مكتبة الإسكندرية كان الإسكندر الأكبر نفسه الذى بنى المدينة وحملها اسمه، كما فعل فى دول عديدة فتحها، لكن خلفاءه هم الذين بنوا المكتبة.

كانت المكتبة جزءًا من المتحف الذى أنشئ فى عهد الإمبراطور بطليموس الأول، وقد كان - أى المتحف - أكاديمية كاملة للدرس والبحث العلمى، ضم مجموعة من البنايات الضخمة المشيدة من الرخام الأبيض، خصصت بعضها كقاعات لعرض التماثيل واللوحات الفنية، وبعضها خصص لإقامة العلماء والباحثين الذين تكفلت بهم الدولة ووفرت لهم سبل الراحة كى يتفرغوا للبحث والدرس فى كل فروع المعرفة، كان المتحف بحسب وصف أحد المؤرخين، أكبر جامعة فى العالم الهلينى، كانت للمكتبة إدارتها المستقلة عن المتحف، وكان رئيسها يعين بقرار من الملك، وتنوعت جنسيات رؤساء المكتبة على نحو يؤكد عالميتها ويفسر الطبيعة «الكوزموبوليتانية» لمدينة الإسكندرية ذاتها، وجلبت إلى المكتبة كتب من اليونان وغيرها من المدن التى كانت بحوزة اليونانيين وقت انتشار الحضارة الهللينية وسيادتها، فضلاً عن الإهداءات الشخصية التى مثّلت مصدرًا بالغ الأهمية لتوريد الكتب للمكتبة.

وقد كانت المكتبة تضم فى القرن الثانى الميلادى، بحسب ما يذكر بعض المؤرخين حوالى ٧٠٠ ألف مجلد، قبل الحريق الجزئى للمكتبة الذى يحتمل أن يكون وقع مع ضرب يوليوس قيصر للإسكندرية، لكن من حرق المكتبة تحديدًا ليس معروفًا، لكنه واحد من هؤلاء كما ذكرت المصادر، يوليوس قيصر (٤٧ ق.م)، أورليان ٢٧٣م، ثيودوسيوس وثيوفيلوس ٣٩١م، عمرو بن العاص ٦٤٢م.

والمؤلف بعد استعراض تاريخى لا يعطى فرضية حرق بطليموس للمكتبة أكثر من ١٠٪، أما أورليان، فالأرجح أن المكتبة والمدينة معًا حرقا جزئيًا فى عهده وخفت نشاط المكتبة وعلماؤها وإن لم تنته تمامًا، وقد فعل ثيوفليوس الأمر نفسه فدمر كثيرًا من محتويات المكتبة ومبانيها، أما حكاية عمرو بن العاص للمكتبة فبدورها ظنية ولا تصل نسبة صحتها إلى ١٠٪، وربما تجود الحفريات بأدلة جديدة تكشف عن مصير المكتبة القديمة، أما المكتبة الحديثة وجهود إحيائها فيخصص لها المؤلف قسمه الثانى من الكتاب متضمنًا وثائق وملاحق ورسومًا توضيحية.

□ □ □

أوان القطاف

محمود الوردانى

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ١٦٠ صفحة



بعد ثلاث مجموعات قصصية وروايات أربع كان آخرها الروض العاطر ١٩٩٨، يطل الكاتب المصرى محمود الوردانى بمغامرة أدبية وفكرية جديدة، تبدأ برأس الراوى وقد تعلق

عروض موجزة

بجسر حديد بعدما انفصل عن جسد صاحبه الذى كان يتقافز فوق سطح القطار، هذا الرأس يستدعى رؤوسًا أخرى قطفت فى أزمنة خلت (مستعيدًا مقولة الحجاج بن يوسف الثقفى عن الرءوس التى أينعت وحان أوان قطافها)، وأشهرها رأس الحسين بن على بن أبى طالب الذى فر إلى مصر قبل أن يتلقفه غنيمة يزيد بن معاوية ليستقر فى حجر أم الغلام، التى يقال أنها ذبحت ولدها وألقت برأسه لجنود الخليفة عوضًا عن رأس الحسين، والحكاية برمتها يدحضها البعض لسبب تاريخى وجيه هو أن القاهرة لم تكن بنيت بعد حين «قطف» رأس الحسين سيتكلم رأس الحسين ويحكى عن قسوة الظلم وغشامة الاستبداد الذى أحال الشورى إلى ملك وراثى عضود.

سيتكلم رأس شهدى عطية، الشيوعى الوطنى الذى أحب بلده حتى الثمالة ومات ركلاً بالأقدام وبأكف البغاة فى سجون عبد الناصر، رفض أن يقول «أنا مرة» وأصر حتى آخر نفس على وطنية النظام رغم خطاياه وجرائمه.

سيشهد رأس العائد من الخليج بعد عشر سنوات حصد خلالها مائة ألف دولار على خيانة زوجته وسائق التاكسى الذى «لمه من الشوارع» بتواطؤ مدهش من ابنته «هبة». وستدمع عينا الصبى الذى انخرط بلا تخطيط مسبق ضمن من خرجوا فى انتفاضة ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ وهو يرى رأس زميله يطير ويغطى دمه أرض الشارع، سيطير رأس أبى الهول - أيضًا - دون نقطة دم واحدة فيما المصريون يحتفلون بين أنامل مخرج فرنسى بقدوم الألفية الثالثة. رؤوس عديدة طيرتها المحن، فهل ذبحت لأن أوان قطافها قد حان، أم لأن ثمة من احترف قطف الرءوس منذ رأس الحسين بن على وحتى رأس أبى الهول؟

□ □ □

مؤامرة أم مراجعة

مكرم محمد أحمد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٣٤٠ صفحة



فى عام ١٩٩٧ تقدمت الجماعة الإسلامية بمبادرتها لوقف العنف من جانب واحد، أعلنها أحد قادة التنظيم فى قاعة المحكمة، غير أن أحداث عنف تالية، كان أشهرها وأكثرها تأثيرًا حادث الاعتداء على سياح أجانب فى الأقصر، شككت فى جدية المبادرة برغم إدانة الجماعة وكافة تنظيمات وتيارات الإسلام السياسى لها.

وبعد مرور خمس سنوات تقريبًا عادت الجماعة الإسلامية تطرح مبادرتها من جديد وبصورة أكثر عملية هذه المرة، قادة الجماعة التاريخيون - كما يطلق عليهم - كرم زهدى وناجح إبراهيم وأسامة حافظ وعلى الشريف، أصدروا كتبًا أربعة أسموها سلسلة تصحيح المفاهيم، وتضمنت مراجعات لمواقف الجماعة من قضايا الجهاد والتكفير والحسبة والغلو فى الدين، وهى مواقف تمثل فى مجملها توجهًا جديدًا للجماعة وإدانة لمواقف سابقة كلّفت الجماعة الكثير ووضعتها فى حالة عداء مع الدولة والمجتمع.

الجماعة تعلن فى مراجعاتها أن جهادها لم يكن فى موضعه، وأن خروجها على الحاكم كان مفسدة كبرى، وأنه لا يجوز الخروج على الحاكم حتى لو ارتأى عدم تنفيذ شرع الله لأسباب يقدرها، فالمهم ألا يكون منكرًا لهذا الشرع، كما تعترف الجماعة فى كتابها عن الحسبة بأن سلطة منع المنكر لا تعود إلى «محتسبيها» وإنما لسلطات الدولة من قضائية وتنفيذية، وأن إطلاقها يد أعضائها لممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نتج عنه مفاسد عظيمة وشرور كان يمكن تجنبها لو ترك الأمر لأهل الاختصاص، وتؤكد كتب المراجعات أيضًا على أنه لا يجوز تكفير مسلم مهما كانت الأسباب، إلا أن يعلن شركًا صريحًا بالله، وحتى إن فعل فيستتاب، فإن أصر على شركه يترك الأمر للعلماء الثقاة. يقدرون موقفه، هذه الأفكار التى دلل عليها قادة الجماعة فى كتبهم بأسانيد صحيحة من الكتاب والسنة، وأجازها الأزهر الشريف، تعد انقلابًا فى فكر الجماعة الذى استند فيما مضى إلى أفكار سيد قطب وأبى الأعلى المودودى عن الحاكمية وتكفير الحاكم والدولة والمجتمع، والذى رأى فى العنف وسيلة وحيدة لإجبار الدولة على «تحكيم شرع الله» كما يسمونه، والذى هو فى الحقيقة يسعى إلى تنصيبهم ولاة وقادة يديرون شئون البلاد.

المؤلف يعرض لهذا الفكر الجديد ويحاور قادة الجماعة فى رؤاهم الجديدة عن «فقه الواقع» القائم على «الفتوى والجدوى» بحسب تعبير أحدهم، والذى يقدم «مصلحة الناس على النص».

ويلقى المؤلف بالكرة فى ملعب المؤسسة الدينية الرسمية وجهات تنفيذية وسيادية أخرى، ويرى أن دورها الآن هو تلقف هذه المبادرة وتبنى جوانبها الإيجابية العديدة وتعظيم فوائدها، واحتواء فرص الجنوح والتطرف التى يمكن أن تعصف بآلاف الشباب كما عصفت بغيرهم من أعضاء الجماعة الإسلامية وغيرها.

كتب أجنبية

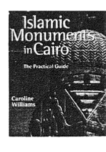
Islamic Monuments in Cairo
The Practical Guide

(الآثار الإسلامية فى القاهرة)

Caroline Williams

Auc Press Publication, 2002,

LE 70.00, Fifth edition



باستثناء مدن قليلة للغاية فى العالم الإسلامى تنفرد القاهرة بتراث معمارى شديد الثراء والتنوع يمتد تاريخه إلى عمق ألف عام منذ نشأة هذه المدينة العريقة على أيدى الفاطميين، ورغم أن التطور الهائل الذى شهدته القاهرة على مدى القرن الماضى وتحولت نتيجته إلى مدينة يسكنها حاليًا ما يربو على ١٥ مليون نسمة، قد حجب إلى حد ما نواحى الجمال الرائع، خاصة الآثار الإسلامية. إن هذه الآثار كانت خلال القرن التاسع عشر بمثابة اكتشاف من جانب الفنانين الغربيين الذين توافدوا على مصر وألفوا الكتب التى تكشف عن نواحى الجمال فى هذه الآثار ثم جاء القرن العشرون ليكون بمثابة فرصة للمتخصصين فى الفنون الإسلامية لكى يكتشفوا آفاق جمال وروعة هذه الآثار، وها هى القاهرة الآن تستقبل الألفية الثالثة من تاريخها المديد وقد أصبحت مزارًا سياحيًا شهيرًا يأتيها السياح من شتى أنحاء العالم للتعرف على تاريخها وحاضرها وفى القلب من كل ذلك الآثار الإسلامية.

وهذا الكتاب يعد دليلاً للزائر الأجنبى للتعرف على ملامح الآثار الإسلامية فى القاهرة وهو يسير مع الزائر ليطوف به فى حوالى مائتى أثر إسلامى فى المدينة. ويحتوى الكتاب على ٥٠ رسمًا توضيحيًا و١٥ خريطة تبين جميعها بشكل جلى معالم وتفاصيل هذه الآثار ولا تنسى مؤلفة الكتاب أن تضمنه التطورات الحديثة حتى يكون القارئ على علم بها.

إن الكتب التى يستهدف مؤلفوها أن تكون دليلاً للسياح والزائرين منتشرة بصورة كبيرة فى الغرب ويندر أن يكون هناك سائح لا يحمل معه كتابًا أو مجموعة من الكتب عن المكان الذى سيزوره. وهذه الكتب لم تعد مجرد مجموعة من المعلومات والإرشادات عن المكان، بل أصبح يكتبها متخصصون فى مجالات معينة موجودة فى ذلك المكان، وهى لهذا تكتسب أهميتها. وهذه هى الطبعة الخامسة من الكتاب الذى أصدرته الجامعة الأمريكية فى القاهرة.

□ □ □

Muslim Europe or Euro-Islam

(مسلمو أوروبا أو الإسلام الأوروبى)

Edited by: Nezar Alsayyad and

Mauel Castells

New York Lexington Books, 2002,

204PP



هذا الكتاب ثمرة فكرة مشتركة بين محرريه نزار الصياد ومانويل كاستلز، الأول يرأس مركزًا لدراسات الشرق الأوسط فى جامعة كاليفورنيا فى بيركلى، والثانى كان يرأس مركزًا لدراسات أوروبا الغربية فى الجامعة نفسها. وقد لاحظ المحرران أن قضيتى الهوية والمواطنة تبقيان فى مقدمة القضايا ذات الاهتمام فى منطقتى الشرق الأوسط وأوروبا الغربية، وأنهما لم تتم دراستهما أكاديميًا بشكل كاف، وواتتهما الفرصة فى القيام بهذا المشروع المشترك الذى يركز على المسلمين فى أوروبا.

لقد أصبحت أوروبا حاليًا بعد خمسة قرون من خروج المسلمين من الأندلس (إسبانيا حاليًا) أرضًا للإسلام يعيش فيها ملايين المسلمين. وأصبحت مسألة التواجد الإسلامى على أرض القارة قضية مثار مناقشات كثيرة سواء على المستوى الأكاديمى أو السياسى أو حتى رجل الشارع العادى خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر٢٠٠١.

وقد شارك فى مناقشة أوضاع المسلمين فى أوروبا نخبة من الباحثين من أوروبا والشرق الأوسط والولايات المتحدة وتناول هؤلاء الباحثون فى الكتاب عديدًا من القضايا حول أوضاع المسلمين فى هذه القارة ودور أوروبا فى إعادة صياغة الإسلام حاليًا. ويثير الكتاب عديدًا من الأسئلة المهمة حول المواطنة بالنسبة للفرد المسلم فى أوروبا ومسألة الانصهار أو التعددية الثقافية فى دول أوروبا ومدى تقبل المسلمين لأى من النموذجين. ومدى قوة الإسلام فى تحديد الهوية، ولماذا لا يعد الإسلام دينًا أوروبيًا رغم أنه موجود فى القارة منذ قرون.

وينقسم الكتاب إلى جزءين، الأول عن الإسلام وأوروبا وهوية الدولة القومية المتغيرة. وفى هذا الجزء يكتب نزار الصياد عن خطاب الهوية والثقافة لدى مسلمى أوروبا ويقدم بسام طيبى بحثًا عن المهاجرين المسلمين فى أوروبا بين

عروض موجزة

الاندماج والانغلاق، كما يكتب كريشان كومار عن الاتحاد الأوروبي والدولة القومية والهويات عبر القومية.

كما تتناول الدكتورة هالة مصطفى في بحثها قضية الإسلام والغرب في عصر العولمة.. صدام حضاري أم تعايش.

ويتحدث الجزء الثاني من الكتاب عن التجارب الإسلامية في بريطانيا وفرنسا وغيرهما.

□ □ □

Mussolini

(موسوليني)

R.J.B. Bosworth
Oxford University,2002, 584PP.,
$ 35.00



الزعيم الفاشي الإيطالي الراحل بينيتو موسوليني في مخيلة الكثيرين ليس سوى الصورة الكوميدية للديكتاتور، فطريقته في الحديث وفي وضع يديه على صدره وارتداء القبعة تثير السخرية والضحك أكثر من الغضب والاستياء، على الأقل بالنسبة للناس في الوقت الحاضر. وربما لا تساعد هذه الصورة في تفهم واضح لشخصية ودور موسوليني الذي ولد عام ١٨٨٣ وتسلم السلطة في إيطاليا عام ١٩٢٢ إلى أن تم إعدامه عام ١٩٤٤.

ورغم أن أنطوني إيدن وزير الخارجية البريطاني، ثم رئيس الوزراء وصف موسوليني بأنه قاطع طريق بامتياز إلا أن أدولف هتلر حليف موسوليني كان يشعر بسعادة عندما يطلق عليه «موسوليني ألمانيا». ويشير مؤلف الكتاب وهو واحد من أبرز الدارسين لتاريخ إيطاليا الحديثة ويعمل أستاذًا في جامعة «استراليا الغربية» إلى أن شخصية موسوليني أعقد بكثير مما يعتقد كثيرون، فقد كان قارئًا لسقراط وأفلاطون، وقادرًا على المناقشات الفلسفية ودرس ماركس وداروين وألف ٤٤ كتابًا، ولديه اهتمام كبير بالأشجار والبيئة.

وإحدى المميزات الأساسية في الكتاب أن مؤلفه يقدم رؤية واضحة وشاملة ليس فقط لكيفية انبهار الإيطاليين بموسوليني وإعطائهم زمام القيادة له حتى خرب البلاد، ولكن لطبيعة الفاشية الإيطالية في تلك السنوات المضطربة التي تلت الحرب العالمية الأولى. ويرفض المؤلف قطعيًا وصف موسوليني بأنه رجل دولة ويرسمه على أنه الفشل بعينه. ويقول إن محاولات موسوليني خلق ثقافة فاشية أثبتت فشلها الذريع وكذلك محاولته صنع صورته كزعيم لا يشق له غبار. لقد كان موسوليني انتهازيًا أكثر منه متطرفًا، فقد بدا غير راغب في الموافقة على التطرف النازي ومسألة نقاء الجنس الآري وغيرها، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا يميزه.

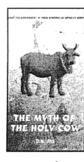
ويشير المؤلف أن موسوليني تصور نفسه عندما تولى السلطة عام ١٩٢٢ على أنه ريتشارد الثالث الذي ادخره القدر لإنقاذ إيطاليا. ومن سخريات القدر أنه هو الذي قاد إيطاليا إلى الدمار والخراب.

□ □ □

The Myth of the Holy Cow

(أسطورة البقرة المقدسة)

D N Jha
Verso, 2000, 183PP., £ 14



دائمًا ما يأخذ المتطرفون الدينيون حوادث التاريخ الخاصة بأديانهم بتسليم مطلق حتى الجانب غير الواقعي وربما الأسطوري منه. وقد واجه مؤلف هذا الكتاب وهو مؤرخ كبير في الهند هجومًا عنيفًا لأنه تجرأ وبحث بشكل علمي أسطورة تقديس البقر لدى أبناء ديانته الهندوس. وكان عديد من الناشرين في نيودلهي قد رفضوا نشر هذا الكتاب خشية أن يقوم المتطرفون الهندوس بأعمال عنف وشغب ضدهم وضد ممتلكاتهم وحرق الكتاب.

ويحاول المؤلف أن يثبت من خلال دراسته أن أكل لحوم البقر كان أمرًا معروفًا في الهند قبل دخول الإسلام إليها، وهو أمر يعترف به مؤرخون عديدون، لكن الهندوس يرفضونه. إن الزائر للهند يندهش لمنظر غريب يراه وهو مرور قطيع طويل من الأبقار المريضة والطاعنة في السن ويخيل إليه أن هذه الأبقار وُجدت فقط لإعاقة المرور. ويشير المؤلف إلى أن تقديس البقر لم يكن معروفًا لدى البدو في آسيا الوسطى الذين استقروا في شمال الهند في الألفية الثانية قبل الميلاد والذين أقاموا الثقافة البراهمية التي أصبحت تعرف بالهندوسية، وكانت الطقوس القديمة للهند تتضمن ذبح البقر إما للطعام أو كأضحية، ثم جاء رجال دين وفلاسفة هندوس رفضوا ذبح الأبقار، وبعد ذلك أصبح أكل لحم البقر خطيئة، وذلك في بداية العصور الوسطى، لكن ذلك لم يكن يعني تقديس الأبقار، وهو الأمر الذي حدث في القرن ١٩ عندما بدأت الطبقة الوسطى الناهضة من الهندوس ترى البقرة كرمز مهم للتقاليد المجيدة للهندوس والتي يتحداها الحكام المسلمون على حد قولهم، وأصبح حظر ذبح الأبقار علامة على الهوية وجزءا من مسعى الهندوس للحصول على السلطة في الهند التي كان يستعمرها البريطانيون آنذاك وبعد ذلك استمرت الأسطورة.

□ □ □

Terrorism and Human Rights After September 11

(الإرهاب وحقوق الإنسان بعد ١١ سبتمبر)

Edited by Ashild Kjok
Cairo institute for Human rights-
192pp., 2002



في الشهر الماضي وتحديدًا الحادي عشر منه مر عام كامل على الحدث الذي اعتبره البعض الشرارة الأولى للحرب العالمية الثالثة أو أولى حروب القرن الحادي والعشرين وخلال ذلك العام، الذي كان طويلاً بصورة استثنائية بالنسبة لكثيرين في العالم، نتيجة لما حدث فيه.

وهذا الكتاب يتحدث بالضبط عن هذه المسألة وقد صدر باللغة الإنجليزية عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، وشارك في تأليفه ١٤ من خبراء السياسة والقانون الدولي والإعلام ودعاة حقوق الإنسان من أمريكا وبريطانيا وكندا وبنجلاديش والمغرب ولبنان وفلسطين ومصر، وقامت بتحرير الكتاب باحثة متخصصة من النرويج، وقدم له مدير مركز القاهرة، وستصدر طبعته باللغة العربية في وقت لاحق.

يتناول الكتاب بالبحث التأثيرات السلبية لهجمات ١١ سبتمبر الإرهابية وما تلاها من تطورات على حقوق الإنسان في العالم، وبشكل خاص في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية والعالم العربي وفلسطين وأفغانستان. كما يحلل بعمق التحديات الخاصة التي يشكلها ما يسمى «بالحرب ضد الإرهاب» للقانون الدولي وحركة حقوق الإنسان، وللتعايش والحوار بين الثقافات.

وينتهي الكتاب بالتقرير الختامي الصادر عن أعمال المؤتمر الذي ناقش هذه القضايا، ونظمه مركز القاهرة بالتعاون مع الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان والشبكة الأورومتوسطية لحقوق الإنسان، بمشاركة عدد من الخبراء وممثلي منظمات حقوق الإنسان في العالم، من ماليزيا في أقصى الشرق، إلى كولومبيا وأمريكا في أقصى الغرب، ومن جنوب أفريقيا في الجنوب إلى الدانمارك في أقصى الشمال، فضلاً عن بعض دول حوض المتوسط العربية والأوروبية.

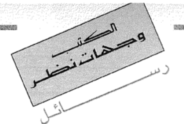
ويقول بهي الدين حسن مدير مركز القاهرة في تقديمه للكتاب، إن الطريقة التي أديرت بها هذه الحرب حتى الآن، لم تؤد إلى استئصال خطر الإرهاب، بل تهدد بتعظيم مخاطره وتوسيع نطاقه، من خلال تغذية التربة السياسية والثقافية الحاضنة للإرهاب بشرايين جديدة، وبسبب الانهيار المتزايد ـ خاصة منذ شن «الحرب ضد الإرهاب» ـ في ثقة الأفراد والجماعات والشعوب في القانون الدولي ومؤسسات المجتمع الدولي، بمفاقمة الشعور بالظلم، وعدم التصدي لمعالجة القضايا العادلة للشعوب والجماعات، بحلول منصفة تقوم على مبادئ الحق في تقرير المصير والعدل والمساواة والتكافؤ. وفلسطين هي المثال الأبرز وبالاستهتار الصريح واللامسئول بالقانون الدولي ومؤسسات المجتمع الدولي، وبالاعتداء الصريح على حقوق الإنسان على نطاق واسع في العالم ممارسة وتشريعًا، بما في ذلك داخل أوروبا والولايات المتحدة.

وأخيرًا بالدفعة الكبيرة التي منحتها لسيناريو صراع الحضارات، وبالتالي انتعاش موجات الكراهية العنصرية وخاصة ضد العرب والمسلمين.

إن المطالع لهذا الكتاب سيجد أن المشاركين فيه قد تنبأوا بهذه النتائج وحذروا منها، بعد ٤ شهور فقط من شن ما عرف باسم «الحرب ضد الإرهاب»، رغم أنهم ينتمون إلى خلفيات ثقافية ودينية وسياسية متعددة.

لقد توصل المشاركون في مؤتمر «الإرهاب وحقوق الإنسان» إلى مجموعة من التوصيات تضمنها التقرير الختامي للمؤتمر. الاتجاه العام لهذه التوصيات يشير إلى الاتجاه المعاكس تمامًا لمجريات «الحرب ضد الإرهاب»، برغم أن كلا من التوصيات والحرب، تتوخيان هدفًا معلنًا واحدًا، أي مكافحة الإرهاب، لكنهما تختلفان جذريًا بعد ذلك في حرص المشاركين في المؤتمر على عدم التضحية بحقوق الإنسان والشعوب ومؤسسات المجتمع الدولي والقانون الدولي، وعلى استهداف جذور الظاهرة الإرهابية، وعدم الاقتصار على أعراضها الظاهرة.

تبقى حقيقة أساسية مؤكدة، وهي أنه بعد عام كامل من الحرب ضد الإرهاب التي بدأت في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، لا يعرف أحد متى وأين تنتهي؟ وليس هناك حتى اتفاق على تعريف «الإرهاب»! ولا مسعى جاد في المجتمع الدولي نحو ذلك.



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء ـ مثلها مثل المقالات ذاتها ـ لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

تنافس اللغات

اطلعت على مقال (الطريق إلى بابل.. الحيرة بين لغة القلب ولغة العقل) المنشور بعدد أبريل ٢٠٠٢ من المجلة، والذى يتناول عدة قضايا تدخل فى مجال علم الاجتماع اللغوى، كما يبرز الدور الذى تلعبه اللغة الإنجليزية فى عالم اليوم باعتبارها اللغة المشتركة المستخدمة فى شتى مجالات الحياة.

وتعليقًا على ذلك أقول إن المجلس الثقافى البريطانى فى لندن أصدر تقريرًا بعنوان (مستقبل اللغة الإنجليزية) منذ حوالى خمس سنوات. ونظرًا لأهمية هذا التقرير فقد كتب فى مقدمته الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا، وجاء فى التقرير أنه يتوقع أن تظل اللغة الإنجليزية اللغة العالمية الأولى فى القرن الحادى والعشرين، إلا أنه بحلول منتصف القرن لن تكون الإنجليزية اللغة الوحيدة فى هذا المجال، أى لن تحتكر هذا الموقع، بل ستنافسها لغات أخرى بحيث تصبح لغات عالمية أيضًا، واللغات المرشحة لأن تحتل هذه المكانة الرفيعة والمرموقة هى: العربية والصينية والإسبانية والهندية/الأوردية، ويعود السبب فى ذلك إلى العوامل الديموجرافية (السكانية) والثقافية والتغيرات السياسية والاقتصادية التى سيشهدها العالم فى النصف الأول من القرن الحادى والعشرين.

كما ذكر التقرير أن اللغات الفرنسية والألمانية واليابانية ستتضاءل أهميتها ويقل انتشارها على الساحة الدولية. كما قرأت فى بحث آخر نشر مؤخرًا أن اللهجة الأمريكية هى التى ستنتشر فى العالم وتتفوق على اللهجة البريطانية، بل لقد بدأت اللهجة الأمريكية تغزو اللهجة البريطانية فى عقر دارها، إذ أن قطاعات عريضة من الشعب البريطانى ـ خاصة الشباب ـ يتحدثون ويكتبون اللغة الإنجليزية بالطريقة الأمريكية.

د. شعبان عبدالعزيز عفيفى
قسم اللغة الإنجليزية
كلية الدراسات التجارية ـ الكويت



أول اشتباك نقدى

أسعدنى للغاية أن أقرأ على صفحات «وجهات نظر» الدراسة المهمة التى نشرت على عددين للناقد المعروف الأستاذ فاروق عبد القادر تحت عنوان «فى الرواية المصرية الجديدة ـ نماذج مختارة». فقد ظهرت من قبل محاولات متناثرة هنا وهناك لإلقاء الضوء على رواية أو أخرى من موجة ما سمى «الانفجار الروائى»، لكن ما تقدم به فاروق عبد القادر كان أول اشتباك نقدى كبير مع تلك الظاهرة الروائية الجديدة فى مجملها، فى محاولة لاستنباط المغزى الاجتماعى والأدبى العام لتلك الروايات، وهكذا طرح الناقد الكبير ـ من الناحية المنهجية ـ ضرورة النظر إلى تلك الروايات مجتمعة، لاستخلاص القوانين العامة للظاهرة دون أن ينفى ذلك بالطبع أهمية تناول كل عمل بمفرده. وبفضل ذلك الطرح وذلك الجهد النقدى أصبح بوسعنا الحديث عن الملامح المشتركة لتلك الرواية ومنها ما أشار إليه فاروق عبد القادر من التداخل الملحوظ بين شكلى القصة والرواية، والإفادة من اللغة السينمائية، والحجم الصغير للأعمال المكتوبة، وما أطلق عليه «الحس التاريخى» فى عدد منها، ثم إشارته المهمة إلى أن «نصف النماذج التى تعرض لها من إبداع كاتبات، وتلك واقعة ثقافية واجتماعية جديرة بالاهتمام». وقد فتح فاروق عبد القادر فى «وجهات نظر» الباب واسعًا لتناول جديد، لا يعتمد على قراءات منفردة لكل عمل على حدة، ولهذا لم يكن مستغربًا أن يظهر من بعد دراسته عدد من المحاولات النقدية على ضوء ما طرحه وبادر إليه من ضرورة تفسير جوهر الظاهرة إجمالاً.

وبطبيعة الحال فإن كل جهد كبير يحتمل الملاحظات، وقد لا أجدنى متفقًا مع ناقدنا الكبير فى مسألة أو أخرى، كقوله إن رواية «لصوص متقاعدون» لحمدى أبو جليل هى: «حى عشوائى، وشخصيات ورقية، ونص لا يخلو من طرافة» هذا لأنه رغم شعورى بارتباك الرواية، فإن ثمة شعورًا آخر أقوى يطغى بقدرات الكاتب وإن لم تبلغ مداها فى تجربته الأولى. لكن هل تمنع الملاحظات الصغيرة أن فاروق عبد القادر قد قدم لنا جهدًا عظيمًا من منظور شامل حافل بكل خبرته وثقافته العميقة؟

لناقدنا الكبير إذن تحية تقدير حقيقى، لما كتبه، ولصدقه، ولمنهجه، الذى نادرًا ما يرضى الجميع. لكن هذا هو فاروق عبد القادر، الذى نعتز به، قيمة إنسانية وأخلاقية ونقدية كبيرة فى حياتنا الثقافية.

أحمد الخميسى

احتفاء بهيكل

احتفلت على طريقتى الخاصة بعيد ميلاد أستاذنا الكبير محمد حسنين هيكل، وذلك بالحصول على آخر كتبه حيث كنت أمضيت السنوات الاثنتى عشرة الماضية ـ أى منذ كنت فى الرابعة عشرة من العمر ـ فى متابعة كل ما كتب ويكتب، فقرأت كتبه كافة ابتداء من «إيران فوق بركان» وحتى مقاله الأخير ـ فى انتظار ثورة ـ حيث كان الأستاذ رائعاً كعادته ـ أطال الله فى عمره ـ وإننى فى ذكرى ميلاده أتقدم لمجلتكم الحبيبة «وجهات نظر» باقتراح لكى تبدأ استعدادها المبكر للاحتفال بعيد ميلاده القادم وذلك بتخصيص مساحة كافية منها واعتبارًا من العدد القادم للحديث عن الأستاذ.. شخصيته وتاريخه ومؤلفاته ومقابلاته ومنهجه الفكرى والمهنى الذى ظل مخلصًا له.. أطال الله فى عمر الأستاذ وأمده بالصحة والعافية ومتعه ومتعنا بنعمة الكتابة والقراءة والتفكير وسط هذا البحر اللجى المتلاطم الأمواج من الجهل والتخلف والتكفير..

بهاء الدين غالب البشير
عمان / البنك العربى ص ب (٦٩٠٤)



وجهة نظر!

عندما طالعتنا «وجهات نظر» فى أعدادها الأولى تهافت عليها جمهور المثقفين وأهل الفكر والمشتغلين بالسياسة، لما كانت تقدمه من أبحاث ومقالات وعروض تتسم بالعمق والصدق ووضوح الرؤية، وتتعامل مع هموم أمتنا وقضاياها من منطلق قومى عربى، ولكن الأمر اختلف فى الآونة الأخيرة حيث اتخذت المجلة منحى آخر وكادت تحصر موادها فى التاريخ والأدب والفن بدلاً من السياسة والثقافة والفكر إلا النزر اليسير.

فعلى سبيل المثال جاء فى العدد الرابع والأربعين لشهر أيلول سنة ٢٠٠٢ ما لا يقل عن ٨٠٪ من مواد المجلة تتحدث فى التاريخ وبعض العروض الأخرى التى لا تمت لأوضاعنا الراهنة بأية صلة، حتى مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل ركز على الجانب التاريخى فى الوقت الذى تواجه فيه أمتنا هجمات شرسة تهدد وجودها.

فى فلسطين، احتلال وهدم وتقتيل وتهجير وتهويد، فى العراق، تهديد بعدوان واحتلال ووقف عجلة النمو لحماية أمن إسرائيل من جهة وللهيمنة المباشرة على منابع النفط من جهة أخرى، فى السودان، زرع بذور الفتنة بين أبنائه ودعم الفصائل المتمردة بالمال والسلاح والعمل على تجزئته وإيجاد نظام انفصالى فى الجنوب يتحكم بمياه النيل ووضع حياة الشعب العربى فى مصر فى موقع حرج. وغير ذلك الكثير فى بؤر التآمر الغربى على هذه الأمة، ناهيك عن مأزقنا الداخلى الذى تعكسه القطيعة بين الأنظمة الحاكمة والشعوب مما يعطل آليات النمو وبالتالى الضياع ومن ثم التخلف.

ونقول لا بأس من مراجعة بعض فصول التاريخ، ولكن فى سياق محسوب يراعى الظروف التى تمر بها الأمة ضمن أجندة واضحة تتفاعل مع المعطيات.

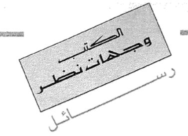
إن الإنسان العربى يا سيدى يقف هذه الأيام مشدوهًا أمام حركة التاريخ المتسارعة المليئة بالانتكاسات والتى تعبث بمقدرات وطنه، يقف مفتشًا عن وسائل تسهل له فهم ما يدور من حوله فى خبايا الدوائر السياسية وصناع القرار من استراتيجيات وأهداف تعكسها حالة الاستفراد بالقوة والغطرسة الدولية والتى تهدد وجود الأمم المستضعفة ونحن فى مقدمتها بسبب اختلاف الحضارات.

د. خليل حمدى
علوم سياسية ـ الأردن



لغة حية وقادرة

أود أن أحييكم على نشر مقال نبيل على «الصفر والواحد» فى عدد سبتمبر الماضى.. إن نبيل على يواصل فيه جهده التأسيسى فى استكشاف الأسس النظرية لعصر المعلومات. فيرينا كيف تطيح النقلة المعرفية الجديدة بأغلب الثنائيات



التى درجنا على التفكير طبقًا لها (النظرى والتطبيقى، الذاتى والموضوعى، الشكل والمضمون، الوعى واللاوعى إلخ)، وتغلب عليها ثنائية جديدة، وهو تطور خطير يقلب كثيرًا من المواضعات فى الفكر والأخلاق والسياسة والإبداع، وهو على الأقل مسئول عن مولد «الرقمنة»، أى تحويل أى معلومة إلى مقابل رقمى.

لكن أهم ما فى عمل نبيل على هو اللغة التى يستخدمها، فهى سلسلة بسيطة قريبة من فهم الشخص المتعلم، إنها لغة العالم (بكسر اللام) الحقة، فأكثر الموضوعات تعقيدًا يمكن عرضها ببساطة تامة، بشرط أساسى أن يكون الكاتب هاضمًا لموضوعه وتسيطر عليه إلى درجة الهوس رغبة حارقة فى التوصيل فضلاً عن امتلاكه ناصية اللغة، وهذه «الناصية» ليست القدرة على اللعب بالمفردات المهجورة وإنما القدرة على التوصيل بالمفردات الشائعة، وفى نفس الوقت الجرأة على نحت مفردات جديدة يمكن بها التعبير بدقة عما يجد من علم. («واقع خائلى» الدقيقة المولدة بطريقة علمية بدلاً من «الواقع الافتراضى» غير المحددة والفضفاضة).

مرة أخرى أثبت نبيل على أن اللغة العربية حية وقادرة على مواكبة الجديد، وهو الأمر الذى يحتل مركز الصدارة فى عمله.

صنع الله إبراهيم



يهودى وصهيونى

قرأت مثل غيرى من إخوانى الحريصين على قراءة الدورية كلمة الأستاذ/ أيمن الصياد كمقدمة عن موضوعين: الأول لنعوم تشومسكى الأستاذ بمعهد (MIT) الأول بالفعل يهودى وهو ما يتضح جدًا فى مقاله، فالرجل لا يخفى يهوديته ولا تمنعه من قول الحق والمتابع لأعمال تشومك يرى أنه يعتبر من أعلى الأصوات الأكاديمية اليهودية اليسارية (الليبرالية) فى الولايات المتحدة، ودائمًا ما تحاول الميديا تجاهله ولكن الرجل معروفة مكانته العلمية وجاديته العلمية، فدائمًا ما يصل كلامه للناس وتعتبره الإدارات الأمريكية من أخطر عشرة كتاب وأكثر الكتاب انتقادًا لسلوك الإدارات الخارجية فى العالم كله منذ فيتنام/ البوسنة/ نيكاراجوا/ بنما/ جمهوريات أمريكا اللاتينية...

أما الآخر «برنارد لويس» فهو ينتمى للتيار المسيحى الصهيونى الحاكم حاليًا فى الولايات المتحدة وتدعمه الميديا الصهيونية المسيحية، فالرجل ليس مجرد أستاذ تاريخ الشرق الأدنى وإنما هو عميد الدراسات الأوسطية فى العالم وهو ضيف دائم على المحطات الصهيونية التى يملكها أشخاص مثل (بات ربرتسون/ جيرى فالويل/ بيلى جراهام، والرجل لا يخفى صهيونيته، بل نجد أنه يبدأ مقالاته ببعض آيات من التوراة، ودائمًا ما يحاول أن يخفى سمومه التاريخية معتمدًا على القيمة العلمية له فى مستوى العالم الغربى على الأقل، فمثلاً المقال الذى نشرته لنا «وجهات نظر» مثل موضوع الأكل بالأصابع يوضح لنا أننا مازلنا بدائيين نأكل بأصابعنا وأيدينا مما يوحى بالقذارة، بل ويصل الأمر إلى التحقير من شأن المسيحيين الشرقيين فى قوله (يكاد الدير يظهر فى الشعر القديم فى اللغة العربية والفارسية على أنه حانة وكما هو معروف أن الفارسية وريثتها الشرعية هى إيران التى تظهر فى الأدبيات الصهيونية أنها منبع الإرهاب الإسلامى الأصولى ليوضح للقارئ الغربى أن الشرق الأوسط الذى يسكنه المسلمون والعرب هو منبع الإرهاب..

وثانى هذه المغالطات التاريخية هو ربطه بين الفتوحات الإسلامية وبين الأكل كان الإسلام والمسلمون جماعات من آكلى لحوم البشر أو أننا متخلفون لا هم لنا سوى الغزو من أجل الأكل..

ثالث هذه الافتراءات على الإسلام والمسلمين هو إيهام القارئ الغربى أن الشرق الأوسط ومن يسكنه من العرب والمسلمين هم مجرد حشاشين بقوله (هو موطن الحشيش)..

وفى العصر الحديث موضوع المائدة التى تحدث عنها السفير العثمانى فى أوروبا فى القرن الـ ١٩ ويسخر لويس قائلاً: (لا أدرى عن أى الموائد رأى) ليوضح لنا أننا قوم لا نحترم النساء بل إننا لا نجعل النساء يأكلون إلا بعد أن يأكل الرجل ويعطفون على النساء بالفتات من أكلهم.. بالله عليك أليس هؤلاء المسلمون جماعة من المتخلفين..

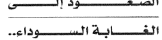
العيب أو الخطأ ليس فى لويس أو غيره ولكن الخطأ فينا نحن، فنحن لسنا ملائكة ولسنا أيضًا شياطين، ولكننا تأخرنا عن الحضارة بما يزيد على ٢٥٠ سنة حتى صار لويس وغيره هم مراجع العلم بعدما كان (الرازى/ ابن خلدون/ ابن رشد) ولأننا قد ابتعدنا عن الإسلام والقرآن فقد تخلفنا عن الحضارة المعاصرة بما يزيد على ٢٥٠ سنة..

وخير النصائح لحالة المسلمين الحالية قول الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ صدق الله العظيم. فمتى بالله عليك هذا التغير؟؟

أحمد أبو زيد
علوم سياسية
جامعة أسيوط



نون



الصعـــود إلـــى الغـابـة الســوداء..

■ يبـدأ الصـعـود إلى الجـبل من أطراف المدينة.. تقل الحـركـة ثم تنقطع، وتخـفت الأصوات ثم تغيب، وتتباعد المسافات بين البـيـوت والأمكنة والأزمنة. تزداد كـثـافـة الخضرة والأشجار. ويتغير طعم الهواء ولون الضوء. وتنتشر شعاعات غامضة من الشـمس، تتـلاعب بالظلال والأطيـاف.. يتـعـرج الطريق الضيق بغـيـر نهـاية. فـلا يكشف عن منحنياته غير تعرجات مفاجئة، تتـبـاين عندهـا درجـات الظلال. تلف بين أعطافهـا قـامـات متـسامقة لأشجار ترتفع هاماتها إلى عنان السماء، وأخرى اقتربت من الأرض أو تسلقت والتفت على سيقان غيرها من الأشجار جوعًا وطمعًا.. تخفى بين أغصانها أشباحًا متلفعة بأردية رمادية أو سوداء. تتابعك وتتلصص عليك. ترمقك من بعيد وهي ترقب كل حركة وسكنة.. كل خطوة في طريق الصـعـود مـحـسـوبة ومقدرة. تنقلك من حالة إلى حالة. وتدلف بك إلى قلب الغابة السوداء، حيث تمتزج الألوان فيها بين الأصفر الفاقع، والأزرق السـاطع، والأخـضـر الذي يضـرب إلى السواد، ثم سرعان ما تهب دفقة مفاجئة من رياح خفيفة، تعبث بالأغصان، وتدغدغ الأشجار، فتعيد توزيع الأضواء والألوان ببراعة فائقة في لوحات سيريالية، تزيح الستار عن مفاتن الجمال وسحر الكون.. وتقدم إليك مقعدًا مجانيًا في مسرح الطبيعة!



لا يكتمل الصعود إلى الجبل بغير نداء داخلي مُلح وجهد جسدي منظم. تلتقي في حركته وثبات العقل واحتياجات الجسد وتعطش الوجدان.. خطوات الارتقاء من مسـتوى أدنى إلى مسـتوى أعلى، تشي بالعناء والتحدي. وتستدعي طاقة جسدية واستنفارًا عضليًا، قلما يلجأ إليه الإنسان.. فإذا الأنفاس قد انتظمت في إيقاع متتابع، وإذا طريق الصعود بعد وهلة قصيرة قد انفتح أمامك، وإذا انطلاقة العقل وصفاء الروح قد بعثت فيك حيوية غائبة ونشاطًا مفقودًا، تستغني فيها بنفسك عن نفسك.. عن كل العلاقات والمشاعر والمواقف التي تربطك بالآخرين. وتحيطك العزلة بستار من الشفافية والتجرد..

أنت وحـدك في الغـابة ترتقي الطريق صعـودًا إلى قـمـة الجـبل. لا تصـادف في الطريق بين الحـين والحـين غـيـر أطيـاف عابرة وشخوص مثل الرسوم المتحركة.. تفقد ملامحها من الذاكرة بمجرد مرورها العـابر السـريع. فكل واحـد يمـضـي في طريقـه مكتـفـيًا بذاته، لا يلوي على شيء، ولا يهمـه أن يدرك من الكائنات المحيطة به غير الغابة بأشجارها وظلالها وحيواناتها وطيورها. بعضـهم يتوكـأ على عصـا مدببة يتـجـاوز بها نتوءات الصـخـور والتفافات الطريق. والبعض الآخر يتوكأ على نفسـه. ولكن الغـابة السـوداء تبـتلع الجـمـيـع في أنحائها المترامية، فلا يرى أحدهم شيئًا غير عـالم جـديد من صنعـه، شكلتـه الخـيـالات والرؤى والأحلام!



عند كل مـرحلة من مـراحل الصـعـود تسـتقر دكة خشبية مثبتة في مكانها من الأرض، أو ينهض كوخ خشبي عتيد فوق صـخـرة ثابتة، يلتقط السائر عندها أنفاسه لكي يعـاود رحلة المشي والصـعـود من جديد، أو يحتمي من زخات المطر المفاجئة التي لا تحتملها المظلة الواقية من المطر، أو يتملى من موقع استراتيجي كاشف لجمال الطبيعة، يتأمل صفوف الأشجار المتراصة على مسـافـات قـريبـة بغير ترتيب مسبق ولكن طبقًا لنظام محكم. هنا تبدو قوانين الطبيعة ناطقة بنوع من الفوضى المنظمة أو النظام الذي لا يخلو من فـوضى.. تبـدو الغابة في تناسقها وتلقائيتها وخضوعها لقوانين الطبيعة، صورة مقابلة ولكنها على النقيض من أي تجمع عمـراني في الوادي صنعتـه يد الإنسان.. هنا تسـقط الحـواجز بين الإنسـان والطبـيـعـة، ويخـتـفـي ذلك السياج المصطنع الذي يفصل الإنسان عن بيئته. تتحول الأشجار إلى كائنات آدمية، تتـلاغى وتتـحـاور، وتتـصـادم وتأتلف. ويتـحـول الإنسـان إلى كـائن نبـاتي أو حيواني من بين آلاف الكائنات والمخلوقات التي تسكن الغابة.



أنت وحـدك فيّ هذه الغابة ولكنك لست وحـدك.. يلفك الصـمت والسكون من كل اتجاه. ولكنك تصـغي إلى همـهـمة غـامـضـة بعـيدة. تتـسلل إلى كـيـانك عـبـر الحـواس الخـمس، بل ربمـا عـبـر نوع من الحـدس الخفي الذي يتجاوز إدراك الحواس. يخيل إليك أنك تفـهم لغـة الطيـور وهي تتناجى، وصـرير الحشـرات وهي تدب تحت الأرض أو فـوق أوراق الشـجـر. وقـد تصل إلى سـمـعك أصـوات التـحـذير وإشـارات الإنذار المبكر ترسلهـا مـئـات المخلوقات من سكان الغـابة: أن احـذروا ظهـور الوحش الأكـبـر عـبـر طرقـات الجـبل ومنحنيـاته. وفي لحظات تصـبـح جـزءًا من كل. تندمج بجسدك وحواسك وتفكيرك فيما حولك. تصـبح حلقـة من سلسلة واحدة تضـعك جنبًا إلى جنب مع سائر الكائنات. تموت بداخلك نزعة الاستعلاء البشري، ويختفي الزهـو والشـعـور بالكـبـر إزاء المخلوقـات الأخـرى. وتطل عليك رءوس الأشـجـار الضخمة مستهينة غير عابئة. ويتولد لديك إحساس بالخوف والرهبة والخشوع أمام قوى كونية غـامضـة لا تملك لها ردًا.. أنت تعود إلى أحضان الطبيعة مبرأ من الأدران والشـوائب. مطلق السـراح من القـيـود والعـلائق. تجـوس بخـيـالك في ممالك بعيدة، تستعيد معها ما اندثر من ذكريات وتجارب.



الجبل طبقات فـوق طبقات. والغابة تجـثم بكلكلهـا على أنفـاسـه بأشـجـارهـا الهـائلة. مـئـات الألوف منهـا بل ربما الملايين.. توطد أركـانه، وتثـبت أطرافـه، وتعصمه من الانهيار والزوال. تضـرب بجـذورهـا إلى أعـمـاق بعـيـدة في باطنه، تغذيه بعصاراتها وتستمد منه حياتها. وتغطيه في فصول الشتاء بطبقة كثيفة من أوراقها الخريفية المتساقطة، لتصنع منها مـلاءة سـمـيكة تفـتـرش الأرض وتحـتفظ بالرطوبة عند درجـات ثابتة. فـلا يمـضـي وقت طويل حتى يبزغ العشب، ويتـخلق الفطر، وتنمـو الزهـور والنبـاتـات البـرية وعش الغراب بألوان وأشكال لا حصر لها ولا عد.. لوحـات مرسومة بيد الطبيعة إثر لوحات. وكـان ثمة تحـالفًا وثيقًا غير معلن يجـمع بين الأضـداد: بين الجـبل والغـابة، بين الصـخـرة والشـجـرة، بين الحـجـر والبـشـر، بين السـاكن والمتـحـرك، بين النبات والحيوان والجماد.



لم أكن قد قطعت من الطريق بين سفح الجبل وقمته غير ما يقرب من ثلثه أو أقل. فـالزمن يكاد يتـوقف. والمسـافـات يصـعب قياسها إلا بعلامات وأسهم مرقومة على جـذوع الشـجـر، تحـمل أسـمـاء ورمـوزًا مـحـفـورة.. هل هي لشـعـوب وأقـوام مـرت من هنا؟ أم كتبتها مخلوقات غريبة تسكن الغـابة؟ هل هي أطلال حـضـارة غـاربة أم بداية نشوء كوني في بدء الخليقة؟ هل هو عالم مسحور من صنع الخيال أم مشاهد تخيلية وهمية على شـاشـة الكمبيوتر؟ ولكنك تسـتطيع أن تواصل السـيـر في مـسـالك الغـابة، وأن تمد يديك فـتـمـسك الأغصان وتحتضن الأشجار. تستطيع أن تنطلق وتجري وتقفز في الهواء.. تستعيد طفولتك وبراءتك، فلا شيء يحـاصـرك أو يضيق الخناق عليك..

عند منعطف في الطريق تطالعك لافتة صـغيرة معلقة بجذع شجرة. تقرأ عليها بخط صغير واضح «مدينة المسرات». تتبع السـهم الذي أمـامك، فـإذا أنت في طريق متعرج ضيق لا يسمح إلا لشخص بمفرده أن يسير فيه. تناوشك شجيرات صغيرة من كل جانب، بعضـهـا يداعبك في رقـة وعذوبة. وبعضها الآخر يحذرك بأشواكه وأوراقـه المدببـة من الاقـتـراب أو اللمس. وفـجـأة وبدون مقـدمات تجد نفسك أمام منطقة مكشوفة واسعة خلت من الأشجار. يغطيها العشب وتغمرها أشعة الشمس الصفراء إيذانًا بالرحيل والإياب. تحيط بها أشجار عالية إحاطة السوار بالمعصم.

لا تحـتـاج «مدينة المسرات» إلى تذكرة للدخـول ولا إذن بالاقـتـراب. فـقـد تناثرت المقاعد والمناضد الخشبية في أرجائها وما عليك إلا أن تختار. وتحولت جذوع الشجر فيـهـا إلى بيوت صغيرة أو أكواخ بدائية مغطاة بالأغصان. يأوي إليها العشاق أو يتـجـمع فـيـهـا أفـراد الأسـرة والأصـدقـاء للطعام والشراب. وغير بعيد في ركن من الساحة تجمعت ألعاب للصغار والكبار. ليس كل مكان في الغـابة يصـلح للهـو واللعب. ولا كل سـاعـة من سـاعـات الليل والنهـار تصلح للهـدوء والتـأمل والعزلة. فللغـابة قانونها الذي يبسط سلطانه على الكائنات المحتمية بها.

أوشك الليل أن يرخي سدوله. وبقيت شـعـاعـات من شمس غـاربة تسـابق عتـمة الغـروب. ومـا بين الصـعـود إلى «مـدينة المسـرات» والهـبوط منهـا توشك مـعـالم الجبل وأشباح الغابة أن تحتويها الظلام.. ولكنك تستطيع أن تتبين بصعوبة صخرة تعترض طريقك حُفرت عليهـا عبـارات موحية:

الإغـراق في المرح طول الوقت خطر عليك..

والإغـراق في الأحـزان طول الوقت ينأى بالأصدقاء عنك..

والإغـراق في السـعـادة طول الوقت ضرب من المستحيل..

فليكن لكل حال ما يناسبها!!

سلامة أحمد سلامة







Mobile Banking

بنك فى متناول يديك على مدار اليوم



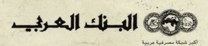
فى إطار سعيه الدائم لتقديم أفضل الخدمات المصرفية، يسر البنك العربى أن يقدم لعملائه خدمة البنك المحمول التى تنفرد باحتوائها على قائمة تشغيل مباشرة تتيح للمستخدم، من خلال الضغط على أزرار التليفون المحمول، إمكانية إجراء مجموعة هائلة من العمليات البنكية المتكاملة فى أى وقت ومن أى مكان.

- الإستفسار عن أرصدة حساباتك .
- طلب كشف حساب .
- الإبلاغ عن فقدان البطاقات الإئتمانية .
- الإبلاغ عن فقدان بطاقة الصراف الآلى .
- إجراء التحويلات بين حساباتك .
- الإستفسار عن آخر المعاملات التى تمت على الحساب .
- إعلامك لحظياً أينما كنت بالمعاملات التى تنفذ على حسابك .
- إصدار أوامرك للبنك لوقف صرف الشيكات المفقودة .

Checkmate Adv.

تمتع بمجانية الإشتراك بهذه الخدمة
من الآن ولمدة ستة أشهر





لمزيد من المعلومات برجاء الإتصال بتليفون ٨٨٨ ٩٤ ٣٠.
أو برقم ٨٨٨ من أى محمول ڤودافون